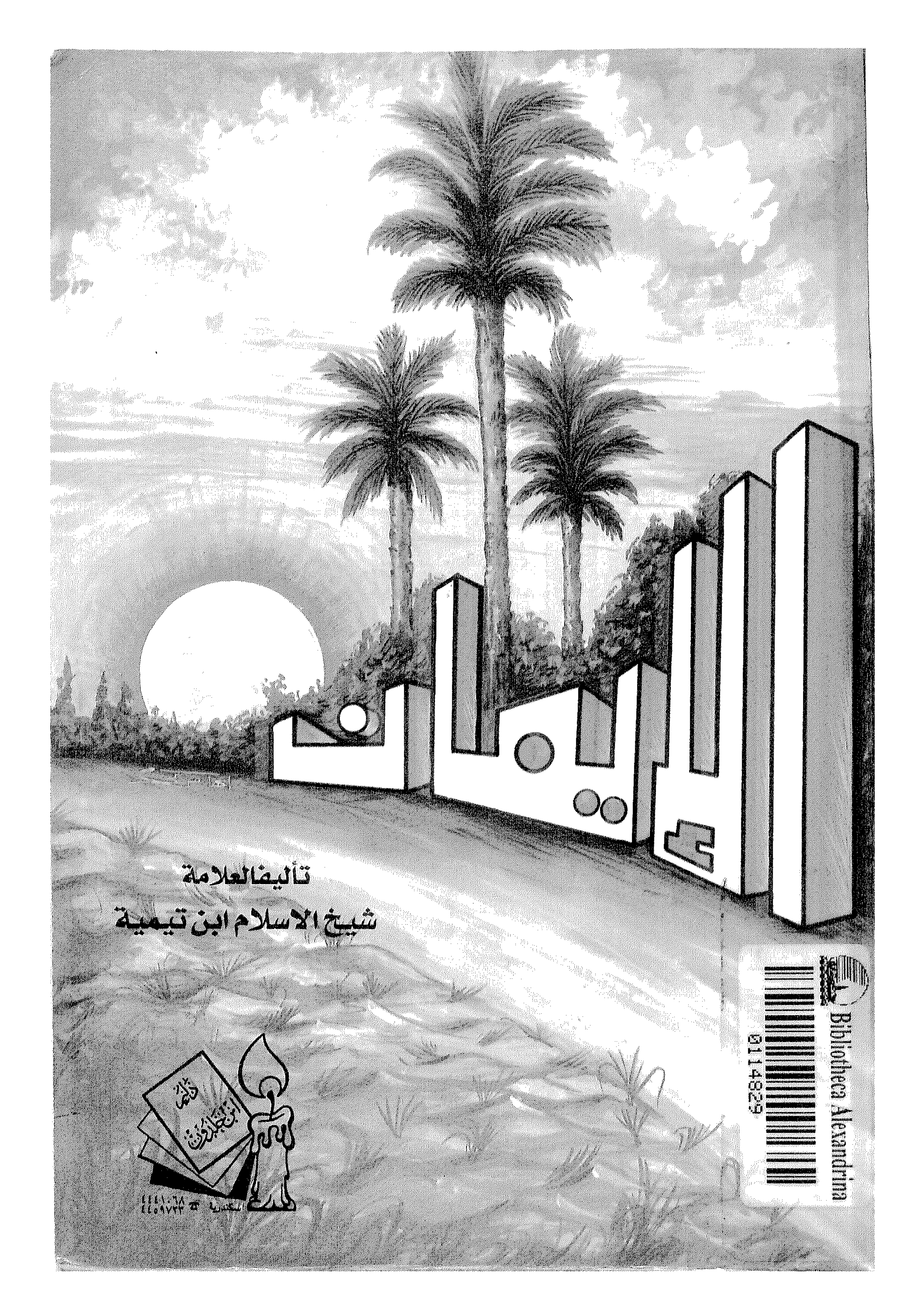

الإيمان
تأليف العلامة
شيخ الاسلام ابن تيمية
Bibliotheca Alexandrina
0114829

كتاب الإيمان

تأليف

العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية
رحمه الله تعالى

علق عليها وصححها
جماعة من العلماء بإشراف الناشر



تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وبعد:

قال تعالى في كتابه العزيز:

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضىٰ لهم وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمناً. يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾.

فالايمان هو الأصل الثابت الذي يندرج تحته كل عمل المؤمن، وبنقائه وصفائه يعلو صاحبه في جنات النعيم.

وتفخر دار الكتب العلمية أن تقدم هذا الكتاب للإمام ابن تيمية. استمراراً منها في أداء رسالتها بنشر كل ما يفيد هذه الأمة وما يقربها من دينها ويبعدها عن الكفر ومزالقه، وعن الضلال وشروره. ويرتفع بها إلى أعلىٰ المراتب، وأسمى الدرجات، حتى تكون انموذجاً يقتدى به بين الامم، ومثلاً أعلىٰ للبشرية جمعاء.

هذا وقد قمنا بخدمة هذا الكتاب بما تيسر لنا من جهد ونسأل الله تعالىٰ أن يثيبنا على عملنا هذا، وان يجعله خالصاً لوجهه الكريم. والله يهدي سواء السبيل.

وآخر دعوانا إن الحمد لله رب العالمين.

ترجمة المؤلف

هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر النميري الحراني الدمشقي الحنبلي - أبو العباس - تقي الدين ابن تيمية. الامام، شيخ الاسلام.

ولد في حران (بين دجلة والفرات) سنة: (٦٦١ هـ - ١٢٦٣ م) وتحول به أبوه إلى دمشق، فنبغ واشتهر. وطُلب إلى مصر من أجل فتوى افتى بها، فقصدها، فتعصب عليه جاعة من أهلها فسجن مدة، ونقل إلى الاسكندرية، ثم أطلق. وسافر إلى دمشق سنة (٧١٢ هـ) واعتقل بها سنة (٧٢٠ هـ) واطلق ثم اعيد، ومات معتقلاً بقلعة دمشق سنة (٧٢٨ هـ - ١٣٢٨ م) وخرجت دمشق كلها في جنازته.

كان ابن تيمية كثير البحث في فنون الحكمة، داعية اصلاح في الدين، آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان، افتى ودرس وهو دون العشرين. تصانيفه كثيرة نذكر منها:

١ - الجوامع. في السياسة الالهية والآيات النبوية.
٢ - السياسة الشرعية.
٣ - الفتاوي. خمس مجلدات.
٤ - الجمع بين النقل والعقل.
٥ - الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان.
٦ - الواسطة بين الحق والخلق.
٧ - رفع الملام عن الأئمة الاعلام.

٨ ـ الاستغاثة. ويعرف بالرد على البكري.

٩ ـ الرد على الاخنائي.

١٠ ـ شرح العقيدة الاصفهانية.

١١ ـ القواعد النورانية الفقهية.

١٢ ـ مجموعة الرسائل والمسائل، خمسة أجزاء.

١٣ ـ السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية.

١٤ ـ التوسل والوسيلة.

١٥ ـ نقض المنطق.

١٦ ـ الايمان. وهو موضوع كتابنا هذا.

وللشيخ مرعي الحنبلي كتاب «الكواكب الدرية» في مناقبه، ومثله لسراج الدين عمر بن علي بن موسى البزار[١].

---

(١) انظر: فوات الوفيات [١:٣٥ ـ ٤٥].
البداية والنهاية [١٤: ١٣٥].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. ومن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما.

اعلم أن الإيمان والإسلام يجتمع فيهما الدين كله[1]، وقد كثر كلام الناس في حقيقة الإيمان والإسلام ونزاعهم واضطرابهم، وقد صنفت في ذلك مجلدات، والنزاع في ذلك من حين خرجت الخوارج[2] وبين عامة الطوائف، ونحن نذكر ما يستفاد من كلام النبي ﷺ مع كلام الله تعالى فيصل المؤمن إلى ذلك من نفس كلام الله ورسوله، فإن هذا هو المقصود، فلا نذكر اختلاف الناس ابتداء، بل نذكر من ذلك في ضمن بيان ما يستفاد من كلام الله ورسوله ما يبين أن رد موارد النزاع إلى الله وإلى الرسول خير وأحسن تأويلا، وأحسن عاقبة في الدنيا والآخرة.

فنقول: قد فرق النبي ﷺ في حديث جبريل عليه السلام بين مسمى الإسلام ومسمى الإيمان ومسمى الإحسان فقال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً».

وقال «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن

---

(١) لان الدين عقيدة (ترجع إلى الايمان) وعمل (يدخل في الاسلام).

(٢) وهم من قالوا بأن مرتكب الكبيرة كافر.

بالقدر خيره وشره»[1] والفرق مذكور في حديث عمر الذي انفرد به مسلم، وفي حديث أبي هريرة الذي اتفق البخاري ومسلم عليه. وكلاهما فيه أن جبرائيل جاءه في صورة إنسان أعرابي فسأله، وفي حديث عمر أنه جاء في صورة أعرابي. وكذلك فسر الإسلام في حديث ابن عمر المشهور قال «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان»[2].

تفريق النبي ﷺ بين الإسلام والإيمان

وحديث جبريل يبين أن الإسلام المبني على خمس هو الإسلام نفسه. ليس المبني، غير المبني عليه[3]. بل جعل النبي ﷺ الدين ثلاث درجات: أعلاها الإحسان، وأوسطها الإيمان، ويليه الإسلام. فكل محسن: مؤمن، وكل مؤمن: مسلم، وليس كل مؤمن محسناً، ولا كل مسلم مؤمناً كما سيأتي بيانه إن شاء الله في سائر الأحاديث، كالحديث الذي رواه حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة عن رجل من أهل الشام عن أبيه عن النبي ﷺ قال له «أسلمْ تسلم». قال: وما الإسلام؟ قال: «أن تسلم قلبك لله، وأن يسلَمَ المسلمون من لسانك ويدك». قال: فأي الإسلام أفضل؟ قال «الإيمان». قال: وما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت». قال: فأي الإيمان أفضل؟ قال: «الهجرة». قال: وما الهجرة؟ قال: «أن تهجر السوء» قال: فأي الهجرة أفضل؟ قال: «الجهاد». قال: وما الجهاد؟ قال: «أن تجاهد أو تقاتل الكفار إذا لقيتهم ولا تغلل[4] ولا تجبن».

ثم قال رسول الله ﷺ «عملان هما أفضل الأعمال إلا من عمل بمثلهما. قالها

---

(١) اخرجه البخاري ومسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) اي ان هذه الخمس هي حقيقة الاسلام وجوهره.

(٤) الغلول: هو الخيانة في الغنيمة.

ثلاثا: حجة مبرورة أو عمرة» رواه أحمد ومحمد بن نصر المروزي[١].

ولهذا نذكر هذه المراتب الأربعة فنقول: المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم، والمهاجر من هجر السيئات، والمجاهد من جاهد نفسه لله[٢] وهذا مروي عن النبي ﷺ من حديث عبد الله بن عمر وفضالة بن عبيد وغيرهما بإسناد جيد وهو في السنن، وبعضه في الصحيحين.

بيان في علم معنى المؤمن والمسلم والمهاجر

وقد ثبت عنه من غير وجه «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم» ومعلوم أن من كان مأموناً على الدماء والأموال كان المسلمون يسلمون من لسانه ويده، ولولا سلامتهم منه لما ائتمنوه، وكذلك في حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عبسة.

وفي حديث عبد الله بن عبيد بن عمير أيضاً عن أبيه عن جده أنه قيل لرسول الله ﷺ ما الإسلام؟ قال «إطعام الطعام، وطيب الكلام» قيل: فما الإيمان؟ قال «السماحة والصبر» قيل: فمن أفضل المسلمين إسلاماً؟ قال «من سلم المسلمون من لسانه ويده» قيل: فمن أفضل المؤمنين إيماناً؟ قال «أحسنهم خلقاً» قيل: فما أفضل الهجرة؟ قال «من هجر ما حرم الله عليه» قال: أي الصلاة أفضل؟ قال «طول القنوت» قال: أي الصدقة أفضل؟ قال «جهد مقل» قال: أي الجهاد أفضل؟ قال «أن تجاهد بمالك ونفسك فيعقر جوادك ويراق دمك» قال: أي الساعات أفضل؟ قال «جوف الليل الغابر»[٣].

---

(١) هو في المسند (٤/١١٤).

(٢) المراد بالحديث ذكر كل من هذه الاربعة بما هو افضل خصاله، واعظم ثمراته. والحديث رواه الامام أحمد عن فضالة بسند صحيح.

(٣) اي الباقي وهو ثلثه. والحديث بنحوه في المسند (٤/٣٨٥) من حديث حوشب عن عمرو بن عبسة.

ومعلوم أن هذا كله مراتب بعضها فوق بعض، وإلا فالمهاجر لا بد أن يكون مؤمناً، وكذلك المجاهد، ولهذا قال «الإيمان السماحة والصبر» وقال في الإسلام «إطعام الطعام وطيب الكلام» والأول مستلزم للثاني، فإن من كان خلقه السماحة فعل هذا بخلاف الأول، فإن الإنسان قد يفعل ذلك تخلقاً ولا يكون في خلقه سماحة وصبر، وكذلك قال: «أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده» وقال: «أفضل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً». ومعلوم أن هذا يتضمن الأول. فمن كان حسن الخلق فعل ذلك.

كلام الحسن البصري في حسن الخلق

قيل للحسن البصري: ما حسن الخلق؟ قال: بذل الندى، وكف الأذى، وطلاقة الوجه. فكف الأذى جزء من حسن الخلق، وستأتي الأحاديث الصحيحة بأنه جعل الأعمال الظاهرة من الإيمان كقوله «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى[1] عن الطريق» وقوله لوفد عبد القيس «آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم».

ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الأعمال تكون إيماناً بالله بدون إيمان القلب لما قد أخبر في غير موضع أنه لا بد من إيمان القلب، فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الإيمان[2]، وفي المسند عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال «الإسلام علانية والإيمان في القلب»[3] وقال ﷺ «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب»[4] فمن صلح قلبه

---

(١) أي ازالته وتنحيته. والحديث اخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أي انها داخلة في مسمى الايمان العام.

(٣) اخرجه الامام أحمد (١٣٥,١٣٤/٣). واسناده ضعيف.

(٤) متفق عليه. من حديث النعمان بن بشير.

صلح جسده قطعاً بخلاف العكس.

وقال سفيان بن عيينة: كان العلماء فيما مضى يكتب بعضهم إلى بعض بهؤلاء الكلمات: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص.

فعلم أن القلب إذا صلح بالإيمان صلح الجسد بالإسلام وهو من الإيمان يدل على ذلك أنه قال في حديث جبريل «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم»[1] فجعل الدين هو الإسلام والإيمان والإحسان. فتبين أن ديننا يجمع الثلاثة، لكن هو درجات ثلاث: مسلم ثم مؤمن ثم محسن كما قال تعالى: ﴿ثم أورثْنَا الكتابَ الذينَ اصطفينا مِنْ عبادِنا، فمنهم ظالمٌ لنفسِهِ، ومنهم مقتصدٌ، ومنهم سابقٌ بالخيراتِ بإذنِ اللهِ﴾[2] والمقتصد والسابق كلاهما يدخلان الجنة بلا عقوبة بخلاف الظالم لنفسه، وهكذا من أتى بالإسلام الظاهر مع تصديق القلب، ولكن لم يقم بما يجب عليه من الإيمان الباطن فإنه معرض للوعيد، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وأما الإحسان فهو أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أصحابه من الإيمان، والإيمان أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أصحابه من الإسلام فالإحسان يدخل فيه الإيمان[3] والإيمان يدخل فيه الإسلام، والمحسنون أخص من المؤمنين، والمؤمنون أخص من المسلمين، وهذا كما يقال في الرسالة والنبوة، فالنبوة داخلة في الرسالة. والرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) سورة فاطر الآية ٣٢. والظالم لنفسه: هو الذي قصر في بعض الواجبات، أو ارتكب بعض المحرمات. والمقتصد: هو الذي اقتصر على فعل الواجبات وترك المحرمات. والسابق: هو الذي تقرب إلى الله بعد الفرائض بنوافل الطاعات وهجر المكروهات مع المحرمات.

(٣) يعني انه جزء من حقيقته.

فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، فالأنبياء أعم والنبوة نفسها جزء من الرسالة، فالرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف النبوة، فإنها لا تتناول الرسالة.

والنبي ﷺ فسر الإسلام والإيمان بما أجاب به كما يجاب عن المحدود بالحد[1] إذا قيل: ما كذا؟ قيل: كذا وكذا، كما في الحديث الصحيح لما قيل: ما الغيبة؟ قال «ذكرك أخاك بما يكره»[2] وفي الحديث الآخر «الكبر بطر الحق وغمط الناس»[3] وبطر الحق: جحده ودفعه. وغمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم، وسنذكر إن شاء الله تعالى سبب تنوع أجوبته وأنها كلها حق.

ولكن المقصود أن قوله «بني الإسلام على خمس» كقوله الإسلام هو الخمس، كما ذكر في حديث جبريل، فإن الأمر المركب من أجزاء تكون الهيئة الاجتماعية فيه مبنية على تلك الأجزاء ومركبة منها، فالإسلام مبني على هذه الأركان، وسنبين إن شاء الله اختصاص هذه الخمس بكونها هي الإسلام وعليها بني الإسلام، ولم خصت بذلك دون غيرها من الواجبات.

وقد فسر الإيمان في حديث وفد عبد القيس بما فسر به الإسلام هنا. لكنه لم يذكر فيه الحج وهو متفق عليه؛ فقال «آمركم بالإيمان بالله وحده، هل تدرون ما الإيمان بالله وحدة»؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم أو خمساً من المغنم».

وقد روى في بعض طرقه «الإيمان بالله وشهادة أن لا إله إلا الله» لكن الأول أشهر. وفي رواية أبي سعيد «آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً» وقد فسر في حديث شعب الإيمان بهذا وبغيره، فقال

---

(١) أي كما يجاب عن المعروف بذكر حده أي حقيقته.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

« الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[1].

وثبت عنه من وجوه متعددة أنه قال « الحياء شعبة من الإيمان » من حديث ابن عمر وابن مسعود وعمران بن حصين، وقال أيضاً « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالديه والناس أجمعين»[2] وقال « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[3] وقال « والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن »،قيل من يا رسول الله؟ قال « الذي لا يأمن جاره بوائقه »[4]. وقال: « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » وقال: « ما بعث الله من نبي إلا كان في أمته قوم يهتدون بهديه ويستنون بسنته، ثم إنه يخلف من بعدهم خلوف[5] يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » وهذا من أفراد مسلم.

وكذلك في أفراد مسلم قوله « والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا[6] أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا[7] السلام بينكم ».

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) وتمام الحديث: قيل وما بوائقه قال « شره وأذاه ».

(٥) جمع خلف. وهو من يخلف غيره ويجيء بعده ويكثر استعماله في خلف السوء. وخلف بفتحتين: يكثر الخير.

(٦) أي ان يحب بعضكم بعضاً والاصل« تتحابوا » حذفت احدى التاءين للتخفيف.

(٧) اذيعوا وانشروا.

الإيمان يذكر تارة مفرداً ويقرن تارة بالعمل الصالح

وقال في الحديث المتفق عليه من رواية ابي هريرة، ورواه البخاري من حديث ابن عباس، قال النبي ﷺ «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب النهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن»[١]

فيقال اسم الإيمان تارة يذكر مفرداً غير مقرون باسم الإسلام ولا باسم العمل الصالح ولا غيرهما، وتارة يذكر مقروناً إما بالإسلام كقوله في حديث جبريل: ما الإسلام وما الإيمان، وقوله تعالى ﴿إنَّ المسلمينَ والمسلماتِ والمؤمنينَ والمؤمناتِ﴾[٢] وقوله عز وجل: ﴿قالت الاعرابُ آمنّا قل لم تُؤمنوا ولكن قولوا أسْلَمْنَا﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿فأخرجنَا مَنْ كانَ فيها مِنَ المؤمنينَ. فما وجدنَا فيها غير بيتٍ مِنَ المسلمينَ﴾[٤] وكذلك ذكر الإيمان مع العمل الصالح، وذلك في مواضع من القرآن كقوله تعالى: ﴿إن الذَّينَ آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ﴾[٥].

وإما مقروناً بالذين أوتوا العلم كقوله تعالى: ﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان﴾[٦] وقوله ﴿يرفعِ اللهُ الذينَ آمنوا منكُمْ والذَّينَ أوتوا العلمَ درجاتٍ﴾[٧] وحيث ذكر الذين آمنوا فقد دخل فيهم الذين أوتوا العلم فإنهم خيارهم، قال تعالى: ﴿والرَّاسخونَ في العلمِ يقولونَ آمنَّا بهِ كلٌّ مِنْ عِندِ ربِّنا﴾ وقال: ﴿لكِنِ الرَّاسخونَ في العلمِ منهُم والمؤمنونَ يؤمنون بما أنزِلَ إليكَ وما أنزِلَ مِنْ قبلِكَ﴾.

---

(١) قيل معناه ان الايمان يرتفع من قلبه، ويكون فوق رأسه مثل الظلة.

(٢) سورة الاحزاب الآية ٣٥.

(٣) سورة الحجرات الآية ١٤.

(٤) سورة الذاريات الآية ٣٥ - ٣٦

(٥) سورة البقرة الآية ٢٧٧.

(٦) سورة الروم الآية ٥٦.

(٧) سورة المجادلة الآية ١١.

في أن الأعمال إن نفي الإيمان عند عدمها كانت واجبة وإلا كانت مستحبة

ويذكر أيضاً لفظ المؤمنين مقروناً بالذين هادوا والنصارى والصابئين، ثم يقول: ﴿مَنْ آمنَ مِنهم باللهِ واليومِ الآخرِ وعملَ صالحاً فلهُمْ أجرُهُمْ عِندَ ربِّهم﴾ فالمؤمنون في ابتداء الخطاب غير الثلاثة، والإيمان الآخر عمهم كما عمهم في قوله ﴿إنَّ الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ أولئكَ هُمْ خيرُ البرية﴾ وسنبسط هذا إن شاء الله تعالى.

فالمقصود هنا العموم والخصوص بالنسبة إلى ما في الباطن والظاهر من الإيمان، وأما العموم بالنسبة إلى الملل فتلك مسئلة أخرى. فلما ذكر الإيمان مع الإسلام جعل الإسلام هو الأعمال الظاهرة: الشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج، وجعل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهكذا في الحديث الذي رواه أحمد عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال « الإسلام علانية والإيمان في القلب ».

وإذا ذكر اسم الإيمان مجرداً دخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة. كقوله في حديث الشعب « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » وكذلك سائر الأحاديث التي يجعل فيها أعمال البر من الإيمان.

ثم إن نفي الإيمان عند عدمها دل على أنها واجبة. وإن ذكر فضل إيمان صاحبها ولم ينف إيمانه على أنها مستحبة[1]. فإن الله ورسوله لا ينفى اسم مسمى أمر أمرَ الله به ورسوله إلا إذا ترك بعض واجباته. كقوله « لا صلاة إلا بأم القرآن » وقوله « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له » ونحو ذلك.

فأما إذا كان الفعل مستحباً في العبادة لم ينفها لانتفاء المستحب، فإن هذا لو جاز

---

(١) وهذه قاعدة في التمييز بين الواجب والمستحب فالاول يجوز نفي الشيء بانتفائه بخلاف الثاني.

لجاز أن ينفي عن جمهور المؤمنين اسم الإيمان والصلاة والزكاة والحج، لأنه ما من عمل إلا وغيره أفضل منه، وليس أحد يفعل أفعال البر مثل ما فعلها النبي ﷺ بل ولا أبو بكر ولا عمر. فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفيها عنه لجاز أن ينفي عن جمهور المسلمين من الأولين والآخرين، وهذا لا يقوله عاقل.

فمن قال إن النفي هو الكمال ـ فإن أراد أنه نفى الكمال الذي يذم تاركه ويتعرض للعقوبة فقد صدق، وإن أراد أنه نفى الكمال المستحب فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله[1]، ولا يجوز أن يقع، فإن من فعل الواجب كما وجب عليه ولم ينتقص من واجبه شيئاً لم يجز أن يقال ما فعلته لا حقيقة ولا مجازاً، فإذا قال للأعرابي المسيء في صلاته «ارجع فصلّ فإنك لم تصلّ» وقال لمن صلى خلف الصف وقد أمره بالإعادة «لا صلاة لفذ خلف الصف» كان لترك واجب، وكذلك قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنونَ الذّينَ آمنوا باللهِ ورسولِهِ ثمّ لم يرتابوا وجاهَدُوا بأموالهم وأنفسِهم في سبيلِ اللهِ أولئكَ هم الصّادقونَ﴾[2] يبين أن الجهاد واجب وترك الارتياب واجب والجهاد وإن كان فرضاً على الكفاية[3] فجميع المؤمنين يخاطبون به ابتداءاً فعليهم كلهم اعتقاد وجوبه والعزم على فعله إذا تعين، ولهذا قال النبي ﷺ «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة نفاق» رواه مسلم، فأخبر أنه من لم يهم به كان على شعبة نفاق.

بيان قوله تعالى (أولئك هم المؤمنون حقاً) بعد ذكر الأعمال الخمسة

وأيضاً فالجهاد جنس تحته أنواع متعددة[4]، ولا بد أن يجب على المؤمن نوع من أنواعه، وكذلك قوله: ﴿إنّما المؤمنونَ الذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهمْ وإذا تُليتْ عَلَيهم آياتُهُ زادتهم إيماناً وعلى ربِّهم يتوكلونَ. الذّين يقيمونَ الصلاةَ

(١) أي انه لم يقع في كلامهما نفي عمل من عامله لتقصير في بعض مستحباته.

(٢) سورة الحجرات الآية ١٥.

(٣) أي إذا قام به البعض سقط الحرج عن بقيتهم، وإن لم يقم به احد أثموا جميعاً.

(٤) كالجهاد بالنفس والجهاد بالمال ونحو ذلك.

ومما رزقناهم ينفقونَ أولئكَ هم المؤمنونَ حقاً﴾[1] هذا كله واجب، فإن التوكل على الله واجب من أعظم الواجبات، كما أن الإخلاص لله واجب، وحب الله ورسوله واجب. وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، ونهى عن التوكل على غير الله. قال تعالى:﴿فاعبدهُ وتَوكّل عليهِ﴾[2] وقال تعالى:﴿اللهُ لا إلهَ إلا هوَ وعلى اللهِ فليتوكلِ المؤمنونَ﴾[3] وقال تعالى:﴿إنْ ينصرُكُمْ اللهُ فلا غالبَ لكم، وإنْ يخذلكُمْ فمن ذا الذي ينصركم مِنْ بعدهِ، وعلى اللهِ فليتوكلِ المؤمنونَ﴾[4] وقال تعالى:﴿وقالَ موسى يا قوم إنْ كنتم آمنتم باللهِ فعليهِ توكلوا إنْ كنتم مسلمينَ﴾[5].

وأما قوله:﴿الذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبهُمْ وإذا تُليت عليهم آياتُه زَادتهم إيماناً﴾ فيقال: من أحوال القلب وأعماله ما يكون من لوازم الإيمان الثابتة فيه، بحيث إذا كان الإنسان مؤمناً لزم ذلك بغير قصد منه ولا تعمد له، وإذا لم يوجد دل على أن الإيمان الواجب لم يحصل في القلب، وهذا كقوله تعالى:﴿لا تجدُ قوماً يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ يوادّونَ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولهُ ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانَهم أو عشيرتَهم، أولئكَ كتبَ في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروحٍ منه﴾[6] فأخبر أنك لا تجد مؤمناً يوادّ المحادين لله ورسوله، فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر، فإذا وجد الإيمان انتفى ضده وهو موالاة أعداء الله، فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب.

ومثله قوله تعالى في الآية الأخرى:﴿ترى كثيراً منهم يتولّونَ الذّينَ كفروا لبئسَ ما قدّمت لهم أنفسُهُم أن سَخِطَ اللهُ عليهم وفي العذابِ هم خالدونَ. ولو

---

(١) سورة الأنفال الآيات (٢ ـ ٤).
(٢) سورة هود الآية ١٢٣.
(٣) سورة التغابن الآية ١٣.
(٤) سورة آل عمران آية ١٦٠.
(٥) سورة يونس ٨٤.
(٦) سورة المجادلة الآية ٢٢.

كانوا يؤمنونَ باللهِ والنَّبي وما أُنزلَ إليه ما اتخذوهم أولياءَ ولكنَّ كثيراً منهم فاسِقونَ﴾[1] فذكر جملة شرطية تقتضي أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف «لو» التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط فقال: ﴿وَلَوْ كانُوا يؤمنونَ باللهِ والنبيِّ وما أُنزلَ إليهِ ما اتخذوهم أولياءَ﴾ فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب، ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي وما أنزل اليه.

ومثله قوله تعالى: ﴿لا تَتَّخذُوا اليهودَ والنصارى أولياءَ، بعضهُم أولياءُ بعضٍ، ومَنْ يتولهُمْ منكم فإنَّه مِنْهُمْ﴾[2] فإنه أخبر في تلك الآيات[3] أن متوليهم لا يكون مؤمناً، وأخبر هنا أن متوليهم هو منهم، فالقرآن يصدق بعضه بعضاً، قال الله تعالى: ﴿الله نزَّل أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً مثانيَ تقشعرُّ منهُ جلودُ الذَّينَ يخشونَ ربَّهم﴾[4] الآية، وكذلك قوله: ﴿إنَّما المؤمنونَ الذَّينَ آمنوا باللهِ ورسولِهِ وإذا كانوا معهُ على أمرٍ جامعٍ لم يذهبوا حتى يستأذِنُوه﴾[5] دليل على أن الذهاب المذكور بدون استئذانه لا يجوز، وأنه يجب ألا يذهب حتى يستأذن، فمن ذهب ولم يستأذن كان قد ترك بعض ما يجب من الإيمان، فلهذا نفى عنه الإيمان، فإن حرف «إنما» تدل على إثبات المذكور ونفي غيره[6].

ومن الأصوليين من يقول: أن «إن» للإثبات و «ما» للنفي، فإذا جمع بينهما دلت على النفي والإثبات، وليس كذلك عند أهل العربية ومن يتكلم في ذلك بعلم، فإن «ما» هذه هي الكافة التي تدخل على إن وأخواتها فتكفها عن

(١) سورة المائدة الآيات (٨٠ ـ ٨١). (٢) سورة المائدة الآية ٥١.

(٣) أي قوله تعالى: ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه﴾.

(٤) سورة الزمر الآية ٢٣. (٥) سورة النور الآية ٦٢.

(٦) يدل هذا على نفي الايمان عمن لم يستأذن.

العمل، لأنها إنما تعمل إذا اختصت بالجمل الإسمية، فلما كفت بطل اختصاصها فصار يليها الجمل الفعلية والإسمية فتغير معناها وعملها جميعاً بانضمام «ما» إليها وكذلك كأنما وغيرها.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ويقولونَ آمنا باللهِ وبالرسولِ وأطعنا ثم يتولّى فريقٌ منهم مِنْ بعدِ ذلكَ وما أولئكَ بالمؤمنينَ. وإذا دُعوا إلى اللهِ ورسولهِ ليحكمَ بينهم إذا فريقٌ منهم معرضونَ. وإنْ يكنْ لهم الحقُّ يأتوا اليهِ مذعنينَ. أفي قلوبهم مرضٌ أم ارتابوا أم يخافونَ أن يحيفَ[1] اللهُ عليهم ورسُوله بلْ أولئكَ هُمُ الظّالمونَ. إنَّما كانَ قولَ المؤمنينَ إذا دُعوا إلى اللهِ ورسولِه ليحكمَ بينهم أنْ يقُولُوا سمِعْنَا وأطعْنَا وأولئكَ هُمُ المفلحونَ﴾[2].

فإن قيل: إذا كان المؤمن حقاً هو الفاعل للواجبات التارك للمحرمات، فقد قال: ﴿أولئكَ هُمُ المؤمنونَ حقاً﴾[3] ولم يذكر إلا خمسة أشياء، وكذلك قال في الآية الأخرى ﴿إنَّما المؤمنونَ الذينَ آمنوا باللهِ ورسولِه ثمَّ لم يرتابوا وجاهدُوا بأموالهم وأنفسهم في سبيلِ اللهِ أولئكَ هُمُ الصادقونَ﴾[4] وكذلك قوله: ﴿إنَّ الذينَ يستأذنونكَ أولئكَ الذينَ يؤمنونَ باللهِ ورسولِه﴾[5].

قيل: عن هذا جوابان (أحدهما) أن يكون ما ذكر مستلزماً لما ترك، فإنه ذكر وجل قلوبهم إذا ذكر الله، وزيادة إيمانهم إذا تليت آياته مع التوكل عليه وإقام الصلاة على الوجه المأمور به باطناً وظاهراً، وكذلك الإنفاق من المال والمنافع، فكان هذا مستلزماً الباقي، فإن وجل القلب عند ذكر الله يقتضي خشيته والخوف منه. وقد فسروا وجلت بفرقت[6] وفي قراءة ابن مسعود إذا ذكر الله فرقت قلوبهم وهذا صحيح، فإن الوجل في اللغة هو الخوف، يقال

---

(١) يقال: حاف عليه حيفاً أي جار عليه وظلمه.
(٢) سورة النور الآيات (٤٧ ـ ٥١).
(٣) سورة الانفال الآية ٤٠.
(٤) سورة الحجرات الآية ١٥.
(٥) سورة النور الآية ٦٢.
(٦) أي خافت وفزعت.

حمرة الخجل وصفرة الوجل، ومنه قوله تعالى: ﴿والذينَ يؤتونَ ما أتوا وقلوبُهُم وَجِلَةٌ أنَّهم إلى ربِّهم راجعُونَ﴾[1] قالت عائشة يا رسول الله هو الرجل يزني ويسرق ويخاف أن يعاقب؟ قال « لا يا بنت الصديق هو الرّجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه ».

وقال السدى في قوله تعالى: ﴿إذا ذُكر اللهُ وَجِلَت قلوبهم﴾ هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فينزع عنه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وأمَّا من خافَ مقامَ ربِّه ونَهى النفسَ عنِ الهوى. فإنَّ الجنةَ هي المأوىٰ﴾[2] وقوله: ﴿ولمنْ خافَ مقامَ ربِّه جنَّتان﴾[3] قال مجاهد وغيره من المفسرين: هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه بين يدي الله فيتركها خوفاً من الله.

وإذا كان وجل القلب من ذكره يتضمن خشيته ومخافته فذلك يدعو صاحبه إلى فعل المأمور وترك المحظور. قال سهل بن عبد الله[4]: ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى ولا طريق اليه أقرب من الافتقار. وأصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ولما سكتَ عَنْ موسى الغضب أخذَ الألواحَ وفي نسخَتِها هدى ورحمةٌ للذَّينَ هم لربِّهم يرهبون﴾[5] فأخبر أن الهدى والرحمة للذين يرهبون الله.

قال مجاهد وإبراهيم[6]: هو الرجل يريد أن يذنب الذنب فيذكر مقام الله فيدع الذنب، رواه ابن أبي الدنيا عن ابن أبي الجعد عن شعبة عن منصور عنهما في قوله تعالى: ﴿ولمن خافَ مقامَ ربِّهِ جنتان﴾ وهؤلاء هم أهل الفلاح المذكورون قوله تعالى: ﴿أولئكَ على هدىً من ربِّهم وأولئكَ هُمُ المفلحونَ﴾[7] وهم

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٦٠.

(٢) سورة النازعات الآيات (٤٠ - ٤١).

(٣) سورة الرحمن الآية ٤٦.

(٤) هو سهل بن عبد الله التستري. أحد شيوخ الصوفية.

(٥) سورة الاعراف الآية ١٥٤.

(٦) هو مجاهد بن جبير احد تلامذة ابن عباس.

(٧) سورة البقرة الآية ٥.

المؤمنون وهم المتقون المذكورون في قوله تعالى ﴿آلم ذلكَ الكتابُ لا ريبَ فيهِ هدىً للمتقينَ﴾[1] كما قال في آية البر. ﴿أولئكَ الذَّينَ صدقوا وأولئكَ هُمُ المتَّقونَ﴾[2] وهؤلاء هم المتبعون للكتاب كما في قوله تعالى ﴿فمن آتبع هداي فلا يَضِلُّ ولا يَشقى﴾[3] وإذا لم يضل فهو متبع مهتد، وإذا لم يشق فهو مرحوم، وهؤلاء هم أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين. فتبين أن أهل رهبة الله يكونون متقين لله مستحقين لجنته بلا عذاب، وهؤلاء هم الذين أتوا بالإيمان الواجب.

ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إنما يخشىٰ اللهَ من عبادهِ العلماءُ﴾[4] والمعنى أنه لا يخشاه إلا عالم[5] فقد أخبر الله أن كل من خشي الله فهو عالم، كما قال في الآية الأخرى ﴿أمَّنْ هوَ قانتٌ آناءَ الليل ساجداً وقائماً يحذرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ ربِّه قُل هَلْ يستوي الذَّينَ يعلمونَ والذَّينَ لا يعلمونَ﴾[6] والخشية أبداً متضمنة للرجاء، ولولا ذلك لكانت قنوطاً، كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمناً، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله.

وقد روي عن أبي حيان التيمي أنه قال: العلماء ثلاثة: فعالم بالله ليس عالماً بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالماً بالله، وعالم بالله عالم بأمر الله، فالعالم بالله هو الذي يخافه، والعالم بأمر الله هو الذي يعلم أمره ونهيه. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده» وإذا كان أهل الخشية هم العلماء الممدوحون في الكتاب والسنة لم يكونوا مستحقين

---

(١) سورة البقرة الآيات (١ - ٢).
(٢) سورة البقرة الآية ١٧٧.
(٣) سورة طه الآية ١٢٣.
(٤) سورة فاطر الآية ٢٨.
(٥) أي قصر صفة الخشية على العلماء.
(٦) سورة الزمر الآية ٩.

للذم، وذلك لا يكون إلا مع فعل الواجبات، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فأوحى إليهم ربُّهم لنهلكن الظالمينَ. ولنسكننكمُ الأرضَ مِنْ بعدهم، ذلكَ لمنْ خافَ مقامي وخافَ وعيد﴾[1] وقوله: ﴿ولمنْ خافَ مقامَ ربِّه جنّتان﴾ فوعد بنصر الدنيا وبثواب الآخرة لأهل الخوف، وذلك إنما يكون لأنهم أدوا الواجب، فدل على أن الخوف يستلزم فعل الواجب، ولهذا يقال للفاجر: لا يخاف الله، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إنَّما التوبةُ علىٰ اللهِ للذينَ يعملونَ السُّوءَ بجهالةٍ ثمَّ يتوبونَ مِنْ قريبٍ﴾[2].

قال أبو العالية: سألت أصحاب محمد عن هذه الآية فقالوا لي: كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب، وكذلك قال سائر المفسرين.

قال مجاهد: كل عاص فهو جاهل حين معصيته. وقال الحسن، وقتادة وعطاء والسدي وغيرهم: إنما سموا جهالاً لمعاصيهم لا أنهم غير مميزين.

وقال الزجاج: ليس معنى الآية أنهم يجهلون أنه سوء لأن المسلم لو أتى ما يجهله كان كمن لم يواقع سوءاً، وإنما يحتمل أمرين:

(أحدهما) أنهم عملوه وهم يجهلون المكروه فيه (والثاني) أنهم أقدموا على بصيرة وعلم بأن عاقبته مكروهة وآثروا العاجل على الآجل فسموا جهالاً لإيثارهم القليل على الراحة الكثيرة والراحة الدائمة.

فقد جعل الزجاج الجهل إما عدم العلم بعاقبة الفعل، وإما فساد الإرادة وقد يقال: هما متلازمان، وهذا مبسوط في الكلام مع الجهمية.

والمقصود هنا أن كل عاص لله فهو جاهل. وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله، وإنما يكون جاهلاً لنقص خوفه من الله، إذ لو تم خوفه لم يعص. ومنه قول

---

(١) سورة ابراهيم الآيات (١٣ ـ ١٤).   (٢) سورة النساء الآية ١٧.

ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً، وذلك لأن تصور المخوف يوجب الهرب منه. وتصور المحبوب يوجب طلبه، فإذا لم يهرب من هذا ولم يطلب هذا دل على أنه لم يتصوره تصوراً تاماً[1]

ولكن قد يتصور الخبر عنه، وتصور الخبر وتصديقه وحفظ حروفه غير تصور المخبر به، وكذلك إذا لم يكن المتصور محبوباً له ولا مكروهاً، فإن الإنسان يصدق بما هو مخوف على غيره ومحبوب لغيره، ولا يورثه ذلك هرباً ولا طلباً، وكذلك إذا أخبر بما هو محبوب له ومكروه ولم يكذب المخبر، بل عرف صدقه لكن قلبه مشغول بأمور أخرى عن تصور ما أخبر به، فهذا لا يتحرك للهرب ولا للطلب.

العلم علمان: علم القلب، وعلم اللسان

وفي الكلام المعروف عن الحسن البصري، ويروى مرسلا عن النبي ﷺ: العلم علمان، فعلم في القلب وعلم على اللسان، فعلم القلب هو العلم النافع، وعلم اللسان حجة الله على عباده.

وقد أخرجا في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة[2] طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل الثمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة[3] ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها».

وهذا المنافق الذي يقرأ القرآن يحفظه ويتصور معانيه وقد يصدق أنه كلام الله

---

(١) قال الفيلسوف سقراط: «الفضيلة علم، والرذيلة جهل»، والمعنى أن تصور الخير ومعرفته معرفة صحيحة يوجب فعله، وان الانسان لا يقع في الرذيلة إلا عن جهل بها.

(٢) ثمرة صفراء اللون تشبه البرتقال. (٣) الريحان: نبات معروف ذو رائحة زكية.

وأن الرسول حق ولا يكون مؤمناً، كما أن اليهود يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وليسوا مؤمنين. وكذلك إبليس وفرعون وغيرهما. لكن من كان كذلك لم يكن حصل له العلم التام والمعرفة التامة، فإن ذلك يستلزم العمل بموجبه لا محالة. ولهذا صار يقال لمن لم يعمل بعلمه إنه جاهل كما تقدم.

وكذلك لفظ العقل وإن كان هو في الأصل مصدر عقل يعقل عقلاً[1]، وكثير من النظار جعله من جنس العلوم فلا بد أن يعتبر مع ذلك أنه علم يعمل بموجبه، فلا يسمى عاقلاً إلا من عرف الخير فطلبه، والشر فتركه، ولهذا قال أصحاب النار: ﴿لو كنَّا نسمعُ أو نعقِلُ ما كُنَّا في أصحاب السَّعير﴾[2] وقال: ﴿تحسبُهمْ جميعاً وقلوبُهمْ شتىٰ، ذلكَ بأنهم قومٌ لا يعقلون﴾[3] ومتى فعل ما يعلم أنه يضره فمثل هذا ما له عقل، فكما أن الخوف من الله يستلزم العلم به فالعلم به يستلزم خشيته وخشيته تستلزم طاعته. فالخائف من الله ممتثل لأوامره مجتنب لنواهيه. وهذا هو الذي قصدنا بيانه أولاً، ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فذكِّرْ إنْ نفعتِ الذكرىٰ. سيذكَّرُ مَنْ يخشىٰ. ويتجنَّبهَا الأشقىٰ. الذَّي يصلى النَّارَ الكبرىٰ﴾[4].

فأخبر أن من يخشاه يتذكر، والتذكر هنا مستلزم لعبادته. قال تعالى: ﴿هو الذي يريكم آياته وينزلُ لكم مِنَ السَّماء رزقاً ومَا يتذكَّرُ إلا من يُنيب﴾[5] وقال ﴿تبصرةً وذكرى لكلِّ عبدٍ منيبٍ﴾[6] ولهذا قالوا في قوله ﴿سيذكَّرُ مَنْ يخشىٰ﴾ سيتعظ بالقرآن من يخشى الله . وفي قوله: ﴿وما يتذكَّر إلا من يُنيب﴾ إنما يتعظ من يرجع إلى الطاعة، وهذا لأن التذكر التام يستلزم العمل بما تذكره،

---

(١) إلا أن الفلاسفة المغرقون في الضلال يقولون بأن العقول «ذوات مجردة» هدانا الله وإياهم إلى الحق.

(٢) سورة الملك الآية ١٠.

(٣) سورة الحشر الآية ١٤.

(٤) سورة الاعلى الآيات (٩ ـ ١٢).

(٥) سورة غافر الآية ١٣.

(٦) سورة ق الاية ٨.

فإن تذكر محبوباً طلبه، وإن تذكر مرهوباً هرب منه، ومنه قوله تعالى: ﴿سواءٌ عليهم أأنذرتَهُمْ أم لم تُنذرهمْ لا يؤمنونَ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿إنَّما تُنذرُ مَنِ اتَّبعَ الذِّكرَ وخشيَ الرحمنَ بالغيبِ﴾[2] ففي الإنذار عن غير هؤلاء مع قوله: ﴿سواءٌ عليهم أأنذرتهمْ أمْ لم تُنذرهمْ لا يؤمنونَ﴾ فأثبت لهم الإنذار من وجه ونفاه عنهم من وجه، فإن الإنذار هو الإعلام بالخوف فالإنذار مثل التعليم والتخويف، فمن علمته فتعلم فقد تم تعليمه، وآخر يقول علمته فلم يتعلم، وكذلك من خوفته فخاف، فهذا هو الذي تم تخويفه، وأما من خوف فما خاف فلم يتم تخويفه، وكذلك من هديته فاهتدى تم هداه، ومنه قوله تعالى: ﴿هدىً للمتقينَ﴾ ومن هديته فلم يهتد كما قال: ﴿وأمَّا ثمودَ فهديناهمْ فاستحبُّوا العمى علىٰ الهُدىٰ﴾[3] فلم يتم هداه، كما تقول: قطعته فانقطع، وقطعته فما انقطع.

فالمؤثر التام يستلزم أثره، فمتى لم يحصل أثره لم يكن تاماً، والفعل إذا صادف محلاً قابلاً تم وإلا لم يتم، والعلم بالمحبوب يورث طلبه، والعلم بالمكروه يورث تركه، ولهذا يسمى هذا العلم الداعي، ويقال: الداعي مع القدرة يستلزم وجود المقدور، وهو العلم بالمطلوب المستلزم لإرادة المعلوم المراد، وهذا كله مع صحة الفطرة وسلامتها، وأما مع فسادها فقد يحس الإنسان باللذيذ فلا يجد له لذة بل يؤلمه، وكذلك يلتذ بالمؤلم لفساد الفطرة. والفساد يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعاً، كالممرور[4] الذي يجد العسل مراً، فإنه فسد نفس إحساسه حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليه للمرة التي مازجته، وكذلك من فسد باطنه. قال تعالى: ﴿ومَا يُشعركمْ أنها إذا جاءَتْ لا يؤمنونَ، ونُقلِّبُ أفئدتهمْ

---

(١) سورة يس الآية ١٠.　(٢) سورة يس الآية ١١.

(٣) سورة فصلت الآية ١٧.

(٤) ورد في الاساس: مر الرجل فهو ممرور: هاجت به المرة، ولكل ذي روح مرارة إلا البعير.

وأبصارهم[1] كما لم يؤمنوا بهِ أولَ مرةٍ ونذرهم في طُغيانهم يعمهونَ﴾[2].

وقال تعالى ﴿فلما زَاغوا أزاغَ اللهُ قلوبهمْ﴾ وقال: ﴿قُلوبُنا غلفٌ[3] بلْ طبعَ اللهُ عليها بكفرهمْ﴾[4] وقال في الآية الأخرى: ﴿وقالوا قلوبُنا غلفٌ بلْ لعنهمُ اللهُ بكفرهمْ﴾[5] والغلف جمع أغلف وهو ذو الغلاف الذي في غلاف مثل الأقلف كأنهم جعلوا المانع خلقة أي خلقت القلوب عليها أغطية، فقال تعالى: ﴿بلْ لعنهمْ اللهُ بكفرهمْ﴾ وطبع الله عليها بكفرهم: ﴿فلا يؤمنونَ إلا قليلاً﴾ وقال تعالى: ﴿ومنهم مَن يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عِندكَ قالوا للذينَ أوتوا العلمَ ماذا قالَ آنفاً[6] أولئكَ الذينَ طبعَ اللهُ على قلوبهمْ واتَّبعوا أهواءهمْ﴾[7].

وكذلك قالوا: ﴿يا شعيبُ ما نفقهُ كثيراً مما تَقول﴾[8] وقال: ﴿ولو علمَ اللهُ فيهم خيراً لأسمعهمْ﴾[9] أي لأفهمهم ما سمعوه، ثم قال: ولو أفهمهم مع هذه الحال التي هم عليها لتولوا وهم معرضون. فقد فسدت فطرتهم فلم يفهموا، ولو فهموا لم يعملوا، فنفى عنهم صحة القوة العلمية وصحة القوة العملية، وقال: ﴿أم تحسبُ أنَّ أكثرهمْ يسمعونَ أو يعقِلُونَ إنْ همْ إلاَّ كالأنعامِ بلْ هُمْ أضلُّ سبيلاً﴾[10] وقال: ﴿ولقد ذَرأنا[11] لجهنَّم كثيراً من الجنِّ والإنسِ لهمْ قلوبٌ لا يفقهونَ بها ولهمْ أعينٌ لا يبصرونَ بها ولهمْ آذانٌ لا يسمعونَ بها، أولئكَ كالأنعام بلْ هم أضلُّ أولئكَ هم الغافلونَ﴾[12] وقال: ﴿ومثلُ الَّذينَ كفروا كمثلِ الذي ينعقُ[13] بما لا يسمعُ إلاَّ دعاءً ونداءً صُمٌّ بكمٌ عميٌ فهمْ لا يعقلونَ﴾[14]

---

(١) أي نصرفها عن الحق.

(٢) سورة الانعام الآيات (١٠٩ ـ ١١٠) ويعمهون: يتحيرون ويترددون.

(٣) الاغلف: الذي لا يعي. (٤) سورة النساء الآية ١٥٥. (٥) سورة البقرة الآية ٨٨.

(٦) سابقاً. (٧) سورة محمد الآية ١٦. (٨) سورة هود الآية ٩١.

(٩) سورة الانفال الآية ٢٣. (١٠) سورة الفرقان الآية ٤٤. (١١) الذرء: الخلق.

(١٢) سورة الاعراف الآية ١٧٩. (١٣) يصوت، يصيح. (١٤) سورة البقرة الآية ١٧١.

وقال عن المنافقين: ﴿صُمٌّ بكمٌ فهمْ لا يرجعونَ﴾ [1] .

ومن الناس من يقول: لما لم ينتفعوا بالسمع والبصر والنطق جعلوا صماً بكماً عمياً، أو لما أعرضوا عن السمع والبصر صاروا كالصم العمي، وليس كذلك، بل نفس قلوبهم عميت وصمت وبكمت كما قال الله تعالى: ﴿فإنَّها لا تعمى الأبصارُ ولكنْ تعمى القلوبُ التي في الصدورِ﴾ [2]. والقلب هو الملك والأعضاء جنوده وإذا صلح صلح سائر الجسد، وإذا فسد فسد سائر الجسد، فيبقى يسمع بالبدن الصوت كما تسمع البهائم، والمعنى لا تفقهه، وإن فقه بعض الفقه لم يفقه فقهاً تاماً. فإن الفقه التام يستلزم تأثيره في القلب محبة المحبوب، وبغض المكروه. فمتى لم يحصل هذا لم يكن التصور التام حاصلاً فجاز نفيه، لأن ما لم يتم ينفى. كقوله للذي أساء في صلاته: «صلِّ فإنك لم تصلِّ» ونفى الايمان حيث نفي من هذا الباب.

وقد جمع الله بين وصفهم بوجل القلب إذا ذكر، وبزيادة الإيمان إذا سمعوا آياته. قال الضحاك: زادتهم يقيناً. وقال الربيع بن أنس: خشية. وعن ابن عباس: تصديقاً: وهكذا قد ذكر الله هذين الأصلين في مواضع قال تعالى: ﴿ألم يأنِ [3] للذينَ آمنوا أنْ تخشعَ قلوبُهم [4] لذكرِ اللهِ وما نزلَ مِنَ الحقِّ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتابَ من قبلُ فطالَ عليهم الأمدُ فقستْ [5] قلوبهم وكثيرٌ منهم فاسقونَ﴾ [6] .

والخشوع يتضمن معنيين (أحدهما) التواضع والذل (والثاني) السكون والطمأنينة وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة، فخشوع القلب يتضمن

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨ .
(٢) سورة الحج الآية ٤٦ .
(٣) أي الم يحين الوقت.
(٤) أي تذل وتستكين لذكر الله .
(٥) صلبت وتحجرت.
(٦) سورة الحديد الآية ١٦ .

عبوديته لله وطمأنينته أيضاً. ولهذا كان الخشوع في الصلاة يتضمن هذا وهذا التواضع والسكون.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿الذَّينَ هم في صَلاتِهِمْ خاشعونَ﴾[1] قال: مخبتون أذلاء. وعن الحسن وقتادة: خائفون. وعن مقاتل: متواضعون. وعن علي: الخشوع في القلب وأن يلين للمرء المسلم كنفك[2]، ولا تلتفت يميناً ولا شمالاً. وقال مجاهد: غض البصر وخفض الجناح. وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة هاب الرحمن أن يشذ بصره أو أن يحدث نفسه بشيء من أمر الدنيا.

وعن عمرو بن دينار: ليس الخشوع الركوع والسجود. ولكنه السكون وحسن الهيئة في الصلاة. وعن ابن سيرين وغيره: كان النبي ﷺ وأصحابه ينظرون بأبصارهم في الصلاة إلى السماء، وينظرون يميناً وشمالاً حتى نزلت هذه الآية: ﴿قد أفلحَ المؤمنونَ. الذَّينَ هم في صلاتِهم خاشعونَ﴾[3] الآيات فجعلوا بعد ذلك وجوههم حيث يسجدون وما رؤى أحد منهم بعد ذلك ينظر إلا إلى الأرض. وعن عطاء: هو ألا تعبث بشيء من جسدك وأنت في الصلاة وأبصر النبي ﷺ رجلاً يعبث بلحيته[4] في الصلاة فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه» ولفظ الخشوع إن شاء الله يبسط في مواضع أخر.

خشوع الجسد تبع خشوع القلب

وخشوع الجسد تبع لخشوع القلب إذا لم يكن الرجل مرائياً يظهر ما ليس في قلبه كما روي: تعوذوا بالله من خشوع النفاق. وهو أن يرى الجسد خاشعاً والقلب خالياً لاهياً، فهو سبحانه استبطأ المؤمنين بقوله: ﴿ألَمْ يأنِ للذينَ آمنوا أن تخشعَ قلوبهمْ لذكرِ اللهِ وما نَزلَ مِنَ الحقِّ﴾[5] فدعاهم إلى خشوع القلب لذكره وما

(١) سورة المؤمنون الآية ٢. (٢) الكنف: الجانب. (٣) سورة المؤمنون الآيات (١ - ٢).
(٤) يمر بأصابعه عليها ويحركها. (٥) سورة الحديد الآية ١٦.

نزل من كتابه، ونهاهم أن يكونوا كالذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وهؤلاء هم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً.

وكذلك قال في الآية الأخرى: ﴿اللهُ نزّلَ أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً مثانيَ[1] تقشعرُّ منهُ جلودُ الذينَ يخشونَ ربَّهُم ثمَّ تلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكرِ اللهِ﴾[2] والذين يخشون ربهم هم الذين إذا ذكر الله تعالى وجلت قلوبهم فإن قيل: فخشوع القلب لذكر الله وما نزل من الحق واجب.

قيل: نعم، لكن الناس فيه على قسمين: مقتصد وسابق، فالسابقون يختصون بالمستحبات[3]. والمقتصدون الأبرار هم عموم المؤمنين المستحقين للجنة. ومن لم يكن من هؤلاء، ولا هؤلاء فهو ظالم لنفسه. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يسمع».

وقد ذم الله قسوة القلوب المنافية للخشوع في غير موضع فقال تعالى: ﴿ثمَّ قستْ قلوبكم مِنْ بعدِ ذلكَ فهي كالحجارةِ أو أشدُّ قسوةً﴾ قال الزجاج: قست في اللغة: غلظت ويبست وعست، فقسوة القلب ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه، والقاسي والعاسي الشديد الصلابة. وقال ابن قتيبة: قست وعست وعتت أي يبست. وقوة القلب المحمودة غير قسوته المذمومة، فإنه ينبغي أن يكون قوياً

---

(١) أي يشبه بعضه بعضاً في الحسن. والمثاني: أي يكرر فيه الترغيب والترهيب، والقصص والمواعظ.

(٢) سورة الزمر الآية ٢٣.

(٣) أي يقومون بالمستحبات مع الواجبات وفي اوقاتها. والمقتصدون: الذين يقتصرون على الواجبات.

من غير عنف، وليناً من غير ضعف. وفي الأثر: القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إلى الله أصلبها وأرقها وأصفاها[1]، وهذا كاليد فإنها قوية لينة بخلاف ما يحسو من العقب فإنه يابس لا لين فيه وإن كان فيه قوة، وهو سبحانه ذكر وجل القلب من ذكره ثم ذكر زيادة الإيمان عند تلاوة كتابه علماً وعملاً.

الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر

ثم لا بد من التوكل على الله فيما لا يقدر عليه، ومن طاعته فيما يقدر عليه، وأصل ذلك الصلاة والزكاة، فمن قام بهذه الخمس كما أمر لزم أن يأتي بسائر الواجبات، بل الصلاة نفسها إذا فعلها كما أمر فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، كما روي عن ابن مسعود وابن عباس: إن في الصلاة منهى ومزجراً عن معاصي الله، فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً. وقوله «لم يزدد إلا بعداً»، إذا كان ما ترك من الواجب منها أعظم مما فعله أبعده ترك الواجب الأكثر من الله، أكثر مما قربه فعل الواجب الأقل» وهذا كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «تلك صلاة المنافق، يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام نقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» وقد قال تعالى: ﴿إنَّ المنافقينَ يخادعونَ اللهَ وهو خادعُهم وإذا قاموا إلى الصلاةِ قاموا كسالىٰ يراءونَ النَّاسَ ولا يذكرونَ اللهَ إلا قليلاً﴾[2].

وفي السنن عن عمار عن النبي ﷺ أنه قال« إن العبد لينصرف من صلاته ولم يكتب له منها إلا نصفها إلا ثلثها حتى قال إلا عشرها». وعن ابن عباس: قال «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها» وهذا وإن لم يؤمر بإعادة الصلاة عند

(١) أي ان بصلابتها ترد الباطل ولا تقبله، وبرقتها ترحم من يستحق الرحمة، وبصفائها تدرك نور الحق.

(٢) سورة النساء الآية ١٤٢.

أكثر العلماء لكن يؤمر بأن يأتي من التطوعات بما يجبر نقص فرضه. ومعلوم أن من حافظ على الصلوات بخشوعها الباطن وأعمالها الظاهرة وكان يخشى الله الخشية التي أمره بها فإنه يأتي بالواجبات، ولا يأتي كبيرة، ومن أتى الكبائر مثل الزنا أو السرقة أو شرب الخمر وغير ذلك فلا بد أن يذهب ما في قلبه من تلك الخشية والخشوع والنور وإن بقي أصل التصديق في قلبه، وهذا من الإيمان الذي ينزع منه عند فعل الكبيرة كما قال النبي ﷺ «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن». فإن المتقين كما وصفهم الله بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُم طَائِفٌ مِنَ الشيطان[1] تَذَكَّرُوا فإذا هم مُبصرونَ﴾[2] فإذا طاف بقلوبهم طيف من الشيطان تذكروا فيبصرون.

قال سعيد بن جبير: هو الرجل يغضب الغضبة فيذكر الله فيكظم الغيظ[3] وقال ليث عن مجاهد: هو الرجل يهم بالذنب فيذكر الله فيدعه، والشهوة والغضب مبدأ السيئات، فإذا أبصر رجع. ثم قال: ﴿وإخوانُهُمْ يمدونهمْ في الغيِّ ثم لا يقصِرونَ﴾[4] أي وإخوان الشياطين تمدهم الشياطين في الغي ثم لا يقصرون. قال ابن عباس: لا الإنس تقصر عن السيئات، ولا الشياطين تمسك عنهم، فإذا لم يبصر بقي قلبه في غمر[5]، والشيطان يمده من غيه، وإن كان التصديق في قلبه لم يكذب، فذلك النور والإبصار وتلك الخشية والخوف يخرج من قلبه، وهذا كما أن الإنسان يغمض عينيه فلا يرى، وإن لم يكن أعمى، فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لا يبصر الحق وإن لم يكن أعمى كعمى الكافر.

---

(١) إذا داهمتهم وساوس الشيطان. (٢) سورة الاعراف الآية ٢٠١.

(٣) كظم غيظه: حبسه في صدره.

(٤) سورة الاعراف الآية ٢٠٢ والمعنى: يجتهدون في اغوائهم.

(٥) يعني غفلة.

وهكذا جاء في الآثار. قال أحمد بن حنبل في كتاب الإيمان: حدثنا يحي عن أشعث عن الحسن عن النبي ﷺ قال: «ينزع منه الإيمان فإن تاب أعيد اليه». وقال: حدثنا يحي عن عوف قال: قال الحسن: «يجانبه الإيمان ما دام كذلك فإن راجع راجعه الإيمان». وقال أحمد: حدثنا معاوية عن أبي إسحاق عن الأوزاعي قال. وقد قلت للزهري حين ذكر هذا الحديث «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فإنهم يقولون فإن لم يكن مؤمناً فما هو؟ قال فأنكر ذلك وكره مسئلتي عنه. وقال أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال لغلمانه: «من أراد منكم الباءة[1] زوجناه، لا يزني منكم زان إلا نزع الله منه نور الإيمان، فإن شاء أن يرده رده وإن شاء أن يمنعه منعه»، وقال أبو داود السجستاني: حدثنا عبد الوهاب بن نجدة حدثنا بقية بن الوليد[2] حدثنا صفوان بن عمرو عن عبد الله بن ربيعة الحضرمي أنه أخبره عن أبي هريرة أنه كان يقول «إنما الإيمان كثوب أحدكم يلبسه مرة ويقلعه أخرى» وكذلك رواه بإسناده عن عمرو وروي عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً. وفي حديث عن أبي هريرة مرفوع إلى النبي ﷺ «إذا زنى الزاني خرج منه الإيمان فكان كالظلة فإذا انقطع رجع إليه الإيمان».

وهذا إن شاء الله يبسط في موضع آخر.

أحاديث تنازع الناس في صحتها مثل قوله لا صلاة إلا بوضوء وبيان الحق فيها

وقد جاءت أحاديث تنازع الناس في صحتها مثل قوله «لا صلاة إلا بوضوء، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه» فأما الأول فهو كقوله «لا صلاة

(١) الباءة: القدرة على النفقة والمسكن وجميع متطلبات الزواج الاساسية، والتي لا يمكن أن يقوم الزواج بدونها.

(٢) بقية بن الوليد: مدلس.

إلا بطهور»[1].

وهذا متفق عليه بين المسلمين، فإن الطهور واجب في الصلاة، فإنما نفي الصلاة لانتفاء واجب فيها. وأما ذكر اسم الله تعالى: على الوضوء ففي وجوبه نزاع وأكثر العلماء لا يوجبونه. وهو مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي. وهو إحدى الروايتين عن أحمد اختارها الخرقي وأبو محمد وغيرهما (والثاني) يجب وهو قول طائفة من أهل العلم وهو الرواية الأخرى عن أحمد اختارها أبو بكر عبد العزيز والقاضي أبو يعلى وأصحابه. وكذلك قوله «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد» رواه الدارقطني. فمن الناس من يضعفه مرفوعاً ويقول هو من كلام علي رضي الله عنه. ومنهم من يثبته كعبد الحق. وكذلك قوله: «لا صيام لمن لم يبيت الصيام من الليل» قد رواه أهل السنن. وقيل إن رفعه يصح. وإنما يصح موقوفاً على ابن عمر أو حفصة. فليس لأحد أن يثبت لفظاً عن الرسول مع أنه أريد به نفي الكمال المستحب. فإن صحت هذه الألفاظ دلت قطعاً على وجوب هذه الأمور. فإن لم تصح فلا ينتقض بها أصل مستقر من الكتاب والسنة. وليس لأحد أن يحمل كلام الله ورسوله على وفق مذهبه إن لم يتبين من كلام الله ورسوله ما يدل على مراد الله ورسوله. وإلا فأقوال العلماء تابعة لقول الله تعالى ورسوله ﷺ، ليس قول الله ورسوله تابعاً لأقوالهم.

فإذا كان في وجوب شيء نزاع بين العلماء ولفظ الشارع قد اطرد لم يجز أن ينقض الأصل المعروف من كلام الله ورسوله بقول فيه نزاع بين العلماء ولكن من الناس من لا يعرف مذاهب أهل العلم. وقد نشأ على قول لا يعرف غيره فيظنه إجماعاً. كمن يظن أنه إذا ترك الإنسان الجماعة وصلى وحده برئت ذمته إجماعاً. وليس الأمر كذلك، بل للعلماء قولان معروفان في إجزاء هذه الصلاة. وفي مذهب أحمد فيها قولان. فطائفة من قدماء أصحابه حكاه عنهم القاضي أبو

---

(١) الحديث بكماله: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول».

يعلى في شرح المذهب ومن متأخريهم كابن عقيل وغيره يقولون من صلى المكتوبة وحده من غير عذر يسوغ له ذلك فهو كمن صلى الظهر يوم الجمعة، فإن أمكنه أن يؤديها في جماعة بعد ذلك فعليه ذلك وإلا باء بإثمه كما يبوء تارك الجمعة بإثمه، والتوبة معروضة. وهذا قول غير واحد من أهل العلم وأكثر الآثار المروية عن السلف من الصحابة والتابعين تدل على هذا.

وقد احتجوا بما ثبت عنه ﷺ أنه قال «من سمع النداء ثم لم يجب من غير عذر فلا صلاة له» وأجابوا عن حديث الفضيل بأنه في المعذور الذي تباح له الصلاة وحده، كما ثبت عنه أنه قال: «صلاة الرجل قاعداً على النصف من صلاة القائم، وصلاة المضطجع على النصف من صلاة القاعد» والمراد به المعذور كما في الحديث أنه خرج وقد أصابهم وعك وهم يصلون قعوداً، فقال ذلك. ولم يجوز أحد من السلف صلاة التطوع مضطجعاً من غير عذر، ولا يعرف أن أحداً من السلف فعل ذلك، وجوازه وجه في مذهب الشافعي وأحمد لا يعرف لصاحبه سلف صدق، مع أن هذه المسألة مما تعم به البلوى، فلو كان يجوز لكل مسلم أن يصلي التطوع على جنبه وهو صحيح لا مرض به، كما يجوز أن يصلي التطوع قاعداً وعلى الراحلة لكان هذا مما قد بينه الرسول ﷺ لأمته، وكان الصحابة تعلم ذلك، ثم مع قوة الداعي إلى الخير لا بد أن يفعل ذلك بعضهم، فلما لم يفعله أحد منهم دل على أنه لم يكن مشروعاً عندهم، وهذا مبسوط في موضعه.

ينبغي أن يقدر كلام الله ورسوله قدرهما والنهي عن التأويل فيهما من غير علم مرادهم

والمقصود هنا أنه ينبغي للمسلم أن يُقَدِّرَ قدر كلام الله ورسوله، بل ليس لأحد أن يحمل كلام أحد من الناس إلا على ما عرف أنه أراده لا على ما يحتمله ذلك اللفظ في كلام كل أحد، فإن كثيراً من الناس يتأول النصوص المخالفة لقوله يسلك مسلك من يجعل التأويل كأنه ذكر ما يحتمله اللفظ وقصده به دفع

ذلك المحتج عليه بذلك، وهذا النص خطأ بل جميع ما قاله الله ورسوله يجب الإيمان به، فليس لنا أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، وليس الاعتناء بمراده في أحد النصين دون الآخر بأولى من العكس، فإذا كان النص الذي وافقه يعتقد أنه اتبع فيه مراد الرسول، فكذلك النص الآخر الذي تأوله فيكون أصل مقصوده معرفة ما أراده الرسول بكلامه؛ وهذا هو المقصود بكل ما يجوز من تفسير وتأويل عند من يكون إصطلاحه تغاير معناهما، وأما من يجعلها بمعنى واحد كما هو الغالب على اصطلاح المفسرين فالتأويل عندهم هو التفسير[1] وأما التأويل في كلام الله ورسوله فله معنى ثالث[2] غير معناه في اصطلاح المفسرين وغيرهما في اصطلاح متأخري الفقهاء والأصوليين كما قد بسط في موضعه.

والمقصود هنا أن كل ما نفاه الله ورسوله من مسمى أسماء الأمور الواجبة كاسم الإيمان والإسلام والدين والصلاة والصيام والطهارة والحج وغير ذلك فإنما يكون لترك واجب في ذلك المسمى، ومن هذا قوله تعالى: ﴿فلا وربِّكَ لا يؤمنونَ حتى يحكّموكَ فيما شجرَ بينهم ثمَّ لا يجدُوا في أنفُسِهم حَرَجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً﴾[3] فلما نفى الإيمان حتى توجد هذه الغاية دل على أن هذه الغاية فرض على الناس، فمن تركها كان من أهل الوعيد، لم يكن قد أتى بالإيمان الواجب الذي وعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب، فإن الله إنما وعد بذلك من فعل ما أمر به.

وأما من فعل بعض الواجبات وترك بعضها، فهو معرض للوعيد. ومعلوم باتفاق المسلمين أنه يجب تحكيم الرسول في كل ما شجر بين الناس في دينهم ودنياهم في أصول دينهم وفروعه، وعليهم كلهم إذا حكم بشيء ألا يجدوا في

---

(١) قال ابن جرير: «القول في تأويل قوله تعالى كذا يعني تفسيره».

(٢) هذا المعنى هو ما يؤول اليه اللفظ. قال تعالى: (هل ينظرون إلا تأويله).

(٣) سورة النساء الآية ٦٥.

أنفسهم حرجاً مما حكم ويسلموا له تسليما . قال تعالى: ﴿ألم ترَ إلىٰ الذينَ يزعمونَ أنّهم آمنوا بما أنزلَ إليكَ وما أنزلَ مِنْ قبلكَ يريدونَ أن يتحاكموا إلىٰ الطاغوتِ وقدْ أمروا أن يكفروا بهِ ويريدُ الشيطانُ أنْ يُضلَّهم ضلالاً بعيداً . وإذا قيلَ لهمْ تعالَوا إلى ما أنزلَ اللهُ وإلىٰ الرَّسولِ رأيتَ المنافقينَ يصدّونَ عنكَ صدوداً﴾[١] وقوله: ﴿إلى ما أنزلَ اللهُ﴾ وقد أنزل الله الكتاب والحكمة وهي السنة ، قال تعالى: ﴿واذكُرُوا نعمةَ اللهِ عليكُم ومَا أنزلَ عليكمْ مِنَ الكتابِ والحكمةِ يعظكمْ بهِ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وأنزلَ اللهُ عليكَ الكتابَ والحكمةَ وعلّمكَ ما لم تكنْ تعلمُ، وكانَ فضلُ اللهِ عليكَ عظيماً﴾[٣] والدعاء إلى ما أنزل يستلزم الدعاء إلى الرسول، والدعاء إلى الرسول يستلزم الدعاء إلى ما أنزله الله ، وهذا مثل طاعة الله والرسول فإنهما متلازمان، فمن يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن أطاع الله فقد اطاع الرسول .

وكذلك قوله تعالى: ﴿ومَنْ يشاقِق الرَّسولَ مِنْ بعدِ ما تبينَ لهُ الهدىٰ ويتبعْ غيرَ سبيلِ المؤمنينَ﴾[٤] فإنهما متلازمان، فكل من شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى فقد اتبع غير سبيل المؤمنين، وكل من اتبع غير سبيل المؤمنين فقد شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى . فإن كان يظن أنه متبع سبيل المؤمنين وهو يخطىء، فهو بمنزلة من ظن أنه متبع للرسول وهو مخطىء .

إجماع المؤمنين حجة

وهذه الآية تدل على أن إجماع المؤمنين حجة من جهة أن مخالفتهم مستلزمة لمخالفة الرسول، وأن كل ما أجمعوا عليه فلا بد أن يكون فيه نص عن الرسول[٥] فكل مسئلة يقطع فيها بالإجماع وبانتفاء المنازع من المؤمنين فإنها مما بين الله فيه

(١) سورة النساء الآيات (٦٠ ـ ٦١) . (٢) سورة البقرة الآية ٢٣١ .
(٣) سورة النساء الآية ١١٣ . (٤) سورة النساء الآية ١١٥ .
(٥) أي ان الاجماع لا بد أن يكون مستنداً إلى نص .

الهدى، ومخالف مثل هذا الإجماع يكفر كما يكفر مخالف النص البين، وأما إذا كان يظن الإجماع ولا يقطع به، فهنا قد لا يقطع أيضاً بأنها مما تبين فيه الهدى من جهة الرسول، ومخالف مثل هذا الإجماع قد لا يكفر، بل قد يكون ظن الإجماع خطأ، والصواب في خلاف هذا القول، وهذا هو فصل الخطاب فيما يكفر به من مخالفة الإجماع وما لا يكفر.

والإجماع هل هو قطعي الدلالة أو ظني الدلالة[1]؟ فإن من الناس من يطلق الإثبات بهذا أو هذا، ومنهم من يطلق النفي لهذا ولهذا، والصواب التفصيل بين ما يقطع به من الإجماع ويعلم يقيناً أنه ليس فيه منازع من المؤمنين أصلاً، فهذا يجب القطع بأنه حق، وهذا لا بد أن يكون مما بين فيه الرسول الهدى، كما قد بسط هذا في موضع آخر.

ومن جهة أنه إذا وصف الواجب بصفات متلازمة دل على أن كل صفة من تلك الصفات متى ظهرت وجب اتباعها، وهذا مثل الصراط المستقيم الذي أمرنا الله بسؤال هدايته[2] فإنه قد وصف بأنه الإسلام، ووصف بأنه اتباع القرآن، ووصف بأنه طاعة الله ورسوله، ووصف بأنه طريق العبودية. ومعلوم أن كل اسم من هذه الأسماء يجب اتباع مسماه ومسماها كلها واحد وإن تنوعت صفاته، فأي صفة ظهرت وجب اتباع مدلولها فإنه مدلول الأخرى. وكذلك أسماء الله تعالى وأسماء كتابه وأسماء رسوله هي مثل أسماء دينه[3].

وكذلك قوله تعالى: ﴿واعتصِمُوا بحبلِ اللهِ جميعاً ولا تفرَّقُوا﴾ حبل الله هو دين الإسلام، وقيل القرآن، وقيل عهده، وقيل طاعته وأمره، وقيل الجماعة المسلمون، وكل هذا حق.

---

(١) أي ان دلالة الاجماع على الحكم هل هي قطعية الثبوت أم ظنية.

(٢) قال تعالى في سورة الفاتحة (اهدنا الصراط المستقيم).

(٣) أي ان مسماها واحد وان تنوعت الصفات.

وكذلك إذا قلنا الكتاب والسنة والإجماع فمدلول الثلاث واحد، فإن كل ما في الكتاب فالرسول موافق له، والأمة مجمعة عليه من حيث الجملة، فليس في المؤمنين إلا من يوجب اتباع الكتاب، وكذلك كل ما سنه الرسول ﷺ فالقرآن يأمر باتباعه فيه[1]؛ والمؤمنون مجمعون على ذلك، وكذلك كل ما أجمع عليه المسلمون فإنه لا يكون إلا حقاً موافقاً لما في الكتاب والسنة، لكن المسلمون يتلقون دينهم كله عن الرسول، وأما الرسول فينزل عليه وحي هو القرآن، ووحي آخر هو الحكمة، كما قال ﷺ « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه »[2].

وقال حسان بن عطية: كان جبريل ينزل على النبي ﷺ بالسنة فيعلمه إياها كما يعلمه القرآن، فليس كل ما جاءت به السنة يجب أن يكون معسراً في القرآن، بخلاف ما يقوله أهل الإجماع، فإنه لا بد أن يدل عليه الكتاب والسنة، فإن الرسول هو الواسطة بينهم وبين الله في أمره، ونهيه، وتحليله وتحريمه.. والمقصود ذكر الإيمان.

حب الأنصار آية الإيمان وبغضهم آية النفاق

ومن هذا الباب قول النبي ﷺ « لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر، وقوله « آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار » فإن من علم ما قامت به الأنصار من نصر الله ورسوله من أول الأمر، وكان محبا لله ولرسوله أحبهم قطعاً[3]، فيكون حبه لهم علامة الإيمان الذي في قلبه، ومن أبغضهم لم يكن في قلبه الإيمان الذي أوجبه الله عليه.

---

(١) قال تعالى: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا).

(٢) الحديث يدل على حجية السنة، وأنها الاصل الثاني للتشريع بعد القرآن.

(٣) فهم الذين آووا ونصروا وهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ على أن يمنعوه مما يمنعون منه ذراريهم. وهم الذين على سواعدهم قام هذا الدين وعلت رايته.

المعاصي منها ما هو كفر ومنها ما هو فسوق ومنها ما هو عصيان

وكذلك من لم يكن في قلبه بغض ما يبغضه الله ورسوله من المنكر الذي حرمه من الكفر والفسوق والعصيان، لم يكن في قلبه الإيمان الذي يوجبه الله عليه، فإن من لم يكن مبغضاً لشيء من المحرمات أصلاً لم يكن منه إيمان أصلاً، كما سنبينه إن شاء الله تعالى، وكذلك من لا يحب لأخيه المؤمن ما يحبه لنفسه لم يكن معه ما أوجب الله عليه من الإيمان، فحيث نفى الله الإيمان عن شخص فلا يكون إلا لنقص ما يجب عليه من الإيمان، ويكون من المعرضين للوعيد، ليس من المستحقين للوعد المطلق.

وكذلك قوله ﷺ «من غشنا فليس منا، ومن حمل علينا السلاح فليس منا» كله من هذا الباب لا يقوله إلا لمن ترك ما أوجب الله عليه أو فعل ما حرمه الله ورسوله، فيكون قد ترك من الإيمان المفروض عليه ما ينفي عنه الاسم لأجله، فلا يكون من المؤمنين المستحقين للوعد، السالمين من الوعيد.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ويقولونَ آمنَّا باللهِ وبالرَّسُولِ وأطعنا ثمَّ يتولىٰ فريقٌ منهم مِنْ بعد ذلكَ، وما أولئكَ بالمؤمنينَ. وإذا دُعُوا إلى الله ورسولِهِ ليحكمَ بينهم إذا فريقٌ منهُمْ مُعرضونَ. وإن يكنْ لهم الحقُّ يأتوا إليهِ مذعنينَ. أفي قلوبهم مرضٌ أم ارتابوا أم يخافونَ أن يحيفَ الله عليهم ورسوله بلْ أولئكَ هُمُ الظَّالمونَ. إنَّما كانَ قولَ المؤمنينَ إذا دُعوا إلى اللهِ ورسولِهِ ليحكمَ بينهم أن يقولوا سَمِعنا وأطعنَا وأولئكَ هُمُ المفلحونَ﴾[1] فهذا حكم اسم الإيمان إذا أطلق في كلام الله ورسوله، فإنه يتناول فعل الواجبات، وترك المحرمات، ومن نفى الله ورسوله عنه الإيمان فلا بد أن يكون قد ترك واجباً أو فعل محرماً، فلا يدخل في الاسم الذي يستحق أهله الوعد، دون الوعيد، بل يكون من أهل الوعيد.

---

(١) سورة النور الآيات (٤٧ ـ ٥١).

وكذلك قوله تعالى: ﴿حبَّب إليكم الإيمانَ وزينهُ في قلوبكم وكرَّهَ إليكم الكفرَ والفسوقَ والعصيان أولئكَ هُمُ الراشِدونَ﴾[1].

أن الله ميز بين خطاب المؤمنين وخطاب عموم الناس

قال محمد بن نصر المروزي: لما كانت المعاصي بعضها كفر وبعضها ليس بكفر فرق بينها فجعلها ثلاثة أنواع: نوع منها كفر، ونوع منها فسوق وليس بكفر، ونوع عصيان وليس بكفر ولا فسوق، وأخبر أنه كرهها كلها إلى المؤمنين. ولما كانت الطاعات كلها داخلة في الإيمان وليس فيها شيء خارج عنه لم يفرق بينها فيقول: حبب إليكم الإيمان والفرائض وسائر الطاعات، بل أجمل ذلك فقال: ﴿حبَّبَ إليكم الإيمانَ﴾ فدخل في ذلك جميع الطاعات، لأنه قد حبب إلى المؤمنين الصلاة والزكاة وسائر الطاعات حب تدين، لأن الله أخبر ذلك إليهم وزينه في قلوبهم كقوله: ﴿حبَّبَ إليكم الإيمانَ﴾ ويكرهون جميع المعاصي: الكفر منها والفسوق، وسائر المعاصي كراهة تدين، لأن الله أخبر أنه كره ذلك إليهم. ومن ذلك قول رسول الله ﷺ «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» لأن الله حبب إلى المؤمنين الحسنات وكره إليهم السيئات.

(قلت) وتكريه جميع المعاصي إليهم يستلزم حب جميع الطاعات، لأن ترك الطاعات معصية، ولأنه لا يترك المعاصي كلها إن لم يتلبس بضدها فيكون محباً لضدها وهو الطاعة، إذ القلب لا بد له من إرادة فإذا كان يكره الشر كله فلا بد أن يريد الخير. والمباح بالنية الحسنة يكون خيراً وبالنية السيئة يكون شراً، ولا يكون فعل اختياري إلا بإرادة، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدق الأسماء الحارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة».

---

(١) سورة الحجرات الآية ٧.

فـأصـدق الأسماء الحارث وهمام، لأن كـل إنسـان همام حـارث والحارث الكاسب العامل، والهمام الكثير الهم، وهو مبدأ الإرادة وهو حيوان، وكل حيوان حساس متحرك بالإرادة، فإذا فعل شيئاً من المباحات فلا بد له من غاية ينتهي إليها قصده، وكل مقصود إما أن يقصد لنفسه وإما أن يقصد لغيره، فإن كان منتهى مقصوده ومراده عبادة الله وحده لا شريك له وهو إلهه الذي يعبده لا يعبد شيئاً سواه، وهو أحب إليه من كل ما سواه، فإن إرادته تنتهي إلى إرادته وجه الله، فيثاب على مباحاته التي يقصد الاستعانة بها على الطاعة كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: « نفقة الرجل على أهله يحتسبها صدقة » وفي الصحيحين عنه أنه قال لسعد بن أبي وقاص لما مرض بمكة وعاده، قال: « إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة ترفعها إلى في إمرأتك » وقال معاذ بن جبل لأبي موسى: « إني أحتسب نومتي كما أحتسب قومتي »[1]. وفي الأثر: نوم العالم تسبيح.

وإن كان أصل مقصوده عبادة غير الله لم تكن الطيبات مباحة له، فإن الله إنما أباحها للمؤمنين من عبـاده، بـل الكفـار وأهـل الجرائم والذنـوب وأهـل الشهوات يحاسبون يوم القيامة على نعم الله التي تنعموا بها فلم يشكروه ولم يعبدوه بها، ويقال لهم: ﴿أذهبتُمْ طيباتكُمْ في حياتكُمْ الدُّنيا واستمتعتُمْ بها فاليـــومَ تجزونَ عذابَ الهُون[2] بما كنتُم تستكبرونَ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ وبما كنتُمْ تفسُقُونَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ثمَّ لتسألنَّ يومئذٍ عَنِ النعيمِ﴾[4] أي عن شكره. والكافر لم يشكر على النعم التي أنعم الله عليه بها فيعاقبه على ذلك، والله إنما أباحها للمؤمنين وأمرهم معها بالشكر كما قال تعالى: ﴿كلوا من طيّباتِ ما رزقناكُمْ واشكُرُوا للهِ﴾[5].

(١) أي ارجو ثواب الله تعالى في النوم كما ارجو ثوابه في القيام.

(٢) أي الهوان والصّغار.

(٣) سورة الاحقاف الآية ٢٠.

(٤) سورة التكاثر الآية ٨.

(٥) سورة البقرة الآية ١٧٢.

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها» وفي سنن ابن ماجه وغيره «الطاعم الشاكر بمنزلة الصابر».

وكذلك قال للرسل: ﴿كلوا مِنْ الطَّيباتِ واعملوا صالحاً﴾[1] وقال تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لكُمْ بهيمةُ الأنعامِ إلاَّ ما يُتلىٰ عليكُمْ غيرَ مُحلّي الصيدِ وأنتمْ حُرُمٌ﴾[2] وقال الخليل: ﴿وارزقْ أهلهُ مِنَ الثمراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ باللهِ واليومِ الآخرِ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فأمتِّعهُ قليلاً ثُمَّ أضطرُّهُ إلىٰ عذابِ النَّارِ وبئسَ المصيرِ﴾[3] فالخليل إنما دعا بالطيبات للمؤمنين خاصة، والله إنما أباح بهيمة الأنعام لمن حرم ما حرمه الله من الصيد وهو محرم، والمؤمنون أمرهم أن يأكلوا من الطيبات ويشكروه، ولهذا ميّز سبحانه وتعالى بين خطاب الناس مطلقاً وخطاب المؤمنين فقال: ﴿يا أيُّها الناسُ كلُوا ممَّا في الأرضِ حَلالاً طيباً ولا تتبعُوا خُطواتِ الشَّيطانِ[4] إنَّهُ لكم عدوٌّ مبينٌ. إنَّما يأمركم بالسّوءِ والفحشاءِ وأنْ تقولوا على اللهِ ما لا تعلمونَ. وإذا قيلَ لهُمُ اتَّبعوا ما أنْزَلَ اللهُ قالوا بل نتبعُ ما ألفينا[5] عليهِ آباءَنا أو لو كانَ آباؤُهم لا يعقلونَ شيئاً ولا يهتدونَ﴾[6] فإنما أذن للناس أن يأكلوا مما في الأرض بشرطين: أن يكون طيباً وأن يكون حلالاً، ثم قال: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمنوا كلوا مِنْ طيِّباتِ ما رزقناكمْ واشكروا للهِ إنْ كنتُمْ إيَّاهُ تعبدونَ. إنَّما حرَّم عليكُمُ الميتَةَ والدَّمَ ولحمَ الخنزيرِ وما أُهلَّ بهِ لغيرِ اللهِ﴾[7] فأذن للمؤمنين في الأكل من الطيبات ولم يشترط الحل، وأخبر أنه

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٥١.

(٢) سورة المائدة الآية ١. والمعنى: مُحرمون بحج أو عمرة.

(٣) سورة البقرة الآية ١٢٦.

(٤) أي سلبه في الاغواء.

(٥) ألفينا: وجدنا.

(٦) سورة البقرة الآيات (١٦٨ - ١٧٠).

(٧) سورة البقرة الآيات (١٧٢ - ١٧٣) وأصل الاهلال رفع الصوت عند الذبح، والمراد به كل ما قصد التقرب بذبحه إلى غير الله.

لم يحرم عليهم إلا ما ذكره، فما سواه لم يكن محرماً على المؤمنين، ومع هذا فلم يكن أحله بخطابه، بل كان عفواً كما في الحديث عن سلمان موقوفاً مرفوعاً «الحلال ما أحله الله في كتابه والحرام ما حرمه الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفى عنه[1]».

وفي حديث أبي ثعلبة عن النبي ﷺ «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم حرمات فلا تنتهكوها[2] وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها».

وكذلك قوله تعالى: ﴿قل لا أجدُ فيما أوحيَ إليَّ محرّماً على طاعمٍ يطعمهُ إلاَّ أن يكونَ ميتةً﴾[3] نفي التحريم عن غير المذكور، فيكون الباقي مسكوتاً عن تحريمه عفواً والتحليل إنما يكون بخطاب، ولهذا قال في سورة المائدة التي أنزلت بعد هذا: ﴿يسألونكَ ماذا أُحلَّ لهمْ قلْ أُحلَّ لكمُ الطيبّاتُ وما علمتم مِنَ الجوارحِ مكلّبينَ﴾[4] - إلى قوله: ﴿اليومَ أُحلَّ لكمْ الطيبّاتَ وطعامُ الّذينَ أوتوا الكتابَ حِلٌ لكم وطعامكمْ حلٌّ لهمْ﴾[5] ففي ذلك اليوم أحل لهم الطيبات وقبل هذا لم يكن محرماً عليهم إلا ما استثناه.

وقد حرم النبي ﷺ كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، ولم يكن هذا نسخاً للكتاب، لأن الكتاب لم يحل ذلك ولكن سكت عن تحريمه، فكان تحريمه ابتداءاً شرع؛ ولهذا قال النبي ﷺ: في الحديث المروى من طرق من حديث أبي رافع وأبي ثعلبه وأبي هريرة وغيرهم «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته[6] يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: بيننا وبينكم هذا القرآن فما وجدنا فيه من حلال أحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه،

---

(١) أي تجاوز عن المؤاخذة به.

(٢) أي ترتكبوها.

(٣) سورة الانعام الآية ١٤٥.

(٤) سورة المائدة الآية ٤.

(٥) سورة المائدة الآية ٥.

(٦) كناية عن التكبر وعدم الانقياد.

ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه» وفي لفظ « ألا وإنه مثل القرآن أو أكثر؛ ألا وإني حرمت كل ذي ناب من السباع» فبين أنه أنزل عليه وحي آخر وهو الحكمة غير الكتاب، وأن الله حرم عليه في هذا الوحي ما أخبر بتحريمه، ولم يكن ذلك نسخاً للكتاب، فإن الكتاب لم يحل هذه قط؛ إنما أحل الطيبات وهذه ليست من الطيبات. وقال: ﴿يا أيّها الذينَ آمنوا كُلوا مِنْ طيبّاتِ مارزقناكم﴾[1] فلم تدخل هذه الآية في العموم لكنه لم يكن حرمها فكانت معفواً عن تحريمها لا مأذوناً في أكلها، وأما الكفار فلم يأذن الله لهم في أكل شيء ولا أحل لهم شيئاً ولا عفا لهم عن شيء يأكلونه بل قال ﴿يا أيّها النَّاس كُلوا مما في الأرض حلالاً طيّباً﴾[2] فشرط فيما يأكلونه أن يكون حلالا وهو المأذون فيه من جهة الله ورسوله. والله لم يأذن في الأكل إلا للمؤمن به، فلم يأذن لهم في أكل شيء إلا إذا آمنوا، ولهذا لم تكن أموالهم مملوكة لهم ملكاً شرعياً، لأن الملك الشرعي هو القدرة على التصرف الذي أباحه الشارع ﷺ، والشارع لم يبح لهم تصرفا في الأموال إلا بشرط الإيمان، فكانت أموالهم على الإباحة، فإذا قهر طائفة منهم قهراً يستحلونه في دينهم وأخذوها منهم صار هؤلاء فيها كما كان أولئك، والمسلمون إذا استولوا عليها فغنموها ملكوها شرعاً لأن الله أباح لهم الغنائم ولم يبحها لغيرهم[3] وتجوز لهم أن يعاملوا الكفار فيما أخذه بعضهم من بعض بالقهر الذي يستحلونه في دينهم، ويجوز أن يشتري من بعضهم ماسباه من غيره، لأن هذا بمنزلة استيلائه على المباحات.

ولهذا سمى الله ما عاد من أموالهم إلى المسلمين فيئاً[4] لأن الله أفاءه إلى مستحقه، أي رده إلى المؤمنين به الذين يعبدونه ويستعينون برزقه على عبادته فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه. وإنما خلق الرزق لهم ليستعينوا به على عبادته.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٢. (٢) سورة البقرة الآية ١٦٨.

(٣) ورد في الحديث الصحيح: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي».

(٤) ومعنى الفيء الرجوع. قال تعالى: (حتىٰ تفيء إلى أمر الله).

ولفظ الفيء قد يتناول الغنيمة كقول النبي ﷺ في غنائم حنين « ليس لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم » لكنه لما قال تعالى: ﴿وما أفاء الله على رسولِهِ منهمْ فما أوجفتم عليهِ من خيلٍ ولا ركابٍ﴾[1] صار لفظ الفيء إذا أطلق في عرف الفقهاء فهو ما أخذ من مال الكفار بغير إيجاف خيل ولا ركاب[2] والإيجاف نوع من التحريك.

وأما إذا فعل المؤمن ما أبيح له قاصداً للعدول عن الحرام إلى الحلال لحاجته إليه فإنه يثاب على ذلك كما قال النبي ﷺ « وفي بضع أحدكم صدقة » قالوا يا رسول الله يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال « أرأيتم إن وضعها في حرام كان عليه فيها وزر؟، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » وهذا كقوله في حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: « إن الله يحب أن يؤخذ برخصه[3] كما يكره أن تؤتى معصيته » رواه أحمد وابن خزيمة في صحيحه وغيرهما، فأخبر أن الله يحب إتيان رخصه كما يكره فعل معصيته، وبعض الفقهاء يرويه كما يحب أن تؤتى عزائمه وليس هذا لفظ الحديث، وذلك لأن الرخص إنما أباحها الله لحاجة العباد إليها، والمؤمنون يستعينون بها على عبادته، فهو يحب الأخذ بها لأن الكريم يحب قبول إحسانه كما قال في حديث القصر « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » ولأنه بها تتم عبادته وطاعته. وأما ما لا يحتاج إليه الإنسان من قول وعمل بل يفعله عبثاً فهذا عليه لا له كما في الحديث « كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر، وذكر الله ».

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » فأمر المؤمن بأحد أمرين: إما قول الخير أو الصمات.

---

(١) سورة الحشر الآية ٦ . واوجفتم من الايجاف وهو الاسراع.

(٢) ويقابله الغنيمة ما أخذ بالحرب والقتال.

(٣) وفي رواية « ان تؤتى رخصة » والرخصة ما شرع ثانياً مبنياً على اعذار العباد.

ولهذا كان قول الخير خيراً من السكوت عنه، والسكوت عن الشر خيراً من قوله، ولهذا قال تعالى: ﴿ما يَلفِظُ مِنْ قولٍ إلا لديهِ رقيبٌ عتيدٌ﴾[1].

وقد اختلف هل يكتب جميع أقواله؟ فقال مجاهد وغيره: يكتبان كل شيء حتى أنينه في مرضه. وقال عكرمة: لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يوزر والقرآن يدل على أنهما يكتبان الجميع، فإنه قال: ﴿ما يلفظ من قول﴾ نكرة في الشرط مؤكدة بحرف (من) فهذا يعم كل قوله. وأيضاً فكونه يؤجر على قول معين أو يوزر يحتاج إلى أن يعرف الكاتب ما أمر به وما نهى عنه فلا بد في إثبات معرفة الكاتب به إلى نقل. وأيضاً فهو مأمور إما بقول الخير وإما بالصمات، فإذا عدل عما أمر به من الصمات إلى فضول القول الذي ليس بخير كان هذا عليه فإنه يكون مكروهاً، والمكروه ينقصه ولهذا قال النبي ﷺ «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[2] فإذا خاض فيما لا يعنيه نقص من حسن إسلامه فكان هذا عليه، إذ ليس من شرط ما هو عليه أن يكون عذاب جهنم، وغضب الله، بل نقص قدره ودرجته عليه ولهذا قال تعالى: ﴿لها ما كَسَبَتْ وعليها ما اكْتَسَبَتْ﴾[3] فما يعمل أحد إلا عليه وله فإن كان مما أمر به كان له وإلا كان عليه، ولو أنه ينقص قدره، والنفس طبعها الحركة لا تسكن قط، لكن قد عفا الله عما حدث به المؤمنون أنفسهم ما لم يتكلموا به؛ فإذا عملوا به دخل في الأمر والنهي، فإذا كان الله قد كره إلى المؤمنين جميع المعاصي، وهو قد حبب إليهم الإيمان الذي يقتضي جميع الطاعات إذا لم يعارضه ضد باتفاق الناس فإن المرجئة[4] لا تنازع في أن الإيمان الذي في القلب يدعو إلى فعل الطاعة

---

(١) سورة ق الآية ١٨.

(٢) وهذا احد الاحاديث التي عليها مدار الاسلام.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٦ والمعنى أن لها ما كسبت من الخير و عليها ما اكتسبت من الشر.

(٤) هي فرقة تزعم ان الايمان وحده كاف للنجـاة من النار ويقولون: لا تضر مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

ويقتضي ذلك، والطاعة من ثمراته ونتائجه، لكنها تتنازع هل يستلزم الطاعة، فإنه وإن كان يدعو إلى الطاعة فله معارض من النفس والشيطان، فإذا كان قد كره إلى المؤمنين المعارض كان المقتضي للطاعة سالماً عن هذا المعارض.

وأيضاً فإذا كرهوا جميع السيئات لم يبق إلا حسنات أو مباحات، والمباحات لم تبح إلا لأهل الإيمان الذين يستعينون بها على الطاعات وإلا فالله لم يبح قط لأحد شيئاً أن يستعين به على كفر ولا فسوق ولا عصيان ولهذا لعن النبي ﷺ عاصر الخمر ومعتصرها[1] كما لعن شاربها والعاصر يعصر عنباً يصير عصيراً يمكن أن ينتفع به في المباح، لكن لما علم أن قصد العاصر أن يجعلها خمراً لم يكن له أن يعينه بما جنسه مباح على معصية الله، بل لعنه النبي ﷺ على ذلك، لأن الله لم يبح إعانة العاصي على معصيته، ولا أباح له ما يستعين به في المعصية، فلا يكون مباحاً لهم إلا إذا استعانوا بها على الطاعات، فيلزم من انتفاء السيئات أنهم لا يفعلون إلا الحسنات، ولهذا كان من ترك المعاصي كلها فلا بد أن يشتغل بطاعة الله. وفي الحديث الصحيح «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها[2]».

فالمؤمن لا بد أن يحب الحسنات ولا بد أن يبغض السيئات ولا بد أن يسره فعل الحسنة ويسوؤه فعل السيئة، ومتى قدر أنه في بعض الأمور ليس كذلك كان ناقص الإيمان.

والمؤمن قد تصدر منه السيئة فيتوب منها أو يأتي بحسنات تمحوها[3] أو يبتلي ببلاء يكفرها عنه. ولكن لا بد أن يكون كارهاً لها، فإن الله أخبر أنه حبب إلى المؤمنين الإيمان وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، فمن لم يكره الثلاثة

---

(١) العاصر: هو من يقوم بعصرها بالفعل، والمعتصر من يكلفه عصرها.

(٢) أي مهلكها بما يكسب من المعاصي.

(٣) قال تعالى: (إن الحسنات يذهبن السيئات) وفي الحديث «واتبع السيئة الحسنة تمحها».

لم يكن منهم، ولكن محمد بن نصر يقول: الفاسق يكرهها تديناً، فيقال إن أريد بذلك أنه يعتقد أن دينه حرمها وهو يحب دينه وهذه من جملته فهو يكرهها وإن كان يحب دينه مجملاً وليس في قلبه كراهة لها كان قد عدم من الإيمان بقدر ذلك كما في الحديث الصحيح «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

وفي الحديث الآخر الذي في الصحيح أيضاً ـ صحيح مسلم[1] ـ «فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبة خردل».

فعلم أن القلب إذا لم يكن فيه كراهة ما يكرهه الله لم يكن فيه من الإيمان الذي يستحق به الثواب، وقوله «من الإيمان» أي من هذا الإيمان وهو الإيمان المطلق أي ليس وراء هذه الثلاث ما هو من الإيمان ولا قدر حبة خردل. والمعنى: هذا آخر حدود الإيمان، ما بقي بعد هذا من الإيمان شيء ليس مراده أنه من لم يفعل ذلك لم يبق معه من الإيمان شيء، بل لفظ الحديث إنما يدل على المعنى الأول.

دخول لفظ النفاق في الكفر عند إفراد الكفر بالذكر

ومن هذا الباب لفظ الكفر والنفاق، فالكفر إذا ذكر مفرداً في وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون كقوله: ﴿ومن يكفرْ بالإيمان فقد حبطَ عملُهُ[2] وهوَ في الآخرةِ مِنَ الخاسرينَ[3]﴾ وقوله: ﴿ومن يكفرْ بالله وملائكتهِ وكتبهِ ورسله واليومِ الآخر فقدْ ضَلَّ ضلالاً بعيداً[4]﴾ وقوله: ﴿لا يصلاها[5] إلاَّ الأشقى

(١) وهو من رواية ابي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أي بطل فلا ثواب له عليه. (٣) سورة المائدة الآية ٥.

(٤) سورة النساء الآية ١٣٦. (٥) أي لا يدخلها ويحترق بسعيرها.

الذي كذَّبَ وتولّى[1]﴾ وقوله: ﴿كلما أُلقيَ فيها فوجٌ سألهمْ خزنَتُها ألم يأتكمْ نذيرٌ؟ قالوا بلى[2] قد جاءَنا نذيرٌ فكذَّبنا وقلنا ما نزّل اللهُ منْ شيءٍ إنْ أنتم إلاَّ في ضلالٍ كبيرٍ﴾[3] وقوله ﴿وسيقَ الذينَ كفروا إلى جهنَّمَ زُمراً[4] حتى إذا جاءُوها فُتِحتْ أبوابُها وقالَ لهم خزنَتُها ألم يأتِكُمْ رسلٌ منكُمْ يتلونَ عليكمُ آياتِ ربكمْ وينذرونكمْ[5] لقاءَ يومكمْ هذا؟ قالوا بلى ولكنْ حقَّتْ كلمةُ العذابِ على الكافرينَ. قيلَ ادخلوا أبوابَ جهنَّمَ خالدينَ فيها فبئسَ مثوى[6] المتكبرينَ﴾[7] وقوله: ﴿ومَنْ أظلمُ مَمن افترى على اللهِ كذباً أو كذَّبَ بالحقِّ لما جاءَه أليسَ في جهنَّمَ مثوىً للكافرينَ﴾[8] وقوله: ﴿ومنْ أعرضَ عَنْ ذِكري فإنَّ لهُ معيشةً ضنكاً[9]، ونحشُرُهُ يومَ القيامةِ أعمى. قال ربِّ لمَ حشرتني أعمى وقدْ كنتُ بصيراً؟ قالَ كذلكَ أتتك آياتنا فنسيتَها وكذلكَ اليومَ تُنسى. وكذلك نجزي مَنْ أسرفَ ولمْ يؤمنْ بآياتِ ربِّه ولعذابُ الآخرةِ أشدُّ وأبقى﴾[10] وقوله: ﴿إن الذينَ كفروا من أهل الكتابِ والمشركينَ في نارِ جهنَّمَ خالدينَ فيها أولئكَ هُمْ شرُّ البريةِ﴾[11].

وأمثال هذه النصوص كثير في القرآن، فهذه كلها يدخل فيها المنافقون الذين هم في الباطن كفار ليس معهم من الإيمان شيء، كما يدخل فيها الكفار المظهرون للكفر، بل المنافقون في الدرك الأسفل من النار[12]، كما أخبر الله بذلك في كتابه.

ثم قد يقرن الكفر بالنفاق في مواضع، ففي أول البقرة ذكر أربع آيات في

(١) سورة الليل الآيات (١٥ - ١٦).

(٢) جواب النفي أي قد جاءنا نذير.

(٣) سورة الملك الآيات (٨ - ٩).

(٤) أي جماعات وهو جمع زمرة.

(٥) الإنذار: إعلام فيه تخويف.

(٦) المثوى: مكان الإقامة.

(٧) سورة الزمر الآيات (٧١ - ٧٢).

(٨) سورة العنكبوت الآية ٦٨.

(٩) أي ضيقة شديدة.

(١٠) سورة طه الآيات (١٢٤ - ١٢٧).

(١١) سورة البينة الآية ٦. والبرية: الخليقة. والبرء: الخلق.

(١٢) يعني في قعرها وهو أشدها عذاباً.

صفة المؤمنين، وآيتين في صفة الكافرين، وبضع عشرة آية في صفة المنافقين فقال تعالى: ﴿إنَّ الله جامعُ المنافقينَ والكافرينَ في جهنَّمَ جميعاً﴾ [١] وقال: ﴿يوم يقولُ المنافقونَ والمنافقاتِ للذَّينَ آمنوا انظُرُونا [٢] نقتبسْ مِنْ نورِكُمْ قيلَ ارجعوا وراءَكُمْ فالتمسوا نوراً﴾ [٣] إلى قوله: ﴿فاليومَ لا يؤخذُ منكمْ فديةٌ ولا مِنَ الذَّينَ كفرُوا مأواكُمُ النّارُ هيَ مولاكُمْ وبئسَ المصيرُ﴾ [٤] وقال: ﴿يا أيّها النبيُّ جاهدِ الكفَّارَ والمنافقينَ واغلظْ عليهمْ﴾ [٥] في سورتين، وقال: ﴿ألم ترَ إلى الذَّينَ نافقوا يقولونَ لإخوانِهمُ الذَّينَ كَفروا﴾ [٦] الآية.

وكذلك لفظ المشركين قد يقرن بأهل الكتاب فقط وقد يقرن بالملل الخمس كما في قوله تعالى: ﴿إن الذينَ آمنُوا والذينَ هادُوا والصابئين [٧] والنَّصارىٰ والمجوسَ والذَّينَ أشرَكُوا، إنَّ الله يَفْصِلُ بينهم يومَ القيامةِ إنَّ الله على كلِّ شيءٍ شهيدٌ﴾ [٨] والأول كقوله: ﴿لم يكنِ الذينَ كفروا من أهلِ الكتابِ والمشركينَ منفكّينَ حتىٰ تأتيهم البينةُ﴾ [٩] وقوله: ﴿إنَّ الذينَ كفروا من أهلِ الكتاب والمشركينَ في نارِ جهنَّمَ خالدينَ فيها أولئكَ هم شرُّ البرية﴾ [١٠] وقوله تعالى: ﴿وقل للذينَ أوتـوا الكتـابَ والأميين [١١] أأسلمتمْ؟ فـإن أسلمـوا فقـد اهتدوا وإنْ تولوا فإنّما عليكَ البلاغُ﴾ [١٢] وليس أحد بعد مبعث محمد ﷺ إلا من الذين أوتوا الكتاب والأميين، وكل أمة لم تكن من الذين أوتوا الكتاب فهم من الأميين، كالأميين من العرب ومن الخزر والصقالبة والهند والسودان وغيرهم

---

(١) سورة النساء الآية ١٤٠.

(٢) يعني انتظرونا، فهو من نظره بمعنى انتظره.

(٣) سورة الحديد ١٣.

(٤) سورة الحديد الآية ١٥.

(٥) سورة التوبة ٧٣.

(٦) سورة الحشر الآية ١١.

(٧) هم قوم يعبدون الكواكب ومركزهم حران وهم قوم إبراهيم عليه السلام.

(٨) سورة الحج الآية ١٧.

(٩) سورة البينة الآية ١.

(١٠) سورة البينة الآية ٦.

(١١) جمع أمي وهو من لا يقرأ ولا يكتب والمراد بهم هنا العرب باعتبار الأغلب.

(١٢) سورة آل عمران الآية ٢٠.

من الأمم الذين لا كتاب لهم، فهؤلاء كلهم أميون، والرسول مبعوث إليهم كما بعث إلى الأميين العرب.

وقوله: ﴿وقلْ للذينَ أوتوا الكتابَ﴾ [1] وهو إنما يخاطب الموجودين في زمانه بعد النسخ والتبديل، فدل على أن من دان بدين اليهود والنصارى فهو من الذين أوتوا الكتاب لا يختص هذا اللفظ بمن كانوا متمسكين به قبل النسخ والتبديل، ولا فرق بين أولادهم وأولاد غيرهم، فإن أولادهم إذا كانوا بعد النسخ والتبديل ممن أوتوا الكتاب فكذلك غيرهم إذا كانوا كلهم كفاراً، وقد جعلهم الذين أوتوا الكتاب بقوله: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب﴾ وهو لا يخاطب بذلك إلا من بلغته رسالته لا من مات، فدل ذلك على أن قوله: ﴿وطعامُ الذّينَ أوتوا الكتابَ﴾ [2] يتناول هؤلاء كلهم كما هو مذهب الجمهور من السلف والخلف، وهو مذهب مالك وأبي حنيفة وهو المنصوص عن أحمد في عامة أجوبته، فلم يختلف كلامه إلا في نصارى بني تغلب [3]، وآخر الروايتين عنه أنهم تباح نساؤهم وذبائحهم كما هو قول جمهور الصحابة وقوله في الرواية الأخرى: لا تباح متابعة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لم يكن لأجل النسب [4] بل لكونهم لم يدخلوا في دين أهل الكتاب إلا فيما يشتهونه من شرب الخمر ونحوه، ولكن بعض التابعين ظن أن ذلك لأجل النسب كما نقل عن عطاء، وقال به الشافعي ومن وافقه من أصحاب أحمد. وفرعوا على ذلك فروعاً كمن كان أحد أبويه كتابياً والآخر ليس بكتابي ونحو ذلك حتى لا يوجد في طائفة من كتب أصحاب أحمد إلا هذا القول، وهو خطأ على مذهبه مخالف لنصوصه، لم يعلق الحكم بالنسب في مثل هذا ألبتة، كما قد بسط في موضعه.

---

(١) سورة آل عمران الآية ٢٠. (٢) سورة المائدة الآية ٥. والمقصود ذبائحهم.

(٣) وهم قبيلة عربية كبيرة تنصرت في الجاهلية.

(٤) أي لأجل كونهم عرباً.

ولفظ المشركين يذكر مفرداً[1] في مثل قوله: ﴿ولا تنكِحُوا المشركاتِ حتى يؤمنَّ﴾[2] وهل يتناول أهل الكتاب؟ فيه قولان مشهوران للسلف والخلف والذين قالوا بأنها تعم، منهم من قال هي محكمة كابن عمر[3] والجمهور الذين يبيحون نكاح الكتابيات كما ذكره الله في آية المائدة وهي متأخرة عن هذه[4]، ومنهم من يقول: نسخ منها تحريم نكاح الكتابيات[5]. ومنهم من يقول: بل هو مخصوص لم يرد باللفظ العام، وقد أنزل الله تعالى بعد صلح الحديبية قوله: ﴿ولا تمسِكُوا بعصمِ الكَوافرِ﴾[6] وهذا قد يقال إنما نهي عن التمسك بالعصمة من كان متزوجاً كافرة ولم يكونوا حينئذ متزوجين إلا بمشركة وثنية، فلم يدخل في ذلك الكتابيات.

لفظ الصالح والشهيد والصديق يتناول النبيين عند الإطلاق

وكذلك لفظ: الصالح والشهيد والصديق، يذكر مفرداً فيتناول النبيين قال تعالى في حق الخليل: ﴿وآتيناهُ أجرهُ في الدُّنيا وإنَّهُ في الآخرة لمنَ الصالحينَ﴾ وقال: ﴿وآتيناهُ في الدُّنيا حسنةً[7] وإنَّهُ في الآخرةِ لمنَ الصالحينَ﴾[8] وقال الخليل ﴿ربِّ هبْ لي حكماً وألحقني بالصالحينَ﴾[9] وقال يوسف: ﴿تَـوَفَّني مسلماً

---

(١) أي غير مقرون بغيره. (٢) سورة البقرة الآية ٢٢١.

(٣) ولهذا ذهب إلى تحريم نكاح الكتابيات واعتبرهن مشركات.

(٤) وهي قوله تعالى: ﴿والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ فالصحيح أن نكاح الكتابيات جائز كما هو مذهب الجمهور وكما دل عليه صريح هذه الآية وهي من آخر ما نزل.

(٥) وهو قول لا دليل عليه.

(٦) سورة الممتحنة الآية ١٠ والمعنى بعقد نكاحهن.

(٧) وهي الذكر الحسن وجعل النبوة في ذريته.

(٨) سورة النحل الآية ١٢٢.

(٩) سورة الشعراء الآية ٨٣.

وألحقني بالصالحينَ﴾[1] وقال سليمان: ﴿وأدخلني برحمتكَ في عبادكَ الصالحينَ﴾[2] وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح المتفق على صحته لما كانوا يقولون في آخر صلاتهم: «السلام على الله قبل عباده السلام على فلان، فقال لنا رسول الله ﷺ ذات يوم: «إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإذا قالها أصابت كل عبد صالح لله في السماء والأرض» الحديث، وقد يذكر الصالح مع غيره كقوله تعالى: ﴿فأولئكَ معَ الذّينَ أنعمَ اللهُ عليهم مِنَ النبيينَ والصديقينَ والشهداء والصالحينَ﴾[3] قال الزجاج وغيره: الصالح القائم بحقوق الله وحقوق عباده. ولفظ الصالح خلاف الفاسد، فإذا أطلق فهو الذي صلح جميع أمره فلم يكن فيه شيء من الفساد فاستوت سريرته وعلانيته وأقواله وأعماله على ما يرضى ربه. وهذا يتناول النبيين ومن دونهم، ولفظ الصديق قد جعل هنا معطوفاً على النبيين وقد وصف به النبيين في مثل قوله: ﴿واذكرْ في الكتاب إبراهيمَ إنهُ كانَ صدّيقاً نبياً﴾[4] ـ ﴿واذكرْ في الكتابِ إدريسَ إنهُ كانَ صِدّيقاً نبياً﴾[5].

وكذلك الشهيد قد جعل هنا قرين الصديق والصالح، وقد قال: ﴿وجيءَ بالنبيّينَ والشهداء وقضي بينهمْ بالحقّ﴾[6] ولما قيدت الشهادة على الناس وصفت به الأمة كلها في قوله: ﴿وكذلكَ جعلناكم أمةً وسطاً[7] لتكونوا شهداءَ على النَّاسِ ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً﴾[8] فهذه شهادة مقيدة بالشهادة على الناس كالشهادة المذكورة في قوله: ﴿لولا جاءُوا عليهِ بأربعةِ شهداءَ﴾[9] وقوله:

---

(١) سورة يوسف الآية ١٠١. (٢) سورة النمل الآية ١٩. (٣) سورة النساء الآية ٦٩.
(٤) سورة مريم الآية ٤١. (٥) سورة مريم الآية ٥٦.
(٦) سورة الزمر الآية ٦٩. (٧) أي أخياراً عدولاً مزكين بالعلم والعمل.
(٨) سورة البقرة الآية ١٤٣.
(٩) وهو النصاب المقرر لجريمة الزنا فلا تثبت إلّا بأربعة شهود كلهم يقول رأيناه يزني بها كالميل في المكحلة ونحوه.

﴿واستشهدُوا شهيدين من رجالكمْ﴾ [1] وليست هذه الشهادة المطلقة في الآيتين ذلك كقوله: ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ [2] .

المعصية إذا أطلقت تناولت الكفر والفسوق

وكذلك لفظ المعصية والفسوق والكفر، فإذا أطلقت المعصية لله ورسوله دخل فيه الكفر والفسوق كقوله: ﴿ومن يعصِ الله ورسولهُ فإنَّ لهُ نارَ جهنَّمَ خالدينَ فيها أبداً﴾ [3] وقال الى: ﴿وتلكَ عادٌ جحدوا [4] بآياتِ ربهم وعصوا رسلهُ واتَّبعوا أمرَ كلِّ جبارٍ عنيدٍ﴾ [5] وأطلق معصيته للرسل بأنهم عصوا هوداً معصية تكذيب لجنس الرسل، فكانت المعصية لجنس الرسل كمعصية من قال: ﴿فكَذَّبنَا وقُلنا ما نَزَّلَ اللهُ من شيءٍ﴾ [6] ومعصية من كذب وتولى قال تعالى: ﴿لا يصلاها إلاّ الأشقىٰ الذي كذَّبَ وتولىٰ﴾ [7] أي كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر، وإنما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا. وكذلك قال في فرعون: ﴿فَكذبَ وعصىٰ﴾ [8] وقال عن جنس الكافر ﴿فلا صدَّقَ ولا صلىٰ. ولكنْ كذَّبَ وتولىٰ﴾ [9] فالتكذيب للخبر والتولي عن الأمر، وإنما الإيمان تصديق الرسل فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا، ومنه قوله: ﴿كما أرسلنا إلىٰ فِرعَونَ رسولاً. فعصى فرعونُ الرسول﴾ [10].

ولفظ التولي بمعنى التولي عن الطاعة مذكور في مواضع من القرآن كقوله: ﴿ستدعونَ إلىٰ قومٍ أولي بأسٍ شديدٍ [11] تقاتلونهم أو يُسلمونَ، فإنْ تُطيعوا يؤتِكمْ الله أجراً حسناً، وإنْ تتولوا كما توليتمْ منْ قبلُ يعذبكمْ عذاباً أليماً﴾ [12]

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٢.
(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٠. والمعنى: يكرمهم بمنصب الشهادة. (٣) سورة الجن الآية ٢٣
(٤) الجحد: التكذيب والإنكار. (٥) سورة هود الآية ٥٩. (٦) سورة الملك الآية ٩.
(٧) سورة الليل الآية (١٥ - ١٦). (٨) سورة النازعات الآية ٢١.
(٩) سورة القيامة الآية (٣١ - ٣٢). (١٠) سورة المزمل الآية (١٥ - ١٦).
(١١) صحيح أنهم بنو حنيفة قوم مسيلمة. (١٢) سورة الفتح الآية ١٦.

وذمه في غير موضع من القرآن من تولى دليل على وجوب طاعة الله ورسوله. وأن الأمر المطلق يقتضي وجوب الطاعة وذم التولي عن الطاعة كما علق الذم بمطلق المعصية في مثل قوله: ﴿فعصى فرعونُ الرسولَ﴾ [1] وقد قيل إن التأبيد لم يذكر في القرآن إلا في وعيد الكفار ولهذا قال: ﴿ومن يقتلْ مؤمناً متعمداً فجزاؤهُ جهنَّم خالداً فيها وغضبَ اللهُ عليهِ ولعنهُ وأعدَّ لهُ عذاباً عظيماً﴾ [2] وقال فيمن يجور في المواريث: ﴿ومن يعصِ اللهَ ورسولهُ ويتعدَّ حدودَهُ يدخله ناراً خالداً فيها ولهُ عذابٌ مهينٌ﴾ [3] فهنا قيد المعصية بتعدي حدوده فلم يذكرها مطلقة وقال: ﴿وعصى آدمُ ربه فغوى﴾ [4] فهي معصية خاصة وقال تعالى: ﴿حتى إذا فشلتم [5] وتنازعتمْ في الأمرِ وعصيتمْ مِنْ بعدِ ما أراكم ما تحبونَ﴾ [6] فأخبر عن معصية واقعة معينة، وهي معصية الرماة للنبي ﷺ حيث أمرهم بلزوم ثغرهم [7] وإن رأوا المسلمين قد انتصروا، فعصى من عصى منهم هذا الأمر [8]، وجعل أميرهم يأمرهم لما رأوا الكفار منهزمين، وأقبل من أقبل منهم على المغانم، وكذلك قوله: ﴿وكرَّهَ إليكم الكفرَ والفسوقَ والعِصيان﴾ [9]. جعل ذلك ثلاث مراتب، وقد قال ﴿ولا يعصينكَ في معروفٍ﴾ فقيد المعصية، ولهذا فسرت بالنياحة.

وقال ابن عباس: روى ذلك مرفوعاً، وكذلك قال زيد بن أسلم: لا تدعن ويلاً [10] ولا تخدشن وجهاً، ولا تنشرن شعراً، ولا تشققن ثوباً، وقد قال بعضهم: هو جميع ما يأمرهم به الرسول من شرائع الإسلام وأدلته كما قاله أبو سليمان

---

(١) سورة المزمل ١٦.

(٢) سورة النساء الآية ٩٣.

(٣) سورة النساء الآية ١٤.

(٤) سورة طه الآية ١٢١.

(٥) أي جبنتم.

(٦) سورة آل عمران الآية ١٥٢.

(٧) أي أماكنهم التي أمرهم بالمرابطة فيها.

(٨) قيل كانوا خمسين ثبت منهم عشرة مع أميرهم عبد الله بن جبير ونزل الباقي.

(٩) سورة الحجرات الآية ٧.

(١٠) يعني لا تقلن يا ويلاه.

الدمشقي [1] ولفظ الآية عام أنهن لا يعصينه في معروف، ومعصيته لا تكون إلا في معروف فإنه لا يأمر بمنكر، لكن هذا كما قيل فيه دلالة على أن طاعة ولي الأمر إنما تلزم في المعروف كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «إنما الطاعة في المعروف» ونظير هذا قوله: ﴿استجيبوا لله وللرسولِ إذا دعاكم لما يحييكُمْ﴾.[2] وهو لا يدعو إلا إلى ذلك، والتقييد هنا لا مفهوم له، فإنه لا يقع دعاء لغير ذلك ولا أمر بغير معروف. وهذا كقوله تعالى: ﴿ولا تُكرهوا فتياتِكم علىٰ البغاءِ إنْ أردْنَ تحصُّناً﴾ [3] فإنهن إذا لم يردن امتنع الإكراه. ولكنّ في هذا بيان الوصف المناسب للحكم ومنه قوله تعالى: ﴿ومن يدعُ معَ اللهِ إلهاً آخرَ لا برهانَ لهُ به فإنَّما حسابهُ عندَ ربه إنهُ لا يفلحُ الكافرون﴾[4] وقوله: ﴿ويقتلونَ النبيّينَ بغيرِ الحقّ﴾ [5] فالتقييد في جميع هذا للبيان والإيضاح لا لإخراج وصف آخر، ولهذا يقول من يقول من النحاة: الصفات في المعارف للتوضيح لا للتخصيص، وفي النكرات للتخصيص، يعني في المعارف التي لا تحتاج إلى تخصيص كقوله: ﴿سبح اسمَ ربّكَ الأعلىٰ. الذي خلقَ فسوىٰ﴾[6] وقوله: ﴿الذّينَ يتبعونَ الرسولَ النبي الأميَّ الذي يجدونهُ مكتوباً عندهمْ في التوراةِ والإنجيلِ﴾ [7] وقوله: ﴿الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ الرَّحمنِ الرَّحيمِ﴾ [8] والصفات في النكرات إذا تميزت تكون للتوضيح أيضاً، ومع هذا فقد عطف المعصية على الكفر والفسوق في قوله: ﴿وكَرَّهَ إليكم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ﴾[9] ومعلوم أن الفاسق عاص أيضاً.

---

(١) وهذا هو الصحيح لأنه الموافق لعموم الآية.

(٢) سورة الانفال الآية ٢٤.

(٣) سورة النور الآية ٣٣ وتحصناً: تعففاً.

(٤) سورة المؤمنون الآية ١١٧.

(٥) سورة البقرة الآية ٦١.

(٦) سورة الأعلى الآية (١ - ٢).

(٧) سورة الاعراف الآية ١٥٧.

(٨) سورة الفاتحة الآية ١.

(٩) سورة الحجرات الآية ٧.

ظلم النفس إذا أطلق تناول جميع الذنوب

ومن هذا الباب ظلم النفس فإنه إذا أطلق تناول جميع الذنوب، فإنها ظلم العبد نفسه قال تعالى: ﴿ذلكَ مِنْ أنباءِ القرىٰ نقصُّهُ عليكَ منها قائمٌ وحصيدٌ[1] وما ظلمناهمْ ولكنْ ظلموا أنفسهمْ فما أغنتْ عنهم آلهتهم[2] التي يدعونَ من دونِ اللهِ منْ شيءٍ لما جاءَ أمرُ ربكَ وما زادوهم غيرَ تتبيبٍ﴾ [3] وقال تعالى: ﴿وإذ قالَ موسىٰ لقومهِ يا قومِ إنَّكم ظلمتمْ أنفسكمْ باتخاذكمُ العجلَ[4] فتوبوا إلى بارئِكمْ﴾ [5] وقال في قتل النفس: ﴿ربِّ إني ظلمتُ نفسي فاغفرْ لي﴾ [6] وقالت بلقيس: ﴿ربِّ إني ظلمتُ نفسي وأسلمتُ معَ سليمانَ للهِ ربِّ العالمينَ﴾[7] وقال آدم عليه السلام: ﴿ربنا ظلمنا أنفسَنا وإنْ لم تغفرْ لنا وترحَمنا لنكوننَّ منَ الخاسرينَ﴾[8] ثم قد يقرن ببعض الذنوب كقوله تعالى: ﴿والذينَ إذا فعلوا فاحشة[9] أو ظلموا أنفسهمْ﴾[10] وقوله: ﴿ومنْ يعملْ سوءاً أو يظلمْ نفسهُ ثم يستغفرِ اللهَ يجدِ اللهَ غفوراً رحيماً﴾[11].

وأما لفظ الظلم المطلق فيدخل فيه الكفر وسائر الذنوب. قال تعالى ﴿احشروا الذينَ ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدونَ مِنْ دونِ اللهِ فاهدوهم إلىٰ صراطِ الجحيمِ. وقفوهم إنَّهم مسئولونَ﴾[12] قال عمر بن الخطاب وأزواجهم: ونظراءهم. وهذا ثابت عن عمر، وروى ذلك عنه مرفوعاً وكذلك

---

(١) قائم أي عامر. وحصيد أي هالك.

(٢) أي ما نفعتهم بشيء ولا دفعت عنهم شيئاً من عذاب الله.

(٣) وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: أي غير تخسير.

(٤) أي إلها فحذف المفعول. (٥) سورة البقرة الآية ٥٤.

(٦) سورة القصص الآية ١٦.

(٧) سورة النمل الآية ٤٤. (٨) سورة الأعراف الآية ٢٣.

(٩) هي الزنا. (١١) سورة النساء ١١٠.

(١٠) سورة آل عمران الآية ١٣٥. (١٢) سورة الصافات الآية (٢٢ - ٢٤).

قال ابن عباس: وأشباههم. وكذلك قال قتادة والكلبي: كل من عمل بمثل عملهم فاهل الخمر مع أهل الخمر، وأهل الزنا مع أهل الزنا. وعن الضحاك ومقاتل: قرناءهم من الشياطين كل كافر معه شيطانه في سلسلة وهذا كقوله: ﴿وإذا النُّفوسُ زُوِّجت﴾[1] قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الفاجر مع الفاجر والصالح مع الصالح». قال ابن عباس: وذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة. وقال الحسن وقتادة: «ألحق كل امرىء بشيعته، اليهودي مع اليهود، والنصراني مع النصارى». وقال الربيع بن خيثم: «يحشر المرء مع صاحب عمله وهذا كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ لما قيل له: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، قال «المرء مع من أحب» وقال «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» وقال «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل».

وزوج الشيء نظيره. وسمى «الصنف» زوجا لتشابه أفراده كقوله: ﴿أنبتنا فيها من كلِّ زوجٍ كريمٍ﴾[2] وقال: ﴿ومِنْ كلِّ شيءٍ خلقنا زوجينِ لعلَّكم تذكَّرونَ﴾[3] قال غير واحد من المفسرين: صنفين ونوعين مختلفين: السماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهـار، والبر والبحـر، والسهـل والجبـل والشتاء والصيف، والجن والانس، والكفر والإيمان، والسعادة والشقاوة، والحق والباطل، والذكر والأنثى، والنور والظلمة، والحلو والمر، وأشباه ذلك، لعلكم تذكرون فتعلمون أن خالق الأزواج واحد، وليس المراد أنه يحشر معهم زوجاتهم مطلقاً، فإن المرأة الصالحة قد يكون زوجها فاجراً بل كافراً كامرأة فرعون[4]، وكذلك الرجل الصالح قد تكون امرأته فاجرة بل كافرة كامرأة نوح ولوط، لكن إن كانت المرأة على دين زوجها دخلت في عموم الأزواج، ولهذا قال الحسن البصري: وأزواجهم المشركات.

---

(١) سورة التكوير الآية ٧. (٢) سورة الشعراء الآية ٧. (٣) سورة الذاريات الآية ٤٩.

(٤) فهي في الدرجات العلى في الجنة وهو في أشد العذاب في النار.

فلا ريب أن هذه الآية تناولت الكفار كما دل عليه سياق الآية، وقد تقدم كلام المفسرين أنه يدخل فيها الزناة مع الزناة وأهل الخمر مع أهل الخمر وكذلك الأثر المروي «إذا كان يوم القيامة قيل أين الظلمة وأعوانهم أو قال أشباههم، فيجمعون في توابيت[1] من نار ثم يقذف بهم في النار»، وقد قال غير واحد من السلف: أعوان الظلمة من أعانهم ولو أنه ناولهم دواة أو برى لهم قلماً[2]، ومنهم من كان يقول بل من يغسل ثيابهم من أعوانهم، وأعوانهم هم من أزواجهم المذكورين في الآية، فإن المعين على البر والتقوى من أهل ذاك، والمعين على الاثم والعدوان من أهل ذاك. قال تعالى: ﴿مَنْ يشفعْ شفاعةً حسنةً يكنْ لهُ نصيبٌ مِنها ومنْ يشفعْ شفاعةً سيئةً يكنْ لهُ كِفْلٌ مِنها﴾[3] والشافع الذي يعين غيره فيصير معه شفيعاً بعد أن كان وتراً، ولهذا فسرت الشفاعة الحسنة باعانة المؤمنين على الجهاد، والشفاعة السيئة بإعانة الكفار على قتال المؤمنين كما ذكر ذلك ابن جرير وأبو سليمان، وفسرت الشفاعة الحسنة بشفاعة الإنسان للإنسان ليجتلب له نفعاً أو يخلصه من بلاء كما قال الحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد. فالشفاعة الحسنة إعانته على خير يحبه الله ورسوله، مع نفع من يستحق النفع ودفع الضرر عمن يستحق دفع الضرر عنه، والشفاعة السيئة إعانته على ما يكرهه الله ورسوله كالشفاعة التي فيها ظلم الإنسان أو منع الإحسان الذي يستحقه، وفسرت الشفاعة الحسنة بالدعاء للمؤمنين، والسيئة بالدعاء عليهم، وفسرت الشفاعة الحسنة بالإصلاح بين اثنين، وكل هذا صحيح، فالشافع زوج المشفوع له، إذ المشفوع عنده من الخلق إما أن يعينه على بر وتقوى، وإما أن يعينه على إثم وعدوان. وكان النبي ﷺ إذا أتاه طالب حاجة قال لأصحابه «إشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء».

---

(١) جمع تابوت وهو الصندوق من الخشب.

(٢) بل من ركنَ إليهم وإن لم يعنهم فهو في النار كما قال تعالى ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾.

(٣) سورة النساء الآية ٨٥. والكفل: النصيب أيضاً.

وتمام الكلام يبين أن الآية وإن تناولت الظالم الذي ظلم بكفره فهي أيضاً متناولة ما دون ذلك وإن قيل فيها: ﴿ومَا كانوا يعبدونَ﴾ فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة[1] تعس وانتكس[2] وإذا شيك فلا انتقش[3] » وثبت عنه في الصحيح أنه قال « ما من صاحب كنز إلا جعل له كنزه يوم القيامة شجاعاً أقرع[4] يأخذ بلهزمتيه[5] أنا مالك أنا كنزك » وفي رواية « إلا مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع يفر منه وهو يتبعه حتى يطوقه في عنقه » وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿سيطوقونَ ما بخِلوا به يومَ القيامةِ﴾ وفي حديث آخر « مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع يتبع صاحبه حيثما ذهب وهو يفر منه: هذا مالك الذي كنت تبخل به فإذا رأى أنه لا بد له منه أدخل يده في فيه فيقضمها[6] كما يقضم الفحل » وفي رواية: « فلا يزال يتبعه فيلقمه يده فيقضمها ثم يلقمه سائر جسده » . وقد قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿والذِّينَ يكنزونَ الذهبَ والفضةَ ولا ينفقونَها في سبيلِ اللهِ فبشرهمْ بعذابٍ أليمٍ يوم يُحمىٰ عليها في نارِ جهنَّم فَتُكوىٰ بها جباهُهم وجنوبُهمْ وظهورهُمْ هذا ما كنزتُمْ لأنفسِكُمْ فذوقوا ما كنتمْ تكنِزُونَ﴾[7] .

وقد ثبت في الصحيح وغيره عن النبي ﷺ أنه قال « ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمي عليها في نار جهنم فيجعل صفائح فيكوى بها جبينه وجنباه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » .

---

(١) هي كساء له أعلام. ومعنى تعس شقي وهلك.

(٢) أي وقع على رأسه.

(٣) شيك: أي دخلت فيه شوكة. ومعنى فلا انتقش: فلا أخرجت شوكته بالمنقاش.

(٤) أي ثعباناً كثير السم.

(٥) تثنية الهزمة وهي عظم نائي في اللحى تحت الأذن.

(٦) يقال قضم الشيء كسره بأطراف أسنانه وأكله.

(٧) سورة التوبة الآية (٣٤) - ٣٥).

وفي حديث أبي ذر «بشر الكانزين برضف[1] يحمى عليها في نار جهنم فتوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض[2] كتفيه. ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل وتكوى الجباه والجنوب والظهور حتى يلتقي الحر في أجوافهم» وهذا كما في القرآن ويدل على أنه بعد دخول النار فيكون هذا لمن دخل النار ممن فعل به ذلك أولاً في الموقف. فهذا الظالم لما منع الزكاة يحشر مع أشباهه وماله الذي صار عبداً له من دون الله فيعذب به. وإن لم يكن هذا من أهل الشرك الأكبر الذين يخلدون في النار. ولهذا قال في آخر الحديث «ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» فهذا بعد تعذيبه خمسين ألف سنة مما تعدون ثم يدخل الجنة».

وقد قال النبي ﷺ «الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل» قال ابن عباس وأصحابه: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، وكذلك قال أهل السنة كأحمد بن حنبل وغيره كما سنذكره إن شاء الله وقد قال الله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارَهُمْ ورهبانَهُمْ أرباباً من دونِ اللهِ والمسيح بنَ مريمَ وَمَا أمرُوا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إلهَ إلاَّ هوَ سبحانَهُ عمَّا يُشركونَ﴾[3] وفي حديث عدي بن حاتم وهو حديث حسن طويل رواه أحمد والترمذي وغيرهما وكان قد قدم على النبي ﷺ وهو نصراني فسمعه يقرأ هذه الآية قال فقلت له إنا لسنا نعبدهم، قال «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه»؟ قال فقلت بلى، قال «فتلك عبادتهم» وكذلك قال أبو البختري: أما إنهم لم يصلوا لهم ولو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم، ولكن أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية.

---

(١) هو بفتح فسكون: الحجارة المحماة.

(٢) النغض من الكتف: هو العظم الرقيق على طرفها.

(٣) سورة التوبة الآية ٣١.

معنى قوله تعالى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً)

وقال الربيع بن أنس: قلت لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟ قال: كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ما أمروا به ونهوا عنه فقالوا لن نسبق أحبارنا بشيء فما أمرونا به ائتمرنا وما نهونا عنه انتهينا لقولهم فاستنصحوا الرجال[1] ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم[2] فقد بين النبي ﷺ أن عبادتهم إياهم كانت في تحليل الحرام وتحريم الحلال، لا أنهم صلوا لهم وصاموا لهم ودعوهم من دون الله، فهذه عبادة الرجال وتلك عبادة للأموال، قد بينها النبي ﷺ وقد ذكر الله تعالى أن ذلك شرك بقوله: ﴿لا إلهَ إلاَّ هوَ سبحانَهُ عمَّا يشركونَ﴾[3] فهذا من الظلم الذي يدخل في قوله: ﴿احشروا الذينَ ظلموا وأزواجهمْ وما كانُوا يعبدونَ مِنْ دونِ اللهِ﴾[4] فإن هؤلاء الذين أمروهم بهذا هم جميعاً معذبون، وقال: ﴿إنَّكم وما تعبدونَ مِنْ دونِ اللهِ حصبُ جهنمَ[5] أنتم لها وارِدُونَ﴾[6] وإنما يخرج من هذا من عبد مع كراهته لأن يعبد ويطاع في معصية الله، فهم الذين سبقت لهم الحسنى[7] كالمسيح والعزير وغيرهما فأولئك عنها مبعدون.

وأما من رضي بأن يعبد ويطاع في معصية الله فهو مستحق للوعيد ولو لم يأمر بذلك، فكيف إذا أمر، وكذلك من أمر غيره بأن يعبد غير الله، وهذا من أزواجهم. فإن أزواجهم قد يكونون رؤساء لهم وقد يكونون أتباعاً. وهم أزواج وأشباه لتشابههم في الدين. وسياق الآية يدل على ذلك فإنه قال ﴿احشرُوا الذين ظلموا وأزواجهُمْ وما كانُوا يعبدونَ مِنْ دونِ اللهِ فاهدوهُمْ

---

(١) يقال استنصحه: أي طلب نصحه ومشورته.

(٢) يعني طرحوه ولم يعبأوا به.

(٣) سورة التوبة الآية ٣١.

(٤) سورة الصافات الآية (٢٢ - ٢٣).

(٥) يعني حطبها وما يرمي به فيها.

(٦) سورة الأنبياء الآية ٩٨.

(٧) يعني قضى الله بسعادتهم.

إلىٰ صراط الجحيم﴾[1] قال ابن عباس «دلوهم» وقال الضحاك مثله. وقال ابن كيسان (قدموهم) والمعنى قودوهم كما يقود الهادي لمن يهديه. ولهذا تسمى الأعناق الهوادي لأنها تقود سائر البدن. ويسمى أوائل الوحش الهوادي ﴿وقفوهم إنَّهم مسئولونَ: مالكُمْ لا تناصرونَ﴾[2] أي كما كنتم تتناصرون في الدنيا على الباطل ﴿بل همْ اليومَ مستسلمونَ[3]. وأقبلَ بعضهمْ علىٰ بعضٍ يتساءلونَ. قالوا إنَّكمْ كنتمْ تأتونَنَا عن اليمينِ[4] قالوا بلْ لمْ تكونوا مؤمنينَ. وما كانَ لنَا عليكمْ مِنْ سلطانٍ بل كنتمْ قوماً طاغينَ. فحقَّ علينا قولُ ربّنا إنَّا لذائقونَ. فأغويناكمْ إنا كنَّا غاوينَ. فإنَّهم يومئذٍ في العذابِ مشتركونَ. إنا كذلكَ نفعلُ بالمجرمينَ. إنَّهم كانُوا إذا قيلَ لهمْ لا إلهَ إلا الله يستكبرونَ. ويقولونَ أئِنَّا لتاركُوا آلهتنا لشاعرٍ مَجنونٍ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها[6] حتى إذا اداركوا[7] فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم: ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار. قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون. وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقُوا العذابَ بما كنتُمْ تكسبونَ﴾[8] وقال تعالى: ﴿وإذ يتحاجُّونَ في النارِ فيقولُ الضعفاءُ للذينَ استكبرُوا إنَّا كنَّا لكم تَبعاً فهلْ أنتم مغنونَ عنَّا نصيباً من النَّار. قالَ الذينَ استكبرُوا إنَّا كل فيها إنَّ اللهَ قد حكمَ بينَ العبادِ﴾[9] وقال تعالى: ﴿ولو ترىٰ إذ الظالمونَ موقوفونَ[10] عِندَ ربهم يرجعُ بعضهم إلى بعضٍ

---

(١) سورة الصافات الآية (٢٢ - ٢٣). والمعنى: دلوهم على طريق النار.

(٢) سورة الصافات الآية (٢٤ - ٢٥).

(٣) أذلاء منقادون.

(٤) يعني القوة والإكراه.

(٥) سورة الصافات الآية (٢٦ - ٣٦).

(٦) يعني سبتها وتبرأت منها.

(٧) أي تلاحقوا.

(٨) سورة الأعراف الآية (٣٨ - ٣٩).

(٩) سورة غافر الآية (٤٧ - ٤٨).

(١٠) يعني محبوسون للحساب.

القولَ[1] يقولُ الذينَ استضعِفُوا للذينَ استكْبرُوا لولا أنتم لكنّا مؤمنينَ. قال الذينَ استكبرُوا للذينَ استضعِفُوا أنحنُ بصددناكم[2] عن الهدى بعد إذْ جاءكم بلْ كنتمْ مجرمينَ. وقالَ الذينَ استُضعِفُوا للذينَ استكبرُوا بل مكرُ الليلِ والنهارِ إذْ تأمرونَنَا أنْ نكفرَ باللهِ ونجعلَ لهُ أنداداً[3] وأسرُّوا الندامةَ لما رأوا العذابَ، وجعلنا الأغلالَ في أعناقِ الذينَ كفروا هل يجزونَ إلاّ ما كانوا يعملونَ﴾[4].

وقوله في سياق الآية: ﴿إنَّهم كانوا إذا قيلَ لهمْ لا إلهَ إلا اللهُ يستكبرونَ﴾[5] ولا ريب أنها تتناول الشركين الأصغر والأكبر، وتتناول أيضاً من استكبر عما أمره الله به من طاعته، فإن ذلك من تحقيق قول لا إله إلا الله، فإن الإله هو المستحق للعبادة، فكل ما يعبد به الله فهو من تمام تأله العباد له، فمن استكبر عن بعض عبادته سامعاً مطيعاً في ذلك لغيره لم يحقق قول لا إله إلا الله في هذا المقام.

وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم[6] أرباباً حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين (أحدهما) أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل، فهذا كفر وقد جعله الله ورسوله شركاً وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم، فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركا مثل هؤلاء (الثاني) أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتاً لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل

---

(١) أي يرد بعضهم على بعض. (٢) أي منعناكم. والصد المنع.
(٣) جمع ند وهو المكافىء المساوي. (٤) سورة سبأ الآية (٣١ - ٣٣).
(٥) سورة الصافات الآية ٣٥.
(٦) الأحبار: جمع حبر وهو عالم اليهود، والرهبان جمع راهب.

الذنوب كما قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «إنما الطاعة في المعروف» وقال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية»[1] وقال: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» وقال: «ومن أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه».

ثم ذلك المحرم للحلال والمحلل للحرام إن كان مجتهداً قصده اتباع الرسول لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع[2]، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه[3]، ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول، فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله لا سيما إن تبع في ذلك هواه ونصره باللسان واليد مع علمه بأنه مخالف للرسول، فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه[4]، ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز تقليد أحد في خلافه، وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال وإن كان عاجزاً عن إظهار الحق الذي يعلمه، فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه، وهؤلاء كالنجاشي وغيره، وقد أنزل الله في هؤلاء آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وإنَّ من أهلِ الكتابِ لمَن يؤمنُ باللهِ وما أُنزل إليكمْ وما أُنزلَ إليهم﴾[5] وقوله: ﴿ومِنْ قومِ موسىٰ أمةٌ يهدونَ بالحقِّ وبهِ يعدلونَ﴾[6] وقوله: ﴿وإذا سمعوا ما أُنزل إلىٰ الرسولِ ترى أعينهم تفيضُ منَ الدَّمعِ مما عَرفوا من الحقِّ﴾[7].

---

(١) تمام الحديث «فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

(٢) أي بذل جهده في معرفة الحق.

(٣) وفي الصحيح «الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر».

(٤) وتأمل هذا لتعلم أن كثيراً من أتباع أئمة الضلال الذين يناصرونهم فيما خالفوا فيه الكتاب والسنة مشركون عابدون لأئمتهم.

(٥) سورة آل عمران الآية ١٩٩. (٦) سورة الأعراف الآية ١٥٩.

(٧) سورة المائدة الآية ٨٣.

وأما إن كان المتبع المجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل، وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد، فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما في القبلة، وأما إن قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق، فهذا من أهل الجاهلية وإن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً، وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثماً، كمن قال في القرآن برأيه فإن أصاب فقد أخطأ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار. وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد، ومن جنس عبد للدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، فإن ذلك لما احب المال حباً منعه عن عبادة الله وطاعته صار عبداً له وكذلك هؤلاء فيكون فيه شرك أصغر ولهم من الوعيد بحسب ذلك، وفي الحديث «إن يسير الرياء شرك» وهذا مبسوط عند النصوص التي فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير من الذنوب.

والمقصود هنا أن الظلم المطلق يتناول الكفر ولكن لا يختصر بالكفر بل يتناول ما دونه[1] أيضاً وكل بحسبه كلفظ الذنب والخطيئة والمعصية. فإن هذا يتناول الكفر والفسوق والعصيان كما في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود «قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً[2] وهو خلقك، قلت: ثم أي؟ قال: ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قلت ثم أي؟ قال: ثم أن تزني بحليلة جارك»[3]، فأنزل الله تعالى: ﴿والذينَ لا يدعونَ معَ اللهِ الهاً آخرَ ولا يقتلونَ النفسَ التي حرَّمَ اللهُ إلاّ بالحقِّ ولا يزنونَ، ومنْ يفعلْ ذلكَ يلقَ أثاماً[4]. يضاعفْ لهُ العذابُ يومَ القيامةِ ويخلدْ فيهِ مُهاناً إلاّ من تابَ وآمنَ

---

(١) أي ما هو أقل منه من الذنوب.

(٢) أي مساوياً في استحقاق العبادة والتعظيم. (٣) يعني زوجته.

(٤) يعني نكالا، وقيل واد في جهنم.

وعَمِلَ عملاً صالحاً فأولئكَ يبدّلُ اللهُ سيئاتهمْ حسناتٍ[1] وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً. ومنْ تابَ وعَمِلَ صالحاً فإنّهُ يتوبُ إلىٰ اللهِ متاباً﴾[2].

فهذا الوعيد بتمامه على الثلاثة، ولكل عمل قسط منه. فلو أشرك ولم يقتل ولم يزن كان عذابه دون ذلك. ولو زنى وقتل ولم يشرك كان له من هذا العذاب نصيب كما في قوله: ﴿ومنْ يقتلْ مؤمناً متعمداً فجزاؤهُ جهنّم خالداً فيها وغضبَ اللهُ عليهِ ولعنهُ وأعدَّ لهُ عذاباً عظيماً﴾[3] ولم يذكر «أبداً» وقد قيل إن لفظ التأبيد لم يجيء إلا مع الكفر: وقال الله تعالى: ﴿ويومَ يعضُّ الظالمُ علىٰ يديه[4] يقولُ يا ليتني اتخذتُ معَ الرسولِ سبيلاً، يا ويلتي ليتني لم أتّخذْ فلاناً خليلاً. لقدْ أضلني عن الذكرِ بعدَ إذ جاءَني وكانَ الشيطانُ للإنسانِ خذولاً﴾[5] فلا ريب أن هذا يتناول الكافر الذي لم يؤمن بالرسول، وسبب نزول الآية كان في ذلك، فإن الظلم المطلق يتناول ذلك ويتناول ما دونه بحسبه، فمن خال مخلوقاً[6] في خلاف أمر الله ورسوله كان له من هذا الوعيد نصيب، كما قال تعالى: ﴿الأخِلاءُ يومئذٍ بعضهمْ لبعضٍ عدوٌ إلا المتّقينَ﴾[7] وقال تعالى: ﴿إذ تبرأ الذينَ اتُّبِعُوا منَ الذينَ اتّبَعُوا ورأوا العذابَ وتقطعتْ بهم الأسبابُ﴾[8] قال الفضيل بن عياض: حدثنا الليث عن مجاهد: هي المودات التي كانت بينهم لغير الله، فإن المخالفة تحاب وتوادد، ولهذا قال «المرء على دين خليله» فإن المتحابين يحب أحدهما ما يحب الآخر بحسب الحب، فإذا اتبع أحدهما صاحبه على محبته ما يبغضه الله ورسوله نقص من دينهما بحسب ذلك إلى

---

(١) قال الحسن: أبدلهم الله بالعمل السيء العمل الصالح.

(٢) سورة الفرقان الآية (٦٨ - ٧١). (٣) سورة النساء الآية ٩٣

(٤) كناية عن الندم والغيظ.

(٥) صيغة مبالغة من الخذلان، يقال خذله: تخلى عن نصرته.

(٦) يعني اتخذه خليلاً.

(٧) سورة الزخرف الآية ٦٧. (٨) سورة البقرة الآية ١٦٦.

أن ينتهي إلى الشرك الأكبر. قال تعالى: ﴿ومنَ الناس منْ يتّخذُ منْ دونِ اللهِ أنداداً يحبونهمْ كحبِّ اللهِ والذينَ آمنُوا أشدُّ حباً للهِ﴾[١].

والذين قدموا محبة المال الذي كنزوه، والمخلوق الذي اتبعوه، على محبة الله ورسوله كان فيهم من الظلم والشرك بحسب ذلك، فلهذا ألزمهم محبوبهم كما في الحديث يقول الله تعالى «أليس عدلاً مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولاه في الدنيا؟» وقد ثبت في الصحيح يقول «ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون، من كان يعبد الشمس الشمس، ومن كان يعبد القمر القمر، ومن كان يعبد الطواغيت[٢] الطواغيت ويمثل للنصارى المسيح ولليهود عزير: فيتبع كل قوم ما كانوا يعبدون، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها» كما سيأتي هذا إن شاء الله، فهؤلاء أهل الشرك الأكبر.

عبيد المال والرجال يعذبون أقل من عذاب المشركين

وأما عبيد المال الذي كنزوه، وعبيد الرجال الذين أطاعوهم في معاصي الله فأولئك يعذبون عذاباً دون عذاب أولئك المشركين، وأما في عرصات[٣] القيامة وإما في جهنم، ومن أحب شيئاً دون الله عذب به. وقال تعالى: ﴿يا أيّها الذينَ آمنوا أنفقوا مما رزقناكُمْ مِنْ قبلِ أن يأتِيَ يومٌ لا بيعٌ فيهِ ولا خُلّةٌ[٤] ولا شفاعةٌ، والكافرونَ هم الظالمونَ﴾[٥] فالكفر المطلق هو الظلم المطلق، ولهذا لا شفيع لأهله يوم القيامة كما نفى الشفاعة في هذه الآية في قوله: ﴿وأنذِرْهم يومَ

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٥.

(٢) جمع طاغوت. قال عمر رضي الله عنه: إن الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان. قال ابن كثير: ومعنى قوله في الطاغوت إنه الشيطان قوي جداً فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها.

(٣) جمع عرصة وهي ساحة الدار وكل بقعة ليس فيها بناء.

(٤) هي بضم الخاء: الصداقة، وبفتحها: الخصلة أو الفقر.

(٥) سورة البقرة الآية ٢٥٤.

الآزفةِ[1] إذ القلوبُ لدى الحناجر كاظمينَ[2] ما للظالمينَ من حميمٍ ولا شفيعٍ يطاعُ يعلمُ خائنةَ الأعينِ[3] وما تُخفي الصدورُ﴾[4] وقال: ﴿فَكُبْكِبُوا فيهاهم والغاوونَ. وجنودُ إبليسَ أجمعونَ قالوا وهمْ فيها يختصمونَ. تالله إنْ كنا لفي ضلالٍ مبينٍ. إذ نسويكمْ بربِّ العالمينَ. وما أضلنا إلا المجرمونَ. فما لنا من شافعينَ. ولا صديقٍ حميمٍ. فلو أنَّ لنا كرَّةً فنكونَ مِنَ المؤمنينَ﴾[5] وقوله: ﴿نسويكم﴾ لم يريدوا به أنهم جعلوهم مساوين لله من كل وجه، فإن هذا لم يقله أحد من بني آدم، ولا نقل عن قوم قط من الكفار أنهم قالوا إن هذا العالم له خالقان متماثلان حتى المجوس القائلين بالأصلين النور والظلمة متفقون على أن النور خير يستحق أن يعبد ويحمد، وأن الظلمة شريرة تستحق أن تذم وتلعن، واختلفوا هل الظلمة محدثة أو قديمة؟ على قولين وبكل حال لم يجعلوها مثل النور من كل وجه. وكذلك مشركو العرب كانوا متفقين على أن أربابهم لم تشارك الله في خلق السموات والأرض، بل كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض وما بينهما كما أخبر الله عنهم بذلك في غير آية كقوله تعالى: ﴿ولئِنْ سألتهُمْ مَنْ خلق السَّمواتِ والأرضَ وسخَّرَ الشمسَ والقمرَ ليقولنَّ اللهُ فأنَّى يُؤفكونَ. اللهُ يبسطُ الرزقَ لمنْ يشاءُ مِنْ عبادهِ ويَقْدِرُ لهُ إنَّ اللهَ بكلِّ شيءٍ عليم. ولئِنْ سألتهُمْ مَنْ نزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فأحيا به الأرضَ مِنْ بعدِ موتها ليقولنَّ اللهُ قلِ الحمدُ لله بل أكثرهُمْ لا يعقلونَ﴾[6] وقال تعالى: ﴿ولئِنْ سألتهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ ليقولنَّ خلقهنَّ العزيزُ العليمُ. الذي جعلَ لكم الأرض مهداً وجعلَ لكم فيها سُبُلاً لعلَّكم تهتدونَ. والذِّي نزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بقدرٍ فأنشرنا به بلدةً ميتاً كذلكَ تُخرجونَ. والذِّي خلقَ الأزواجَ كلَّها وجعلَ لكُمْ

---

(١) أي القريبة من أزف إذا قرب. (٢) قيل ساكتين، وقيل باكين.
(٣) هو أن يختلس النظر إلى الشيء، وقيل هو الغمز بالعين.
(٤) سورة غافر الآية (١٨ - ١٩). (٥) سورة الشعراء الآية (٩٤ - ١٠٢).
(٦) سورة العنكبوت الآية (٦١ - ٦٣)

منَ الفلكِ والأنعامِ ما تركبونَ. لتستوُوا على ظهورهِ[1] ثمَّ تذكروا نعمة ربّكم إذا استويتم عليهِ وتقولوا سبحانَ الذي سخَّرَ لنا هذا وما كنَّا لهُ مقرنينَ[2]. وإنَّا إلىٰ ربنا لمنقلبونَ﴾[3].

وهذه الصفات من كلام الله تعالى ليست من تمام جوابهم. وقال تعالى: ﴿قلْ لمنِ الأرضُ ومَنْ فيها إنْ كنتُمْ تعلمونَ. سيقولونَ للهِ قلْ أفلا تذكرونَ. قلْ مَنْ ربُّ السَّمواتِ السَّبعِ وربُّ العرشِ العظيمِ؟ سيقولونَ للهِ﴾[4] الآيات. وقال تعالى: ﴿قل أرأيتَكُمْ إنْ أتاكمْ عذابُ اللهِ أو أتتكم السَّاعةُ أغيرَ اللهِ تدعونَ إنْ كنتمْ صادقينَ. بلْ إياهُ تدعونَ فيكشفُ ما تدعونَ إليهِ إنْ شاءَ وتنسونَ ما تُشركونَ﴾[5] وكذلك قوله: ﴿الله خيرٌ أمَّـا يشركون أمَّـنْ خلقَ السَّمواتِ والأرضَ وأنزلَ لكُمْ منَ السَّماءِ ماءً فأنبتنا بهِ حدائقَ ذاتَ بهجةٍ[6] ما كانَ لكمْ أنْ تُنبتوا شجرهَا أإله معَ اللهِ بلْ همْ قومٌ يعدلونَ[7]. أمَّـنْ جعلَ الأرضَ قراراً وجعلَ خلالها أنهاراً وجعلَ لها رواسي[8] وجعلَ بينَ البحرينِ[9] حاجزاً أإلهٌ معَ اللهِ﴾[10] أي أإله مع الله فعل هذا؟ وهذا استفهام إنكار، وهم مقرون بأنه لم يفعل هذا إله آخر مع الله.

ومن قال من المفسرين إن المراد هل مع الله إله آخر فقد غلط، فإنهم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى كما قال تعـالى: ﴿أئنَّكـم لتشهـدونَ أنَّ مـعَ اللهِ آلهةً أخرى قلْ لا أشهدُ﴾[11] وقال تعالى: ﴿فما أغنَتْ عنهمْ آلهتهم التي يدعونَ مِنْ

---

(١) أي لترفعوا على ظهوره وتتمكنوا منه، وأفرد الضمير لإراد الجنس.

(٢) قيل معناه مقاومين، وقيل مطيقين. (٣) سورة الزخرف الآية (٩ - ١٤).

(٤) سورة المؤمنون الآية (٨٤ - ٨٧).

(٥) سورة الانعام الآية (٤٠ - ٤١). (٦) أي حسن ونضرة.

(٧) يعني يسوون بالله غيره. (٨) أي حبالا ثوابت حتى لا تميد بكم وتضطرب.

(٩) أي المالح والعذب. (١٠) سورة النمل الآية (٥٩ - ٦١).

(١١) سورة الانعام الآية ١٩.

دون اللهِ مِنْ شيءٍ﴾[1] وقال تعالى عنهم: ﴿أجعلَ الآلهةَ إلهاً واحداً إنّ هذا لشيءٌ عجابٌ﴾[2] وكانوا معترفين بأن آلهتهم لم تشارك الله في خلق السموات والأرض ولا خلق شيء بل كانوا يتخذونهم شفعاء ووسائط[3] كما قال تعالى: ﴿ويعبدونَ مِنْ دونِ اللهِ ما لا يضرهمْ ولا ينفعهمْ ويقولونَ هؤلاء شفعاؤنا عندَ اللهِ﴾[4] وقال عن صاحب يس: ﴿ومالي لا أعبدُ الذي فطرني وإليهِ ترجعونَ. أأتخذُ مِنْ دونهِ آلهةً إنْ يردنِ الرّحمنُ بضرٍ لا تُغنِ عني شفاعتهمْ شيئاً ولا يُنقذونَ﴾[5] وقال تعالى: ﴿وأنذرْ بهِ الذينَ يخافونَ أنْ يُحشَروا إلى ربِّهمْ ليسَ لهمْ مِنْ دونهِ وليٌّ ولا شفيعٌ﴾[6] وقال تعالى: ﴿الذي خلقَ السّمواتِ والأرضَ وما بينهما في ستةِ أيامٍ ثمّ استوى على العرشِ[7] مالكمْ مِنْ دونهِ من وليٍ ولا شفيعٍ أفلا تتذكرون﴾[8] وقال: ﴿قل ادعوا الذينَ زعمتهمْ من دونِ اللهِ لا يملكونَ مثقالَ ذرّةٍ في السّمواتِ ولا في الأرضِ وما لهمْ فيهما مِنْ شركٍ وما لهُ منهم مِنْ ظهيرٍ[9]. ولا تنفعُ الشّفاعةُ عندهُ إلاّ لمنْ أذنَ له﴾[10] فنفى عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط من الملك أو يكون عوناً لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال تعالى: ﴿من ذا الذي يشفعُ عندهُ إلاّ بإذنهِ﴾[11] وقال تعالى عن الملائكة: ﴿ولا يشفعونَ إلاّ لمنْ ارتضى﴾ وقال: ﴿وكمْ مِنْ ملكٍ في السّمواتِ لا تُغني شفاعتهم شيئاً، إلاّ مِنْ بعدِ أنْ يأذنَ اللهُ لمنْ يشاءُ ويرضى﴾[12].

---

(١) سورة هود الآية ١٠١. (٢) سورة ص الآية ٥.

(٣) كما يفعل ذلك القبوريون الآن فيتخذون المشايخ أصحاب الأضرحة وسائط بينهم وبين الله.

(٤) سورة يونس الآية ١٨. (٥) سورة يس الآية (٢٢ - ٢٣).

(٦) سورة الانعام الآية ٥١.

(٧) يعني علا وارتفع كما فسرها بذلك السلف رضي الله عنهم، وقد رواه البخاري عن مجاهد إمام المفسرين وعن أبي العالية.

(٨) سورة السجدة الآية ٤. (٩) يعني معين، والمظاهرة المعاونة.

(١٠) سورة سبأ الآية (٢٢ - ٢٣). (١١) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

(١٢) سورة النجم الآية ٢٦.

بيان معنى الشفاعة

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاه القرآن وأما ما أخبر به النبي ﷺ أنه يكون فأخبر أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أولاً، فإذا سجد وحمد ربه بمحامد يفتحها عليه[1] يقال له: أي محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعط واشفع تشفع فيقول أي رب أمتي فيحد له حداً فيدخلهم الجنة، وكذلك في الثانية وكذلك في الثالثة. قال أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك[2] يوم القيامة؟ قال «من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه» فتلك الشفاعة هي لأهل الإخلاص بإذن الله، ليست لمن أشرك بالله ولا تكون إلا بإذن الله، وحقيقته أن الله هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص والتوحيد فيغفر لهم بواسطة دعاء الشافع الذي أذن له أن يشفع ليكرمه بذلك وينال المقام المحمود[3] الذي يغبطه به الأولون والآخرون ﷺ كما كان في الدنيا يستسقى لهم ويدعو لهم، وتلك شفاعة منه لهم، فكان الله يجيب دعاءه وشفاعته.

وإذا كان كذلك فالظلم ثلاثة أنواع: فالظلم الذي هو شرك لا شفاعة فيه، وظلم الناس بعضهم بعضاً لا بد فيه من إعطاء المظلوم حقه لا يسقط حق المظلوم لا بشفاعة ولا غيرها، ولكن قد يعطى المظلوم من الظالم كما قد يغفر للظالم نفسه بالشفاعة، فالظالم المطلق ماله من شفيع مطاع، وأما الموحد فلم يكن ظالماً مطلقاً بل هو موحد مع ظلمه لنفسه، وهذا إنما نفعه في الحقيقة إخلاص الله، فبه صار من أهل الشفاعة[4]. ومقصود القرآن بنفي الشفاعة نفي الشرك وهو أن

---

(١) يعني يلهمه إياها في ذلك الوقت. (٢) أي أحقهم بها وأكثرهم حظاً منها.

(٣) هو شفاعته في أهل الموقف أن يصرفهم الله عنه لفصل القضاء بينهم.

(٤) وأما الشرك فلا تقبل فيه شفاعة. قال تعالى ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ نعم قد يشفع له في تخفيف العذاب عنه كما شفع النبي ﷺ لعمه أبي طالب فجعل في ضحضاح من النار ولولا ذلك لكان في الدرك الأسفل من النار.

أحداً لا يعبد إلا الله ولا يدعو غيره ولا يسأل غيره ولا يتوكل على غيره، لا في شفاعة ولا غيرها، فليس له أن يتوكل على أحد في أن يرزقه وإن كان الله يأتيه برزقه بأسباب، كذلك ليس له أن يتوكل على غير الله في أن يغفر له ويرحمه في الآخرة وإن كان الله يغفر له ويرحمه بأسباب من شفاعة وغيرها. فالشفاعة التي نفاها القرآن مطلقاً كان فيها شرك وتلك منتفية مطلقاً، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وتلك قد بين الرسول ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص فهي من التوحيد ومستحقها أهل التوحيد.

وأما الظلم المقيد فقد يختص بظلم الإنسان نفسه، وظلم الناس بعضهم بعضاً كقول آدم عليه السلام وحواء: ﴿ربَّنَا ظلمنا أنفسنا﴾[1] وقول موسى: ﴿ربِّ إني ظلمتُ نفسي﴾[2] وقوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلُوا فاحشةً أو ظلموا أنفسَهُمْ ذكروا الله فاستغفرُوا لذنوبِهِمْ﴾[3] لكن قول آدم وموسى إخبار عن واقع لا عموم فيه، وذلك قد عرف ولله الحمد أنه ليس كفراً.

وأما قوله: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسَهُمْ﴾[4] فهو نكرة في سياق الشرط يعم كل ما فيه ظلم الإنسان نفسه[5] وهو إذا أشرك ثم تاب، تاب الله عليه، وقد تقدم أن ظلم الإنسان لنفسه يدخل فيه كل ذنب كبير أو صغير مع الإطلاق، وقال تعالى: ﴿ثم أورثْنَا الكتابَ الذينَ اصطفينا من عبادِنَا فمنهم ظالمٌ لنفسهِ ومنهمْ مقتصدٌ ومنهمْ سابقٌ بالخيراتِ﴾[6] فهذا ظلم لنفسه مقرون بغيره فلا يدخل فيه الشرك الأكبر. وفي الصحيحين عن ابن مسعود أنه لما أنزلت هذه الآية ﴿الَّذينَ آمنوا ولَمْ يلبسُوا إيمانهم بظلمٍ﴾[7] شق ذلك على

---

(١) سورة الاعراف الآية ٢٣.　　(٢) سورة القصص الآية ١٦.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٣٥.　　(٤) سورة آل عمران الآية ١٣٥.

(٥) بل الظاهر من العطف على الفاحشة أنه ظلم خاص وهو فعل ما دون الفاحشة كما ورد في سبب نزولها.

(٦) سورة فاطر الآية ٣٢.

(٧) سورة الانعام الآية ٨٢ والمعنى انهم لم يخلطوا إيمانهم بشرك.

أصحاب النبي ﷺ وقالوا أينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ « إنما هو الشرك ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح ﴿إن الشِّركَ لظلمٌ عظيمٌ﴾[1] » والذين شق عليهم ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه وأنه لا يكون الأمن والاهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه، فشق ذلك عليهم، فبين النبي ﷺ لهم ما دلهم على أن الشرك ظلم في كتاب الله تعالى وحينئذ فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم، ومن لم يلبس إيمانه به كان من أهل الأمن والاهتداء كما كان من أهل الاصطفاء في قوله: ﴿ثم أورثْنا الكتابَ الّذينَ اصطفينا مِنْ عبادنَا - إلى قوله - جناتُ عدنٍ يدخلُونها﴾[2] وهذا لا ينفي أن يؤاخذ أحدهم بظلم نفسه إذا لم يتب كما قال تعالى: ﴿فمن يعملْ مثقالَ ذرّةٍ خيراً يرهُ . ومَنْ يعملْ مثقالَ ذرّةٍ شراً يرهُ﴾[3] وقال تعالى: ﴿من يعملْ سوءاً يجزَ بهِ﴾[4] .

وقد سأل أبو بكر النبي ﷺ عن ذلك فقال يا رسول الله وأينا لم يعمل سوءاً؟ فقال « يا أبا بكر ألست تنصب[5]؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء[6] فذلك مما تجزون منه » فبين أن المؤمن الذي إذا تاب دخل الجنة قد يجزى بسيئاته في الدنيا بالمصائب التي تصيبه كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال « مثل المؤمن كمثل الخامة[7] من الزرع تفيئها[8] الرياح تقومها[9] تارة وتميلها أخرى، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز[10] لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها[11] مرة واحدة » وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر بها من خطاياه » وفي حديث سعد بن أبي وقاص قلت يا رسول

---

(١) سورة لقمان الآية ١٣.
(٢) سورة فاطر الآية (٣٢ - ٣٣).
(٣) سورة الزلزلة الآية (٧ - ٨).
(٤) سورة النساء الآية ١٢٣ .
(٥) أي تتعب.
(٦) هي الشدة.
(٧) يعني القبضة.
(٨) أي تميلها.
(٩) أي تعدلها.
(١٠) هو شجر معروف يكثر في لبنان.
(١١) أي انقلاعها من أصولها.

الله أي الناس أشد بلاء؟ قال:« الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل[1] يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة » رواه أحمد والترمذي وغيرهما، وقال « المرض حطة يحط الخطايا عن صاحبه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها » والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة كان له الأمن التام والاهتداء التام. ومن لم يسلم من ظلمه نفسه كان له الأمن والاهتداء مطلقاً بمعنى أنه لا بد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك في الآية الأخرى، وقد هداه إلى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه إلى الجنة ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه نفسه.

وليس مراد النبي ﷺ بقوله « إنما هو الشرك » أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام، فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف لم يحصل لهم الأمن التام ولا الاهتداء التام الذي يكونون به مهتدين إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين من غير عذاب يحصل لهم، بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط ومعهم أصل نعمة الله عليهم ولا بد لهم من دخول الجنة. وقول النبي ﷺ « إنما هو الشرك » إن أراد به الشرك الأكبر فمقصوده أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة وهو مهتد إلى ذلك. وإن كان مراده جنس الشرك فيقال ظلم العبد نفسه كبخله لحب المال ببعض الواجب هو شرك أصغر وحبه ما يبغضه الله حتى يكون يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر، ونحو ذلك. فهذا صاحبه فاته من الأمن والاهتداء بحسبه، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب في هذا الظلم بهذا الاعتبار.

---

(١) أي الأفضل فالأفضل.

الصلاح والفساد

ومن هذا الباب لفظ الصلاح والفساد، فإذا أطلق الصلاح تناول جميع الخير، وكذلك الفساد يتناول جميع الشر، كما تقدم في اسم الصالح، وكذلك اسم المصلح والمفسد. قال تعالى في قصة موسى: ﴿أتريدُ أنْ تقتلني كما قتلتَ نفساً بالأمس، إن تريدُ إلاَّ أنْ تكونَ جبَّاراً في الأرضِ وما تريدُ أنْ تكونَ مِنَ المصلحينَ﴾[1] ﴿وقال موسى لأخيهِ هارونَ اخلُفْني في قَومي وأصلحْ ولا تتبعْ سبيلَ المفسدينَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم لا تفسِدُوا في الأرضِ قالوا إنَّما نحنُ مصلحونَ. ألا إنَّهم همُ المفسدونَ ولكنْ لا يشعرونَ﴾[3] والضمير عائد على المنافقين في قوله: ﴿ومِنَ النَّاسِ مَنْ يقولُ آمنا باللهِ وباليوم الآخِرِ وما هم بمؤمنينَ﴾[4] وهذا مطلق يتناول من كان على عهد النبي ﷺ ومن سيكون بعدهم، ولهذا قال سلمان الفارسي: إنه عنى بهذه الآية قوم لم يكونوا خلقوا حين نزولها، وكذا قال السدى عن أشياخه: الفساد: الكفر والمعاصي. وعن مجاهد ترك امتثال الأوامر واجتناب النواهي، والقولان معناهما واحد وعن ابن عباس: الكفر.. وهذا معنى قول من قال: «النفاق الذي صافوا به الكفار وأطلعوهم على أسرار المؤمنين». وعن أبي العالية ومقاتل: العمل بالمعاصي، وهذا أيضاً عام كالأولين.

وقولهم: ﴿إنَّما نحنُ مصلحونَ﴾[5] فسر بإنكار ما قرفوا به[6] أي إنا إنما نفعل ما أمرنا به الرسول. وفسر بأن الذي نفعله صلاح ونقصد به الصلاح، وكلا القولين يروى عن ابن عباس وكلاهما حق، فإنهم يقولون هذا وهذا. يقولون الأول لمن لم يطلع على بواطنهم، ويقولون الثاني لأنفسهم ولمن اطلع على بواطنهم، لكن الثاني يتناول الأول. فإن من جملة أفعالهم إسرار خلاف ما

---

(١) سورة القصص الآية ١٩.
(٢) سورة الاعراف الآية ١٤٢.
(٣) سورة البقرة الآية (١١ - ١٢).
(٤) سورة البقرة الآية ٨.
(٥) سورة البقرة الآية ١١.
(٦) يعني اتهموا به.

يظهرون وهم يرون هذا صلاحاً. قال مجاهد: أرادوا أن مصافاة الكفار صلاح لا فساد. وعن السدى: أن فعلنا هذا هو الصلاح، وتصديق محمد فساد، وقيل: أرادوا أن هذا صلاح في الدنيا، فإن الدولة إن كانت للنبي ﷺ فقد آمنوا بمتابعته، وإن كانت للكفار فقد أمنوهم بمصافاتهم، ولأجل القولين قيل في قوله: ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ أي لا يشعرون أن ما فعلوه فساد لا صلاح، وقيل لا يشعرون أن الله يطلع نبيه على فسادهم، والقول الأول يتناول الثاني، فهو المراد كما يدل عليه لفظ الآية. وقال تعالى: ﴿إنَّ وَلِيِّيَ[1] الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾[2] وقال: ﴿قال موسى ما جئتم بِهِ السِّحرُ إنَّ اللهَ سيبطلهُ إنَّ اللهَ لا يُصلحُ عملَ المفسدينَ﴾[3] وقول يوسف: ﴿توفني مُسلماً وألحقني بالصَّالحينَ﴾[4].

وقد يقرن أحدهما بما هو أخص منه كقوله: ﴿وإذا تولّى سعى في الأرضِ ليُفسِدَ فيها ويُهلكَ الحرثَ والنَّسلَ[5] واللهُ لا يُحبُّ الفسادَ﴾[6] قيل بالكفر وقيل بالظلم، وكلاهما صحيح. وقال تعالى: ﴿تلكَ الدَّارُ الآخرةُ نجعلها للَّذينَ لا يريدونَ عُلوّاً[7] في الأرضِ ولا فساداً﴾[8] وقد تقدم قوله تعالى: ﴿إنَّ فرعونَ علا في الأرضِ وجعلَ أهلها شيعاً[9] يستضعفُ طائفةً منهم يذبّحُ أبناءهُمْ ويستحيي نساءهُمْ[10] إنَّهُ كانَ مِنَ المفسدينَ﴾[11] وقال تعالى: ﴿مِنْ أجلِ ذلكَ كتبنا على بني إسرائيلَ أنَّهُ مَنْ قتلَ نفساً بغيرِ نفسٍ أو فسادٍ في الأرضِ فكأنَّما قتلَ النَّاسَ جميعاً﴾[12] وقتل النفس الأول من جملة الفساد، لكن الحق في القتل

---

(١) يعني الذي أتولاه وأعبده وأتوكل عليه.

(٢) سورة الاعراف الآية ١٩٦ والمعنى يتخذهم أوليا، يعينهم وينصرهم ويدبر أمورهم ويدافع عنهم ويكرمهم ويسددهم الخ.

(٣) سورة يونس الآية ٨١.

(٤) سورة يوسف الآية ١٠١.

(٥) الحرث: الزرع. والنسل: الماشية.

(٦) سورة البقرة الآية ٢٠٥.

(٧) بغياً واستكباراً.

(٨) سورة القصص الآية ٨٣.

(٩) جمع شيعة وهي الطائفة.

(١٠) أي يستبقيهن أحياء للخدمة.

(١١) سورة القصص الآية ٤.

(١٢) سورة المائدة الآية ٣٥.

لولي المقتول. وفي الردة والمحاربة والزنا ـ الحق فيها لعموم الناس، ولهذا يقال هو حق لله، ولهذا لا يعفى عن هذا كما يعفى عن الأول بأن فساده عام. قال تعالى: ﴿إنَّما جزاءُ الَّذينَ يحاربونَ اللهَ ورسولَهُ ويسعونَ في الأرض فساداً أنْ يُقتَّلوا أو يصلَّبوا أو تقطَّعَ أيديهم وأرجلهم مِنْ خلافٍ﴾[1] الآية. وقيل سبب نزول هذه الآية العرنيون الذين ارتدوا وقتلوا وأخذوا المال وقيل سببه ناس معاهدون نقضوا العهد وحاربوا، وقيل المشركون، فقد قرن بالمرتدين وناقضي العهد المحاربين، وجمهور السلف والخلف على أنها تتناول قطاع الطريق من المسلمين. والآية تتناول ذلك كله، ولهذا كان من تاب قبل القدرة عليه من جميع هؤلاء فإنه يسقط عنه حد الله تعالى.

وقرن الصلاح والإصلاح بالإيمان في مواضع كثيرة كقوله تعالى: ﴿إنَّ الَّذينَ آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ﴾[2] ﴿فمنْ آمنَ وأصلحَ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنونَ﴾[3] ومعلوم أن الإيمان أفضل الإصلاح وأفضل العمل الصالح كما جاء في الحديث الصحيح أنه قيل يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال «إيمان بالله» وقال تعالى: ﴿وإنّي لغفَّارٌ لمنْ تابَ وآمنَ وعملَ صالحاً ثم اهتدى﴾[4] وقال: ﴿إلاَّ مَنْ تابَ وآمنَ وعملَ صالحاً فأولئكَ يدخلونَ الجنَّةَ﴾[5] وقال: ﴿إلاَّ مَنْ تابَ وآمنَ وعملَ عملاً صالحاً فأولئكَ يبدّلُ اللهُ سيئاتهم حسناتٍ﴾[6] وقال في القذف: ﴿إلاَّ الَّذينَ تابوا مِنْ بعدِ ذلكَ وأصلحوا فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾[7] وقال في السارق: ﴿فمنْ تابَ مِنْ بعدِ ظلمهِ وأصلحَ فإنَّ الله يتوبُ عليه﴾[8] وقال ﴿واللَّذان يأتيانها منكم فآذوهما فإنْ تابا وأصْلَحَا فأعرضوا عنهما﴾[9] ولهذا

---

(١) سورة المائدة الآية ٣٣ والمعنى بأن تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٧٧.

(٣) سورة الانعام الآية ٤٨.

(٤) سورة طه الآية ٨٢.

(٥) سورة مريم الآية ٦.

(٦) سورة الفرقان الآية ٧٠.

(٧) سورة آل عمران الآية ٧٩.

(٨) سورة المائدة الآية ٤٢.

(٩) سورة النساء الآية ٦.

شرط الفقهاء في أحد قوليهم في قبول شهادة القاذف أن يصلح وقدروا ذلك بسنة كما فعل عمر بصبيغ بن عسل[1] لما أجله سنة، وبذلك أخذ أحمد في توبة الداعي إلى البدعة أنه يؤجل سنة كما أجل عمر صبيغ بن عسل.

دلالة الإيمان على الأعمال حقيقة لا مجاز

فإن قيل: ما ذكر من تنوع دلالة اللفظ بالإطلاق والتقييد في كلام الله ورسوله وكلام كل أحد بين ظاهر لا يمكن دفعه، لكن نقول دلالة لفظ الإيمان على الأعمال مجاز، فقوله ﷺ «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» مجاز، وقوله «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله» إلى آخره حقيقة، وهذا عمدة المرجئة والجهمية والكرامية[2] وكل من لم يدخل الأعمال في اسم الإيمان. ونحن نجيب بجوابين (أحدهما) كلام عام في لفظ الحقيقة والمجاز (والثاني) ما يختص بهذا الموضع. فبتقدير أن يكون أحدهما مجازاً ما هو الحقيقة من ذلك من المجاز؟ هل الحقيقة هو المطلق أو المقيد أو كلاهما حقيقة حتى يعرف أن لفظ الإيمان إذا أطلق على ماذا يحمل..؟

تقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز

فيقال أولاً: تقسيم الألفاظ الدالة على معانيها إلى حقيقة ومجاز وتقسيم دلالتها أو المعاني المدلول عليها إن استعمل لفظ الحقيقة والمجاز في المدلول أو في

---

(١) و و رجل قدم المدينة وأخذ يسأل عن المتشابه من القرآن فلما أخبر به عمر رضي الله عنه ظل يضربه على رأسه بعراجين النخل حتى قال حسبك يا أمير المؤمنين فقد ذهب والله ما كان برأسي.

(٢) الجهمية أتباع الجهم بن صفوان رأس الجبرية وأول من قال بخلق القرآن. والكرامية أتباع محمد بن كرام.

الدلالة، فإن هذا كله قد يقع في كلام المتأخرين، ولكن المشهور أن الحقيقة والمجاز من عوارض الألفاظ. وبكل حال فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة لم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا أحد من الأئمة المشهورين في العلم كمالك والثوري والأوزاعي وأبي حنيفة والشافعي، بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو كالخليل وسيبويه وأبي عمرو بن العلاء ونحوهم.

وأول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه ولكن لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة وإنما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية، ولهذا قال من قال من الأصوليين كأبي الحسن البصري وأمثاله إنه يعرف الحقيقة من المجاز بطرق منها نص أهل اللغة على ذلك بأن يقولوا هذا حقيقة وهذا مجاز؛ فقد تكلم بلا علم فإنه ظن أن أهل اللغة قالوا هذا ولم يقل ذلك أحد من أهل اللغة ولا من سلف الأمة وعلمائها، وإنما هذا اصطلاح حادث والغالب أنه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين فإنه لم يوجد هذا في كلام أحد من أهل الفقه والأصول والتفسير والحديث ونحوهم من السلف وهذا الشافعي هو أول من جرد الكلام في أصول الفقه[1] لم يقسم هذا التقسيم، ولا تكلم بلفظ الحقيقة والمجاز، وكذلك محمد بن الحسن[2] له في المسائل المبنية على العربية كلام معروف في الجامع الكبير وغيره ولم يتكلم بلفظ الحقيقة والمجاز؛ وكذلك سائر الأئمة لم يوجد لفظ المجاز في كلام أحد منهم إلا في كلام أحمد بن حنبل فإنه قال في كتاب الرد على الجهمية في قوله: ﴿إنا ونحن﴾ ونحو ذلك في القرآن: هذا من مجاز اللغة. يقول الرجل إنا سنعطيك إنا سنفعل، فذكر أن هذا من مجاز اللغة وبهذا احتج على مذهبه من أصحابه من قال إن في القرآن مجازاً كالقاضي أبي يعلى وابن عقيل وأبي الخطاب وغيرهم، وآخرون من أصحابه منعوا أن

---

(١) ولا شك أن اختراع الشافعي رحمه الله لهذا العلم ينم عن عقلية فذة وذهن كبير.

(٢) هو محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة.

يكون في القرآن مجاز كأبي الحسن الجزري وأبي عبد الله بن حامد وأبي الفضل التميمي بن أبي الحسن التميمي، وكذلك منع أن يكون في القرآن مجاز محمد بن جرين منذر[1] وغيره من المالكية؛ ومنع منه داود بن علي[2] وابنه أبو بكر ومنذر بن سعيد البلوطي[3] وصنف فيه مصنفاً.

وحكى بعض الناس عن أحمد في ذلك روايتين، وأما سائر الأئمة فلم يقل أحد منهم ولا من قدماء أصحاب أحمد إن في القرآن مجازاً لا مالك ولا الشافعي ولا أبو حنيفة، فإن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز إنما اشتهر في المائة الرابعة وظهرت أوائله في المائة الثالثة، وما علمته موجوداً في المائة الثانية اللهم إلا أن يكون في أواخرها، والذين أنكروا أن يكون أحمد أو غيره نطقوا بهذا التقسيم قالوا إن معنى قول أحمد (من مجاز اللغة) أي مما يجوز في اللغة أن يقول الواحد العظيم الذي له أعوان «نحن فعلنا كذا ونفعل كذا» ونحو ذلك، قالوا ولم يرد أحمد بذلك أن اللفظ استعمل في غير ما وضع له[4].

وقد أنكر طائفة أن يكون في اللغة مجاز لا في القرآن ولا غيره كأبي إسحاق الاسفرائيني، وقال المنازعون له: النزاع معه لفظي فإنه إذا سلم في اللغة لفظاً مستعملاً في غير ما وضع له لا يدل على معناه إلا بقرينة فهذا هو المجاز وإن لم تسمه مجازاً، فيقول من ينصره إن الذين قسموا اللفظ إلى حقيقة ومجاز قالوا الحقيقة هو اللفظ المستعمل فيما وضع له، والمجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له كلفظ الأسد والحمار إذا أريد بهما البهيمة أو أريد بهما الشجاع والبليد، وهذا التقسيم والتحديد يستلزم أن يكون اللفظ قد وضع أولاً لمعنى ثم بعد ذلك قد يستعمل في موضوعه وقد يستعمل في غير موضوعه ولهذا كان المشهور عند أهل التقسيم أن كل مجاز فلا بد له من حقيقة وليس لكل حقيقة مجاز. فاعترض

---

(١) هكذا في أصل الكتاب، والذي في مختصر الصواعق (محمد بن خواز منداد).

(٢) وهو إمام أهل الظاهر. (٣) وهو من كبار علماء الأندلس.

(٤) فهذا اصطلاح لا يعرفه أحمد رحمه الله.

عليهم بعض متأخريهم وقال: «اللفظ الموضوع قبل الاستعمال لا حقيقة ولا مجاز. فإذا استعمل في غير موضوعه فهو مجاز لا حقيقة له».

وهذا كله إنما يصح أن لو علم أن الألفاظ العربية وضعت أولاً لمعان ثم بعد ذلك استعملت فيها فيكون لها وضع متقدم على الاستعمال وهذا إنما صح على قول من يجعل اللغات اصطلاحية فيدعي أن قوماً من العقلاء اجتمعوا واصطلحوا على أن يسموا هذا بكذا وهذا بكذا، ويجعل هذا عاماً في جميع اللغات، وهذا القول لا نعرف أحداً من المسلمين قاله قبل أبي هاشم[1] ابن الجبائي فإنه وأبا الحسن الأشعري وكلاهما قرأ على أبي علي الجبائي[2] لكن الأشعري رجع عن مذهب المعتزلة وخالفهم في القدر والوعيد وفي الأسماء والأحكام، وفي صفات الله تعالى[3] وبين من تناقضهم وفساد قولهم ما هو معروف عنه، فتنازع الأشعري وأبو هاشم في مبدأ اللغات، فقال أبو هاشم هي اصطلاحية، وقال الأشعري هي توقيفية، ثم خاض الناس بعدهما في هذه المسئلة، فقال آخرون بعضها توقيفي وبعضها اصطلاحي، وقال فريق رابع بالوقف.

والمقصود هنا أنه لا يمكن أحد أن ينقل عن العرب بل ولا عن أمة من الأمم أنه اجتمع جماعة فوضعوا جميع هذه الأسماء الموجودة في اللغة ثم استعملوها بعد الوضع. وإنما المعروف المنقول بالتواتر استعمال هذه الألفاظ فيما عنوه من المعاني. فإن ادعى مدع أنه يعلم وضعاً يتقدم ذلك فهو مبطل فإن هذا لم ينقله أحد من الناس، ولا يقال نحن نعلم ذلك بالدليل فإنه إن لم يكن اصطلاح متقدم لم يمكن الاستعمال. قيل ليس الأمر كذلك. بل نحن نجد أن الله يلهم الحيوان من

---

(١) وهو أول من قال بالحال وعرفها بأنها صفة لموجود لا موجودة ولا معدومة

(٢) هو شيخ معتزلة البصرة.

(٣) مذهب الأشعري الذي ذكره في عامة كتبه هو إثبات الصفات كما يثبتها سلف الأمة ولكن بعض أتباعه يكذبون عليه فيدعون أنه أول في بعض الصفات.

الأصوات ما به يعرف بعضها مراد بعض وقد سمي ذلك منطقاً وقولاً في قول سليمان: ﴿عُلِّمنَا منطقَ الطيرِ﴾[1] وفي قوله: ﴿قالت نملةٌ يأيها النملُ ادخلوا مساكِنَكُمْ﴾[2] وفي قوله: ﴿يا جبالُ أوبي معه والطيرِ﴾[3] وكذلك الآدميون، فالمولود إذا ظهر منه التمييز سمع أبويه أو من يربيه ينطق باللفظ ويشير إلى المعنى، فصار يفهم أن ذلك اللفظ يستعمل في ذلك المعنى أي أراد المتكلم به ذلك المعنى، ثم هذا يسمع لفظاً بعد لفظ حتى يعرف لغة القوم الذين نشأ بينهم من غير أن يكونوا قد اصطلحوا معه على وضع متقدم بل ولا أوقفوه على معاني الأسماء، وإن كان أحياناً قد يسأل عن مسمى بعض الأشياء فيوقف عليها[4] كما يترجم للرجل اللغة التي لا يعرفها فيوقف على معاني ألفاظها، وإن باشر أهلها مدة علم ذلك بلا توقيف من أحدهم.

نعم قد يضع الناس الاسم لما يحدث مما لم يكن من قبلهم يعرفه فيسميه اسماً[5]، إما منقولاً وإما مرتجلاً[6]، وقد يكون المسمى واحداً لم يصطلح مع غيره وقد يستوون فيما يسمونه، وكذلك قد يحدث للرجل آلة من صنعة أو يصنف كتاباً أو يبني مدينة ونحو ذلك فيسميه باسم لأنه ليس من الأجناس المعروفة حتى يكون له اسم في اللغة العامة[7] وقد قال الله تعالى: ﴿الرَّحمنُ. علَّمَ القرآنَ خلقَ الإنسانَ علَّمهُ البيانَ﴾[8] وقال: ﴿قالوا انطقنا اللهُ الذي أنطقَ كلَّ شيءٍ﴾[9]، وقال: ﴿الَّذي خلقَ فسوىٰ. والَّذي قدَّرَ فهدىٰ﴾[10] فهو سبحانه

---

(١) سورة النمل الآية ١٦. (٢) سورة النمل الآية ١٨.

(٣) سورة سبأ الآية ١٠ والمعنى رجعي ورددي معه التسبيح.

(٤) يعني يُعرف بها.

(٥) وذلك كالأسماء التي يضعها مجمع اللغة العربية للمخترعات الحديثة.

(٦) المنقول ما نقل من لغة أخرى، والمرتجل ما وضع ابتداء.

(٧) فانظر كيف سبق شيخ الإسلام إلى فكرة مجمع اللغة قبل ظهورها بمئات السنين.

(٨) سورة الرحمن الآية (١ ـ ٤). (٩) سورة فصلت الآية ٢١.

(١٠) سورة الاعلىٰ الآية (٢ ـ ٣).

يلهم الإنسان المنطق كما يلهم غيره، وهو سبحانه إذا كان قد علم آدم الأسماء كلها وعرض المسميات على الملائكة كما أخبر بذلك في كتابه، فنحن نعلم أنه لم يعلم آدم جميع اللغات التي يتكلم بها جميع الناس إلى يوم القيامة وأن تلك اللغات اتصلت إلى أولاده فلا يتكلمون إلا بها، فإن دعوى هذا كذب ظاهر، فإن آدم عليه السلام إنما ينقل عنه بنوه، وقد أغرق الله عام الطوفان جميع ذريته إلا من في السفينة وأهل السفينة انقطعت ذريتهم إلا أولاد نوح، ولم يكونوا يتكلمون بجميع ما تكلمت به الأمم بعدهم، فإن اللغة الواحدة كالفارسية والعربية والرومية والتركية فيها من الاختلاف والأنواع ما لا يحصيه إلا الله، والعرب أنفسهم لكل قوم لغات لا يفهمها غيرهم، فكيف يتصور أن ينقل هذا جميعه عن أولئك الذين كانوا في السفينة وأولئك جميعهم لم يكن لهم نسل. وإنما النسل لنوح وجميع الناس من أولاده، وهم ثلاثة: سام وحام ويافث كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنا ذريتهُ هم الباقينَ﴾[1] فلم يجعل باقيا إلا ذريته وكما روى ذلك عن النبي ﷺ أن أولاده ثلاثة، رواه أحمد وغيره ومعلوم أن الثلاثة لا يمكن أن ينطقوا بهذا كله ويمتنع نقل ذلك عنهم، فإن الذين يعرفون هذه اللغة لا يعرفون هذه، وإذا كان الناقل ثلاثة فهم قد علموا أولادهم، ولو كان كذلك لاتصلت، ونحن نجد بني الأب الواحد يتكلم كل قبيلة منهم بلغة لا تعرفها الأخرى، والأب الواحد لا يقال إنه علم أحد ابنيه لغة وابنه الآخر لغة: فإن الأب قد لا يكون له إلا ابنان واللغات في أولاده أضعاف ذلك.

تعليم الله آدم الأسماء وبيان معنى ذلك

والذي أجرى الله عليه عادة بني آدم أنهم إنما يعلمون أولادهم لغتهم التي يخاطبونهم بها أو يخاطبهم بها غيرهم، فأما لغات لم يخلق الله من يتكلم بها فلا يعلمونها أولادهم، وأيضاً فإنه يوجد بنو آدم يتكلمون بألفاظ ما سمعوها قط

---

(١) سورة الصافات الآية ٧٧.

من غيرهم، والعلماء من المفسرين وغيرهم لهم في الأسماء التي علمها آدم قولان معروفان عن السلف (أحدهما) أنه إنما علمه أسماء من يعقل واحتجوا بقوله (ثم عرضهم على الملائكة) قالوا وهذا الضمير لا يكون إلا لمن يعقل وما لا يعقل يقال فيها (عرضها) ولهذا قال أبو العالية: علمه أسماء الملائكة[1] لأنه لم يكن حينئذ من يعقل إلا الملائكة ولا كان إبليس قد انفصل عن الملائكة ولا كان له ذرية. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: علمه أسماء ذريته[2] وهذا يناسب الحديث الذي رواه الترمذي وصححه عن النبي ﷺ أن آدم سأل ربه أن يريه صور الأنبياء من ذريته فرآهم فرأى فيهم من يبص فقال: يا رب من هذا؟ قال ابنك داود. فيكون قد أراه صورة ذريته أو بعضهم وأسماءهم وهذه أسماء أعلام لا أجناس (والثاني) أن الله علمه أسماء كل شيء وهذا قول الأكثرين كابن عباس وأصحابه، قال ابن عباس: علمه حتى القسوة والقسية والقصعة والقصيعة، أراد أسماء الأعراض والأعيان مكبرها ومصغرها[3]. والدليل على ذلك ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال في حديث الشفاعة «إن الناس يقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وعلمك أسماء كل شيء». وأيضاً قوله: ﴿الأسماء كلها﴾ لفظ عام مؤكد فلا يجوز تخصيصه بالدعوى وقوله: ﴿ثم عرضهم علىٰ الملائكة﴾[4] لأنه اجتمع من يعقل ومن لا يعقل فغلب من يعقل كما قال: ﴿فمنهم منْ يمشي علىٰ بطنهِ ومنهم مَنْ يمشي على رجلينِ ومنهم مَنْ يمشي على أربعٍ﴾[5] قال عكرمة: علمه أسماء الأجناس دون أنواعها، كقولك إنسان وجن وملك وطائر. وقال مقاتل وابن السائب وابن قتيبة: علمه أسماء ما خلق في الأرض من الدواب والهوام[6] والطير.

(١) وما فائدة تعليمه أسماء الملائكة وهل كان آدم مرشحاً ليكون أميراً على الملائكة، إنما علمه أسماء الأشياء التي يحتاج إليها بوصفه خليفة في الأرض لا في السماء.

(٢) وهذا أيضاً قول ضعيف. (٣) وهذا هو القول الصحيح المتعين.

(٤) سورة البقرة الآية ٣١. (٥) سورة النور الآية ٤٥.

(٦) جمع هامة بتشديد الميم وهي الحشرات ذات السم. وفي حديث الرقية «اعيذكما بكلمات الله التامة. كل شيطان وهامة وكل عين لامة».

ومما يدل على أن هذه اللغات ليست متلقاة عن آدم أن أكثر اللغات منفصلة عن اللغة العربية ليس عندهم أسماء خاصة للأولاد والبيوت والأصوات وغير ذلك مما يضاف إلى الحيوان، بل إنما يستعملون في ذلك الإضافة، فلو كان آدم عليه السلام علمه الجميع لعلمها متناسبة، وأيضاً فكل أمة ليس لها كتاب ليس في لغتها أيام الأسبوع، وإنما يوجد في لغتها اسم اليوم والشهر والسنة لأن ذلك عرف بالحس والعقل، فوضعت له الأمم الأسماء لأن التعبير يتبع التصور[1]، وأما الأسبوع فلم يعرف أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش إلا بأخبار الأنبياء الذين شرع لهم أن يجتمعوا في الأسبوع يوماً يعبدون الله فيه ويحفظون به الأسبوع الأول الذي بدأ الله فيه خلق هذا العالم. ففي لغة العرب والعبرانيين، من تلقى عنهم أيام الأسبوع بخلاف الترك، ونحوهم، فإنه ليس في لغتهم أيام الأسبوع، لأنهم لم يعرفوا ذلك فلم يعبروا عنه[2]، فعلم أن الله ألهم النوع الانساني أن يعبر عما يريده ويتصوره بلفظه، وأن أول من علم ذلك أبوهم آدم، وهم علموا كما علم وإن اختلفت اللغات، وقد أوحى الله إلى موسى بالعبرانية، وإلى محمد بالعربية والجميع كلام الله، وقد بين الله من ذلك ما أراد من خلقه وأمره، وإن كانت هذه اللغة ليست الأخرى، مع أن العبرانية من أقرب اللغات إلى العربية حتى أنها أقرب إليها من لغة بعض العجم إلى بعض.

فبالجملة نحن ليس غرضنا إقامة الدليل على عدم ذلك، بل يكفينا أن يقال هذا غير معلوم وجوده، بل الإلهام كاف في النطق باللغات من غير مواضعة متقدمة، وإذا سمي هذا توقيفاً فليسم توقيفاً، وحينئذ فمن ادعى وضعاً متقدماً على استعمال جميع الأجناس فقد قال ما لا علم له به، وإنما المعلوم بلا ريب هو الاستعمال، ثم هؤلاء يقولون تتميز الحقيقة من المجاز بالاكتفاء باللفظ، فإذا دل

---

(١) فلا بد من إدراك الصورة أولاً ثم يعبر عنها.

(٢) وهذه فائدة جليلة من شيخ الإسلام رحمه الله.

اللفظ بمجرده فهو حقيقة، وإذا لم يدل إلا مع القرينة فهو مجاز، وهذا أمر متعلق باستعمال اللفظ في المعنى لا بوضع متقدم.

ثم يقال ثانياً[1]: هذا التقسيم لا حقيقة له، وليس لمن فرق بينهما حد صحيح يميز به بين هذا وهذا، فعلم أن هذا التقسيم باطل، وهو تقسيم من لم يتصور ما يقول بل يتكلم بلا علم، فهم مبتدعة في الشرع، مخالفون للعقل، وذلك أنهم قالوا: الحقيقة اللفظ المستعمل فيما وضع له، والمجاز هو المستعمل في غير ما وضع له، واحتاجوا إلى إثبات الوضع السابق على الاستعمال وهذا يتعذر[2].

ثم هم يقسمون الحقيقة إلى لغوية وعرفية. وأكثرهم يقسمها إلى ثلاث: لغوية وشرعية وعرفية، فالحقيقة العرفية هي ما صار اللفظ دالاً فيها على المعنى بالعرف لا باللغة، وذلك المعنى يكون تارة أعم من اللغوي وتارة أخص وتارة يكون مبايناً له، ولكن بينهما علاقة استعمل لأجلها، فالأول[3]، مثل لفظ الرقبة والرأس ونحوهما كان يستعمل في العضو المخصوص ثم صار يستعمل في جميع البدن. والثاني[4] مثل الدابة ونحوها كان يستعمل في كل ما دب ثم صار يستعمل في عرف بعض الناس في ذوات الأربع، وفي عرف بعض الناس في الفرس، وفي عرف بعضهم في الحمار، والثالث مثل لفظ الغائط[5]، والظعينة[6]، والراوية والمزادة، فإن الغائط في اللغة هو المكان المنخفض من الأرض. فلما كانوا ينتابونه لقضاء حوائجهم سموا ما يخرج من الإنسان باسم محله، والظعينة اسم للدابة ثم سموا المرأة التي تركبها باسمها، ونظائر ذلك.

---

(١) أي في الرد على الذين يقسمون اللفظ إلى حقيقة ومجاز.

(٢) فإن [illegible] [illegible]حوذ في حد كل من الحقيقة والمجاز فلا بد من سبق العلم به.

(٣) [illegible] فيه المعنى العرفي أعم من اللغوي.

(٤) وهو ما [illegible] فيه العرفي أخص. (٥) أصله في اللغة ما اطمأن من الأرض.

(٦) أصلها المر[illegible] في الهودج ثم أطلقت على الزوجة عموماً.

والمقصود أن هذه الحقيقة العرفية لم تصر حقيقة لجماعة تواطئوا على نقلها، ولكن تكلم بها بعض الناس وأراد منها ذلك المعنى العرفي، ثم شاع الاستعمال فصارت حقيقة عرفية بهذا الاستعمال، ولهذا زاد من زاد منهم في حد الحقيقة (في اللغة التي بها التخاطب).

ثم هم يعلمون ويقولون إنه قد يغلب الاستعمال على بعض الألفاظ فيصير المعنى العرفي أشهر فيه، ولا يدل عند الإطلاق إلا عليه، فتصير الحقيقة العرفية ناسخة للحقيقة اللغوية، واللفظ مستعمل في هذا الاستعمال الحادث العرفي وهو حقيقة من غير أن يكون ما استعمل فيه ذلك تقدم وضع، فعلم أن تفسير الحقيقة بهذا لا يصح.

وإن قالوا: نعني بما وضع له ما استعملت فيه أولاً، فيقال من أين يعلم أن هذه الألفاظ التي كانت العرب تتخاطب بها عند نزول القرآن وقبله لم تستعمل قبل ذلك في معنى شيء آخر، وإذا لم يعلموا هذا النفي فلا يعلم أنها حقيقة. وهذا خلاف ما اتفقوا عليه. وأيضاً فيلزم من هذا ألا يقطع بشيء من الألفاظ أنه حقيقة. وهذا لا يقوله عاقل.

ثم هؤلاء الذين يقولون هذا نجد أحدهم يأتي إلى ألفاظ لم يعلم أنها استعملت إلا مقيدة فينطق بها مجردة عن جميع القيود، ثم يدَّعي أن ذلك هو حقيقتها من غير أن يعلم أنه نطق بها مجردة ولا وضعت مجردة مثل أن يقول حقيقة العين هو العضو المبصر، ثم سميت به عين الشمس والعين التابعة وعين الذهب للمشابهة، لكن أكثرهم يقولون إن هذا من باب المشترك[1] لا من باب الحقيقة والمجاز فيمثل بغيره، مثل لفظ الرأس يقولون هو حقيقة في رأس الإنسان، ثم قالوا

---

(١) وهو أن يوضع اللفظ لعدة معان بالسوية فإذا أطلق لا يعلم المعنى المراد به فيحتاج إلى قرينة تخصصه كلفظ العين فإنه صالح لأن يراد منه الباصرة والجارية إلخ فإذا قيل رأيت بعين، علم أن مراده الباصرة وهكذا.

رأس الدرب لأوله، ورأس العين لمنبعها، ورأس القوم لسيدهم، ورأس الأمر لأوله، ورأس الشهر ورأس الحول وأمثال ذلك على طريق المجاز، وهم لا يجدون قط أن لفظ الرأس استعمل مجرداً بل يجدون أنه استعمل بالقيود في رأس الإنسان كقوله تعالى: ﴿وامسحوا برءوسِكُمْ وأرجلَكُمْ إلىٰ الكعبين﴾[1] ونحوه، وهذا القيد يمنع أن يدخل فيه تلك المعاني فإذا قيل رأس العين ورأس الدرب ورأس الناس ورأس الأمر، فهذا المقيد غير ذاك المقيد. ومجموع اللفظ الدال غير مجموع اللفظ الدال هناك لكن اشتركا في بعض اللفظ كاشتراك كل الأسماء المعرفة في لام التعريف، ولو قدر أن الناطق باللغة نطق بلفظ رأس الإنسان أولاً، لأن الإنسان يتصور رأسه قبل غيره والتعبير أولاً هو عما يتصوره أولاً، فالنطق بهذا المضاف أولاً لا يمنع أن ينطق بمضاف إلى غيره ثانياً، ولا يكون هذا من المجاز كما في سائر المضافات، فإذا قيل ابن آدم أولاً لم يكن قولنا ابن الفرس وابن الحمار مجازاً، وكذلك إذا قيل بنت الإنسان لم يكن قولنا بنت الفرس مجازاً، وكذلك إذا قيل رأس الإنسان أولاً لم يكن قولنا رأس الفرس مجازاً، وكذلك في سائر المضافات إذا قيل يده أو رجله.

فإذا قيل: هو حقيقة فيما أضيف إلى الحيوان، قيل ليس جعل هذا هو الحقيقة بأولى من أن يجعل ما أضيف إلى رأس الإنسان، ثم قد يضاف إلى ما يتصوره أكثر الناس من الحيوانات الصغار التي لم تخطر ببال عامة الناطقين باللغة، فإذا قيل إنه حقيقة في هذا فلماذا لا يكون حقيقة في رأس الجبل والطريق والعين[2] وكذلك سائر ما يضاف إلى الإنسان من أعضائه وأولاده ومساكنه يضاف مثله إلى غيره، ويضاف ذلك إلى الجمادات، فيقال رأس الجبل ورأس العين وخطم الجبل أي أنفه وفم الوادي وبطن الوادي وظهر الجبل وبطن الأرض وظهرها، ويستعمل مع الألف وهو لفظ الظاهر والباطن في أمور كثيرة

---

(١) سورة المائدة الآية ٦.

(٢) إذ هو مستعمل فيها جميعاً فليس اعتباره حقيقة في بعضها بأولى من اعتباره في البعض الآخر.

والمعنى في الجميع أن الظاهر لما ظهر فتبين. والباطن لما بطن فخفي، وسمي ظهر الإنسان ظهراً لظهوره، وبطن الإنسان بطناً لبطونه، فإذا قيل إن هذا حقيقة وذاك مجاز، لم يكن هذا أولى من العكس[1].

وأيضاً من الأسماء ما تكلم به أهل اللغة مفرداً كلفظ الإنسان ونحوه ثم قد يستعمل مقيداً بالإضافة كقولهم إنسان العين وإبرة الذراع ونحو ذلك، وبتقدير أن يكون في اللغة حقيقة ومجاز فقد ادعى بعضهم أن هذا من المجاز وهو غلط، فإن المجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له أولاً، وهذا لم يستعمل اللفظ بل ركب مع لفظ آخر فصار وضعاً آخر بالإضافة فلو استعمل مضافاً في معنى ثم استعمل بتلك الإضافة في غيره كان مجازاً، بل إذا كان بعلبك وحضرموت ونحوهما مما يركب تركيب مزج بعد أن كان الأصل فيه الإضافة لا يقال إنه مجاز، فما لم ينطق به إلا مضافاً أولى إلا يكون مجازاً.

وأما من فرق بين الحقيقة والمجاز بأن الحقيقة ما يفيد المعنى مجرداً عن القرائن والمجاز ما لا يفيد ذلك المعنى إلا مع قرينة، أو قال الحقيقة ما يفيده اللفظ المطلق، والمجاز ما لا يفيد إلا مع التقيد، أو قال الحقيقة هي المعنى الذي يسبق إلى الذهن عند الإطلاق، والمجاز ما لا يسبق إلى الذهن أو قال المجاز ما صح نفيه، والحقيقة ما لم يصح نفيها[2] فإنه يقال: ما تعني بالتجريد عن القرائن[3]، والاقتران بالقرائن، إن عنى بذلك القرائن اللفظية مثل كون الاسم يستعمل مقروناً بالإضافة أو لام التعريف؛ ويقيد بكونه فاعلاً ومفعولاً ومبتدأ وخبراً، فلا يوجد قط في الكلام المؤلف اسم إلا مقيداً، وكذلك الفعل إن عنى بتقييده أنه لا بد له من فاعل، وقد يقيد بالمفعول به وظرفي الزمان والمكان والمفعول له ومعه والحال، فالفعل لا يستعمل قط إلا مقيداً، وأما الحرف فأبلغ،

---

(١) بل هو صالح للكل بدرجة واحدة وإنما يتخصص بإضافة أو قرينة.

(٢) وكل هذه تعريفات للحقيقة والمجاز قصد بها التمييز بينهما.

(٣) أي ما الذي تقصده بذلك.

فإن الحرف أتى به لمعنى في غيره.

ففي الجملة لا يوجد قط في كلام تام اسم ولا فعل ولا حرف إلا مقيداً بقيود تزيل عنه الإطلاق، فإن كانت القرينة ما يمنع الإطلاق عن كل قيد فليس في الكلام الذي يتكلم به جميع الناس لفظ مطلق عن كل قيد، سواء كانت الجملة إسمية أو فعلية، ولهذا كان لفظ الكلام والكلمة في لغة العرب بل وفي لغة غيرهم لا تستعمل إلا في المقيد، وهو الجملة التامة اسمية كانت أو فعلية أو بدائية[1]، إن قيل إنها قسم ثالث، فأما مجرد الاسم أو الفعل أو الحرف الذي جاء لمعنى ليس بأسم ولا فعل فهذا لا يسمى في كلام العرب قط كلمة وإنما تسميته هذا كلمة اصلاح نحوي كما سموا بعض الألفاظ فعلاً، وقسموه إلى فعل ماض ومضارع وأمر، والعرب لم تسم قط اللفظ فعلاً، بل النحاة اصطلحوا على هذا قسموا اللفظ باسم مدلوله[2]، فاللفظ الدال على حدوث فعل في زمن ماض سموه فعلاً ماضياً، وكذلك سائرها، وكذلك حيث وجد في الكتاب والسنة بل وفي كلام العرب نظمه ونثره لفظ كلمة فإنما يراد به المقيد التي تسميها النحاة جملة تامة كقوله تعالى: ﴿وينذرَ الَّذينَ قالوا اتخذ اللهُ ولداً ما لهم بهِ مِنْ علمٍ ولا لآبائِهم، كَبُرَتْ كلمةً تخرجُ مِنْ أفواههم إنْ يقولونَ إلاّ كذباً﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وجعلَ كلمةَ الذينَ كفروا السّفلى وكلمةُ اللهِ هي العليا﴾[4] وقوله تعالى: ﴿تعالوا إلىٰ كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكُمْ﴾[5] وقوله: ﴿وجعلها كلمةً باقيةً في عقبهِ﴾[6] وقوله: ﴿وألزمهم كلمةَ التقوىٰ وكانوا أحقَّ بها وأهلهَا﴾[7].

---

(١) كقوله تعالى: ﴿قال رب ارجعون. لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها﴾ وكتسميتهم لا إله إلا الله كلمة التوحيد.

(٢) وهو الحدث المقترن بزمان.

(٣) سورة الكهف الآية (٤ ـ ٥).

(٤) سورة التوبة الآية ٤٠.

(٥) سورة آل عمران الآية ٦٤.

(٦) سورة الزخرف الآية ٢٨.

(٧) سورة الفتح الآية ٢٦.

وقول النبي ﷺ «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد»:

ألا كل شيء ماخلا الله باطل

وقوله «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» وقوله «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت يكتب الله بها سخطه إلى يوم القيامة» وقوله «لقد قلت بعدك أربع كلمات لو وزنت بما قلته منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله رضاء نفسه، سبحان الله مداد كلماته» وإذا كان كل اسم وفعل وحرف يوجد في الكلام فإنه مقيد لا مطلق لم يجز أن يقال اللفظ الحقيقة ما دل مع الإطلاق والتجرد عن كل قرينة تقارنه.

فإن قيل: أريد بعض القرائن دون بعض. قيل له: اذكر الفصل بين القرينة التي يكون معها حقيقة، والقرينة التي يكون معها مجاز، وان تجد إلى ذلك سبيلاً تقديره على تقسيم صحيح معقول، ومما يدل على ذلك أن الناس اختلفوا في العام إذا خص هل يكون استعماله فيما بقي حقيقة أو مجازاً، وكذلك لفظ الأمر إذا أريد به الندب هل يكون حقيقة أو مجازاً، وفي ذلك قولان لأكثر الطوائف. لأصحاب أحمد قولان، ولأصحاب الشافعي قولان، ولأصحاب مالك قولان.

ومن الناس من ظن أن هذا الخلاف يطرد في التخصيص المتصل كالصفة والشرط والغاية والبدل، وجعل يحكى في ذلك أقوال من يفصل كما يوجد في كلام طائفة من المصنفين في أصول الفقه. وهذا مما لم يعرف أن أحدا قاله فجعل اللفظ العام المقيد في الصفات والغايات والشروط مجازاً، بل لما أطلق بعض المصنفين أن اللفظ العام إذا خص يصير مجازاً ظن هذا الناقل أنه عنى التخصيص المتصل، وأولئك لم يكن في اصطلاحهم عام مخصوص إلا إذا خص

بمنفصل؛ وأما المتصل فلا يسمون اللفظ عاماً مخصوصاً فإنه لم يدل إلا متصلاً والاتصال منعه العموم، وهذا اصطلاح كثير من الأصوليين وهو الصواب، لا يقال لما قيد بالشرط والصفة ونحوهما إنه داخل فيما خص من العموم؛ ولا في العام المخصوص، لكن يقيد فيقال تخصيص متصل وهذا المقيد لا يدخل في التخصيص المطلق.

وبالجملة فيقال: إذا كان هذا مجازاً فيكون تقييد الفعل المطلق بالمفعول به وبظرف الزمان والمكان مجازاً، وكذلك كل ما قيد بقيد، فيلزم أن يكون الكلام كله مجازاً فأين الحقيقة[1].

فإن قيل: يفرق بين القرائن المتصلة والمنفصلة فما كان مع القرينة المتصلة[2] فهو حقيقة وما كان مع المنفصلة كان مجازاً. قيل: تعني بالمتصل ما كان في اللفظ أو ما كان موجوداً حين الخطاب، فإن عنيت الأول لزم أن يكون ما علم من حال المتكلم أو المستمع أولاً قرينة منفصلة[3]، فما استعمل بلام التعريف لما يعرفانه كما يقال قال النبي ﷺ، وهو عند المسلمين رسول الله، أو قال الصديق، وهو عندهم أبو بكر. وإذا قال الرجل لصاحبه اذهب إلى الأمير أو القاضي أو الوالي، يريد ما يعرفانه، أنه يكون مجازاً. وكذلك الضمير يعود إلى معلوم غير مذكور كقوله: ﴿إنا أنزلناه﴾[4] وقوله: ﴿حتى توارت[5] بالحجاب﴾[6] وأمثال ذلك أن يكون هذا مجازاً، وهذا لا يقوله أحد وأيضاً فإذا قال لشجاع: هذا الأسد فعل اليوم كذا، ولبليد: هذا الحمار قال اليوم كذا، أو لعالم أو جواد: هذا البحر جرى اليوم منه كذا، أن يكون حقيقة، لأن قوله هذا قرينة لفظية فلا يبقى قط مجازاً، وإن قال المتصل أعم من ذلك وهو

---

(١) يعني إذا اعتبر في الحقيقة أن تكون مجردة من كل قيد لم توجد حقيقة أصلاً.
(٢) وذلك كالشرط والصفة.
(٣) لأنه ليس موجوداً في اللفظ.
(٤) سورة القدر الآية ١.
(٥) والضمير للشمس، وقيل للخيل.
(٦) سورة ص الآية ٣٢.

ما كان موجوداً حين الخطاب، قيل له: فهذا أشد عليك من الأول[١]، فإن كل متكلم بالمجاز لا بد أن يقترن به حال الخطاب ما يبين مراده وإلا لم يجز التكلم به[٢].

فإن قيل: أنا أجوز تأخير البيان عن مورد الخطاب إلى وقت الحاجة، قيل: أكثر الناس لا يجوزون أن يتكلم بلفظ يدل على معنى وهو لا يريد ذلك المعنى إلا إذا بين[٣]، وإنما يجوزون تأخير بيان ما لم يدل اللفظ عليه كالمجملات، ثم نقول: إذا جوزت تأخير البيان فالبيان قد يحصل بجملة تامة وبأفعال من الرسول وبغير ذلك، ولا يكون البيان المتأخر إلا مستقلاً بنفسه لا يكون مما يجب اقترانه بغيره، فإن جعلت هذا مجازاً لزم أن يكون ما يحتاج في العمل إلى بيان مجازاً كقوله: ﴿خُذْ مِنْ أموالهم صدقةً تطهرهُمْ وتزكيهمْ بها﴾[٤].

ثم يقال: هب أن هذا جائز عقلاً، لكن ليس واقعاً في الشريعة أصلاً[٥] وجميع ما يذكر من ذلك باطل كما قد بسط في موضعه، فإن الذين قالوا: الظاهر الذي لم يرد به ما يدل عليه ظاهره قد يؤخر بيانه احتجوا بقوله: ﴿إنَّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرةً﴾[٦] وادعوا أنها كانت معينة، وأخر بيان التعيين، وهذا خلاف ما استفاض عن السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من أنهم أمروا ببقرة مطلقة، فلو أخذوا بقرة من البقر فذبحوها أجزأ عنهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم[٧]، والآية نكرة في سياق الإثبات فهي مطلقة، والقرآن يدل سياقه على أن الله ذمهم على السؤال بما هي، ولو كان المأمور به معيناً لما كانوا ملومين، ثم إن

---

(١) يعني أن الإلزام هنا أشد من الأول فيصعب التخلص منه.
(٢) لأنه في تلك الحالة يكون إلغازاً.
(٣) وهذا هو الحق، فإن الكلام الذي لا يبين منه مراد المتكلم ليس بكلام.
(٤) سورة التوبة الآية ١٠٣.. (٥) يعني تأخير البيان عن وقت الحاجة.
(٦) سورة البقرة الآية ٦٧.
(٧) وقد ورد في هذا حديث صحيح.

مثل هذا لم يقع قط في أمر الله ورسوله أن يأمر عباده بشيء معين ويبهمه عليهم مرة بعد مرة ولا يذكره بصفات تختص به ابتداء.

واحتجوا بأن الله أخر بيان لفظ الصلاة والزكاة والحج، وأن هذه ألفاظ لها معان في اللغة بخلاف الشرع. وهذا غلط، فإن الله إنما أمرهم بالصلاة بعد أن عرفوا ما المأمور به وكذلك الصيام وكذلك الحج، ولم يؤخر الله قط بيان شيء من هذه المأمورات. ولبسط هذه المسألة موضع آخر.

وأما قول من يقول إن الحقيقة ما يسبق إلى الذهن عند الإطلاق، فمن أفسد الأقوال، فإنه يقال: إذا كان اللفظ لم ينطق به إلا مقيداً فإنه يسبق إلى الذهن في كل موضع منه ما دل عليه ذلك الموضع، وأما إذا أطلق فهو لا يستعمل في الكلام مطلقاً قط فلم يبق له حال إطلاق محض حتى يقال إن الذهن يسبق إليه أم لا. وأيضاً فأي ذهن فإن العربي الذي يفهم كلام العرب يسبق إلى ذهنه من اللفظ ما لا يسبق إلى ذهن النبطي الذي صار يستعمل الألفاظ في غير معانيها. ومن هنا غلط كثير من الناس فإنهم قد تعودوا ما اعتادوه، إما من خطاب عامتهم وإما من خطاب علمائهم باستعمال اللفظ في معنى، فإذا سمعوه في القرآن والحديث ظنوا أنه مستعمل في ذلك المعنى، فيحملون كلام الله ورسوله على لغتهم النبطية وعادتهم الحادثة، وهذا مما دخل به الغلط على طوائف[1]، بل الواجب أن يعرف اللغة والعادة والعرف الذي نزل به القرآن والسنة، وما كان الصحابة يفهمون من الرسول عند سماع تلك الألفاظ فبتلك اللغة والعادة والعرف خاطبهم الله ورسوله لا بما حدث بعد ذلك.

وأيضاً فقد بينا في غير هذا الموضع أن الله ورسوله لم يدع شيئاً من القرآن

(١) لا شك أن معظم البدع التي حدثت في الإسلام سببها الجهل بالمفاهيم الصحيحة وحمل ألفاظ النصوص على معان محدثة وغير ما أراده الله ورسوله منها.

والحديث إلا بين معناه للمخاطبين ولم يحوجهم إلى شيء آخر[1] كما قد بسطنا القول فيه في غير هذا الموضع، فقد تبين أن ما يدعيه هؤلاء من اللفظ المطلق من جميع القيود لا يوجد إلا مقدراً في اللسان[2] لا موجوداً في الكلام المستعمل، كما أن ما يدعيه المنطقيون من المعنى المطلق من جميع القيود لا يوجد إلا مقدراً في الذهن لا يوجد في الخارج شيء موجود خارج عن كل قيد، ولهذا كان ما يدعونه من تقسيم العلم إلى تصور وتصديق، وأن التصور هو تصور المعنى الساذج الخالي عن كل قيد لا يوجد. وكذلك ما يدعونه من البسائط التي تتركب منها الأنواع وأنها أمور مطلقة عن كل قيد لا توجد، وما يدعونه من أن واجب الوجود هو وجود مطلق عن كل أمر ثبوتي لا يوجد.

فهذه الصفات المطلقات عن جميع القيود ينبغي معرفتها لمن ينظر في هذه العلوم، فإنه بسبب ظن وجودها ضل طوائف في العقليات والسمعيات، بل إذا قال العلماء (مطلق) إنما يعنون به مطلق عن ذلك القيد، ومقيد بذلك القيد، كما يقولون الرقبة مطلقة في آية كفارة اليمين ومقيدة في آية القتل، أي مطلقة عن قيد الإيمان وإلا فقد قيل ﴿فتحريرُ رقبةٍ﴾[3] فقيدت بأنها رقبة واحدة وأنها موجودة وأنها تقبل التحرير، والذين يقولون بالمطلق المحض يقولون هو الذي لا يتصف بوحدة ولا كثرة ولا وجود ولا عدم ولا غير ذلك. بل هو الحقيقة من حيث هي هي كما يذكره الرازي تلقياً له عن ابن سينا وأمثاله من المتفلسفة، وقد بسطنا الكلام في هذا الإطلاق والتقييد والكليات والجزئيات في موضع غير هذا، وبينا من غلط هؤلاء في ذلك ما ليس هذا موضعه.

وإنما المقصود هنا الإطلاق اللفظي وهو أن يتكلم باللفظ مطلقاً عن كل قيد،

---

(١) فإن الله قد أخبر أنه أكمل لهذه الأمة دينها، فلو أحوجهم في الدين لغير الكتاب والسنة لم يكن قد أكمل لهم الدين.

(٢) يعني أنه أمر تقديري صرف وليس بواقع.

(٣) سورة النساء الآية ٩٢.

وهذا لا وجود له، وحينئذ فلا يتكلم أحد إلا بكلام مؤلف مقيد مرتبط بعضه ببعض، فتكون تلك القيود ممتنعة الإطلاق[١].

فتبين أنه ليس لمن فرق بين الحقيقة والمجاز فرق معقول يمكن به التمييز بين نوعين، فعلم أن هذا التقسيم باطل، وحينئذ فكل لفظ موجود في كتاب الله ورسوله فإنه مقيد بما يبين معناه، فليس في شيء من ذلك مجاز، بل كله حقيقة[٢].

ولهذا لما ادعى كثير من المتأخرين أن في القرآن مجازاً وذكروا ما يشهد لهم ردَّ عليهم المنازعون جميع ما ذكروه، فمن أشهر ما ذكروه قوله تعالى: ﴿جداراً يريد أن ينقض﴾[٣] قالوا والجدار ليس بحيوان، والإرادة إنما تكون للحيوان، فاستعمالها في ميل الجدار مجاز، فقيل لهم: لفظ الإرادة قد استعمل في الميل الذي يكون معه شعور وهو ميل الحي، وفي الليل الذي لا شعور فيه وهو ميل الجماد، وهو من مشهور اللغة، يقال هذا السقف يريد أن يقع، وهذه الأرض تريد أن تحرث، وهذا الزرع يريد أن يسقى، وهذا الثمر يريد أن يقطف، وهذا الثوب يريد أن يغسل، وأمثال ذلك.

واللفظ إذا استعمل في معنيين فصاعداً فإما أن يجعل حقيقة في أحدهما مجازاً في الآخر، أو حقيقة فيما يختص به كل منهما فيكون مشتركاً اشتراكاً لفظياً أو حقيقة في القدر المشترك بينهما وهي الأسماء المتواطئة وهي الأسماء العامة كلها[٤]، وعلى الأول يلزم المجاز، وعلى الثاني يلزم الاشتراك وكلاهما خلاف

---

(١) لأن وجود هذه القيود ينافي الاطلاق.

(٢) وهذه هي النتيجة التي وصل إليها شيخ الإسلام من حواره العنيف مع من يدعون المجاز في القرآن والسنة ويتذرعون بذلك إلى فتح أبواب من التأويل لتعطيل النصوص.

(٣) يعني يسقط.

(٤) وهذا هو الصحيح أن إطلاق اللفظ الكلي على افراده من قبيل الطواطيء لأن معناه صادق عليها بالسوية.

الأصل، فوجب أن يجعل من المتواطئة، وبهذا يعرف عموم الأسماء العامة كلها، وإلا فلو قال قائل هو في ميل الجبال حقيقة وفي ميل الحيوان مجاز لم يكن بين الدعويين فرق إلا كثرة الاستعمال في ميل الحيوان لكن يستعمل مقيداً بما يبين أنه أريد ميل الحيوان، وهنا استعمل مقيداً بما يبين أنه أريد ميل الجماد، والقدر المشترك بين مسميات الأسماء المتواطئة أمر كلي عام لا يوجد كلياً عاماً إلا في الذهن[1]، وهو مورد التقسيم بين الأنواع، لكن ذلك المعنى العام الكلي كان أهل اللغة لا يحتاجون إلى التعبير عنه، لأنهم إنما يحتاجون إلى ما يوجد في الخارج وإلى ما يوجد في القلوب في العادة، وما لا يكون في الخارج إلا مضافاً إلى غيره لا يوجد في الذهن مجرداً[2] بخلاف لفظ الإنسان والفرس، فإنه لما كان يوجد في الخارج غير مضاف تعودت الأذهان تصور مسمى الإنسان ومسمى الفرس بخلاف تصور مسمى الإرادة ومسمى العلم ومسمى القدرة ومسمى الوجود المطلق العام، فإن هذا لا يوجد في اللغة لفظ مطلق يدل عليه، بل لا يوجد لفظ الإرادة إلا مقيداً بالمريد، ولا لفظ العلم إلا مقيداً بالعالم، ولا لفظ القدرة إلا مقيداً بالقادر، بل وهكذا سائر الأعراض لما لم توجد إلا في محالها مقيدة بها لم يكن في اللغة لفظ إلا كذلك[3].

فلا يوجد في اللغة لفظ السواد والبياض والطول والقصر إلا مقيداً بالأسود والأبيض والطويل والقصير ونحو ذلك، لا مجرداً عن كل قيد، وإنما يوجد مجرداً في كلام المصنفين في اللغة لأنهم فهموا من كلام أهل اللغة ما يريدون به من القدر المشترك، ومنه قوله تعالى: ﴿فأذاقها الله لباسَ الجوعِ والخوفِ﴾[4] فإن

---

(١) لأن كل ما في الخارج لا يكون إلا جزئياً مختصاً.

(٢) لأن الصورة الذهنية يجب أن تطابق الصورة الخارجية.

(٣) ولكن المناطقة يزعمون أن الأعراض أيضاً لها حقائق كلية مجردة فهناك علم كلي وإرادة كلية وهكذا.

(٤) سورة النحل الآية ١١٢.

من الناس من يقول الذوق حقيقة في الذوق بالفم، واللباس بما يلبس على البدن، وإنما استعير هذا لهذا وليس كذلك، بل قال الخليل: الذوق هي لغة العرب هو وجود طعم الشيء[1] والاستعمال يدل على ذلك. قال تعالى: ﴿ولنذيقنَّهم من العذابِ الأدنى دونَ العذاب الأكبرِ﴾[2] وقال: ﴿فذاقت وبالَ أمرها﴾[3] وقال: ﴿فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون﴾[4] ﴿فذوقوا عذابي ونُذُر﴾[5] ﴿لا يذوقونَ فيها الموتَ إلا الموتةَ الأولىٰ﴾[6] - ﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً. إلا حميماً وغساقاً﴾[7] وقال النبي ﷺ «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً» وفي بعض الأدعية «أذقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك».

رد ما زعموا من ألفاظ القرآن أنه مجاز

فلفظ الذوق يستعمل في كل ما يحس به ويجد اله أو لذته ، فدعوى المدعي اختصاص لفظ الذوق بما يكون بالفم تحكم به، لكن ذاك مقيد فيقال: ذقت الطعام وذقت هذا الشراب، فيكون معه من القيود ما يدل على أنه ذوق بالفم، وإذا كان الذوق مستعملاً فيما يحسه الإنسان بباطنه أو بظاهره حتى الماء الحميم يقال ذاقه، فالشوب إذا كان بارداً أو حاراً يقال ذقت حره، وبرده.

وأما لفظ اللباس فهو مستعمل في كل ما يغشى الإنسان فيلتبس به، قال تعالى: ﴿وجعلنا الليلَ لباساً﴾[8] وقال: ﴿ولباس التقوىٰ ذلكَ خير﴾[9] وقال: ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾[10] ومنه يقال: لبس الحق بالباطل إذا خلطه

---

(١) سواء كان بالفم أو بغيره.
(٢) سورة السجدة الآية ٢١.
(٣) سورة الطلاق الآية ٩.
(٤) سورة آل عمران الآية ١٠٦.
(٥) سورة القمر الآية ٣٩.
(٦) سورة الدخان الآية ٥٦.
(٧) سورة النبأ الآية (٢٤ - ٢٥).
(٨) سورة النبأ الآية ١٠.
(٩) سورة الأعراف الآية ٢٦.
(١٠) سورة البقرة الآية ١٨٧.

به حتى غشاء، فالجوع الذي يشمل ألمه جميع الجائع، نفسه وبدنه، وكذلك الخوف الذي يلبس البدن، لو قيل فأذاقها الله الجوع والخوف لم يدل ذلك على أنه شامل لجميع أجزاء الجائع، بخلاف ما إذا قيل لباس الجوع والخوف[1]، ولو قال فألبسهم لم يكن فيه ما يدل على أنهم ذاقوا ما يؤلمهم إلا بالعقل[2]، من حيث إنه يعرف أن الجائع الخائف يألم، بخلاف لفظ ذوق الجوع والخوف فإن هذا اللفظ يدل على الإحساس بالمؤلم، وإذا أضيف إلى الملذ دل على الإحساس به كقوله ﷺ « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ».

فإن قيل: فلم لم يصف نعيم الجنة بالذوق؟ قيل لأن الذوق يدل على جنس الإحساس ويقال ذاق الطعام لمن وجد طعمه وإن لم يأكله، وأهل الجنة نعيمهم كامل تام لا يقتصر فيه على الذوق، بل استعمل لفظ الذوق في النفي كما قال عن أهل النار ﴿لا يذوقونَ فيها برْدَاً ولا شرَاباً﴾[3] أي لا يحصل لهم من ذلك ذوق، وقال عن أهل الجنة ﴿لا يذوقونَ فيها الموت إلا الموتةَ الأولى﴾[4].

وكذلك ما ادعوا أنه مجاز في القرآن لفظ المكر والاستهزاء والسخرية المضاف إلى الله، وزعموا أنه مسمى باسم ما يقابله على طريق المجاز، وليس كذلك بل مسميات هذه الأسماء إذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة كانت ظلماً له، وأما إذا فعلت بمن فعلها بالمجني عليه عقوبة بمثل فعله كانت عدلاً[5] كما قال تعالى: ﴿كذلكَ كِدنَا ليوسف﴾[6] فكاد له كما كادت إخوته لما قال له أبوه ﴿لا تقصص رؤياك على إخوتكَ فيكيدوا لكَ كيداً﴾[7] وقال تعالى: ﴿إنهم يكيدونَ

---

(١) فانظر إلى بيان شيخ الإسلام رحمه الله للحكمة في الإتيان بكلمة لباس هنا أن يدل على إحاطة ذلك بهم كإحاطة اللباس بلابسه.

(٢) ولكن لم يكن في اللفظ ما يدل عليه.

(٣) سورة النبأ الآية ٢٤. (٤) سورة الدخان الاية ٥٦ . وهذا التعليل نفيس جداً .

(٥) وإذا كانت عدلا كانت مقتضى الحكمة فلا تكون نقصاً بل كمالاً.

(٦) سورة يوسف الآية ٧٦. (٧) سورة يوسف الآية ٥.

كيداً وأكيد كيداً﴾[1] وقال تعالى: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون. فانظر كيف كان عاقبة مكرهم﴾[2] وقال: ﴿الذين يلمزون المطـوعين مـن المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم﴾[3] ولهذا كان الاستهزاء بهم فعلاً يستحق هذا الاسم[4] كما روى عن ابن عباس أنه يفتح لهم باب من الجنة وهم في النار فيسرعون إليه فيغلق ثم يفتح لهم باب آخر فيسرعون إليه فيغلق فيضحك منهم المؤمنون. قال تعالى ﴿فاليومَ الذينَ آمنوا مِنَ الكفار يضحكونَ. على الأرائك ينظرونَ. هل ثُوب الكفارُ ما كانو يفعلونَ﴾[5].

وعن الحسن البصري: إذا كان يوم القيامة خمدت النار لهم كما تخمد الإهالة فيمشون فتخسف بهم. وعن مقاتل: إذا ضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، فيبقون في الظلمة فيقال لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً. وقال بعضهم: استهزاؤه استدراجه لهم. وقيل إيقاع استهزائهم ورد خداعهم ومكرهم عليهم، وقيل إنه يظهر لهم في الدنيا خلاف ما أبطن في الآخرة، وقيل هو تجهيلهم وتخطئتهم فيما فعلوه. وهذا كله حق وهو استهزاؤهم حقيقة[6].

ومن الأمثلة المشهورة لمن يثبت المجاز في القرآن ﴿واسأل القرية﴾[7] قالوا المراد به أهلها، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه؛ فقيل لهم: لفظ القرية والمدينة والنهر والميزان وأمثال هذه الأمور التي فيها الحال والمحل كلاهما داخل

---

(١) سورة الطلاق الآية (١٥ - ١٦).

(٢) سورة النمل الآية (٥٠ - ٥١). (٣) سورة التوبة الآية ٨.

(٤) لأنه استهزاء حقيقي داخل في مفهوم اللفظ.

(٥) سورة المطففين الآية (٣٤ - ٣٥).

(٦) يعني أن كل هذه التفسيرات لاستهزاء الله بالمنافقين تفيد أنه استهزاء حقيقي جزاء لهم على استهزائهم بالمؤمنين.

(٧) سورة يوسف الآية ٨٢.

في الاسم[1] ثم قد يعود الحكم على الحال وهو السكان. وتارة على المحل وهو المكان، وكذلك في النهر يقال: حفرت النهر، وهو المحل، وجرى النهر وهو الماء، ووضعت الميزاب وهو المحل، وجرى الميزاب وهو الماء وكذلك القرية. قال تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنةً مطمئنةً﴾[2] وقوله: ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون. فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾[3] وقال في آية أخرى: ﴿أفأمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسُنا بياتاً وهم نائمونَ﴾[4] فجعل أهل القرى هم السكان. وقال: ﴿وكأين من قرية هي أشدة قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾[5] وهم السكان. وكذلك قوله تعالى: ﴿وتلكَ القرى أهلكناهم لما ظلموا وَجَعلنا لمهلِكِهم مَوعداً﴾[6] وقال تعالى: ﴿أو كالذيَ مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها﴾[7] فهذا المكان لا السكان، لكن لا بد أن يلحظ أنه كان مسكوناً، فلا يسمى قرية إلا إذا كان وقد عمر للسكنى، مأخوذ من القرى وهو الجمع، ومنه قولهم: قريت الماء في الحوض إذا جمعته فيه.

ونظير ذلك لفظ الإنسان يتناول الجسد والروح، ثم الأحكام تتناول هذا تارة وهذا تارة لتلازمهما، فكذلك القرية إذا عذب أهلها ضربت وإذا خربت كان عذاباً لأهلها فما يصيب أحدهما من الشر ينال الآخر كما ينال البدن والروح ما يصيب أحدهما. فقوله: ﴿واسأل القرية﴾[8] مثل قوله: ﴿قرية كانت آمنة مطمئنة﴾[9] فاللفظ هنا يراد به السكان من غير إضمار ولا حذف فهذا بتقدير

---

(١) يعني أن كلا منهما داخل في مفهوم الإسم فيطلق على هذا تارة وعلى هذا تارة وإنما يفهم المراد منها بالقرينة. ففي قوله: ﴿واسأل القرية﴾ دل قوله اسأل على أن المراد السكان لأن المباني لا تسأل.

(٢) سورة النحل الآية ١١٢.

(٣) سورة الأعراف الآية (٣ ـ ٤).

(٤) سورة الاعراف الآية ٦٠.

(٥) سورة محمد الآية ١٣.

(٦) سورة الكهف الآية ٦٠.

(٧) سورة البقرة الآية ٢٦٩.

(٨) سورة يوسف الآية ٨٢.

(٩) سورة النحل الآية ١١٢.

أن يكون في اللغة مجاز فلا مجاز في القرآن[1] بل وتقسيم اللغة إلى حقيقة ومجاز تقسيم مبتدع محدث لم ينطق به السلف، والخلف فيه على قولين، وليس النزاع فيه لفظياً، بل يقال نفس هذا التقسيم باطل لا يتميز هذا عن هذا [2] ولهذا كان كل ما يذكرونه من الفروق يبين أنها فروق باطلة، وكلما ذكر بعضهم فرقاً أبطله الثاني، كما يدعي المنطقيون أن الصفات القائمة بالموصوفات تنقسم اللازمة لها إلى داخل في ماهيتها الثابتة في الخارج، وإلى خارج عنها لازم للماهية ولازم خارج للوجود، وذكروا ثلاثة فروق كلها باطلة لأن هذا التقسيم باطل لا حقيقة له، بل ما يجعلونه داخلاً يمكن جعله خارجاً[3] وبالعكس كما قد بسط في موضعه.

وقولهم: اللفظ إن دل بلا قرينة فهو حقيقة وإن لم يدل إلا معها فهو مجاز قد تبين بطلانه، وأنه ليس في الألفاظ الدالة ما يدل مجرداً عن جميع القرائن ولا فيها ما يحتاج إلى جميع القرائن. وأشهر أمثلة المجاز لفظ الأسد والحمار والبحر ونحو ذلك مما يقولون إنه استعير للشجاع والبليد والجواد، وهذه لا تستعمل إلا مؤلفة مركبة مقيدة بقيود لفظية كما تستعمل الحقيقة كقول أبي بكر الصديق عن أبي قتادة لما طلب غيره سلب القتيل[4] « لاها الله إذاً نعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فنعطيك سلبه » فقوله نعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله وصف له بالقوة للجهاد في سبيله، وقد عينه تعييناً أزال اللبس. وكذلك قول النبي ﷺ « إن خالداً سيف من سيوف الله سله الله على المشركين » وأمثال ذلك.

وإن قال القائل: القرائن اللفظية موضوعة ودلالتها على المعنى حقيقة لكن

---

(١) وهذا هو الحق إن شاء الله، فإن ادعاء المجاز ينافي البيان الذي وصف الله به القرآن.

(٢) يعني ليس هناك ضابط يميز لما هو حقيقة ولما هو مجاز بل يجوز أن يدعي المجاز فيما هو حقيقة والحقيقة فيما هو مجاز.

(٣) فاعتبار بعض الصفات داخلاً الماهية وبعضها خارجاً هو تحكم صرف لا دليل عليه.

(٤) يعني شكته وسلاحه.

القرائن الحالية مجاز، قيل: اللفظ لا يستعمل قط إلا مقيداً بقيود لفظية موضوعة والحال حال المتكلم والمستمع لا بد من اعتباره في جميع الكلام فإنه إذا عرف المتكلم فهم من معنى كلامه ما لا يفهم إذا لم يعرف لأنه بذلك يعرف عادته في خطابه، واللفظ إنما يدل إذا عرف لغة المتكلم التي بها يتكلم وهي عادته وعرفه التي يعتادها في خطابه ودلالة اللفظ على المعنى دلالة قصدية إرادية اختيارية فالمتكلم يريد دلالة اللفظ على المعنى فإذا اعتاد أن يعبر باللفظ عن المعنى كانت تلك لغة، ولهذا كل من كان له عناية بألفاظ الرسول ومراده بها عرف عادته في خطابه وتبين له من مراده ما لا يتبين لغيره.

ولهذا ينبغي أن يقصد إذا ذكر لفظ من القرآن والحديث أن يذكر نظائر ذلك اللفظ ماذا عنى بها الله ورسوله فيعرف بذلك لغة القرآن والحديث وسنة الله ورسوله التي يخاطب بها عباده وهي العادة المعروفة من كلامه. ثم إذا كان لذلك نظائر في كلام غيره وكانت النظائر كثيرة عرف أن تلك العادة واللغة مشتركة عامة لا يختص بها هو ﷺ؛ بل هي لغة قومه، ولا يجوز أن يحمل كلامه على عادات حدثت بعده في الخطاب لم تكن معروفة في خطابه وخطاب أصحابه كما يفعله كثير من الناس، وقد لا يعرفون انتفاء ذلك في زمانه. ولهذا كان استعمال القياس في اللغة وإن جاز في الاستعمال فإنه لا يجوز في الاستدلال، فإنه قد يجوز للإنسان أن يستعمل هو اللفظ في نظير المعنى الذي استعملوه فيه مع بيان ذلك على ما فيه من النزاع. لكن لا يجوز أن يعمد إلى ألفاظ قد عرف استعمالها في معاني فيحيلها إلى غير تلك المعاني ويقول إنهم أرادوا تلك بالقياس على تلك، بل هذا تبديل وتحريف، فإذا قال «الجار أحق بسقبه»[1]، فالجار هو الجار ليس هو الشريك؛ فإن هذا لا يعرف في لغتهم، ولكن ليس في اللفظ ما يقتضي أنه يستحق الشفعة لكن يدل على أن البيع له أولى.

وأما الخمر فقد ثبت بالنصوص الكثيرة والنقول الصحيحة أنها كانت اسماً

(١) يعني بقربه.

لكل مسكر[1]، لم يسم النبيذ خمراً بالقياس، وكذلك النباش كانوا يسمونه سارقاً كما قالت عائشة: «سارق موتانا كسارق أحيائنا». واللائط عندهم كان أغلظ من الزنى بالمرأة؛ ولا بد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ، وكيف يفهم كلامه[2]، فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب[3] فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دال عليه، ولا يكون الأمر كذلك؛ ويجعلون هذه الدلالة حقيقة وهذه مجازاً كما أخطأ المرجئة في اسم الإيمان، جعلوا لفظ الإيمان حقيقة في مجرد التصديق، وتناوله للأعمال مجازاً.

فيقال: إن لم يصح التقسيم إلى حقيقة ومجاز فلا حاجة إلى هذا، وإن صح فهذا لا ينفعكم بل هو عليكم لا لكم، لأن الحقيقة هي اللفظ الذي يدل بإطلاقه بلا قرينة والمجاز إنما يدل بقرينة، وقد تبين أن لفظ الإيمان حيث أطلق في الكتاب والسنة دخلت فيه الأعمال، وإنما يدعى خروجها منه عند التقييد، وهذا يدل على أن الحقيقة قوله «الإيمان بضع وسبعون شعبة».

وأما حديث جبريل فإن كان أراد بالإيمان ما ذكر مع الإسلام فهو كذلك وهذا هو الذي أراد النبي ﷺ قطعاً كما أنه لما ذكر الإحسان أراد الإحسان مع الإيمان والإسلام، لم يرد أن الإحسان مجرد عن إيمان وإسلام. ولو قدر انه اريد بلفظ الإيمان بمجرد التصديق فلم يقع ذلك إلا مع قرينة فيلزم أن يكون مجازاً، وهذا معلوم بالضرورة لا يمكننا المنازعة فيه بعد تدبر القرآن والحديث بخلاف كون لفظ الإيمان في اللغة مرادفاً للتصديق، ودعوى أن الشارع لم يغيره ولم ينقله

---

(١) كما قال عمر رضي الله عنه: الخمر ما خامر العقل.

(٢) وذلك ضروري حتى لا يتلاعب بالنصوص ويفسرها كل إنسان على حسب هواه فيقع الخلاف والشقاق.

(٣) وهو الجهل بمدلولات الألفاظ.

بل أراد به ما كان يريده أهل اللغة بلا تخصيص ولا تقييد » فإن هاتين المقدمتين لا يمكن الجزم بواحدة منهما . فلا يعارض اليقين[1] . كيف وقد عرف فساد كل واحدة من المقدمتين، وأنها من أفسد الكلام .

وأيضاً فليس لفظ الإيمان في دلالته على الأعمال المأمور بها بدون[2] لفظ الصلاة والصيام والزكاة والحج الشرعي سواء قيل إن الشارع نقله أو زاد الحكم دون الاسم، أو زاد الاسم وتصرف فيه تصرف أهل العرف، أو خاطب بالاسم مقيداً لا مطلقاً .

فإن قيل: الصلاة والحج ونحوهما لو ترك بعضها بطلت بخلاف الإيمان فإنه لا يبطل عند الصحابة وأهل السنة والجماعة بمجرد الذنب، قيل إن أراد بالبطلان أنه لا تبرأ الذمة منها كلها . فكذلك الإيمان الواجب إذا ترك منه شيئاً لم تبرأ الذمة منه كله، وإن أريد به وجوب الإعادة فهذا ليس على الإطلاق، فإن في الحج واجبات إذا تركها لم تفسد بل تجبر بدم، وكذلك في الصلاة عند أكثر العلماء إذا تركها سهواً أو مطلقاً وجبت الإعادة، فإنما يجب إذا أمكنت الإعادة وإلا فما تعذرت إعادته يبقى مطالباً به كالجمعة ونحوها، وإن أريد بذلك أنه لا يثاب على ما فعله، فليس كذلك، بل قد بين النبي ﷺ في حديث المسيء في صلاته أنه إذا لم يتمها يثاب على ما فعل ولا يكون بمنزلة من لم يصل، وفي عدة أحاديث أن الفرائض تكمل يوم القيامة من النوافل، فإذا كانت الفرائض مجبورة بثواب النوافل دل على أنه يعتد له بما فعل منها، فكذلك الإيمان إذا ترك منه شيئاً كان عليه فعله إن كان محرماً تاب منه، وإن كان واجباً فعله، فإذا لم يفعله لم تبرأ ذمته منه وأثيب على ما فعله، كسائر العبادات، وقد دلت

---

(١) وهو ما دلت عليه النصوص القطعية من دخول الأعمال في الإيمان.

(٢) يعني بأقل منها.

النصوص على أنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان[1].

وقد عدلت المرجئة في هذا الأصل عن بيان الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان واعتمدوا على رأيهم وعلى ما تأولوه بفهمهم اللغة وهذه طريقة أهل البدع. ولهذا كان الإمام أحمد يقول: أكثر ما يخطىء الناس من جهة التأويل والقياس ولهذا تجد المعتزلة والمرجئة والرافضة وغيرهم من أهل البدع يفسرون القرآن برأيهم ومعقولهم، وما تأولوه من اللغة[2] ولهذا تجدهم لا يعتمدون على أحاديث النبي ﷺ والصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، فلا يعتمدون لا على السنة ولا على إجماع السلف وآثارهم، وإنما يعتمدون على العقل واللغة، وتجدهم لا يعتمدون على كتب التفسير المأثورة والحديث وآثار السلف؛ وإنما يعتمدون على كتب الأدب وكتب الكلام التي وضعتها رؤوسهم[3]، وهذه طريقة الملاحدة أيضاً إنما يأخذون ما في كتب الفلسفة وكتب الأدب واللغة، وأما كتب القرآن والحديث والآثار فلا يلتفتون إليها. هؤلاء يعرضون عن نصوص الأنبياء إذ هي عندهم لا تفيد العلم وأولئك يتأولون القرآن برأيهم وفهمهم بلا آثار عن النبي ﷺ وأصحابه: وقد ذكرنا كلام أحمد وغيره في إنكار هذا وجعله طريقة أهل البدع.

وإذا تدبرت حججهم وجدت دعاوى لا يقوم عليها دليل؛ والقاضي أبو بكر الباقلاني[4] نصر قول جهم في مسألة الإيمان[5] متابعة لأبي الحسن الأشعري،

---

(١) وهذه مناقشة مفيدة جداً لمذهب المرجئة في إخراجهم الأعمال عن الإيمان.

(٢) أي صرفوه عن معناه الذي يدل عليه بحسب الوضع إلى معان أخر لا تفهم من اللفظ إلا بتكلف.

(٣) يعني رؤوسهم وشيوخهم.

(٤) وهو من شيوخ الأشعرية وله كتاب في إعجاز القرآن.

(٥) وهو أنه مجرد التصديق.

وكذلك أكثر أصحابه. فأما أبو العباس القلانسي وأبو علي الثقفي وأبو عبد الله بن مجاهد شيخ القاضي أبي بكر وصاحب أبي الحسن فإنهم نصروا مذاهب السلف. وابن كلاب نفسه والحسين بن المفضل البجلي ونحوهما كانوا يقولون هو التصديق والقول جميعاً موافقة لمن قاله من فقهاء الكوفيين كحماد بن سليمان ومن اتبعه مثل أبي حنيفة وغيره.

أبو الحسن الأشعري نصر قول جهم في الإيمان

وأبو الحسن الأشعري نصر قول جهم في الإيمان، مع أنه نصر المشهور عن أهل السنة من أنه يستثنى في الإيمان فيقول أنا مؤمن إن شاء الله؛ لأنه نصر مذهب أهل السنة في أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة ولا يخلدون في النار، وتقبل فيهم الشفاعة ونحو ذلك، وهو دائماً ينصر في المسألة التي اشتهر فيها النزاع بين أهل الحديث وغيرهم قول أهل الحديث[1] لكنه لم يكن خبيراً بمأخذهم فينصره على ما يراه هو من الأصول التي تلقاها عن غيرهم، فيقع في ذلك من التناقض ما ينكره هؤلاء كما فعل في مسألة الإيمان ونصر فيه قول جهم مع نصره للإستثناء؛ ولهذا خالفه كثير من أصحابه في الاستثناء كما سنذكر مأخذه في ذلك، واتبعه أكثر أصحابه على نصر قول جهم في ذلك، ومن لم يقف إلا على كتب الكلام ولم يعرف ما قاله السلف وأئمة السنة في هذا الباب فيظن أن ما ذكروه هو قول أهل السنة، وهو قول لم يقله أحد من أئمة السنة، بل قد كفر أحمد بن حنبل ووكيع وغيرهما من قال بقول جهم في الإيمان الذي نصره أبو الحسن، وهو عندهم شر من قول المرجئة، ولهذا صار من يعظم الشافعي من الزيدية والمعتزلة ونحوهم ويطعن في كثير ممن ينتسب إليه يقولون: الشافعي لم يكن فيلسوفاً ولا مرجئاً، وهؤلاء فلاسفة أشعرية مرجئة: وغرضهم ذم

---

(١) كما فعل في كتابيه: الإبانة ومقالات الإسلاميين.

الإرجاء، ونحن نذكر عمدتهم لكونه مشهوراً عند كثير من المتأخرين المنتسبين إلى السنة.

قال القاضي أبو بكر في التمهيد: «فإن قالوا: فخبرونا ما الإيمان عندكم؟ قيل: الإيمان هو التصديق بالله وهو العلم والتصديق يوجد بالقلب: فإن قال: فما الدليل على ما قلتم؟ قيل إجماع أهل اللغة قاطبة على أن الإيمان قبل نزول القرآن وبعثة النبي ﷺ هو التصديق، لا يعرفون في اللغة إيماناً غير ذلك، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وما أنتَ بمؤمنٍ لنا﴾[1] أي بمصدق لنا، ومنه قولهم: فلان يؤمن بالشفاعة وفلان لا يؤمن بعذاب القبر، أي لا يصدق بذلك، فوجب أن الإيمان في الشريعة هو الإيمان المعروف في اللغة؛ لأن الله ما غير اللسان العربي ولا قلبه، ولو فعل ذلك لتواترت الأخبار بفعله وتوفرت دواعي الأمة على نقله، ولغلب إظهاره على كتمانه؛ وفي علمنا بأنه لم يفعل ذلك، بل أقر أسماء الأشياء والتخاطب بأسره على ما كان دليل على أن الإيمان في الشريعة هو الإيمان اللغوي، ومما يبين ذلك قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه﴾[2] وقوله: ﴿إنا جعلناهُ قرآناً عربياً﴾[3] فأخبر أنه أنزل القرآن بلغة العرب. وسمى الأسماء بمسمياتهم، ولا وجه للعدول بهذه الآيات عن ظواهرها بغير حجة لا سيما مع القول بالعموم، وحصول التوقيف على أن القرآن قول نزل بلغتهم، فدل على ما قلناه من أن الإيمان ما وصفناه دون ما سواه من سائر الطاعات من النوافل والمفروضات» هذا لفظه.

ذكر مذاهب الناس في الإيمان وبيان الحق منها

وهذا عمدة من نصر قول الجهمية في مسألة الإيمان. وللجمهور من أهل السنة وغيرهم عن هذا أجوبة: (أحدها) قول من ينازعه في أن الإيمان في اللغة

(١) سورة يوسف الآية ١٧.

(٢) سورة ابراهيم الآية ٣. (٣) سورة الزخرف الآية ٣.

مرادف للتصديق ويقول هو بمعنى الإقرار وغيره (والثاني) قول من يقول وإن كان في اللغة هو التصديق فالتصديق يكون بالقلب واللسان وسائر الجوارح[1] كما قال النبي ﷺ «والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» (والثالث) أن يقال ليس هو مطلق التصديق بل هو تصديق خاص مقيد بقيود اتصل اللفظ بها، وليس هذا نقلاً للفظ ولا تغييراً له فإن الله لم يأمرنا بإيمان مطلق بل بإيمان خاص وصفه وبينه. (الرابع) أن يقال وإن كان هو التصديق، فالتصديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجوارح فإن هذه لوازم الإيمان التام، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم، ويقول إن هذه اللوازم تدخل في مسمى اللفظ وتخرج عنه أخرى[2] (الخامس) قول من يقول إن اللفظ باق على معناه في اللغة ولكن الشارع زاد فيه أحكاماً، (السادس) قول من يقول إن الشارع استعمله في معناه المجازي فهو حقيقة شرعية، مجاز لغوي (السابع) قول من يقول إنه منقول.

فهذه سبعة أقوال (الأول) قول من ينازع أن معناه في اللغة التصديق ويقول ليس هو التصديق بل بمعنى الإقرار وغيره، قوله إجماع أهل اللغة قاطبة على أن الإيمان قبل نزول القرآن هو التصديق. فيقال له: من نقل هذا الإجماع ومن أين يعلم هذا الإجماع وفي أي كتاب ذكر هذا الإجماع[3] (الثاني) أن يقال: أتعني بأهل اللغة نقلتها كأبي عمرو والأصمعي والخليل ونحوهم، أو المتكلمين بها، فإن عنيت الأول فهؤلاء لا ينقلون كل ما كان قبل الإسلام بإسناد، وإنما ينقلون ما سمعوه من العرب في زمانهم وما سمعوه في دواوين الشعر وكلام العرب وغير ذلك بالإسناد، ولا نعلم فيما نقلوه لفظ الإيمان فضلاً عن أن يكونوا

(١) فتخصيصه بالتصديق القلبي تخصيص بلا مخصص.

(٢) يعني أحياناً يطلق اللفظ ويراد منه معناه مع اللوازم باعتبارها توابع للمعنى، وأحياناً يراد المعنى وحده بدون اللوازم.

(٣) فدعوى الإجماع هنا مجازفة من الباقلاني رحمه الله.

أجمعوا عليه. وإن عنيت المتكلمين بهذا اللفظ قبل الإسلام فهؤلاء لم نشهدهم ولا نقل لنا أحد عنهم ذلك. (الثالث) أنه لا يعرف عن هؤلاء جميعهم أنهم قالوا الإيمان في اللغة هو التصديق بل ولا عن بعضهم وإن قدر أنه قاله واحد أو اثنان فليس هذا إجماعاً (الرابع) أن يقال هؤلاء لا ينقلون عن العرب أنهم قالوا معنى هذا اللفظ كذا وكذا، إنما ينقلون الكلام المسموع من العرب؛ وأنه يفهم منه كذا وكذا وحينئذ فلو قدر أنهم نقلوا كلاماً عن العرب يفهم منه أن الإيمان هو التصديق، لم يكن ذلك أبلغ من نقل المسلمين للقرآن عن النبي ﷺ وإذا كان مع ذلك قد يظن بعضهم أنه أريد به معنى ولم يرده، فظن هؤلاء ذلك فيما ينقلونه عن العرب أولى (الخامس) أنه لو قدر أنهم قالوا هذا فهم آحاد لا يثبت بنقلهم التواتر، والتواتر من شرطه استواء الطرفين والواسطة، وأين التواتر الموجود عن العرب قاطبة قبل نزول القرآن أنهم كانوا لا يعرفون للإيمان معنى غير التصديق[1].

فإن قيل: هذا يقدح في العلم باللغة قبل نزول القرآن، قيل فليكن ونحن لا حاجة بنا مع بيان الرسول لما بعثه الله به من القرآن أن نعرف اللغة قبل نزول القرآن، والقرآن نزل بلغة قريش والذين خوطبوا به كانوا عرباً، وقد فهموا ما أريد به وهم الصحابة، ثم الصحابة بلغوا لفظ القرآن ومعناه إلى التابعين حتى انتهى إلينا، فلم يبق بنا حاجة إلى أن تتواتر عندنا تلك اللغة من غير طريق تواتر القرآن لكن لما تواتر القرآن لفظاً ومعنى وعرفنا أنه نزل بلغتهم، عرفنا أنه كان في لغتهم لفظ السماء والأرض والليل والنهار والشمس والقمر، ونحو ذلك على ما هو معناها في القرآن وإلا فلو كلفنا نقلاً متواتراً لآحاد هذه الألفاظ من غير القرآن لتعذر علينا ذلك في جميع الألفاظ لا سيما إذا كان المطلوب أن جميع العرب كانت تريد باللفظ هذا المعنى، فإن هذا يتعذر العلم به[2] والعلم بمعاني القرآن ليس موقوفاً على شيء من ذلك بل الصحابة بلغوا معاني القرآن كما بلغوا

---

(١) فانظر لمناقشة شيخ الإسلام في دقتها واستيعابها لدعوى الباقلاني حتى أتى عليها من القواعد.

(٢) فإن لهجات العرب كانت مختلفة ويتعذر الوقوف على جميعها.

لفظه، ولو قدرنا أن قوماً سمعوا كلاماً عجمياً وترجموه لنا بلغتهم لم تحتج إلى معرفة اللغة التي خوطبوا بها.

(السادس) أنه لم يذكر شاهداً من كلام العرب على ما ادعاه عليهم، وإنما استدل من غير القرآن بقول الناس فلان يؤمن بالشفاعة، فلان يؤمن بالجنة والنار، فلان يؤمن بعذاب القبر، وفلان لا يؤمن بذلك[1].

ومعلوم أن هذا ليس من ألفاظ العرب قبل نزول القرآن، بل هو مما تكلم الناس به بعد عصر الصحابة لما صار من الناس أهل البدع يكذبون بالشفاعة وعذاب القبر، ومرادهم بذلك هو مرادهم بقوله فلان مؤمن يؤمن بالجنة والنار، وفلان لا يؤمن بذلك، والقائل لذلك وإن كان تصديق القلب داخلاً في مراده فليس مراده ذلك وحده، بل مراده التصديق بالقلب واللسان، فإن مجرد تصديق القلب بدون اللسان لا يعلم حتى يخبر به عنه.

(السابع) أن يقال: من قال ذلك فليس مراده التصديق بما يرجى ويخاف بدون خوف ولا رجاء، بل يصدق بعذاب القبر ويخافه، ويصدق بالشفاعة ويرجوها، وإلا فلو صدق بأنه يعذب في قبره ولم يسكن في قلبه خوف من ذلك أصلاً لم يسموه مؤمناً به كما أنهم لا يسمون مؤمناً بالجنة والنار إلا من رجا الجنة وخاف النار، دون المعرض عن ذلك بالكلية مع علمه بأنه حق، كما لا يسمون إبليس مؤمناً بالله وإن كان مصدقاً بوجوده وربوبيته، ولا يسمون فرعون مؤمناً وإن كان عالماً بأن الله بعث موسى وأنه هو الذي أنزل الآيات وقد استيقنت بها أنفسهم مع جحدهم لها بألسنتهم[2]، ولا يسمون اليهود مؤمنين بالقرآن والرسول وإن كانوا يعرفون أنه حق كما يعرفون أبناءهم، فلا يوجد قط في كلام العرب

(١) قوله (فلان يؤمن بالشفاعة) إلخ هي مقول القول في قوله (بقول الناس).
(٢) وكذلك لا تذعن قلوبهم لهذا التصديق ولم يعلموا بمقتضاه والإيمان لا بد فيه من الإذعان.

أن من علم وجود شيء مما يخاف ويرجى ويجب حبه وتعظيمه وهو مع ذلك لا يحبه ولا يعظمه ولا يخافه ولا يرجوه بل يجحد به ويكذب به بلسانه، أنهم يقولون هو مؤمن به، بل ولو عرفه بقلبه وكذب به بلسانه لم يقولوا هو مصدق به، ولو صدق به مع العمل بخلاف مقتضاه لم يقولوا هو مؤمن به فلا يوجد في كلام العرب شاهد واحد يدل على ما ادعوه[1] وقوله: ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ قد تكلمنا عليها في غير هذا الموضع، فإن هذا استدلال بالقرآن، وليس في الآية ما يدل على أن المصدق مرادف للمؤمن فإن صحة المعنى بأحد اللفظين لا يدل على أنه مرادف للآخر كما بسطناه في موضعه.

(الوجه الثامن) قوله لا يعرفون في اللغة إيماناً غير ذلك من أين له هذا النفي الذي لا تمكن الإحاطة به، بل هو قول بلا علم (التاسع) قول من يقول: أصل الإيمان مأخوذ من الأمن[2] كما ستأتي أقوالهم إن شاء الله، وقد نقلوا في اللغة الإيمان بغير هذا المعنى، كما قاله الشيخ أبو البيان في قول[3].

(الوجه العاشر) أنه لو فرض أن الإيمان في اللغة التصديق، فمعلوم أن الإيمان ليس هو التصديق بكل شيء مخصوص، وهو ما أخبر به الرسول ﷺ، وحينئذ فيكون الإيمان في كلام الشارع أخص من الإيمان في اللغة، ومعلوم أن الخاص ينضم إليه قيود لا توجد في جميع العلوم كالحيوان إذا أخذ بعض أنواعه وهو الإنسان كان فيه المعنى العام ومعنى اختص به، وذلك المجموع ليس هو المعنى العام، فالتصديق الذي هو الإيمان أدنى أحواله أن يكون نوعاً من التصديق العام. فلا يكون مطابقاً له في العموم والخصوص من غير تغيير اللسان

---

(١) وهو أن الإيمان مجرد التصديق.

(٢) يعني مشتق منه فقوله آمن بكذا معناه أمنه من التكذيب والمخالفة.

(٣) ههنا بياض في الأصل.

ولا قلبه بل يكون الإيمان في كلام الشارع مؤلفاً من العام و لخاص. كالإنسان الموصوف بأنه حيوان وأنه ناطق[1].

(الحادي عشر) أن القرآن ليس فيه ذكر إيمان مطلق غير مفسر، بل لفظ الإيمان فيه إما مقيد وإما مطلق مفسر، فالمقيد كقوله: ﴿يؤمنون بالغيب﴾[2] وقوله: ﴿فما آمنَ لموسىٰ إلاّ ذرية من قومه﴾[3] والمطلق المفسر كقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنونَ الذينَ إذا ذُكرَ الله وجِلَتْ قُلوبُهم﴾[4]الآية، وقوله: ﴿إنما المؤمنونَ الَّذينَ آمنوا باللهِ ورسولهِ ثمَّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيلِ اللهِ أولئكَ هم الصادقونَ﴾[5] ونحو ذلك، وقوله: ﴿فلا وربِّكَ لا يؤمنونَ حتى يحكِّموكَ فيما شجرَ بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرجا مما قضيتَ ويُسلمُوا تسليماً﴾[6] وأمثال هذه الآيات، وكل إيمان مطلق في القرآن فقد يبين فيه أنه لا يكون الرجل مؤمناً إلا بالعمل مع التصديق، فقد بين القرآن أن الإيمان لا بد فيه من عمل مع التصديق كما ذكر مثل ذلك في اسم الصلاة والزكاة والصيام والحج.

فإن قيل: تلك الأسماء باقية[7] ولكن ضم إلى المسمى أعمالاً في الحكم لا في الاسم كما يقوله القاضي أبو يعلى وغيره. قيل: إن كان هذا صحيحاً قيل مثله في الإيمان، وقد أورد هذا السؤال لبعضهم ثم لم يجب عنه بجواب صحيح بل زعم أن القرآن لم يذكر فيه ذلك، وليس كذلك، بل القرآن والسنة مملوءان بما يدل على أن الرجل لا يثبت له حكم الإيمان إلا بالعمل مع التصديق وهذا في

---

(١) ومحصل ذلك أن الحقيقة الشرعية للإيمان ليست هي الحقيقة اللغوية بل هي أخص منها بسبب ما انضاف إليها من القيود.

(٢) سورة البقرة الآية ٣ والمعنى: بما غاب عن حواسهم مما أخبرهم به القرآن والرسول ﷺ.

(٣) سورة يوسف الآية ٨٣. (٤) سورة الانفال الآية ١.

(٥) سورة الحجرات الآية ١٥.

(٦) سورة النساء الآية ٦٤. (٧) أي على معناها اللغوي.

القرآن أكثر بكثير من معنى الصلاة والزكاة، فإن تلك إنما فسرتها السنة، والإيمان بين معناه الكتاب والسنة وإجماع السلف[1].

(الثاني عشر) أنه إذا قيل إن الشارع خاطب الناس بلغة العرب فإنما خاطبهم بلغتهم المعروفة، وقد جرى عرفهم أن الاسم يكون مطلقاً وعاماً ثم يدخل فيه قيد أخص من معناه كما يقولون اذهب إلى القاضي والوالي والأمير، يريدون شخصاً معيناً يعرفونه دلت عليه اللام مع معرفتهم به، وهذا الاسم في اللغة اسم جنس لا يدل على خصوص شخص وأمثال ذلك. فكذلك الإيمان والصلاة والزكاة إنما خاطبهم بهذه الأسماء بلام التعريف[2] وقد عرفهم قبل ذلك أن المراد الإيمان الذي صفته كذا وكذا الدعاء الذي صفته كذا وكذا. فبتقدير أن يكون في لغتهم التصديق فإنه قد يبين أني لا أكتفي بتصديق القلب واللسان فضلاً عن تصديق القلب وحده، بل لا بد أن يعمل بموجب ذلك التصديق كما في قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنونَ الذينَ آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا﴾ ﴿إنَّما المؤمنونَ الَّذينَ اذا ذُكر اللهُ وجلت قلوبُهم﴾[3] وفي قوله ﷺ «لا تؤمنون حتى يكون كذا». وفي قوله تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون باللهِ واليومِ الآخرِ يوادُّونَ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ﴾[4] وفي قوله: ﴿ولو كانوا يؤمنونَ باللهِ والنبي وما أنزل إليهِ ما اتخذوهم أولياء﴾[5] ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة كقوله عليه السلام «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» وقوله «لا يؤمنُ من لا يأمن جاره بوائقه» وأمثال ذلك.

فقد بين لهم أن التصديق الذي لا يكون الرجل مؤمناً إلا به هو أن يكون

---

(١) وكأنه لم يعتد بخلاف من خالفهم في ذلك من فرق الضلال كالمرجئة والجهمية وغيرهم.

(٢) التي تدل على أنها أشياء معهودة لهم يعرفونها.

(٣) سورة الانفال الآية ٢. (٤) سورة المجادلة الآية ٢٢.

(٥) سورة المائدة الآية ٨٤.

تصديقاً على هذا الوجه. وهذا بين في القرآن والسنة من غير تغيير للغة ولا نقل لها.

(الثالث عشر) أن يقال: بل نقل وغير[1]. قوله: لو فعل لتواتر. قيل نعم. وقد تواتر أنه أراد بالصلاة والزكاة والصيام والحج معانيها المعروفة[2]. وأراد بالإيمان ما بينه بكتابه وسنة رسوله من أن العبد لا يكون مؤمناً إلا به كقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾[3] وهذا متواتر في القرآن والسنن ومتواتر أيضاً أنه لم يكن يحكم لأحد بحكم الإيمان[4] إلا أن يؤدي الفرائض. ومتواتر عنه أنه أخبر أنه من مات مؤمناً دخل الجنة ولم يعذب وأن الفساق لا يستحقون ذلك، بل هم معرضون للعذاب. فقد تواتر عنه من معاني اسم الإيمان وأحكامه ما لم يتواتر عنه في غيره[5]. فأي تواتر أبلغ من هذا؟ وقد توفرت الدواعي على نقل ذلك وإظهاره ولله الحمد. ولا يقدر أحد أن ينقل عن النبي ﷺ نقلاً يناقض هذا. لكن أخبر أنه يخرج منها[6] من كان معه شيء من الإيمان ولم يقل إن المؤمن يدخلها. ولا قال إن الفساق مؤمنون[7]. لكن أدخلهم في مسمى الإيمان في مواضع كما أدخل المنافقين في اسم الإيمان في مواضع مع القيود. وأما الاسم المطلق الذي وعد أهله بالجنة فلم يدخل فيه هؤلاء ولا هؤلاء.

(الرابع عشر) قوله: ولا وجه للعدول بالآيات التي تدل على أنه عربي عن ظاهرها. فيقال له: الآيات التي فسرت المؤمن وسلبت الإيمان عمن لم يعمل أصرح وأكثر من هذه الآيات. ثم إذا دلت أنه عربي فما ذكر لا يخرجه عن كونه

---

(١) يعني أن الشرع نقل هذه الألفاظ عن حقائقها اللغوية وغيرها.

(٢) أي في الشرع. (٣) سورة الأنفال الآية ٢.

(٤) وهو دخول الجنة والنجاة من النار.

(٥) وهذا أمر ظاهر لمن تأمل نصوص الكتاب والسنة الصحيحة.

(٦) يعني من النار.

(٧) يعني الإيمان المطلق ولكن معهم مطلق الإيمان.

عربياً، ولهذا لما خاطبهم بلفظ الصلاة والحج وغير ذلك لم يقولوا هذا ليس بعربي، بل خاطبهم باسم المنافق، وقد ذكر أهل اللغة أن هذا الاسم لم يكن يعرف في الجاهلية[1] ولم يقولوا إنه ليس بعربي، لأن المنافق مشتق من (نفق) إذا خرج. فإذا كان اللفظ مشتقاً من لغتهم وقد تصرف فيه المتكلم به كما جرت عادتهم في لغتهم لم يخرج ذلك عن كونه عربياً[2].

(الخامس عشر) أنه لو فرض أن هذه الألفاظ ليست عربية فليس تخصيص عموم هذه الألفاظ بأعظم من إخراج لفظ الإيمان عما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، فإن النصوص التي تنفي الإيمان عمن لا يحب الله ورسوله ولا يخاف الله ولا يتقيه، ولا يعمل شيئاً من الواجب، ولا يترك شيئاً من المحرم، كثيرة صريحة[3]. فإذا قدر أنها عارضها آية كان تخصيص اللفظ القليل العام أولى من رد النصوص الكثيرة الصريحة.

(السادس عشر) أن هؤلاء واقفة في ألفاظ العموم لا يقولون بعمومها، والسلف يقولون: الرسول وقفنا على معاني الإيمان وبينه لنا وعلمنا مراده منه بالاضطرار، وعلمنا من مراده علماً ضرورياً أن من قيل إنه صدق ولم يتكلم بلسانه بالإيمان مع قدرته على ذلك، ولا صلى ولا صام ولا أحب الله ورسوله ولا خاف الله، بل كان مبغضاً للرسول معادياً له يقاتله[4]، أن هذا ليس بمؤمن، كما علمنا أن الكفار من المشركين وأهل الكتاب الذين كانوا يعلمون أنه رسول الله وفعلوا ذلك معه[5] كانوا عنده كفاراً لا مؤمنين، فهذا معلوم عندنا بالاضطرار أكثر من علمنا بأن القرآن كله ليس فيه لفظ غير عربي[6]، فلو قدر التعارض لكان تقديم ذلك العلم الضروري أولى.

---

(١) لأنه لم يكن هناك ما يدعو إلى النفاق.

(٢) فالتصرف في اللفظ بإضافة قيود إلى معناه لا يخرجه عن كونه عربياً.

(٣) بل هي من الكثرة بحيث لا يمكن ردها ولا تأويلها.

(٤) وذلك كاليهود. (٥) أي من المعاداة والمقاتلة.

(٦) لأنه يجوز أن يكون في القرآن ألفاظ معربة منقولة من لغات أخرى.

فإن قالوا: من علم أن الرسول كفره علم انتفاء التصديق من قلبه.

قيل لهم: هذه مكابرة إن أرادوا أنهم كانوا شاكين مرتابين[1]، وأما إن عنى التصديق الذي لم يحصل معه عمل فهو ناقص كالمعدوم فهذا صحيح، ثم إنما يثبت إذا ثبت أن الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه، وذاك إنما يثبت بعد تسليم هذه المقدمات التي منها هذا، فلا نثبت الدعوى بالدعوى مع كفر صاحبها، ثم يقال قد علمنا بالاضطرار أن اليهود وغيرهم كانوا يعرفون أن محمداً رسول الله وكان يحكم بكفرهم فقد علمنا من دينه ضرورة أنه يكفر الشخص مع ثبوت التصديق بنبوته في القلب إذا لم يعمل بهذا التصديق بحيث يحبه ويعظمه ويسلم لما جاء به[2].

ومما يعارضون به أن يقال هذا الذي ذكرتموه[3] إن كان صحيحاً فهو أدل على قول المرجئة بل على قول الكرامية منه على قولكم، وذلك أن الإيمان إذا كان هو التصديق كما ذكرتم فالتصديق نوع من أنواع الكلام[4] فاستعمال لفظ الكلام والقول ونحو ذلك في المعنى واللفظ، بل في اللفظ الدال على المعنى أكثر في اللغة من استعماله في المعنى المجرد عن اللفظ، بل لا يوجد قط إطلاق اسم الكلام ولا نوعه كالخبر والتصديق والتكذيب والأمر والنهي على مجرد المعنى من غير شيء يقترن به من عبارة ولا إشارة ولا غيرهما، وإنما يستعمل مقيداً، وإذا كان الله إنما أنزل القرآن بلغة العرب فهي لا تعرف التصديق والتكذيب وغيرهما من الأقوال إلا ما كان معنى ولفظاً أو لفظاً يدل على معنى، ولهذا لم يجعل الله أحداً مصدقاً للرسل بمجرد العلم والتصديق الذي في قلوبهم، حتى يصدقوهم بألسنتهم. ولا يوجد في كلام العرب أن يقال فلان صدق فلاناً أو كذبه إذا

---

(١) لأن القرآن أخبر أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

(٢) ولكنهم يزعمون أن المعرفة غير التصديق فتوجد بدونه.

(٣) يعني في أن الإيمان هو التصديق.

(٤) لأنه لا يقال صدق بكذا يعني أقر به بلسانه.

كان يعلم بقلبه أنه صادق أو كاذب ولم يتكلم بذلك، كما لا يقال أمره أو نهاه إذا قام بقلبه طلب مجرد عما يقترن به من لفظ أو إشارة أو نحوهما[1]، ولما قال النبي ﷺ « إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس » وقال « إن الله يحدث من أمره ما شاء وإن مما أحدث ألا تكلموا[2] في الصلاة » اتفق العلماء على أنه إذا تكلم في الصلاة عامداً لغير مصلحتها بطلت صلاته، واتفقوا كلهم على أن ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيوية وطلب لا يبطل الصلاة، وإنما يبطلها التكلم بذلك، فعلم اتفاق المسلمين على أن هذا ليس بكلام.

وأيضاً ففي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به » فقد أخبر أن الله عفا عن حديث الناس إلى أن تتكلم، ففرق بين حديث النفس وبين الكلام، وأخبر أنه لا يؤاخذ به حتى يتكلم به، والمراد حتى ينطق اللسان باتفاق العلماء، فعلم أن هذا هو الكلام في اللغة لأن الشارع كما قرر إنما خاطبنا بلغة العرب.

وأيضاً ففي السنن أن معاذاً قال له: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال « وهل يكب الناس[3] في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم »[4] فبين أن الكلام إنما هو ما يكون باللسان. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد »:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وفي الصحيحين عنه أنه قال « كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم » وقد قال

---

(١) هذا كلام نفيس جداً.

(٢) أي تتكلموا فحذفت إحدى التاءين للتخفيف.

(٣) أي يوقعهم ويسقطهم.

(٤) يعني ما يصدر عنها من كلام في الشر كالكذب والغيبة ونحوهما.

الله تعالى: ﴿وينذر الَّذينَ قالوا اتَّخذَ الله ولداً، ما لهم بهِ مِنْ علمٍ ولا لآبائهم، كبُرَت كلمة تخرجُ من أفواههم إن يقولونَ إلاَّ كذباً﴾ (١) وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر » رواه مسلم. وقال تعالى: ﴿إليه يصعد الكلِمُ الطيبُ(٢) والعملُ الصالح يرفعه﴾(٣) ومثل هذا كثير.

وفي الجملة حيث ذكر الله في كتابه عن أحد من الخلق من الأنبياء أو أتباعهم أو مكذبيهم أنهم قالوا، ويقولون؛ وذلك قولهم، وأمثال ذلك فإنما يعني به المعنى مع اللفظ وما تصرف منه من فعل ماض ومضارع وأمر ومصدر واسم فاعل من لفظ القول والكلام ونحوهما إنما يعرف في القرآن والسنة وسائر كلام العرب إذا كان لفظ ومعنى، وكذلك أنواعه كالتصديق والتكذيب والأمر والنهي وغير ذلك، وهذا مما لا يمكن أحداً فإنه أكثر من أن يحصى، ولم يكن في مسمى الكلام نزاع بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وتابعيهم لا من أهل السنة ولا من أهل البدعة(٤)، بل أول من عرف في الإسلام أنه جعل مسمى الكلام المعنى فقط هو عبد الله بن سعيد ابن كلاب(٥) وهو متأخر في زمن محنة أحمد بن حنبل، وقد أنكر ذلك عليه علماء السنة وعلماء البدعة، فيمتنع أن يكون الكلام الذي هو أظهر صفات بني آدم كما قال تعالى: ﴿فوربِّ السماءِ والأرضِ إنه لحقٌ مثلَ ما أنكم تنطِقُونَ﴾(٦) ولفظه لا تحصى وجوهه كثرة لم يعرفه أحد

---

(١) سورة الكهف الآية (٤ - ٥).

(٢) وهو ما كان من ذكر الله أو صلاة على نبيه أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر. والآية صريحة في الدلالة على علوه تعالى وارتفاعه فوق عرشه.

(٣) سورة فاطر الآية ١٠.

(٤) بل كلهم متفقون على أن الكلام لا يكون إلا حروفاً وألفاظاً ينطق بها اللسان.

(٥) وهو رئيس فرقة الكلابية وقد أخذ منه الأشعري كثيراً من قواعد مذهبه.

(٦) سورة الذاريات الآية ٢٣.

من الصحابة والتابعين وتابعيهم حتى جاء من قال فيه قولاً لم يسبقه إليه أحد من المسلمين ولا غيرهم.

فإن قالوا فقد قال الله تعالى: ﴿ويقولونَ في أنفسهم﴾ [1] وقال: ﴿واذكر ربَّكَ في نفسكَ تضرعاً وخيفةً﴾ [2]. ونحو ذلك. قيل: إن كان المراد أنهم قالوه بألسنتهم سراً فلا حجة فيه، وهذا هو الذي ذكره المفسرون. قالوا كانوا يقولون: سلام عليك فإذا خرجوا يقولون في أنفسهم، أي يقول بعضهم لبعض: لو كان نبينا عذبنا بقولنا له ما نقول، وإن قدر أنه أريد بذلك أنهم قالوا في قلوبهم، فهذا قول مقيد بالنفس مثل قوله: ﴿عما حدثت بها أنفسها﴾ ولهذا قالوا: «لولا يؤاخذنا الله بما نقول» فأطلقوا لفظ القول هنا، والمراد به ما قالوه بألسنتهم لأنه النجوى والتحية كما قال تعالى: ﴿ألم ترَ إلى الَّذينَ نُهوا عن النجوى ثمَّ يعودونَ لما نهوا عنه ويتناجونَ بالإثمِ والعدوانِ ومعصية الرسول وإذا جاءوكَ حيوكَ بما لم يحيكَ بهِ الله ويقولونَ في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ [3] مع أن الأول هو الذي عليه المفسرون وعليه تدل نظائره فإن النبي ﷺ قال «يقول الله من ذكرني في نفسه [4] ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ [5] ذكرته في ملأ خير منه» ليس المراد أنه لا يتكلم به بلسانه بل المراد أنه ذكر الله بلسانه.

وكذلك قوله: ﴿واذكر ربَّكَ في نفسكَ تضرعاً وخيفةً [6] ودونَ الجهرِ منَ القولِ﴾ [7] هو الذكر باللسان والذي يقيد بالنفس لفظ الحديث يقال حديث النفس ولم يوجد عنهم أنهم قالوا كلام النفس وقول النفس [8] كما قالوا حديث النفس، ولهذا يعبر بلفظ الحديث عن الأحلام التي ترى في المنام كقول يعقوب

---

(١) سورة المجادلة الآية ٨.
(٢) سورة الاعراف الآية ٢٠٥.
(٣) سورة المجادلة الآية ٨.
(٤) يعني بلسانه سراً.
(٥) أي في جماعة جهراً.
(٦) يعني خوفاً ورهبة.
(٧) سورة الاعراف الآية ٢٠٥.
(٨) بل القول والكلام لا يكون إلا باللسان.

عليه السلام: ﴿ويعلّمكَ من تأويلِ الأحاديثِ﴾[1] وقول يوسف: ﴿وعلمتني من تأويلِ الأحاديثِ﴾[2] وتلك في النفس لا تكون باللسان فلفظ الحديث قد يقيد بما في النفس بخلاف لفظ الكلام، فإنه لم يعرف أنه أريد به ما في النفس فقط.

وأما قوله تعالى: ﴿وأسرّوا قولَكم أو اجهرُوا بهِ إنّهُ عليمٌ بذاتِ الصّدورِ﴾[3] فالمراد به القول الذي تارة يسر به فلا يسمعه الإنسان وتارة يجهر به فيسمعونه كما يقال أسر القراءة وجهر بها، وصلاة السر وصلاة الجهر، ولهذا لم يقل قولوه بألسنتكم أو بقلوبكم، وما في النفس لا يتصور الجهر به، وإنما يجهر بما في اللسان[4]، وقوله: ﴿إنّهُ عليمٌ بذاتِ الصّدورِ﴾[5] من باب التنبيه يقول إنه يعلم ما في الصدور، فكيف لا يعلم القول، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وإنْ تجهرْ بالقولِ فإنه يعلمُ السرَّ وأخفى﴾[6] فنبه بذلك على أنه يعلم الجهر، ويدل على ذلك أنه قال: ﴿وأسروا قولكم أو اجهرُوا بهِ إنّهُ بذاتِ الصّدورِ﴾[7] فلو أراد بالقول ما في النفس لكونه ذكر علمه بذات الصدور لم يكن قد ذكر علمه بالنوع الآخر وهو الجهر، وإن قيل نبه، قيل بل نبه على القسمين وقوله تعالى: ﴿آيتكَ ألاّ تكلمَ الناس ثلاثةَ أيامٍ إلاّ رمزاً﴾[8] قد ذكر هذا في قوله: ﴿ثلاثَ ليالٍ سوياً﴾[9] وهناك لم يستثن شيئاً والقصة واحدة، وهذا يدل على أن الاستثناء منقطع، والمعنى آيتك ألا تكلم الناس لكن ترمز لهم رمزاً كنظائره في القرآن قوله: ﴿فأوحى إليهم﴾[10] هو الرمز، ولو قدر أن الرمز استثناء متصل

---

(١) سورة يوسف الآية ٦. (٢) سورة يوسف الآية ١٠١.

(٣) سورة الملك الآية ١٣.

(٤) فقوله (أو اجهروا به) دليل على أن المراد بالقول في الآية قول اللسان.

(٥) سورة الملك الآية ١٣.

(٦) سورة طه الآية ٧. والمعنى أنه يعلم السر من القول وما هو أخفى منه وهو ما تضمره النفس وهو ليس من القول.

(٧) سورة الملك الآية ١٣. (٨) سورة آل عمران الآية ٤١.

(٩) سورة مريم الآية ١٠. (١٠) سورة مريم الآية ١١.

لكان قد دخل في الكلام المقيد بالاستثناء كما في قوله: ﴿وما كانَ لبشرٍ أن يكلمهُ الله إلاّ وحياً[1] أو مِنْ وراءِ حجابٍ، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنهِ ما يشاءُ﴾[2].

ولا يلزم من ذلك أن يدخل في لفظ الكلام المطلق، فليس في لغة القوم أصلاً ما يدل على أن ما في النفس يتناوله لفظ الكلام والقول المطلق، فضلاً عن التصديق والتكذيب، فعلم أن من لم يصدق بلسانه مع القدرة لا يسمى في لغة القوم مؤمناً كما اتفق على ذلك سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان[3]، وقول عمر رضي الله عنه «زورت في نفسي مقالة أردت أن أقولها»[4] حجة عليهم، قال أبو عبيد: التزوير إصلاح الكلام وتهيئته، قال وقال أبو زيد: المزور من الكلام والمزوق واحد، وهو المصلح الحسن وقال غيره: زورت في نفسي مقالة أي هيأتها لأقولها فلفظه يدل على أنه قدر في نفسه ما يريد أن يقوله ولم يقله. فعلم أنه لا يكون قولاً إلا إذا قيل باللسان وقبل ذلك لم يكن قولاً لكن كان مقدراً في النفس يراد أن يقال كما يقدر الإنسان في نفسه أنه يحج وأنه يصلي وأنه يسافر إلى غير ذلك، فيكون لما يريده من القول والعمل صورة ذهنية مقدرة في النفس، ولكن لا يسمى قولاً وعملاً إلا إذا وجدت في الخارج كما أنه لا يكون حاجاً ومصلياً إلا إذا وجدت هذه الأفعال في الخارج، ولهذا كان ما يهم به المرء من الأقوال المحرمة والأفعال المحرمة لا تكتب عليه حتى يقوله ويفعله[5]، وما هم به من القول الحسن والعمل الحسن إنما يكتب له به حسنة

---

(١) ويعني إلهاماً ونفثاً في الروع.

(٢) سورة الشورى الآية ٥١.

(٣) فالنطق باللسان جزء من حقيقة الإيمان لا يحصل الإيمان إلا به.

(٤) وذلك يوم السقيفة.

(٥) بل إذا لم يفعلها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة كما دل عليه حديث ابن عباس.

واحدة فإذا صار قولاً وفعلاً كتب له به عشر حسنات إلى سبعمائة، وعوقب[1] عليه كما قال النبي ﷺ «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل» وأما البيت الذي يحكي عن الأخطل أنه قال:

إن الكلام لفـــي الفـــؤاد وإنما جعــل اللســـان على الفـــؤاد دليلا

فمن الناس من أنكر أن يكون هذا من شعره وقالوا إنهم فتشوا دواوينه فلم يجدوه وهذا يروى عن محمد بن الخشاب، وقال بعضهم لفظه «إن البيان لفي الفؤاد» ولو احتج محتج في مسألة بحديث أخرجاه في الصحيحين عن النبي ﷺ لقالوا هذا خبر واحد ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول، وهذا البيت لم يثبت نقله عن قائله بإسناد لا واحد ولا أكثر من واحد، ولا تلقاه أهل العربية بالقبول فكيف يثبت به أدنى شيء من اللغة فضلاً عن مسمى الكلام[2]، ثم يقال مسمى الكلام والقول ونحوهما ليس هو مما يحتاج فيه إلى قول شاعر، فإن هذا مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللغة وعرفوا معناه في لغتهم كما عرفوا مسمى الرأس واليد والرجل وأيضاً فالناطقون باللغة يحتج باستعمالهم للألفاظ في معانيها لأن ما يذكرونه من الحدود فإن أهل اللغة الناطقين لا يقول أحد منهم إن الرأس كذا واليد كذا والكلام كذا واللون كذا، بل ينطقون بهذه الألفاظ دالة على معانيها فتعرف لغتهم من استعمالهم، فعلم أن الأخطل لم يرد بهذا أن يذكر مسمى الكلام، ولا أحد من الشعراء يقصد ذلك البتة وإنما أراد، إن كان قال ذلك ما فسره به المفسرون للشعر، أي أصل الكلام من الفؤاد وهو المعنى. فإذا قال الإنسان بلسانه ما ليس في قلبه فلا يثق به، وهذا كالأقوال التي ذكرها الله عن المنافقين ذكر أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ولهذا قال:

---

(١) كان الأنسب تقديم هذا على قوله: وما هم به من القول الحسن والعمل الحسن الخ وإبدال قوله وعوقب عليه الخ بقوله ويدل له قول النبي ﷺ الخ.

(٢) والعجب من الأشعرية أنهم يقيمون مذهبهم في مسألة الكلام على هذا البيت المجهول النسب.

لا يغجبنك من أثير خطبة حتى يكون مع الكلام أصيلا
إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

نهاه أن يعجب بقول الظاهر حتى يعلم ما في قلبه من الأصل، ولهذا قال: حتى يكون مع الكلام أصيلا، وقوله «مع الكلام» دليل على أن اللفظ الظاهر قد سماه كلاما وإن لم يعلم معناه بقلب صاحبه، وهذا حجة عليهم فقد اشتمل شعره على هذا وهذا، بل قوله «مع الكلام» مطلق، وقوله «إن الكلام لفي الفؤاد» أراد به أصله ومعناه المقصود به، واللسان دليل على ذلك.

وبالجملة فمن احتاج إلى أن يعرف مسمى الكلام في لغة العرب والفرس والروم والترك وسائر أجناس بني آدم بقول شاعر، فإنه من أبعد الناس عن معرفة طرق العلم[1]، ثم هو من المولدين[2] وليس من الشعراء القدماء، وهو نصراني كافر مثلث[3]، واسمه الأخطل، والخطل فساد في الكلام، وهو نصراني والنصارى قد أخطئوا في مسمى الكلام، فجعلوا المسيح القائم بنفسه هو نفس كلمة الله[4].

إبطال قول الجهمية والكرامية في الإيمان

فتبين أنه إن كان الإيمان في اللغة هو التصديق، والقرآن إنما أراد به مجرد التصديق الذي هو قول ولم يسم العمل تصديقاً فليس الصواب إلا قول المرجئة إنه اللفظ والمعنى، أو قول الكرامية إنه قول باللسان فقط، فإن تسمية قول اللسان قولاً أشهر في اللغة من تسمية معنى في القلب قولاً. كقوله تعالى:

---

(١) بل هو أقرب إلى التهافت والجهل.
(٢) ويقصد بهم الشعراء الذين ظهروا بعد فساد اللسان والاختلاط بالأعاجم.
(٣) أي يقول أن الآلهة ثلاثة.
(٤) أي جعلوا الكلام الذي هو من قبل الاعراض جوهراً.

﴿يقولونَ بألسنتهم ما ليسَ في قلوبهم﴾[1] وقوله: ﴿ومِنَ النّاسِ من يقولُ آمنا باللهِ وباليومِ الآخرِ وما همْ بمؤمنينَ﴾[2] وأمثال ذلك بخلاف ما في النفس فإنه إنما يسمى حديثاً، والكرامية يقولون: المنافق مؤمن وهو مخلد في النار لأنه آمن ظاهراً لا باطناً، وإنما يدخل الجنة من آمن ظاهراً وباطناً. قالوا والدليل على شمول الإيمان له أنه يدخل في الأحكام الدينية المتعلقة باسم الإيمان كقوله تعالى: ﴿فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ﴾[3] ويخاطب في الظاهر بالجمعة والطهارة وغير ذلك مما خوطب به الذين آمنوا[4].

وأما من صدق بقلبه ولم يتكلم بلسانه فإنه لا يعلق به شيء من أحكام الإيمان لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يدخل في خطاب الله لعباده بقوله: ﴿يا أيّها الذينَ آمنوا﴾[5] فعلم أن قول الكرامية في الإيمان وإن كان باطلاً مبتدعاً لم يسبقهم إليه أحد، فقول الجهمية أبطل منه، وأولئك أقرب إلى الاستدلال باللغة والقرآن والعقل من الجهمية.

والكرامية توافق المرجئة، والجهمية في أن إيمان الناس كلهم سواء ولا يستثنون في الإيمان، بل يقولون هو مؤمن حقاً لمن أظهر الإيمان، وإذا كان منافقاً فهو مخلد في النار عندهم، فإنه إنما يدخل الجنة من آمن باطناً وظاهراً، ومن حكى عنهم أنهم يقولون المنافق يدخل الجنة فقد كذب عليهم بل يقولون المنافق مؤمن لأن الإيمان هو القول الظاهر[6]، كما يسميه غيرهم مسلم[7] إذ الإسلام الاستسلام الظاهر ولا ريب أن قول الجهمية أفسد من قولهم من وجوه

---

(١) سورة الفتح الآية ١١ . (٢) سورة البقرة الآية ٨ .
(٣) سورة النساء الآية ٩٢ .
(٤) تجري عليهم أحكام الاسلام ظاهراً فقط، وقد صرح القرآن بنفي الايمان عنهم.
(٥) سورة البقرة الآية ١٠٤ .
(٦) فيلزم على مذهبهم هذا ان يقولوا بدخول المنافق الجنة، سواء قالوا ذلك أم لم يقولوه.
(٧) انهم لا يريدون به الاسلام «قولاً وعملاً»، إنما يريدون به الاسلام اللغوي فقط.

متعددة شرعاً ولغة وعقلاً. وإذا قيل: قول الكرامية قول خارج عن إجماع المسلمين، قيل: وقول جهم في الإيمان قول خارج عن إجماع المسلمين قبله، بل السلف كفروا من يقول بقول جهم في الإيمان.

وقد احتج الناس على فساد قول الكرامية بحجج صحيحة، والحجج من جنسها على فساد قول الجهمية أكثر مثل قوله تعالى: ﴿ومن النَّاسِ مَنْ يقولُ آمنا باللهِ وباليومِ الآخرِ وما هـمْ بمؤمنينَ﴾[1] قـالـوا فقـد نفـى الله الإيمان عـن المنافقين

فنقول: هذا حق فإن المنافق ليس بمؤمن وقد ضل من سماه مؤمناً، وكذلك من قام بقلبه علم وتصديق وهو يجحد الرسول ويعاديه كاليهود وغيرهم سماهم الله كفاراً لم يسمهم مؤمنين قط ولا دخلوا في شيء من أحكام الإيمان، بخلاف المنافق فإنه يدخل في أحكام الإيمان الظاهرة في الدنيا، بل قد نفى الله الإيمان عمن قال بلسانه وقلبه إذا لم يعمل كما قال تعـالى: ﴿قالت الأعرابُ آمنا قلْ لم تُؤمنوا ولكنْ قُولوا أسلمنا﴾[2] إلى قوله: ﴿إنَّما المؤمنونَ الذين آمنوا باللهِ ورسولهِ ثمَّ لم يرتابوا وجاهَدُوا بأموالِهم وأنفُسِهم في سبيلِ الله أولئكَ هم الصادقون﴾[3] فنفى الإيمان عمن سوى هؤلاء[4] وقال تعالى: ﴿ويقولونَ آمنا باللهِ وبالرسولِ وأطعنا ثمَّ يتـولىٰ فـريـقٌ منهـم مِـنْ بعـدِ ذلـكَ ومـا أولئـكَ بالمؤمنين﴾[5] والتولي هو التولي عن الطاعة كما قال تعالى: ﴿ستدعون إلى قومٍ أولي بأسٍ شديدٍ تقاتلونهمْ أو يسلمونَ؛ فإنْ تطيعُوا يؤتِكم اللهُ أجراً حسناً، وإن تتولوا كما توليتم مِنْ قبلُ يعذبكم عذاباً أليماً﴾[6] وقال تعالى: ﴿فلا صدَّق ولا صلى. ولكنْ كذَّب وتولى﴾[7] فعلم أن التولي ليس هو التكذيب بل هو

(١) سورة البقرة الآية ٨. (٢) سورة الحجرات الآية ١٤.

(٣) سورة الحجرات الآية ١٥.

(٤) «إنما» اداة حصر تدل على حصر الايمان فيهم ونفيه عمن سواهم.

(٥) سورة النور الآية ٤٧. (٦) سورة الفتح الآية ١٦.

(٧) سورة القيامة الآيات (٣١ - ٣٢).

التولي عن الطاعة، فإن الناس عليهم أن يصدقوا الرسول فيما أخبر ويطيعوه فيما أمر. وضد التصديق التكذيب، وضد الطاعة التولي فلهذا قال: ﴿فلا صدَّق ولا صلى، ولكنْ كذَّب وتولىٰ﴾ وقد قال تعالى: ﴿ويقولونَ آمنا باللهِ وبالرسول وأطعنا ثم يتولىٰ فريقٌ منهم مِنْ بعدِ ذلكَ وما أولئكَ بالمؤمنين﴾ فنفى الإيمان عمن تولى عن العمل وإن كان قد أتى بالقول. وقال تعالى: ﴿إنَّما المؤمنونَ الذينَ آمنوا باللهِ ورسولهِ وإذا كانوا معهُ على أمرٍ جامعٍ لم يذهبوا حتىٰ يستأذنوه﴾[1] وقال ﴿إنَّما المؤمنونَ الَّذينَ إذا ذُكر الله وجِلَت قلوبهم﴾[2].

ففي القرآن والسنة من نفي الإيمان[3] عمن لم يأت بالعمل مواضع كثيرة كما نفي فيها الإيمان عن المنافق، وأما العالم بقلبه مع المعاداة والمخالفة الظاهرة فهذا لم يسم قط مؤمناً[4]، وعند الجهمية إذا كان العلم في قلبه فهو مؤمن كامل الإيمان، وإيمانه كإيمان النبيين[5]، ولو قال وعمل ماذا عسى أن يقول ويعمل، ولا يتصور عندهم أن ينتفي عنه الإيمان إلا إذا زال ذلك العلم من قلبه.

ثم أكثر المتأخرينَ الذين نصروا قول جهم يقولون بالاستثناء في الإيمان ويقولون الإيمان في الشرع هو ما يوافي به العبد ربه، وإن كان في اللغة أعم من ذلك فجعلوا في مسألة الاستثناء مسمى الإيمان ما ادعوا أنه مسماه في الشرع، وعدلوا عن اللغة فهلا فعلوا هذا في الأعمال، ودلالة الشرع على أن الأعمال الواجبة من تمام الإيمان لا تحصى كثرة، بخلاف دلالته على أنه لا يسمى ايماناً إلا ما مات الرجل عليه، فإنه ليس في الشرع ما يدل على هذا وهو قول محدث لم يقله أحد من السلف لكن هؤلاء ظنوا أن الذين استثنوا في الإيمان من السلف، كان هذا مأخذهم، لأن هؤلاء وأمثالهم لم يكونوا خبيرين بكلام السلف، بل

---

(١) سورة النور الآية ٦٢. (٢) سورة الانفال الآية ٢.

(٣) أي الايمان المطلق الكامل.

(٤) وحقيقة الايمان منفية عنه.

(٥) لأن الايمان عند النبيين ثابت ولا يتفاوت.

ينصرون ما يظهر من أقوالهم[1] بما تلقوه عن المتكلمين من الجهمية ونحوهم من أهل البدع، فيبقى الظاهر قول السلف والباطن قول الجهمية الذين هم أفسد الناس مقالة في الإيمان، وسنذكر إن شاء الله أقوال السلف في الاستثناء، ولهذا لما صار يظهر لبعض أتباع أبي الحسن فساد قول جهم في الإيمان خالفه كثير منهم، فمنهم من اتبع السلف.

كلام أبي المعالي في الإيمان

قال أبو القاسم الأنصاري شيخ الشهرستاني في شرح الإرشاد لأبي المعالي بعد أن ذكر قول أصحابه[2] قال: «وذهب أهل الأثر إلى أن الإيمان جميع الطاعات فرضها ونفلها وعبروا عنه بأنه اتيان ما أمر الله به فرضاً ونفلاً، والانتهاء عما نهى عنه تحريماً وأدباً»، وقال: «وبهذا كان يقول أبو علي الثقفي من متقدمي أصحابنا وأبو العباس القلانسي»، وقد مال إلى هذا المذهب أبو عبد الله بن مجاهد قال: «وهذا قول مالك بن أنس إمام دار الهجرة، ومعظم أئمة السلف رضوان الله عليهم أجمعين، وكانوا يقولون: الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان». ومنهم من يقول بقول المرجئة إنه التصديق بالقلب واللسان، ومنهم من قال إذا ترك التصديق باللسان عناداً كان كافراً بالشرع، وإن كان في قلبه التصديق والعلم، وكذلك قال أبو إسحاق الاسفرائيني. قال الأنصاري: رأيت في تصانيفه أن المؤمن إنما يكون مؤمناً حقاً إذا حقق إيمانه بالأعمال الصالحة[3]، كما أن العالم إنما يكون عالماً حقاً إذا عمل بما علم، واستشهد بقول الله تعالى: ﴿إِنَّما المؤمنونَ الَّذينَ إذا ذُكرَ الله وَجِلَت قلوبهم وإذا تُليت عليهم آياته زادتهمْ ايماناً﴾[4] إلى قوله: ﴿أولئكَ هم المؤمنونَ حقاً﴾[5].

---

(١) أي أقوال السلف رضي الله عنهم.

(٢) أي الأشعرية.

(٣) فهي في لوازم الايمان.

(٤) سورة الانفال الآية ٢.

(٥) سورة الانفال الآية ٤.

وقال أيضاً أبو إسحاق: حقيقة الإيمان في اللغة التصديق، ولا يتحقق ذلك إلا بالمعرفة والائتمار، وتقوم الإشارة والانقياد مقام العبارة.

وقال أيضاً أبو إسحاق في كتاب الأسماء والصفات: اتفقوا على أن ما يستحق به المكلف اسم الإيمان في الشريعة أوصاف كثيرة وعقائد مختلفة وإن اختلفوا فيها على تفصيل ذكروه، واختلفوا في إضافة ما لا يدخل في جملة التصديق إليه لصحة الاسم، فمنها ترك قتل الرسول وترك إيذائه وترك تعظيم الأصنام، فهذا من التروك، ومن الأفعال نصرة الرسول والذب عنه وقالوا: إن جميعه يضاف إلى التصديق شرعاً، وقال آخرون إنه من الكبائر لا يخرج المرء بالمخالفة فيه عن الإيمان.

قلت: وهذان القولان ليسا قول جهم، لكن من قال ذلك فقد اعترف بأنه ليس مجرد تصديق القلب، وليس هو شيئاً واحداً، وقال إن الشرع تصرف فيه. وهذا أهم أصلهم. ولهذا كان حذاق هؤلاء كجهم والصالحي وأبي الحسن والقاضي أبي بكر على أنه لا يزول عنه اسم الإيمان إلا بزوال العلم من قلبه.

قال أبو المعالي: باب في ذكر الأسماء والأحكام: اعلم أن عرضنا في هذا الباب يستدعي تقديم ذكر حقيقة الإيمان قال: وهذا مما تباينت فيه مذاهب الإسلاميين، ثم ذكر قول الخوارج والمعتزلة والكرامية، ثم قال: وأما مذاهب أصحابنا فصار التحقيق من أصحاب الحديث والنظار منهم إلى أن الإيمان هو التصديق وبه قال شيخنا أبو الحسن رحمة الله عليه، واختلف رأيه في معنى التصديق، فقال مرة هو المعرفة بوجوده وقدمه وإلهيته، وقال مرة التصديق قول في النفس غير أنه يتضمن المعرفة، ولا يصح أن يوجد دونها، وهذا مقتضاه، فإن التصديق والتكذيب والصدق والكذب بالأقوال أجدر، فالتصديق اذاً قول في النفس يعبر عنه باللسان فتوصف العبادة بأنها تصديق، لأنها عبارة عن التصديق، قال: وقال بعض أصحابنا التصديق لا يتحقق إلا بالقول والصدق جميعاً، فإذا اجتمعا كانا تصديقاً واحداً، ومنهم من اكتفى بترك العناء؛ فلم يجعل الإقرار أحد ركني

الإيمان، فبقول الإيمان هو التصديق بالقلب وأوجب ترك العناد بالشرع وعلى هذا الأصل يجوز أن يعرف الكافر الله وإنما يكفر بالعناد، لأنه ترك ما هو الأهم في الإيمان، وعلى هذا الأصل يقال، إن اليهود كانوا عالمين بالله ونبوة محمد ﷺ إلا أنهم كفروا عناداً وبغياً وحسداً. وعلى قول شيخنا أبي الحسن: كل من حكمنا بكفره فنقول إنه لا يعرف الله أصلاً ولا عرف رسوله ولا دينه.

قال أبو القاسم الأنصاري تلميذه: كأن المعنى لا حكم لإيمانه ولا لمعرفته شرعاً.

قلت: وليس الأمر على هذا القول كما قاله الأنصاري هذا، ولكن على قولهم المعاند كافر شرعاً، فيعجل الكفر تارة بانتفاء الإيمان الذي في القلب، وتارة بالعناد ويجعل هذا كافراً في الشرع وإن كان معه حقيقة الإيمان الذي هو التصديق، ويلزمه أن يكون كافراً في الشرع مع أن معه الإيمان الذي هو مثل إيمان الأنبياء والملائكة.

والحذاق في هذا المذهب كأبي الحسن والقاضي ومن قبلهم من أتباع جهم عرفوا أن هذا تناقض يفسد الأصل فقالوا: لا يكون واحد كافراً إلا إذا ذهب ما في قلبه من التصديق، والتزموا أن كل من حكم الشرع بكفره فإنه ليس في قلبه شيء من معرفة الله ولا معرفة رسوله، ولهذا أنكر هذا عليهم جماهير العقلاء وقالوا هذا مكابرة وسفسطة.

وقد احتجوا على قولهم بقوله تعالى: ﴿لا تجدُ قوماً يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ يوادّون مَنْ حادَّ الله ورَسولهُ﴾ إلى قوله: ﴿أولئكَ كتبَ في قلوبهم الإيمانَ﴾[1] الآية. قالوا: ومفهوم هذا إن لم يعمل بمقتضاه لم يكتب في قلوبهم الإيمان.

---

(١) سورة المجادلة الآية ٢٢.

قالوا: فإن قيل: معناه لا يؤمنون إيماناً مجزئاً معتداً به أو يكون المعنى لا يؤدون حقوق الإيمان ولا يعملون بمقتضاه. قلنا: هذا عام لا يخصص إلا بدليل.

فيقال لهم: هذه الآية فيها نفي الإيمان عمن يواد المحادين[1] لله ورسوله، وفيه أن من لا يواد المحادين لله ورسوله فإن الله كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه، وهذا يدل على مذهب السلف أنه لا بد من الإيمان من محبة القلب لله ولرسوله، ومن بغض من يحاد الله ورسوله، ثم لم تدل الآية على أن العلم الذي في قلوبهم بأن محمداً رسول الله يرتفع لا يبقى منه شيء. والإيمان الذي كتب ليس هو مجرد العلم والتصديق بل هو تصديق القلب وعمل القلب، ولهذا قال: ﴿وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ فقد وعدهم بالجنة وقد اتفق الجميع على أن الوعد بالجنة لا يكون إلا مع الإتيان بالمأمور به وترك المحظور. فعلم أن هؤلاء الذين كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه قد أدوا الواجبات التي بها يستحقون ما وعد الله به الأبرار المتقين، ودل هذا على أن الفساق لم يدخلوا في هذا الوعد ودلت هذه الآية على أنه لا يوجد مؤمن يواد الكفار. ومعلوم أن خلقاً كثيراً من الناس يعرف من نفسه أن التصديق في قلبه لم يكذب الرسول، وهو مع هذا يواد بعض الكفار، فالسلف يقولون ترك الواجبات الظاهرة دليل على انتفاء الإيمان الواجب من القلب لكن قد يكون ذلك بزوال عمل القلب الذي هو حب الله ورسوله وخشية الله ونحو ذلك لا يستلزم ألا يكون في القلب من التصديق شيء، وعند هؤلاء كل من نفى الشرع إيمانه دل على أنه ليس في قلبه شيء من التصديق أصلاً، وهذا سفسطة عند جماهير العقلاء.

وكذلك حكى ابن فورك عن أبي الحسن قال: الإيمان هو اعتقاد صدق المخبر فيما يخبر به اعتقاداً هو علم ومنه ليس بعلم، والإيمان بالله وهو اعتقاد

---

(١) أي المشاقين المخالفين.

صدقه إنما يصح إذا كان عالماً بصدقه في أخباره. وإنما يكون كذلك إذا كان عالماً بأنه يتكلم، والعلم بأنه متكلم بعد العلم بأنه حي، والعلم بأنه حي بعد العلم بأنه فاعل، والعلم بأنه فاعل بعد العلم بالفعل وهو كون العالم فعلاً له، قال وكذلك يتضمن العلم بكونه قادراً وله قدرة وعالماً وله علم، ومريداً وله إرادة، وسائر ما لا يصح العلم بالله إلا بعد العلم به من شرائط الإيمان.

مذهب الأشعري

قلت: هذا مما اختلف فيه قول الأشعري وهو أن الجهل ببعض الصفات هل يكون جهلاً بالموصوف أم لا؟ على قولين، والصحيح الذي عليه الجمهور وهو آخر قوليه أنه لا يستلزم الجهل بالموصوف، وجعل إثبات الصفات من الإيمان[1] مما خالف فيه الأشعري جهماً، فإن جهماً غالى في نفي الصفات بل وفي نفي الأسماء. قال أبو الحسن: السمع ورد بضم شرائط أخر إليه[2] وهو ألا يقترن به ما يدل على كفر من يأتيه فعلاً وتركاً وهو أن الشرع أمره بترك العبادة والسجود للضم، فلو أتى به دل على كفره وكذلك من قتل نبياً أو استخف به دل على كفره، وكذلك لو ترك تعظيم المصحف والكعبة دل على كفره. قال: وحد ما استدللنا به على كفره ما منع الشرع أن يقرنه بالإيمان، أو أوجب ضمه إلى الإيمان لو وجد دلنا ذلك على أن التصديق الذي هو الإيمان مفقود من قلبه، وكذلك كل ما كفر به المخالف من طريق التأويل فإنما كفرناه به لدلالته على ما فقد ما هو إيمان من قلبه لاستحالة أن يقضي السمع بكفر من معه الإيمان والتصديق بقلبه.

فيقال: لا ريب أن الشارع لا يقضي بكفر من معه الإيمان بقلبه لكن دعواكم

(١) انظر كتابه: الابانة. ومقالات الاسلاميين. وكان اتباعه يفترون عليه بأنه كان ينفي الصفات الخبرية ويؤول النصوص الواردة فيها.

(٢) أي التصديق.

أن الإيمان هو التصديق وإن تجرد عن جميع أعمال القلب غلط. ولهذا قالوا أعمال التصديق والمعرفة من قلبه، ألا ترى أن الشريعة حكمت بكفره، والشريعة لا تحكم بكفر المؤمن المصدق، ولهذا نقول إن كفر إبليس لعنه الله كان أشد من كفر كل كافر وإنه لم يعرف الله بصفاته قطعاً، لا آمن به إيماناً حقيقياً باطناً وإن وجد منه القول والعبادة، وكذلك اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من الكفرة لم يوجد في قلوبهم حقيقة الإيمان المعتد به في حال حكمنا لهم بالكفر. قال الله تعالى: ﴿ولو كانوا يؤمنونَ باللهِ والنبي وما أُنزل إليهِ ما اتخذوهم أولياءَ﴾[1] وقوله: ﴿فلا وربّك لا يؤمنونَ حتى يحكّموكَ فيما شجَرَ بينهم﴾[2] الآية. فجعل الله هذه الأمور شرطاً في ثبوت حكم الإيمان، فثبت أن الإيمان المعرفة بشرائط لا يكون معتداً به دونها.

فيقال: إن قلتم إنه ضم إلى معرفة القلب شروطاً في ثبوت الحكم أو الاسم لم يكن هذا قول جهم، بل يكون هذا قول من جعل الإيمان كالصلاة والحج وهو وإن كان في اللغة بمعنى القصد والدعاء لكن الشارع ضم إليه أموراً إما في الحكم وإما في الحكم والاسم، وهذا القول قد سلم صاحبه أن حكم الإيمان المذكور في الكتاب والسنة لا يثبت بمجرد تصديق القلب بل لا بد من تلك الشرائط، وعلى هذا لا يمكنه جعل الفاسق مؤمناً إلا بدليل يدل على ذلك لا بمجرد قول إن معه تصديق القلب.

ومن جعل الايمان هو تصديق القلب يقول كل كافر في النار ليس معه من التصديق بالله شيء لا مع إبليس ولا مع غيره وقد قال الله تعالى:[3] ﴿وإذ يتحاجّونَ في النّارِ فيقولُ الضعفاء للّذينَ استكبروا إنّا كنّا لكم تبعاً فهلْ أنتم مغنونَ عنّا نصيباً من النّارِ. قالَ الّذينَ استكبروا إنّا كل فيها إن الله قد حكم بينَ العبادِ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وسيقَ الّذينَ كفروا إلى جهنم زُمراً حتى إذاجاءوها

(١) سورة المائدة الآية ٨١. (٢) سورة النساء الآية ٦٥.
(٣) سورة غافر الآيات (٤٧ - ٤٨).

فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسلٌ منكم يتلون عليكم آياتِ ربكم وينذرونكم لقاءَ يومِكم هذا؟ قالوا بلى ولكن حقَّت كلمةُ العذاب على الكافرينَ﴾[1] فقد اعترفوا بأن الرسل أتتهم وتلت عليهم آيات ربهم وأنذرتهم لقاء يومهم هذا فقد عرفوا بالله ورسوله واليوم الآخر وهم في الآخرة كفار. وقال تعالى: ﴿كلما أُلقيَ فيها فوجٌ سألهم خَزَنَتُها ألم يأتِكم نذيرٌ. قالوا بلى قد جاءنا نذيرٌ فكذَّبنا وقلنا ما نزَّل الله من شيءٍ﴾[2] فقد كذبوا بوجوده وكذبوا بتنزيله وأما في الآخرة فعرفوا الجميع ـ وقال تعالى: ﴿ولو ترى إذ وُقِفُوا على ربّهم قال أليسَ هذا بالحقّ؟ قالوا بلى وربنا قالَ فذوقُوا العذابَ بما كنتم تكفرونَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وجاءت سكرة الموت[4] بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾[5] إلى قوله: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم جديد﴾ إلى آيات أخر كثيرة تدل على أن الكفار في الآخرة يعرفون ربهم فإن كان مجرد المعرفة إيماناً كانوا مؤمنين في الآخرة.

فإن قالوا: الإيمان في الآخرة لا ينفع وإنما الثواب على الإيمان في الدنيا. قيل: هذا صحيح لكن إذا لم يكن الإيمان إلا مجرد العلم، فهذه الحقيقة لا تختلف فإن لم يكن العمل من الإيمان فالعارف في الآخرة لم يفته شيء من الإيمان.

لكن أكثر ما يدعونه أنه حين مات لم يكن في قلبه من التصديق بالرب شيء. ونصوص القرآن في غير موضع تدل على أن الكفار كانوا في الدنيا مصدقين بالرب حتى فرعون الذي أظهر التكذيب كان في باطنه مصدقاً. قال تعالى: ﴿وجحدُوا بها واستيقنَتْهَا أنفسهم ظلماً وعُلواً﴾[6] وكما قال موسى لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزلَ هؤلاءِ إلاّ رب السَّموات والأرض بصائر﴾[7]

(١) سورة الزمر الآية ٧١.
(٢) سورة الملك الآيات (٧ - ٩).
(٣) سورة الانعام الآية ٣.
(٤) أي غمرته وغواشيه.
(٥) سورة ق الآية ١٩. وتحيد: تميل وتهرب.
(٦) سورة النمل الآية ١٤.
(٧) سورة الاسراء الآية ١٠٢. وبصائر جمع بصيرة وهي الحجة والبرهان.

ومع هذا لم يكن مؤمناً بل قال موسى: ﴿ربّنا اطمس على أموالهم[1] واشددْ على قلوبهم[2] فلا يؤمنوا حتى يروا العذابَ الأليمَ﴾[3] قال الله: ﴿قد أجيبت دعوتكما﴾[4] ولما قال فرعون: ﴿آمنت أنهُ لا إلهَ إلاَّ الَّذي آمنتْ بهِ بنو إسرائيل﴾[5] قال الله: ﴿آلآنَ وقد عصيتَ قبل وكنتَ منَ المفسدينَ﴾[6] فوصفه بالمعصية لم يصفه بعدم العلم في الباطن كما قال: ﴿فعصىٰ فرعونُ الرسولَ﴾[7] وكما قال عن إبليس: ﴿فسجدَ الملائكة كلهم أجمعونَ. إلا إبليسَ أبىٰ واستكبرَ وكانَ من الكافرينَ﴾[8] فلم يصفه إلا بالإباء والاستكبار ومعارضته الأمر، لم يصفه بعدم العلم. وقد أخبر الله عن الكفار أنهم كانوا معترفين بالصانع في مثل قوله: ﴿ولئِنْ سألتهم مَنْ خلقهم ليقولنَّ الله﴾[9].

ثم يقال لهم: إذا قلتم هو التصديق بالقلب أو باللسان أو بهما فهل هو التصديق المجمل أو لا بد فيه من التفصيل، فلو صدق أن محمداً رسول الله ولم يعرف صفات الحق هل يكون مؤمناً أم لا؟ فإن جعلوه مؤمناً قيل فإذا بلغه ذلك فكذب به لم يكن مؤمناً باتفاق المسلمين فصار بعض الإيمان أكمل من بعض، وإن قالوا لا يكون مؤمناً لزمهم ألا يكون أحد مؤمناً حتى يعرف تفصيل كل ما أخبر به الرسول: ومعلوم أن أكثر الأمة لا يعرفون ذلك، وعندهم الإيمان لا يتفاضل إلا بالدوام فقط.

قال أبو المعالي: فإن قال القائل أصلكم يلزمكم أن يكون إيمان المتهتك[10] في فسقه كإيمان النبي ﷺ قلنا: الذي يفضل إيمانه على إيمان من عداه باستمرار تصديقه وعصمة الله إياه من مخامرة الشكوك واختلاج الريب[11] والتصديق

---

(١) أي أ.مح ما عليها من نقوش. (٢) أي ابقها على الكفر. (٣) سورة يونس الآية ٨٨.

(٤) سورة يونس الآية ٨٩. (٥) سورة يونس الآية ٩٠.

(٦) سورة يونس الآية ٩١. (٧) سورة المزمل الآية ١٦.

(٨) سورة ص الآيات (٧٣ - ٧٤). (٩) سورة الزخرف الآية ٨٧.

(١٠) المتهتك: المستهتر. (١١) الريب: الشك. أو حصول القلق وتخلله في القلب.

عرض من الأعراض لا يبقى وهو متوال للنبي ﷺ ثابت لغيره في بعض الأوقات وزائل عنه في أوقات الفترات، فيثبت للنبي ﷺ أعداد من التصديق ولا يثبت لغيره إلا بعضها فيكون إيمانه لذلك أكثر وأفضل، قال ولو وصف الإيمان بالزيادة والنقصان وأريد به ذلك كان مستقيماً.

قلت: فهذا هو الذي يفضل به النبي غيره في الإيمان عندهم، ومعلوم أن هذا في غاية الفساد من وجوه كثيرة كما قد بسط في مواضع أخرى.

حجة من نصر قول جهم في الإيمان

قال الذين نصروا مذهب جهم في الإيمان من المتأخرين كالقاضي أبي بكر وهذا لفظه، فإن قال قائل: وما الإسلام عندكم؟ قيل له الإسلام الانقياد والاستسلام، فكل طاعة انقاد العبد بها لربه واستسلم فيها لأمره فهي إسلام، والإيمان خصلة من خصال الإسلام وكل إيمان إسلام، وليس كل إسلام إيماناً. فإن قال فلم قلتم إن معنى الإسلام ما وصفتم؟ قيل لأجل قوله تعالى: ﴿قالتِ الأعرابُ آمَنَّا قلْ لمْ تؤْمِنُوا ولكنْ قُولوا أسْلَمْنَا﴾[1] فنفى عنهم الإيمان وأثبت لهم الإسلام، وإنما أراد بما أثبته الانقياد والاستسلام، ومنه: ﴿ألقوا إليكم السلم﴾[2] وكل من استسلم لشيء فقد أسلم، وإن كان أكثر ما يستعمل ذلك في المستسلم لله ولنبيه.

قلت: وهذا الذي ذكروه مع بطلانه ومخالفته للكتاب والسنة هو تناقض فإنهم جعلوا الإيمان خصلة من خصال الإسلام، فالطاعات كلها إسلام وليس فيها إيمان إلا التصديق، والمرجئة وإن قالوا إن الإيمان تضمن الإسلام فهم يقولون الإيمان هو تصديق القلب واللسان، وأما الجهمية فيجعلونه تصديق القلب فلا تكون الشهادتان ولا الصلاة ولا الزكاة ولا غيرهن من الإيمان، وقد

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٤. (٢) سورة النساء الآية ٩٠.

تقدم ما بينه الله ورسوله من أن الإسلام داخل في الإيمان، فلا يكون الرجل مؤمناً حتى يكون مسلماً كما أن الإيمان داخل في الإحسان فلا يكون محسناً حتى يكون مؤمناً .

وأما التناقض فانهم إذا قالوا الإيمان خصلة من خصال الإسلام كان من أتى بالإيمان إنما أتى بخصلة من خصال الإسلام لا بالإسلام الواجب جميعه، فلا يكون مسلماً حتى يأتي بالإسلام كله، كما لا يكون عندهم مؤمناً حتى يأتي بالإيمان كله وإلا فمن أتى ببعض الإيمان عندهم لا يكون مؤمناً ولا فيه شيء من الإيمان، فكذلك يجب أن يقولوا في الإسلام ، وقد قالوا كل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيمانا، وهذا إن أرادوا به أن كل إيمان هو الإسلام الذي أمر الله به ناقض قولهم إن الإيمان خصلة من خصاله، فجعلوا الإيمان بعضه ولم يجعلوه إياه، وإن قالوا كل إيمان فهو إسلام أي هو طاعة لله وهو جزء من الإسلام الواجب، وهذا مرادهم، قيل لهم: فعلى هذا يكون الإسلام متعدداً بتعدد الطاعات، وتكون الشهادتان وحدهما إسلاماً والصلاة وحدها إسلاماً، والزكاة إسلاماً، بل كل درهم تعطيه للفقير إسلاماً، وكل سجدة إسلاماً وكل يوم تصومه اسلاماً، وكل تسبيحة تسبحها في الصلاة أو غيرها إسلاماً[1] .

ثم المسلم إن كان لا يكون مسلماً إلا بفعل كل ما سميتموه إسلاماً لزم أن يكون الفساق ليسوا مسلمين مع كونهم مؤمنين، فجعلتم المؤمنين الكاملي الإيمان[2] عندكم ليسوا مسلمين: وهذا شر من قول الكرامية، ويلزم أن الفساق من أهل القبلة ليسوا مسلمين، وهذا شر من قول الخوارج والمعتزلة وغيرهم، بل وأن يكون من ترك التطوعات[3] ليس مسلماً، إذا كانت التطوعات طاعة لله إن جعلتم كل طاعة فرضاً أو نفلاً إسلاماً .

---

(١) أي ان من أتى بخصلة واحدة يكون مسلماً بها ويستحق اسم الاسلام.

(٢) على مذهبكم في ان الايمان غير قابل للزيادة والنقص.

(٣) أي المستحبات والمندوبات.

ثم هذا خلاف ما احتججتم به من قوله للأعراب لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا فأثبت لهم الإسلام دون الإيمان، وأيضاً فإخراجكم الفساق من اسم الإسلام إن أخرجتموهم أعظم شناعة من إخراجهم من اسم الإيمان، فوقعتم في أعظم ما عبتموه على المعتزلة، فإن الكتاب والسنة ينفي عنهم اسم الإيمان أعظم مما ينفي اسم الإسلام، واسم الإيمان في الكتاب والسنة أعظم، وإن قلتم بل كل من فعل طاعة سمي مسلماً لزم أن يكون من فعل طاعة من الطاعات ولم يتكلم بالشهادتين مسلماً، ومن صدق بقلبه ولم يتكلم بلسانه أن يكون مسلماً عندكم، لأن الإيمان عندكم اسلام، فمن أتى به فقد أتى بالاسلام، فيكون مسلماً عندكم من تكلم بالشهادتين ولا أتى بشيء من الأعمال.

واحتجاجكم بقوله: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ قلتم نفى عنهم الإيمان وأثبت لهم الإسلام، فيقال هذه الآية حجة عليكم، لأنه لما أثبت الإسلام مع انتفاء الإيمان دل ذلك على أن الإيمان ليس بجزء من الإسلام، إذ لو كان بعضه لما كانوا مسلمين إن لم يأتوا به، وإن قلتم أردنا بقولنا أثبت لهم الإسلام أي إسلاماً ما[1]، فإن كل طاعة من الإسلام إسلام عندنا لزمكم ما تقدم من أن يكون صوم يوم إسلاما، وصدقة درهم إسلاما، وأمثال ذلك، وهم يقولون كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً، قالوا هذا من حيث الإطلاق، وإلا فالتفصيل ما ذكرناه من أن الإيمان خصلة من خصال الإسلام والدين، وليس هو جميع الإسلام والدين، فإن الإسلام هو الاستسلام لله بفعل كل طاعة وقعت موافقة الأمر، والإيمان أعظم خصلة من خصال الإسلام، واسم الإسلام شامل لكل طاعة انقاد بها العبد لله من إيمان وتصديق وفرض سواه ونفل غير أنه لا يصح التقرب بفعل ما عدا الإيمان من الطاعات دون تقديم فعل الإيمان، قالوا والدين مأخوذ من التدين وهو قريب من الإسلام في المعنى.

(١) أي مطلق اسلام وليس اسلاماً مطلقاً.

فيقال لهم إذا كان هذا قولهم فقولكم كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً يناقض هذا، فإن المسلم هو المطيع لله ولا تصح الطاعة من أحد إلا مع الإيمان، فيمتنع أن يكون أحد فعل شيئاً من الاسلام إلا وهو مؤمن ولو كان ذلك أدنى الطاعات، فيجب أن يكون كل مسلم مؤمناً سواء أريد بالإسلام فعل جميع الطاعات أو فعل واحدة منها وذلك لا يصح كله إلا مع الإيمان، وحينئذ فالآية حجة عليكم لا لكم.

ثم قولكم كل مؤمن مسلم وأنكم تريدون بالإيمان تصديق القلب فقط، فيلزم أن يكون الرجل مسلماً ولو لم يتكلم بالشهادتين[١] ولا أتى بشيء من الأعمال المأمور بها، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من دين الإسلام[٢]، بل عامة اليهود والنصارى يعلمون أن الرجل لا يكون مسلماً حتى يأتي بالشهادتين ولا بشيء من المباني الخمس، بل أتى بما هو طاعة وتلك طاعة باطنة، وليس هذا هو المسلم المعروف في الكتاب والسنة ولا عند الأئمة الأولين والآخرين.

ثم استدللتم بالآية، والأعراب إنما أتوا بإسلام ظاهر نطقوا فيه بالشهادتين سواء كانوا صادقين أو كاذبين فأثبت الله لهم الإسلام دون الإيمان فيظن من لا يعرف حقيقة الأمر أن هذا هو قول السلف الذي دل عليه الكتاب والسنة من أن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا، وبينهما من التباين أعظم مما بين قول السلف وقول المعتزلة في الإيمان والإسلام[٣]، فإن قول المعتزلة في الإيمان والإسلام أقرب من قول الجهمية بكثير، ولكن قولهم في تخليد أهل القبلة أبعد

---

(١) هذا لمن لا يتكلم كالاخرس.

(٢) اساس الاسلام هو النطق بالشهادتين، ومن ثم الاتيان ببقية الاركان من صلاة وزكاة وصيام وحج.

(٣) وذلك لأن المعتزلة يقولون ان الايمان اعتقاد وقول وعمل، وهذا موافق لقول السلف، إلا أنهم يخرجون من الايمان مرتكب الكبيرة.

عن قول السلف من قول الجهمية[1] فالمتأخرون الذين نصروا قول جهم في مسألة الإيمان يظهرون قول السلف في هذا الاستثناء وفي انتفاء الإيمان الذي في القلب حيث نفاه القرآن ونحو ذلك، وذلك كله موافق للسلف في مجرد اللفظ، وإلا فقولهم في غاية المباينة لقول السلف ليس في الأقوال أبعد عن السلف منه، وقول المعتزلة والخوارج والكرامية في اسم الإيمان والإسلام أقرب إلى قول السلف من قول الجهمية، لكن المعتزلة والخوارج يقولون بتخليد العصاة، وهذا أبعد عن قول السلف من كل قول فهم أقرب من الاسم وأبعد في الحكم، والجهمية وإن كانوا في قولهم بأن الفساق لا يخلدون أقرب في الحكم إلى السلف، فقولهم في مسمى الإسلام والإيمان وحقيقتها أبعد من كل قول عن الكتاب والسنة وفيه من مناقضة العقل والشرع واللغة ما لا يوجد مثله لغيرهم[2].

الإيمان المطلق مستلزم للأعمال

ومما يدل من القرآن على أن الإيمان المطلق مستلزم للأعمال قوله تعالى: ﴿إنَّما يؤمنُ بآياتنا الَّذينَ إذا ذُكِرَوا بها خرُّوا سُجَّداً وسبَّحُوا بحمدِ ربّهم وهم لا يستكبرون﴾[3] فنفى الإيمان عن غير هؤلاء، فمن كان إذا ذكر بالقرآن لا يفعل ما فرضه الله عليه من السجود لم يكن من المؤمنين، وسجود الصلوات الخمس فرض باتفاق المسلمين، وأما سجود التلاوة ففيه نزاع؛ وقد يحتج بهذه الآية من يوجبه، لكن ليس هذا موضع بسط هذه المسألة، فهذه الآية مثل قوله: ﴿إنَّما المؤمنونَ الَّذينَ إذا ذُكِرَ الله وجلت قلوبهم﴾[4] وقوله: ﴿إنَّما المؤمنونَ الَّذينَ آمنوا باللهِ ورسولهِ وإذا كانوا معهُ علىٰ أمرٍ جامعٍ لم يذهبوا حتى يستأذنوه﴾[5]

---

(١) وذلك لأن الجهمية عندما لم يدخلوا الاعمال في الايمان لا يزيلون اسم الايمان عن مرتكب الكبيرة، ولا يقولون بخلوده في النار وهم موافقون للسلف في هذا.

(٢) فكل من الجهمية والمعتزلة أقرب إلى السلف من وجه وأبعد من وجه.

(٣) سورة السجدة الآية ١٥. (٤) سورة الانفال الآية ٢.

(٥) سورة النور الآية (٦٢).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿عفا اللهُ عنكَ لِمَ أذنتَ لهم حتى يتبيّنَ لكَ الّذينَ صدقوا وتعلَمَ الكاذبينَ. لا يستأذنكَ الّذينَ يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم واللهُ عليمٌ بالمتقينَ. إنّما يستأذنكَ الّذينَ لا يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾.

وهذه الآية مثل قوله: ﴿لا تجد قوماً يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ يوادُّون من حادَّ الله ورسوله﴾[1] وقوله: ﴿ولو كانوا يؤمنونَ باللهِ والنبي وما أُنزلَ إليهِ ما اتّخذوهُمْ أولياء﴾[2] بين سبحانه أن الإيمان له لوازم[3] وله أضداد موجودة يستلزم ثبوت لوازمه وانتفاء أضداده، ومن أضداده موادة من حاد الله ورسوله، ومن أضداده استئذانه في ترك الجهاد، ثم صرح بأن استئذانه إنما يصدر من الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ودل قوله (والله عليم بالمتقين) على أن المتقين هم المؤمنون.

ومن هذا الباب قوله ﷺ «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»؛ وقوله «لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه» وقوله «لا تؤمنوا حتى تحابوا» وقوله «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» وقوله «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه» وقوله «من غشنا فليس منا، ومن حمل علينا السلاح فليس منا».

إذا قيد الإيمان فقرن بالإسلام أو بالعمل الصالح

وأما إذا قيد الإيمان فقرن بالإسلام أو بالعمل الصالح فإنه قد يراد به ما في القلب من الإيمان باتفاق الناس، وهل يراد به أيضاً المعطوف عليه ويكون من باب عطف الخاص على العام أو لا يكون حين الاقتران داخلاً في مسماه، بل لا

---

(١) سورة المجادلة الآية ٢٢. (٢) سورة المائدة الآية ٨١.

(٣) كما في حديث جبريل فانه سأله عن الايمان ثم عن الاسلام.

يكون لازماً له على مذهب أهل السنة لا يكون بعضاً ولا لازماً، هذا فيه ثلاثة أقوال للناس كما سيأتي إن شاء الله، وهذا موجود في عامة الأسماء يتنوع مسماها بالإطلاق والتقييد، مثال ذلك اسم المعروف والمنكر إذا أطلق كما في قولهتعالى: ﴿يأمرهم بالمعروفِ وينهاهم عن المنكَرِ﴾[1] وقوله: ﴿كنتم خيرَ أمةٍ أخرجتْ للناسِ تأمرونَ بالمعروفِ وتنهونَ عن المنكَرِ﴾[2] وقوله: ﴿والمؤمنونَ والمؤمناتِ بعضهم أولياءُ بعضٍ يأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عن المنكَرِ﴾[3] يدخل في المعروف كل خير، وفي المنكر كل شر. ثم يقرن بما هو أخص منه كقوله: ﴿لا خيرَ في كثيرٍ من نجواهم إلا من أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بينَ الناسِ﴾[4] فغاير بين المعروف وبين الصدقة والإصلاح بين الناس كما غاير بين اسم الإيمان والعمل، واسم الإيمان والاسلام، وكذلك قوله تعالى: ﴿إن الصلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمنكرِ﴾[5] غاير بينهما وقد دخلت الفحشاء في المنكر في قوله: ﴿وينهونَ عن المنكرِ﴾[6] ثم ذكر مع المنكر اثنين في قوله: ﴿إن اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القربى وينهى عن الفحشاءِ والمنكرِ والبغيِ﴾[7] جعل البغي هنا مغايراً لهما وقد دخل في المنكر في ذينك الموضعين.

ومن هذا الباب لفظ العبادة، فإذا أمر بعبادة الله مطلقاً دخل في عبادته كل ما أمر الله[8] فالتوكل عليه مما أمر به والاستعانة به مما أمر به، فيدخل ذلك في مثل قوله: ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدونِ﴾[9] وفي قوله: ﴿واعبدوا اللهَ ولا تُشركوا بهِ شيئاً﴾[10] وقوله: ﴿يا أيّها الناس اعبدوا ربَّكم الّذي خلقكم﴾[11]

---

(١) سورة الاعراف الآية ١٥٦ . (٢) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

(٣) سورة التوبة الآية ٧١ . (٤) سورة النساء الآية ١١٤ .

(٥) سورة العنكبوت الآية ٤٥ . (٦) سورة التوبة الآية ٧١ .

(٧) سورة النحل الآية ٩٠ .

(٨) فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الاقوال والافعال.

(٩) قيل: المعنى إلا ليعرفوني، ولا شك ان المعرفة أساس العبادة. فلم يعبد الله من لم يعرفه .

(١٠) سورة الذاريات الآية ٥٦ (١١) سورة البقرة الآية ٢١ .

وقوله: ﴿إنا أنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ فاعبد الله مخلصاً لهُ الدينَ﴾ ﴿قل الله أعبد مخلصاً لهُ ديني﴾ وقوله: ﴿أفغيرَ اللهِ تأمروني أعبدُ أيّها الجاهلون﴾ [١] ثم قد يقرن بها اسم آخر كما في قوله: ﴿إيَّاكَ نعبدُ وإيَّاك نستعين﴾ [٢] وقوله ﴿فاعبدهُ وتوكل عليهِ﴾ [٣] وقول نوح: ﴿اعبدوا اللهَ واتقوهُ وأطيعونِ﴾ [٤] وكذلك إذا أفرد اسم طاعة الله دخل في طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة في طاعته، وكذا اسم التقوى إذا أفرد دخل فيه فعل كل مأمور به، وترك كل محظور.

قال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله، وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله تخاف عذاب الله، وهذا كما في قوله: ﴿إن المتقين في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾[٥] وقد يقرن بها اسم آخر كقوله: ﴿ومَنْ يتق اللهَ يجعلْ لهُ مخرجاً. ويرزقهُ مِنْ حيثُ لا يحتسب. ومن يتوكل على اللهِ فهوَ حسبهُ﴾[٦] وقوله: ﴿إنهُ من يتق ويصبر فإنَّ اللهَ لا يضيعُ أجرَ المحسنينَ﴾[٧] وقوله: ﴿واتقوا اللهَ الّذي تساءلونَ بهِ والأرحام﴾[٨] وقوله: ﴿اتقوا اللهَ وقولوا قولاً سديداً﴾ [٩] وقوله: ﴿اتقوا اللهَ وكونوا معَ الصادقينَ﴾[١٠] وقوله: ﴿اتقوا اللهَ حقَّ تقاتهِ[١١] ولا تموتنَّ إلا وأنتمْ مسلمونَ﴾[١٢] وأمثال ذلك.

---

(١) سورة الزمر الآية ٦٤ . (٢) سورة الفاتحة الآية ٥ .
(٣) سورة هود الآية ١١٣ . (٤) سورة نوح الآية ٧٣ .
(٥) سورة القمر الآيات (٥٤ ـ ٥٥).
(٦) سورة الطلاق الآيات (٢ ـ ٣).
(٧) سورة يوسف الآية ٩٠ . (٨) سورة النساء الآية ١ .
(٩) سورة الاحزاب الآية ٧٠ . والسداد: هو الصواب والعدل.
(١٠) سورة التوبة الآية ١١٩ .
(١١) أي كمال تقاته. وهو جهد الاستطاعة. قال تعالى: (فاتقوا الله ما استطعتم).
(١٢) سورة آل عمران الآية ١٠٢ .

فقوله: ﴿اتقوا الله وقولوا قولا سديداً﴾[1] مثل قوله: ﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مُستخلفين فيه﴾[2] وقوله: ﴿آمنَ الرسول بما أنزلَ اليـهِ مـن ربّـه والمؤمنونَ؛ كلٌ آمنَ باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ، لا نفرقُ بينَ أحدٍ من رسلهِ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانكَ ربَّنا وإليكَ المصير﴾ [3] فعطف قولهم على الإيمان كما عطف القول السديد على التقوى، ومعلوم أن التقوى إذا أطلقت دخل فيها القول السديد، وكذلـك الإيمان إذا أطلـق دخـل فيـه السمع والطـاعـة لله وللرسول، وكذلك قوله: ﴿آمنوا بالله ورسولهِ﴾ [4] وإذا أطلق الإيمان بالله في حق أمة محمد دخل فيه الإيمان بالرسول، وكذلك قوله: ﴿كل آمنَ باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ﴾ [5] وإذا أطلق الإيمان بالله دخل فيه الإيمان بهذه التوابع، وكذلك قوله: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾[6] وقوله: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم﴾ [7] الآية.

وإذا قيل قوله: ﴿فآمنوا باللهِ ورسولهِ النبي الأمي﴾[8] دخل في الإيمان برسوله الإيمان بجميع الكتب والنبيين. وكذلك إذا قيل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته﴾ [9] وإذا قيل: ﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ [10] دخل في الإيمان بالله ورسوله الإيمان بذلك كله، والإنفاق يدخل في قوله في الآية الأخرى: ﴿آمنوا بالله ورسوله﴾[11] كما يدخل القول السديد في مثل قوله: ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب﴾[12].

---

(١) سورة الاحزاب الآية ٧٠.
(٢) سورة الحديد الآية ٧.
(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٥.
(٤) سورة الحديد الآية ٧.
(٥) سورة البقرة الآية ٢٨٥.
(٦) سورة البقرة الآية ٤.
(٧) سورة البقرة الآية ١٣٦.
(٨) سورة الاعراف الآية ١٥٧.
(٩) سورة الحديد الآية ٢٨.
(١٠) سورة الحديد الآية ٧.
(١١) سورة الحديد الآية ٧.
(١٢) سورة النساء الآية ١٣.

وكذلك لفظ البر إذا أطلق تناول جميع ما أمر الله به كما في قوله: ﴿إن الأبرار لفي نعيم. وإن الفجار لفي جحيم﴾[1] وقوله: ﴿ولكن البر من اتقى﴾[2] وقوله: ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب[3] وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس[4] أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾[5] فالبر إذا أطلق كان مسماه مسمى التقوى، والتقوى إذا أطلقت كان مسماها مسمى البر، ثم قد يجمع بينهما كما في قوله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾[6].

وكذلك لفظ الإثم إذا أطلق دخل فيه كل ذنب، وقد يقرن بالعدوان كما في قوله تعالى: ﴿ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾[7] وكذلك لفظ الذنوب إذا أطلق دخل فيه ترك كل واجب وفعل كل محرم كما في قوله: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾[8] ثم قد يقرن بغيره كما في قوله: ﴿ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا﴾[9] وكذلك لفظ الهدى إذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعاً فيدخل فيه كل ما أمر به كما في قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾[10] والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعاً. وكذلك قوله: ﴿هدى للمتقين﴾[11]

---

(١) سورة الانفطار الآية ١٣.
(٢) سورة البقرة الآية ١٨٩.
(٣) أي اعانة المكاتبين.
(٤) البأساء: شدة الفقر. والضراء: المرض. والبأس: الحرب.
(٥) سورة البقرة الآية ١٧٧.
(٦) سورة المائدة الآية ٢.
(٧) سورة المائدة الآية ٢.
(٨) سورة الزمر الآية ٥٣.
(٩) سورة آل عمران الآية ١٤٧.
(١٠) سورة الفاتحة الآية ٥.
(١١) سورة البقرة الآية ٢.

والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به، ولهذا صاروا مفلحين. وكذلك قول أهل الجنة: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ [1] وإنما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح.

ثم قد يقرن الهدى إما بالاجتباء كما في قوله: ﴿اجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾ [2] وكما في قوله: ﴿شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه﴾ [3] ﴿الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾ [4] وكذلك قوله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ [5] والهدى هنا الإيمان، ودين الحق هو الإسلام، واذا أطلق الهدى كان كالإيمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا.

ولفظ الضلال إذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمداً أو جهلاً، ولزم أن يكون معذباً كقوله: ﴿إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون﴾ [6] وقوله: ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾ [7] وقوله: ﴿فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى﴾ [8] ثم يقترن بالغي أو الغضب كما في قوله: ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾ [9] وفي قوله: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ [10] وقوله: ﴿إن المجرمين في ضلال وسعر﴾ [11]. وكذلك لفظ الغي إذا أطلق تناول كل معصية لله كما في قوله عن الشيطان ﴿لأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين﴾ [12]

---

(١) سورة الاعراف الآية ٤٣.
(٢) سورة الانعام الآية ٨٧. (٣) سورة النحل الآية ١٢١.
(٤) سورة الشورى الآية ١٣.
(٥) سورة الفتح الآية ٢٨.
(٦) سورة الصافات الآيات (٦٩ ـ ٧٠) ويهرعون: يسرعون.
(٧) سورة الاحزاب الآيات (٦٧ ـ ٦٨).
(٨) سورة طه الآية ١٢٣. (٩) سورة النجم الآية ٢.
(١٠) سورة الفاتحة الآية ٧. (١١) سورة القمر الآية ٤٧.
(١٢) سورة الحجر الآيات (٣٩ ـ ٤٠).

وقد يقرن بالضلال كما في قوله: ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾[1].

وكذلك اسم الفقير اذا أطلق دخل فيه المسكين، وإذا أطلق لفظ المسكين تناول الفقير، وإذا قرن بينهما فأحدهما غير الآخر، فالأول كقوله ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾[2] وقوله: ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين﴾[3] والثاني كقوله: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾[4].

وهذه الأسماء التي تختلف دلالتها بالإطلاق والتقييد والتجريد والاقتران تارة يكونان اذا أفرد أحدهما أعم من ذلك الآخر كاسم الإيمان والمعروف مع العمل ومع الصدق، وكالمنكر مع الفحشاء ومع البغي ونحو ذلك؛ وتارة يكونان متساويين في العموم والخصوص كلفظ الإيمان والبر والتقوى، ولفظ الفقير والمسكين. فأيها أطلق تناول ما يتناوله الآخر، وكذلك لفظ التلاوة فإنها إذا اطلقت في مثل قوله: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾[5] تناولت العمل به كما فسره بذلك الصحابة والتابعون مثل ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم قالوا يتلونه حق تلاوته، يتبعونه[6] حق اتباعه فيحلون حلاله ويحرمون حرامه ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه. وقيل هو من التلاوة بمعنى الاتباع كقوله: ﴿والقمر اذا تلاها﴾[7] وهذا يدخل فيه من لم يقرأه وقيل بل من تمام قراءته أن يفهم ويعمل به كما قال أبو عبد الرحمن السلمي[8] حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما انهم كانوا إذا

---

(١) سورة النجم الآية ٢. أي لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٧١. (٣) سورة المائدة الآية ٩٢.

(٤) سورة التوبة الآية ٦٠.

(٥) سورة البقرة الآية ١٢١.

(٦) مأخوذ من تلاه إذا تبعه، تقول: تلا الفصيل امه.

(٧) سورة الشمس الآية ٢.

(٨) تابعي جليل. وهو غير ابي عبد الرحمن السلمي، الصوفي صاحب طبقات الصوفية.

تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم جميعاً.

وقوله: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾ [١] قد فسر بالقرآن وفسر بالتوراة. وروى محمد بن نصر بإسناده الثابت عن ابن عباس ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ قال يتبعونه حق اتباعه. وروى أيضاً عن ابن عباس ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ قال يحلون حلاله ويحرمون حرامه ولا يحرفونه عن مواضعه وعن قتادة ﴿يتلونه حق تلاوته أولئك مؤمنون به﴾ قال أولئك أصحاب محمد آمنوا بكتاب الله وصدقوا به، أحلوا حلاله وحرموا حرامه وعملوا بما فيه، ذكر لنا ابن مسعود كان يقول إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه، وأن نقرأه كما أنزل الله ولا نحرفه عن مواضعه. وعن الحسن يتلونه قال يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه. وعن مجاهد يتبعونه حق اتباعه، وفي رواية يعملون به حق عمله.

ثم قد يقرن بالتلاوة غيرها كقوله: ﴿أتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ [٢] قال أحمد بن حنبل وغيره: تلاوة الكتاب العمل بطاعة الله كلها، ثم خص الصلاة بالذكر كما في قوله: ﴿والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة﴾ [٣] وقوله: ﴿فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى﴾ [٤].

وكذلك لفظ اتباع ما انزل الله يتناول جميع الطاعات كقوله: ﴿اتبعوا ما أُنزلَ اليكم مِنْ ربّكم ولا تتبعوا مِنْ دونهِ أولياء﴾ [٥] وقوله: ﴿فمن اتبع هداي

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢١.

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٥. (٣) سورة الاعراف الآية ١٧٠.

(٤) سورة طه الآية ١٤.

(٥) سورة الاعراف الآية ٣.

فلا يضل ولا يشقى﴾[1] وقوله: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوهُ ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾[2] وقد يقرن به غيره كقوله: ﴿وهذا كتابٌ أنزلناه مبارك فاتبعوهُ واتقوا لعلكم ترحمون﴾[3] وقوله ﴿واتبع ما أوحي إليكَ من ربكَ لا إلهَ إلاّ هوَ وأعرض عن المشركينَ﴾[4] وقوله: ﴿واتبع ما أوحي إليكَ واصبرْ حتىٰ يحكمَ الله وهوَ خيرُ الحاكمينَ﴾[5]

وكذلك لفظ الأبرار إذا أطلق دخل فيه كل تقي من السابقين والمقتصدين وإذا قرن بالمقربين كان أخص[6] . وقال تعالى في الأول ﴿إنَّ الأبرارَ لفي نعيمٍ . وإن الفجّارَ لفي جحيم﴾ [7] وقال في الثاني: ﴿إنَّ كتابَ الأبرارِ لفي عليين . وما أدراك ما عليّون. كتابٌ مرقومٌ يشهدهُ المقرّبونَ﴾[8] وهذا باب واسع يطول استقصاؤه .

ومن أنفع الأمور في معرفة دلالة الألفاظ مطلقاً وخصوصاً ألفاظ الكتاب والسنة وبه تزول شبهات كثيرة كثر فيها نزاع الناس، من جملتها مسألة الإيمان والإسلام، فإن النزاع في مسماها أول اختلاف وقع[9] افترقت الأمة لأجله وصاروا مختلفين في الكتاب والسنة، وكفر بعضهم بعضاً كما قد بسطنا هذا في مواضع أخر، إذ المقصود هنا بيان شرح كلام الله ورسوله على وجه يبين أن الهدى كله مأخوذ من كلام الله ورسوله بإقامة الدلائل الدالة لا بذكر الأقوال

---

(١) سورة طه الآية ١٢٣ .

(٢) سورة الانعام الآية ١٥٣ . (٣) سورة الانعام الآية ١٥٥ .

(٤) سورة الانعام الآية ١٠٦ . (٥) سورة يونس الآية ١٠٩ .

(٦) المقصود: المقتصدون أصحاب اليمين.

(٧) سورة الانفطار الآيات (١٣ ـ ١٤).

(٨) سورة المطففين الآيات (١٨ ـ ٢١).

(٩) سبب الخوارج الذين خرجوا على الامام علي رضي الله عنه بعد مسألة التحكيم، حيث كفر الامام علي، وكفروا معاوية واصحابها، وحكموا بكفر مرتكب الكبيرة وخلوده في النار.

التي لا تقبل بلا دليل، وترد بلا دليل أو يكون المقصود بها نصر غير الله والرسول، فإن الواجب أن يقصد معرفة ما جاء به الرسول واتباعه بالأدلة الدالة على ما بينه الله ورسوله.

أقوال السلف في الإيمان

ومن هذا الباب أقوال السلف وأئمة السنة في تفسير الإيمان، فتارة يقولون هو قول وعمل وتارة يقولون هو قول وعمل ونية وتارة يقولون قول وعمل ونية واتباع السنة وتارة يقولون قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح وكل هذا صحيح فإذا قالوا قول وعمل فإنه يدخل في القول قول القلب واللسان جميعاً وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام ونحو ذلك إذا أطلق.

والناس لهم في مسمى الكلام والقول عند الإطلاق أربعة أقوال. فالذي عليه السلف والفقهاء والجمهور أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً كما يتناول لفظ الإنسان للبدن والروح جميعاً، وقيل بل مسماه هو اللفظ، والمعنى ليس جزء مسماه بل هو مدلول مسماه، وهذا قول كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وطائفة من المنتسبين إلى السنة، والكلام على اللفظ مجاز لأنه دال عليه، وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه، وقيل بل هو مشترك بين اللفظ والمعنى وهو قول بعض المتأخرين من الكلابية، ولهم قول ثالث يروى عن أبي الحسن أنه مجاز في كلام الله، حقيقة في كلام الآدميين، لأن حروف الآدميين تقوم بهم. فلا يكون الكلام قائماً بغير المتكلم بخلاف الكلام القرآني فإنه لا يقوم عنده بالله فيمتنع أن يكون كلامه، ولبسط هذا موضع آخر.

والمقصود هنا أن من قال من السلف الإيمان قول وعمل أراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح، ومن أراد الاعتقاد رأى أن لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب، ومن قال قول وعمل ونية، قال: القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان وأما العمل فقد لا يفهم منه النية

نزاد ذلك، ومن زاد اتباع السنة فلأن ذلك كله لا يكون محبوباً لله إلا باتباع السنة، وأولئك لم يريدوا كل قول وعمل، إنما أرادوا ما كان مشروعاً من الأقوال والأعمال، ولكن كان مقصودهم الرد على المرجئة الذين جعلوه قولاً فقط[1] فقالوا بل هو قول وعمل، والذين جعلوه أربعة فسروا مرادهم كما سئل سهل بن عبد الله التستري عن الإيمان ما هو؟ فقال قول وعمل ونية وسنة، الإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر، وإذا كان قولاً وعملاً بلا نية فهو نفاق، وإذا كان قولاً وعملاً ونية بلا سنة فهو بدعة.

عطف الشيء على الشيء في القرآن يقتضي مغايرة بين المتعاطفين مع اشتراكهما في الحكم

وعطف الشيء على الشيء في القرآن وسائر الكلام يقتضي مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه[2] مع اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في الحكم الذي ذكر لهما، والمغايرة على مراتب أعلاها أن يكونا متباينين، ليس أحدهما هو الآخر ولا جزءه ولا يعرف لزومه له كقوله: ﴿خلق الله السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾[3] ونحو ذلك وقوله: ﴿وجبريلَ وميكالَ﴾[4] وقوله: ﴿وأنزل التوراةَ والانجيل من قبلُ هدىً للنّاس وأنزلَ الفرقان﴾[5] وهذا هو الغالب ويليه أن يكون بينهما لزوم كقوله: ﴿ولا تلبسوا الحقَّ بالباطل وتكتموا الحق﴾[6] وقوله: ﴿ومن يشاقق الرسولَ من بعدما تبيّنَ لهُ الهدى ويتبع غيرَ سبيلِ المؤمنين﴾[7] وقوله: ﴿وَمَنْ يكفرْ باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ﴾[8] فإن من كفر بالله فقد كفر بهذا كله فالمعطوف لازم للمعطوف عليه، وفي التي قبلها المعطوف عليه لازم فإنه من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى فقد اتبع غير سبيل المؤمنين وفي الثاني

---

(١) وحجتهم في ذلك قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة».

(٢) إلا إذا كان عطف تفسير فانه لا يقتضي ذلك.

(٣) سورة الفرقان الآية ٥٩. (٤) سورة البقرة الآية ٩٨.

(٥) سورة آل عمران الآية ٣. (٦) سورة البقرة الآية ٤٢.

(٧) سورة النساء الآية ١١٥. (٨) سورة النساء الآية ١٣٦.

نزاع، وقوله: ﴿ولا تلبسوا الحقّ بالباطِل وتكتموا الحق﴾[1] هما متلازمان فإن من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوسا به، فقد أخفى من الحق بقدر ما أظهر من الباطل، فصار ملبوسا، ومن كتم الحق أن يقيم موضعه باطلا فيلبس الحق بالباطل، ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله فلا بد أن يظهر باطلا.

وهكذا أهل البدع، لانجد أحداً ترك بعض السنة التي يجب التصديق بها والعمل إلا وقع في بدعة، ولا نجد صاحب بدعة إلا ترك شيئاً من السنة، كما جاء في الحديث «ما ابتدع قوم بدعة إلا وتركوا من السنةمثلها»، رواه الإمام أحمد، وقد قال تعالى: ﴿فنسوا حظاً[2] مما ذكروا به فأغرينا[3] بينهم العداوةَ والبغضَاء﴾[4] فلما تركوا حظاً مما ذكروا بهِ اعتاضوا بغيره فوقعت بينهم العداوةَ والبغضاءَ، وقال تعالى: ﴿ومن يعش[5] عن ذكرِ الرحمنِ نقيض[6] لهُ شيطاناً فهو لهُ قرين﴾[7] اي عن الذكر الذي أنزله الرحمن، وقال تعالى: ﴿فمن اتبع هدايَ فلا يضلُّ ولا يشقى. وَمَنْ أعرضَ عنْ ذكري فإنَّ لهُ معيشةً ضنكاً، ونحشرهُ يومَ القيامةِ أعمى﴾[8] وقال: ﴿اتَّبعوا ما أُنزلَ إليكم مِنْ ربكُم ولا تتبعوا مِنْ دونهِ أولياءَ قليلاً ما تَذكَّرُونَ﴾[9] فأمر باتباع ما أنزل ونهى عما يضاد ذلك وهو اتباع أولياء من دونه، فمن لم يتبع أحدهما اتبع الآخر ولهذا قال ﴿ويتبع غيرَ سبيلِ المؤمنين﴾[10] قال العلماء: من لم يكن متبعاً سبيلهم كان متبعاً غير سبيلهم، فاستدلوا بذلك على أن اتباع سبيلهم واجب، فليس لأحد أن يخرج عما أجمعوا عليه.

---

(١) سورة البقرة الآية ٤٢.

(٢) أي نسو نصيباً.

(٣) هيجنا، ايقظنا.

(٤) سورة المائدة الآية ١٤.

(٥) بمعنى عمي ولم يبصر.

(٦) نهيء، نسلط.

(٧) سورة الزخرف الآية ٣٦.

(٨) سورة طه الآيات (١٢٣ - ١٢٤).

(٩) سورة الاعراف الآية ٣.

(١٠) سورة النساء الآية ١١٥:

وكذلك من لم يفعل المأمور، فعل بعض المحظور، ومن فعل المحظور ولم يفعل جميع المأمور، فلا يمكن الإنسان أن يفعل جميع ما أمر مع فعله لبعض ما حظر، ولا يمكنه ترك كل ما حظر من تركه لبعض ما أمر، فإن ترك ما حظر من جملة ما أمر به فهو مأمور، ومن المحظور ترك المأمور. فكل ما شغله عن الواجب فهو محرم، وكل ما لا يمكن فعل الواجب إلا به فعليه فعله ولهذا كان لفظ الأمر إذا أطلق يتناول النهي[1]، وإذا قيد بالنهي كان النفي نظير ما تقدم، فإذا قال تعالى عن الملائكة: ﴿لا يعصونَ اللهَ ما أمرهم﴾[2] دخل في ذلك أنه إذا نهاهم عن شيء اجتنبوه، وأما قوله: ﴿ويفعلونَ ما يُؤمَرونَ﴾[3] فقد قيل لا يتعدون ما أمروا به، وقيل يفعلونه في وقته لا يقدمونه ولا يؤخرونه.

وقد يقال: هو لم يقل ولا يفعلون إلا ما يؤمرون، بل هذا دل عليه قوله: ﴿لا يسبقونهُ بالقولِ وهمْ بأمرِهِ يعملون﴾[4] وقد قيل لا يعصون ما أمرهم في الماضي ويفعلونَ ما يؤمرون في المستقبل[5]، وقد يقال هذه الآية خبر عما سيكون، ليس ما أمروا به هنا ماضياً بل الجميع مستقبل فإنه قال: ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ وما يتقي به إنما يكون مستقبلا، وقد يقال ترك المأمور تارة يكون لمعصية المأمور وتارة يكون لعجزه فإذا كان قادراً مريداً لزم وجود الأمور المقدورة، فقوله: ﴿لا يعصون﴾ لا يمتنعون عن الطاعة. وقوله: ﴿ويفعلونَ ما يُؤمرون﴾[6] أي هم قادرون على ذلك لا يعجزون عن شيء منه بل يفعلونه كله فيلزم وجود كل ما أمروا به وقد يكون في ضمن ذلك أنهم لا يفعلون إلا المأمور به كما يقول القائل أنا أفعل ما أمرت به أي أفعله ولا أتعداه الى زيادة ولا نقصان.

وأيضاً فقوله: ﴿لا يعصونَ اللهَ ما أمرهم﴾[7] إن كان نهاهم عن فعل آخر كان ذلك عن أمره، وإن كان لم ينههم لم يكونوا مذمومين بفعل ما لم ينهوا عنه.

---

(١) أي ترك المنهي عنه. (٢) سورة التحريم الآية ٦. (٣) سورة النحل الآية ٥٠

(٤) سورة الانبياء الآية ٢٧.

(٥) قوله (لا يعصون) لفظ دال على المستقبل.

(٦) سورة التحريم الآية ٦. (٧) سورة التحريم الآية ٦.

والمقصود أن لفظ الأمر إذا أطلق تناول النهي[1] ومنه قوله: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرَ﴾[2] أي أصحاب الأمر، ومن كان صاحب الأمر كان صاحب النهي ووجبت طاعته في هذا وهذا، فالنهي داخل في الأمر. وقال موسى للخضر ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً. قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيءٍ حتى أحدثَ لكَ منهُ ذِكراً﴾[3] وهذا نهي له عن السؤال حتى يحدث له منه ذكراً. ولما خرق السفينة قال له موسى: ﴿أخَرَقْتَها لتغرق أهلها لقد جئتَ شيئاً إمراً﴾[4] فسأله قبلَ إحداث الذكر، وقال في الغلام ﴿أقتلتَ نفساً زكيةً بغيرِ نفسٍ، لقد جئتَ شيئاً نُكراً﴾[5] فسأله قبل إحداث الذكر، وقال عن الجدار ﴿لوشئتَ لاتخذت عليهِ أجراً﴾[6] وهذا سؤال من جهة المعنى[7]، فإن السؤال والطلب قد يكون بصيغة الشرط كما نقول لو نزلت عندنا لأكرمناك، وإن بت الليلة عندنا أحسنت إلينا، ومنه قول آدم: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإنْ لم تغفرْ لنا وترحمنا لنكوننَّ مِنَ الخاسرين﴾[8] وقول نوح: ﴿ربّ إني أعوذ بكَ أن أسألكَ ما ليسَ لي بهِ علمٌ وإلاّ تغفرْ لي وترحمني أكن مِنَ الخاسرينَ﴾[9] ومثله كثير ولهذا قال موسى: ﴿إن سألتكَ عَنْ شيءٍ بعدها فلا تُصاحبني﴾[10] فدل على أنه سأله الثلاث قبل أن يحدث الذكر، وهذا معصية لنهيه وقد دخل في قوله: ﴿ولا أعصي لكَ أمراً﴾[11] فدل على أن عاصي النهي عاصي الأمر، ومنه قوله تعالى: ﴿ألا لهُ الخلقُ والأمرُ﴾[12] وقد دخل النهي في الأمر، ومنه قوله: ﴿فليحذر الَّذينَ يخالفونَ عَنْ أمرهِ﴾[13] وقوله: ﴿وما كان

---

(١) النهي عن الشيء هو امر بتركه.

(٢) سورة النساء الآية ٥٩.

(٣) سورة الكهف الآيات (٦٩ - ٧٠).

(٤) سورة الكهف الآية ٧١.

(٥) سورة الكهف الآية ٧٤.

(٦) سورة الكهف الآية ٧٧.

(٧) وكانه قال له أتقيم الجدار لقوم لم يضيفونا دون اجر.

(٨) سورة الاعراف الآية ٢٣.

(٩) سورة هود الآية ٤٧.

(١٠) سورة الكهف الآية ٧٦.

(١١) سورة الكهف الآية ٦٩.

(١٢) سورة الاعراف الآية ٥٤.

(١٣) سورة النور الآية ٦٣.

لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضىٰ الله ورسوله أمراً أن يكونَ لهم الخيرة من أمرهم﴾ [1] فان نهيه داخل في ذلك.

وقد تنازع الفقهاء في قوله لامرأته: إذا عصيت أمري فأنت طالق، إذا نهاها فعصته هل يكون ذلك داخلاً في قوله؟ على قولين، قيل لا يدخل لأن حقيقة النهي غير حقيقة الأمر، وقيل يدخل لأن ذلك يفهم منه في العرف معصية الأمر والنهي، وهذا هو الصواب، لأن ما ذكر في العرف هو حقيقة في اللغة والشرع، فإن الأمر المطلق في كل متكلم إذا قيل أطع أمر فلان. أو فلان يطيع أمر فلان أو لا يعصي أمره، فإنه يدخل فيه النهي، لأن الناهي أمر بترك المنهي عنه، فلهذا قال سبحانه: ﴿ولا تلبسوا الحقَّ بالباطلِ وتكتموا الحقَّ وأنتم تعلمون﴾ [2] ولم يقل لا تكتموا الحق فلم ينه عن كل منهما لتلازمهما، وليست هذه واو الجمع التي يسميها الكوفيون واو الصرف كما قد يظنه بعضهم، فإنه كان يكون المعنى لا تجمعوا بينهما فيكون أحدهما وحده غير منهي عنه [3].

وأيضاً فتلك إنما تجيء إذا ظهر الفرق كقوله: ﴿ولما يعلم اللهُ الَّذينَ جاهدوا منكم ويعلم الصابرينَ﴾ [4] وقوله: ﴿أو يوبقهنَّ بما كسبوا ويعف عن كثيرٍ. ويعلم الَّذينَ يجادلونَ في آياتنا ما لهمْ مِنْ محيصٍ﴾ [5] ومن عطف الملزوم قوله تعالى: ﴿أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرَّسولَ وأولي الأمرِ منكم﴾ [6] فإنهم إذا أطاعوا الرسول فقد أطاعوا الله [7] كما قال تعالى: ﴿من يطع الرسولَ فقد أطاعَ اللهَ﴾ [8] وإذا أطاع من بلغته رسالة محمد: الله فإنه لا طاعة لله إلا بطاعته. والثالث عطف بعض الشيء عليه [9]، كقوله: ﴿حافظوا علىٰ الصلوات والصلاةِ الوسطىٰ﴾ [10] وقوله: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنكَ ومنْ نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن

---

(1) سورة الاحزاب الآية ٣٦. (2) سورة البقرة الآية ٤٢.

(3) المقصود النهي عن كل منهما ولكنه لم يكرر حرف النهي لتلازمهما.

(4) سورة آل عمران الآية ١٤٢.

(5) سورة الشورى الآيات (٣٤ - ٣٥). (6) سورة النساء الآية ٥٨.

(7) فتكون طاعة الله لازمة لطاعة الرسول. (8) سورة النساء الآية ٨٠.

(9) ويسمى عطف الخاص على العام. (10) سورة البقرة الآية ٢٣٨.

مريم﴾ [1] وقوله: ﴿من كانَ عدواً للهِ وملائكتهِ ورسلهِ وجبريلَ وميكالَ﴾ [2] وقوله: ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها﴾ [3] والرابع عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين كقوله: ﴿سبح اسمَ ربِّكَ الأعلى الذي خلقَ فسوى. والَّذي قدَّرَ فهدى، والَّذي أخرجَ المرعى﴾ [4] وقوله: ﴿الَّذينَ يؤمنونَ بالغيبِ ويقيمونَ الصَّلاةَ ومما رزقناهم ينفقونَ. والَّذينَ يؤمنونَ بما أُنزلَ إليكَ وما أُنزلَ مِنْ قبلكَ وبالآخرةِ هم يوقنونَ﴾ [5] وقد جاء في الشعر ما ذكر أنه عطف لاختلاف اللفظ فقط كقوله:

وألفى قولها كذباً وميناً [6]

ومن الناس من يدعي أن مثل هذا جاء في كتاب الله كما يذكرونه في قوله: ﴿شرعةً ومنهاجاً﴾ [7] وهذا غلط، مثل هذا لا يجيء في القرآن ولا في كلام فصيح [8] وغاية ما يذكر منها يذكر الناس اختلاف معنى اللفظ، كما ادعى بعضهم أن من هذا قوله:

ألا حبذا هند وأرض بها هند ... وهند أتى من دونها النأى والبعد [9]

فزعموا أنهما بمعنى واحد، واستشهدوا بذلك على ما ادعوه من أن الشرعة هي المنهاج، فقال لهم المخالفون لهم (النأى) أعم من البعد، فإن النأى كل ما قل بعده أو كثر كأنه مثل المفارقة (والبعد) إنما يستعمل فيما كثرت مسافة مفارقته، وقد قال تعالى: ﴿وهم ينهونَ وينأونَ عنه﴾ [10] وهم مذمومون على مجانبته والتنحي عنه سواء كانوا قريبين أو بعيدين، وليس كلهم كان بعيداً عنه

---

(١) سورة الاحزاب الآية ٧.

(٢) سورة البقرة الآية ٩٨.

(٣) سورة الاحزاب الآية ٢٧.

(٤) سورة الاعلى الآيات (١ - ٤).

(٥) سورة البقرة الآيات (٣ - ٤).

(٦) المين: الكذب.

(٧) سورة المائدة الآية ٤٨.

(٨) فانه ركاكة لا تليق ببليغ الكلام.

(٩) النأي: اعم من البعد. عطفه عليه عطف خاص على عام.

(١٠) سورة الانعام الآية ٢٦.

لا سيما عند من يقول نزلت في أبي طالب، وقد قال النابغة:

والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد

والمراد به ما يحفر حول الخيمة لينزل فيه الماء ولا يدخل الخيمة أي كان لحوض فهو مجانب للخيمة ليس بعيداً منها.

لفظ الإيمان إذا أطلق في القرآن يرادف لفظ البر

فإذا تبين هذا فلفظ الإيمان إذا أطلق في القرآن والسنة يراد به ما يراد بلفظ البر، وبلفظ التقوى، وبلفظ الدين كما تقدم، فإن النبي ﷺ بين أن الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى[1] عن الطريق، فكان كل ما يحبه الله يدخل في اسم الإيمان. وكذلك لفظ البر يدخل فيه جميع ذلك إذا أطلق، وكذلك لفظ التقوى، وكذلك الدين أو دين الإسلام وكذلك روى أنهم سألوا عن الإيمان فأنزلْ الله هذه الآية ﴿ليسَ البر أنْ تولوا وجوهكم﴾[2] الآيات، وقد فسر البر بالإيمان وفسر بالعمل الذي يقرب إلى الله، والجميع حق. وقد روى مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه فسر البر بالإيمان.

قال محمد بن نصر حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا عبد الله بن يزيد المقري والملائي قالا حدثنا المسعودي عن القاسم قال جاء رجل إلى أبي ذر فسأله عن الإيمان فقرأ: ﴿ليسَ البر أنْ تولوا وجوهكم﴾ إلى آخر الآية. فقال الرجل ليس عن البر سألتك فقال جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني عنه فقرأ عليه الذي قرأت عليك فقال له الذي قلت لي: فلما أبى أن يرضى قال له «إن المؤمن الذي إذا عمل الحسنة سرته ورجا ثوابها، وإذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها».

وقال حدثنا إسحاق حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن عبد الكريم الجزري عن مجاهد أن أبا ذر سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقرأ عليه: ﴿ليسَ البر أنْ تولوا

---

(١) أي ازالته ورفعه. (٢) سورة البقرة الآية ١٧٧.

وجوهكم﴾ إلى آخر الآية، وروى بإسناده عن عكرمة قال سئل الحسن بن علي ابن أبي طالب مقبله من الشام[1] عن الإيمان فقرأ: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَل المشرقِ والمغربِ﴾ وروى ابن بطة بإسناده عن مبارك بن حسان قال قلت لسالم الأفطس: رجل أطاع الله فلم يعصه ورجل عصى الله فلم يطعه، فصار المطيع إلى الله فأدخله الجنة وصار العاصي إلى الله فأدخله النار، هل يتفاضلان في الإيمان[2]؟ قال لا. قال فذكرت ذلك لعطاء فقال سلهم الإيمان طيب أو خبيث؟ فإن الله قال: ﴿ليميز الله الخبيثَ من الطيب ويجعلَ الخبيثَ بعضهُ على بعضٍ فيركمهُ جميعاً فيجعلهُ في جهنمَّ أولئكَ هم الخاسرونَ﴾[3] فسألتهم فلم يجيبوني، فقال بعضهم إن الإيمان يبطن ليس معه عمل فذكرت ذلك لعطاء فقال سبحان الله[4] أما يقرؤن الآية التي في البقرة: ﴿ليسَ البر أنْ تولوا وجوهكم قبلَ المشرقِ والمغربِ ولكنَّ البر من آمنَ باللهِ واليومِ والآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيينَ﴾ قال ثم وصف الله على هذا الاسم ما لزمه من العمل فقال: ﴿وآتى المالَ علىٰ حبّهِ ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيلِ﴾ إلى قوله: ﴿وأولئكَ هم المتقونَ﴾ فقال سلهم هل دخل هذا العمل في هذا الاسم. وقال: ﴿ومن أرادَ الآخرةَ وسعىٰ لها سعيها وهو مؤمن﴾[5] فألزم الاسم العمل والعمل الاسم.

والمقصود هنا أنه لم يثبت المدح إلا على إيمان معه العمل لا على إيمان خال عن عمل، فإذا عرف أن الذم والعقاب واقع في ترك العمل كان بعد ذلك نزاعهم لا فائدة فيه بل يكون نزاعاً لفظياً مع أنهم مخطئون في اللفظ مخالفون للكتاب والسنة. وإن قالوا إنه لا يضره ترك العمل فهذا كفر صريح[6]،

---

(١) أي وقت إقباله منه «اسم زمان».

(٢) فان قال يتفاضلان فقد فارق مذهبه، وان قال لا يتفاضلان فلماذا ادخل هذا الجنة وادخل هذا النار.

(٣) سورة الانفال الآية ٣٧.

(٤) تعجب من قولهم هذا مع صريح الآية التي شرطت لبلوغ البر اقتران الايمان بالعمل.

(٥) سورة الاسراء الآية ١٩.

(٦) لانه تكذيب بما ورد من الوعيد الصريح على ترك الاعمال.

وبعض الناس يحكي هذا عنهم وأنهم يقولون إن الله فرض على العباد فرائض ولم يرد منهم أن يعملوها ولا يضرهم تركها، وهذا قد يكون قول الغالية[1] الذين يقولون لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد، لكن ما علمت معيناً أحكى عنه هذا القول، وإنما الناس يحكونه في الكتب ولا يعينون قائله، وقد يكون من لا خلاق له من الفساق والمنافقين يقولون لا يضر مع الإيمان ذنب أو مع التوحيد، وبعض كلام الرادين على المرجئة وصفهم بهذا، ويدل على ذلك قوله تعالى في آخر الآية: ﴿أولئكَ الَّذينَ صدقوا وأولئكَ هم المتقونَ﴾[2]. فقوله صدقوا أي في قولهم آمنا كقوله: ﴿قالت الأعرابُ آمنا قل لم تؤمنوا ولكنْ قُولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمانُ في قلوبكم﴾[3] إلى قوله: ﴿إنَّما المؤمنونَ الَّذينَ آمنوا باللهِ ورسولهِ ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيلِ اللهِ أولئكَ هم الصادقونَ﴾[4] أي هم الصادقون في قولهم آمنا بالله بخلاف الكاذبين الذين قال الله فيهم: ﴿إذا جاءكَ المنافقونَ قالوا نشهدُ إنَّكَ لرسول اللهِ، واللهُ يعلمُ إنَّكَ لرسولهُ، واللهُ يشهدُ إنَّ المنافقينَ لكاذبونَ﴾[5] وقال تعالى: ﴿ومن النَّاسِ من يقولُ آمنا باللهِ وباليومِ الآخرِ وما همْ بمؤمنينَ. يخادعونَ اللهَ والَّذينَ آمنوا وما يخدعونَ إلاَّ أنفسهم وما يشعرونَ. في قلوبهم مرضٌ فزادهم اللهُ مرضاً ولهم عذابٌ أليم بما كانوا يكذبونَ﴾[6] ويكذبون قراءتان مشهورتان فإنهم كذبوا في قولهم آمنا بالله واليوم الآخر وكذبوا الرسول في الباطن وإن صدقوه في الظاهر، وقال تعالى: ﴿ألم، أحسِبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهمْ لا يُفتنونَ. ولقد فتنا الَّذينَ من قبلهم فليعلمنَّ الله الَّذينَ صَدَقوا وليعلمنَّ الكاذبينَ﴾[7] فبين أنه لا بد أن يفتن الناس وأن يمتحنهم ويبتليهم ويختبرهم، يقال فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتميزه مما اختلط به ومنه قول موسى: ﴿إنْ هي إلاَّ فتنتكَ تُضل بها من تشاءُ وتهدي من تشاء﴾[8] أي محنتك وابتلاؤك كما ابتليت عبادك بالحسنات

---

(١) جمع غال، من الغلو وهو التطرف.
(٢) سورة البقرة الآية ١٧٧.
(٣) سورة الحجرات الآية ١٤.
(٤) سورة الحجرات الآية ١٥.
(٥) سورة المنافقون الآية ١.
(٦) سورة البقرة الآيات ٨ ـ ١٠).
(٧) سورة العنكبوت الآيات (١ ـ ٣).
(٨) سورة الاعراف الآية ١٥٤.

والسيئات ليتبين الصبار الشكور من غيره، وابتليتهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ليتبين المؤمن من الكافر فيجعل ذلك سبباً لضلالة قوم وهدى آخرين.

والقرآن فيه كثير من هذا يصف المؤمنين بالصدق، والمنافقين بالكذب، لأن الطائفتين قالت بألسنتهم آمنا، فمن حقق قوله بعمله[1] فهو مؤمن صادق ومن قال بلسانه ما ليس في قلبه فهو كاذب. قال تعالى: ﴿وما أصابكم يومَ التقى الجمعان فبإذنِ اللهِ وليعلمَ المؤمنينَ. وليعلمَ الَّذينَ نافقوا[2] وقيلَ لهم تعالوا قاتلوا في سبيلِ اللهِ أو ادفعوا[3]، قالوا لو نعلمُ قتالاً لاتبعناكم، هم للكفرِ يومئذٍ أقربُ منهمْ للإيمانِ ويقولونَ بأفواههم ما ليسَ في قُلوبِهم واللهُ أعلمُ بما يكتمون﴾[4] فلما قال في آية البر: ﴿أولئكَ الَّذينَ صدقوا وأولئكَ هم المتَّقونَ﴾[5] دل على أن المراد صدقوا في قولهم آمنا، فإن هذا هو القول الذي أمروا به وكانوا يقولونه ولم يؤمروا أن يلفظوا بألسنتهم ويقولوا نحن أبرار أو بررة، بل إذا قال الرجل أنا بر فهذا مزك لنفسه، ولهذا كانت زينب بنت جحش اسمها برة فقيل تزكي نفسها، فسماها النبي ﷺ زينب، بخلاف إنشاء الإيمان بقولهم آمنا فإن هذا قد فرض عليهم أن يقولوه، قال تعالى: ﴿قولوا آمنا باللهِ وما أُنزلَ إلينا وما أُنزلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباط وما أوتي موسىٰ وعيسىٰ وما أوتي النبيّونَ من ربّهم﴾[6] وكذلك في أول آل عمران: ﴿قلْ آمنا باللهِ وما أُنزل علينا وما أُنزل على إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباط وما أوتي موسىٰ وعيسىٰ والنبيّونَ من ربهم﴾[7] وقال تعالى: ﴿آمنَ الرَّسُول بما أُنْزِلَ إليهِ من ربّهِ والمؤمنونَ كلٌّ آمنَ باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ، لا نفرقُ بينَ أحدٍ منْ رُسله﴾[8] فقوله: ﴿لا نفرق﴾ دليل على أنهم قالوا آمنا

---

(١) أي كان عمله موافقاً لقوله.

(٢) أي لعلم ذلك واقعاً ليرتب عليه الجزاء المناسب فلا ينافي علمه السابق بان ذلك سيقع.

(٣) الذي قال لهم ذلك هو عبد الله بن حرام والد جابر.

(٤) سورة آل عمران الآيات (١٦٦ - ١٦٧).

(٥) سورة البقرة الآية ١٧٧.

(٦) سورة البقرة الآية ١٣٦.

(٧) سورة آل عمران الآية ٨٤.

(٨) سورة البقرة الآية ١٨٥.

ولا نفرق، ولهذا قال: ﴿وقالوا سَمِعْنَا وأطعنا﴾ فجمعوا بين قولهم آمنا وبين قولهم سمعنا وأطعنا، وقد قال في آية البر: ﴿وأولئكَ هم المتقون﴾ [1] فجعل الأبرار هم المتقين عند الإطلاق والتجريد. وقد ميز بينهما عند الاقتران والتقييد في قوله: ﴿وتعاونُوا على البرّ والتقوى﴾ [2] ودلت هذه الآية [3] على أن مسمى الإيمان ومسمى البر ومسمى التقوى عند الإطلاق واحد [4]، فالمؤمنون هم المتقون وهم الأبرار

ولهذا جاء في حديث الشفاعة الصحيح «يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان» وفي بعضها «مثقال ذرة من خير» وهذا مطابق لقوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقالَ ذرةٍ خيراً يرهُ. ومن يعمل مثقالَ ذرةٍ شراً يرهُ﴾ [5] وذلك الذي هو مثقال ذرة من خير هو مثقال ذرة من إيمان، وهؤلاء المؤمنون الأبرار الأتقياء هم أهل السعادة المطلقة، وهم أهل الجنة الذين وعدوا بدخولها بلا عذاب [6]، وهؤلاء الذين قال النبي ﷺ «من غشنا فليس منا، ومن حمل علينا السلاح فليس منا» فإنه ليس من هؤلاء بل من أهل الذنوب المعرضين للوعيد أسوة أمثالهم.

هذا النوع من نمط أسماء الله

وهذا النوع من نمط أسماء الله وأسماء كتابه وأسماء رسوله وأسماء دينه، قال الله تعالى: ﴿قل ادعوا اللهَ أو ادعوا الرحمنَ أيّاما تدعوا فلهُ الأسماءُ الحسنى﴾ [7] وقال تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ [8] وقال تعالى: ﴿هو اللهُ الّذي لا إلهَ إلاّ هو عالمُ الغيب والشهادةِ هو الرَّحمن الرحيم.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٧. (٢) سورة المائدة الآية ٢.

(٣) أي آية البر.

(٤) لانه عندما ذكر البر في أول الآية وعدد خصالها. قال في آخرها: (أولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون).

(٥) سورة الزلزلة الآيات (٧ - ٨).

(٦) فكل وعد بدخول الجنة انما هو لأهل الايمان المطلق المتناول لجميع خصال الايمان.

(٧) سورة الاسراء الآية ١١٠. (٨) سورة الأعراف الآية ١٧٩.

هو اللهُ الَّذي لا إلهَ إلاّ هوَ الملكُ القدّوسُ السلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ الجبارُ المتكبِّرُ سبحانَ اللهِ عما يُشرِكُونَ هو اللهُ الخالقُ الباريءُ المصوّرُ لهُ الأسماءُ الحسنىٰ يسبّحُ لهُ ما في السَّمواتِ والأرضِ وهوَ العزيزُ الحكيمُ﴾[1] فأسماؤه كلها متفقة في الدلالة على نفسه المقدسة[2]. ثم كل اسم يدل على معنى من صفاته، ليس هو المعنى الذي دل عليه الاسم الآخر، فالعزيز يدل على نفسه مع عزته، والخالق يدل على نفسه مع خلقه، والرحيم يدل على نفسه مع رحمته، ونفسه تستلزم جميع صفاته. فصار كل اسم يدل على ذاته والصفة المختصة به بطريق المطابقة، وعلى أحدهما بطريق التضمن، وعلى الصفة الأخرى بطريق اللزوم.

وهكذا أسماء كتابه القرآن والفرقان والكتاب والهدى والبيان والشفاء والنور ونحو ذلك هي بهذه المنزلة، وكذلك أسماء رسوله محمد وأحمد والماحي والحاشر والمقفى ونبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملحمة. كل اسم يدل على صفة من صفاته الممدوحة غير الصفة الأخرى؛ وهكذا ما يثنى[3] ذكره من القصص في القراءة كقصة موسى وغيرها ليس المقصود بها أن تكون سمراً، بل المقصود بها أن تكون عبراً كما قال تعالى: ﴿لقد كانَ في قصصهم عبرةٌ لأولي الألبابِ﴾[4] فالذي وقع شيء واحد له صفات فيعبر عنه بعبارات متنوعة كل عبارة تدل على صفة من الصفات التي يعتبر بها المعتبرون، وليس هذا من التكرير في شيء.

وهكذا أسماء دينه الذي أمر الله به ورسوله يسمى إيماناً وبراً وتقوى وخيراً وديناً وعملاً صالحاً وصراطاً مستقيماً ونحو ذلك[5]، وهو في نفسه واحد لكن كل اسم يدل على صفة ليست هي الصفة التي يدل عليها الآخر، وتكون تلك الصفة هي الأصل في اللفظ والباقي كان تابعاً لها ثم صارت دالة عليه

---

(١) سورة الحشر الآيات (٢٢ - ٢٤).

(٢) أي ان كل اسم منها متضمن للدلالة على الذات مع دلالته على الصفة التي هي مأخذ اشتقاقه.

(٣) أي يكرر. (٤) سورة يوسف الآية ١١١.

(٥) أي ان كل اسم منها عند الاطلاق يدل على الدين كله أصوله وفروعه.

بالتضمن[1] . فإن الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب ولا بد فيه من شيئين: تصديق بالقلب وإقراره ومعرفته[2] ويقال لهذا قول القلب قال الجنيد بن محمد: التوحيد قول القلب والتوكل عمل القلب، فلا بد فيه من قول القلب وعمله، ثم قول البدن وعمله، ولا بد فيه من عمل القلب مثل حب الله ورسوله وخشية الله وحب ما يحبه الله ورسوله، وبغض ما يبغضه الله ورسوله، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان.

ثم القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب».

وقال أبو هريرة: «القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده» وقول أبي هريرة تقريب. وقول النبي ﷺ أحسن بياناً، فإن الملك وإن كان صالحاً فالجند لهم اختيار قد يعصون به ملكهم وبالعكس فيكون فيهم صلاح مع فساده أو فساد مع صلاحه، بخلاف القلب فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط كما قال النبي ﷺ «إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد»[3] .

فإذا كان القلب صالحاً بما فيه من الإيمان علماً وعملاً قلبياً لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق كما قال أهل الحديث قول وعمل، قول باطن وظاهر، وعمل باطن وظاهر. والظاهر تابع للباطن لازم له متى صلح الباطن صلح الظاهر، وإذا فسد فسد، ولهذا قال من قال من الصحابة

---

(١) لانه أصبح جزءاً منها وداخلاً فيها.

(٢) بعضهم يجعل الاقرار داخلاً في التصديق لانه لا يسمىٰ مصدقاً إلا إذا أقر واذعن.

(٣) اخرجه

عن المصلي العابث: «لو خشع هذا لخشعت جوارحه»[١] فلا بد في إيمان القلب من حب الله ورسوله، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. قال الله تعالى: ﴿ومنَ النَّاس من يتخذ من دونِ اللهِ أنداداً يحبونهم كحبِّ اللهِ والَّذينَ آمنوا أشدُّ حباً للهِ﴾[٢] فوصف الذين آمنوا بأنهم أشد حباً لله من المشركين.

وفي الآية قولان: قيل يحبونهم كحب المؤمنين لله، والذين آمنوا أشد حباً منهم لأوثانهم، وقيل يحبونهم كما يحبون الله، والذين آمنوا أشد حباً لله منهم لله، وهذا هو الصواب، والأول قول متناقض وهو باطل، فإن المشركين لا يحبون الأنداد مثل محبة المؤمنين لله، وتستلزم الإرادة، والإرادة التامة مع القدرة تستلزم الفعل، فيمتنع أن يكون الإنسان محباً لله ورسوله مريداً لما يحبه الله ورسوله إرادة جازمة مع قدرته على ذلك وهو لا يفعله، فإذا لم يتكلم بالإيمان مع قدرته دل على أنه ليس في قلبه الإيمان الواجب الذي فرضه الله عليه[٣].

من هنا يظهر خطأ قول جهم في الإيمان

ومن هنا يظهر خطأ قول جهم بن صفوان ومن اتبعه حيث ظنوا أن الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه، لم يجعلوا أعمال القلب[٤] من الإيمان، وظنوا أنه قد يكون الإنسان مؤمناً كامل الإيمان بقلبه، وهو مع هذا يسب الله ورسوله ويعادي أولياء الله، ويوالي أعداء الله، ويقتل الأنبياء ويهدم المساجد، ويهين المصاحف، ويكرم الكفار غاية الكرامة، ويهين المؤمنين غاية الإهانة، قالوا وهذه كلها معاص لا تنافي الإيمان الذي في قلبه، بل يفعل هذا وهو في الباطن عند الله مؤمن، قالوا: وإنما ثبت له في الدنيا أحكام الكفار لأن هذه الأقوال

---

(١) رواه الترمذي مرفوعاً من حديث أبي هريرة.

(٢) سورة البقرة الآية ١٦٥.

(٣) وذلك لان التلفظ بالشهادة ركن من أركان الايمان.

(٤) محبة الله ورسوله. قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان: ان يحب الله ورسوله أكثر مما سواهما. وان يحب المرء لا يحبه إلا لله. وان يكره ان يعود إلى الكفر - بعد أن انقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار».

أمارة على الكفر ليحكم بالظاهر كما يحكم بالإقرار والشهود، وإن كان في الباطن قد يكون بخلاف ما أقر به وبخلاف ما شهد به الشهود، فإذا أورد عليهم الكتاب والسنة والإجماع على أن الواحد من هؤلاء كافر في نفس الأمر معذب في الآخرة، قالوا فهذا دليل على انتفاء التصديق والعلم من قلبه. فالكفر عندهم شيء واحد، وهو الجهل، والإيمان شيء واحد وهو العلم أو تكذيب القلب وتصديقه. فإنهم متنازعون هل تصديق القلب شيء غير العلم أو هو هو.

وهذا القول مع أنه أفسد قول قيل في الإيمان فقد ذهب إليه كثير من أهل الكلام المرجئة، وقد كفر السلف كوكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وأبي عبيد[1] وغيرهم من يقول بهذا القول، وقالوا إبليس كافر بنص القرآن وإنما كفره باستكباره وامتناعه عن السجود لآدم، لا لكونه كذب خبراً[2] وكذلك فرعون وقومه، قال الله تعالى فيهم: ﴿وَجَحَدُوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعُلواً﴾[3] وقال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾[4] بعد قوله: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات[5] فاسأل بني إسرائيلَ إذ جاءهم فقالَ لهُ فرعون إني لأظنكَ يا موسى مسحوراً. قالَ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا ربّ السمواتِ والأرض بصائر وإني لأظنكَ يا فرعون مثبوراً﴾[6] فموسى وهو الصادق المصدق يقول: ﴿لقد علمت ما أنزلَ هؤلاء إلاّ رب السمواتِ والأرض بصائر﴾[7] فدل على أن فرعون كان عالماً بأن الله أنزل الآيات وهو من أكبر خلق الله عناداً وبغياً لفساد إرادته وقصده لا لعدم علمه[8] قال تعالى: ﴿إن فرعونَ علا في الأرضِ

---

(١) هو القاسم بن سلام أحد أئمة السلف صاحب كتاب الاموال.

(٢) فانه لم ينسب اليه تكذيب في القرآن.

(٣) سورة النمل الآية ١٤. (٤) سورة الاسراء الآية ١٠٢.

(٥) المراد بها العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والرجز كما ذكر في سورة الاعراف.

(٦) سورة الاسراء الآيات (١٠١ - ١٠٢).

(٧) سورة الاسراء الآية ١٠٢.

(٨) فهو كاليهود كان كفرهم من جهة العناد والحسد والبغي فهو فساد.

وجعلَ أهلها شيعاً يستضعفُ طائفة منهم يذبّحُ أبناءهم ويستحيي نساءهم إنهُ كانَ من المفسدينَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾[2] وكذلك اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿الّذينَ آتيناهم الكتابَ يعرفونهُ كما يعرفونَ أبناءهم﴾[3] وكذلك من المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿فإنهم لا يكذبونكَ ولكنَّ الظالمينَ بآياتِ الله يجحدونَ﴾[4].

فهؤلاء غلطوا في أصلين (أحدهما) ظنهم أن الإيمان مجرد تصديق وعلم فقط، ليس معه عمل وحال وحركة وإرادة ومحبة، وخشية في القلب. وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقاً، فإن أعمال القلوب التي يسميها بعض الصوفية أحوالاً ومقامات أو منازل السائرين إلى الله أو مقامات العارفين أو غير ذلك كلها فيها مما فرضه الله ورسوله، فهو من الإيمان الواجب، وفيها ما أحبه ولم يفرضه، فهو من الإيمان المستحب. فالأول لا بد لكل مؤمن منه ومن اقتصر عليه فهو من الأبرار أصحاب اليمين، والثاني للمقربين السابقين، وذلك مثل حب الله ورسوله، بل أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، بل أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب إليه من أهله وماله، ومثل خشية الله وحده دون خشية المخلوقين، ورجاء لله وحده دون رجاء المخلوقين. والتوكل على الله وحده دون المخلوقين، والإنابة إليه مع خشيته كما قال تعالى: ﴿هذا ما توعدونَ لكلِّ أوابٍ[5] حفيظ. من خشي الرحمنَ بالغيبِ وجاءَ بقلبٍ منيب﴾[6] ومثل الحب في الله والبغض في الله والموالاة لله والمعاداة لله.

(والثاني) ظنهم أن كل من حكم الشارع بأنه كافر مخلد في النار، فإنما ذاك لأنه لم يكن في قلبه شيء من العلم والتصديق، وهذا أمر خالفوا به الحس والعقل والشرع[7]، وما أجمع عليه طوائف بني آدم السليمي الفطرة وجماهير النظار، فإن

---

(١) سورة القصص الآية ٤.
(٢) سورة النمل الآية ١٤.
(٣) سورة البقرة الآية ١٤٦.
(٤) سورة الانعام الآية ٣٣.
(٥) أي كثير الأوب والرجوع إلى الله.
(٦) سورة ق الآيات (٣٢ ـ ٣٣).
(٧) فقولهم هذا في غاية الجهل والضلال.

الإنسان قد يعرف أن الحق مع غيره ومع هذا يجحد ذلك لحسده إياه أو لطلب علوه عليه، أو لهوى النفس، ويحمله ذلك الهوى على أن يتعدى عليه ويرد ما يقول بكل طريق وهو في قلبه يعلم أن الحق معه، وعامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم وأنهم صادقون. لكن إما لحسدهم وإما لإرادتهم العلو والرياسة، وإما لحبهم دينهم الذي كانوا عليه وما يحصل لهم به من الأغراض كأموال ورياسة وصداقة أقوام وغير ذلك، فيرون في اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة إليهم أو حصول أمور مكروهة إليهم، فيكذبونهم ويعادونهم فيكونون من أكفر الناس كإبليس وفرعون مع علمهم بأنهم على الباطل والرسل على الحق، ولهذا لا يذكر الكفار حجة صحيحة تقدح في صدق الرسل إنما يعتمدون على مخالفة أهوائهم كقولهم لنوح: ﴿أنؤمنُ لكَ واتبعكَ الأرذلونَ﴾(1) ومعلوم أن اتباع الأرذلين له لا يقدح في صدقه: لكن كرهوا مشاركة أولئك كما طلب المشركون من النبي ﷺ إبعاد الضعفاء كسعد بن أبي وقاص(2) وابن مسعود وخباب بن الأرث وعمار بن ياسر وبلال ونحوهم، وكان ذلك بمكة قبل أن يكون في الصحابة أهل صفة(3)، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين. وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا، أليس اللهُ بأعلم بالشاكرينَ﴾(4).

ومثل قول فرعون: ﴿أنؤمنُ لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾(5) وقول فرعون: ﴿ألم نربكَ فينا وليداً ولبثت فينا من عمركَ سنينَ. وفعلت فعلتكَ التي فعلتَ وأنتَ من الكافرينَ﴾(6) ومثل قول مشركي العرب: ﴿إن نتبع الهدى

(1) سورة الشعراء الآية ١١١.

(2) كان سعد من قريش ولم يكن من الضعفاء.

(3) انشئت الصفة بالمدينة ليأوي اليها من ليس له أهل ولا دار من المهاجرين.

(4) سورة الانعام الآيات (٥٢ - ٥٣).

(5) سورة المؤمنون الآية ٢٣.

(6) سورة الشعراء الآيات (١٨ - ١٩).

معكَ نتخطف مِنْ أرضنا﴾[١] قال الله تعالى: ﴿أو لم نمكن لهم حَرماً آمناً يجبى إليهِ ثمرات كلِ شيءٍ رزقاً من لدنا﴾[٢] ومثل قول قوم شعيب لـه: ﴿أصلاتكَ تأمركَ أن نتركَ ما يعبدُ آباؤنا أو أنْ نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ ومثل قول عامة المشركين: ﴿إنا وجدنَا آباءنا علىٰ أمةٍ وإنا علىٰ آثارهم مقتدونَ﴾[٣].

وهذه الأمور وأمثالها ليست حججاً تقدح في صدق الرسل، بل تبين أنها تخالف إرادتهم وأهواءهم وعاداتهم، فلذلك لم يتبعوهم، وهؤلاء كلهم كفار، بل أبو طالب وغيره[٤] كانوا يحبون النبي ﷺ ويحبون علو كلمته وليس عندهم حسد له، وكانوا يعلمون صدقه، ولكن كانوا يعلمون في متابعته فراق دين آبائهم وذم قريش لهم[٥] فما احتملت نفوسهم ترك العادة واحتمال هذا الذم، فلم يتركوا الإيمان لعدم العلم بل لهوى النفس، فكيف يقال إن كل كافر إنما كفر لعدم علمه بالله.

ولم يكف الجهمية أن جعلوا كل كافر جاهلاً بالحق حتى قالوا هو لا يعرف أن الله موجود حق، والكفر عندهم ليس هو الجهل بأي حق كان بل الجهل بهذا الحق المعين، ونحن والناس كلهم يرون خلقاً من الكفار يعرفون في الباطن أن دين الإسلام حق، ويذكرون ما يمنعهم من الإيمان، إما معاداة أهلهم وإما مال يحصل من جهتهم يقطعونه عنهم[٦]. وإما خوفهم إذا آمنوا ألا يكون لهم حرمة عند المسلمين كحرمتهم في دينهم[٧]. وأمثال ذلك من أغراضهم التي

---

(١) سورة القصص الآية ٥٧. (٢) سورة القصص آية ٥٧.

(٣) سورة الزخرف الآية ٢٣. والمعنىٰ أنهم لم يكن لهم حجة في رد ما جاءت به الرسل إلا تقليدهم للأباء وجمودهم على ما ورثوه من العقائد الفاسدة.

(٤) أي من بني هاشم الاعمه أبا لهب.

(٥) وبهذا الموضوع روي عن أبي طالب انه قال: «لولا أن تعيرني بها قريش لاقررت بها عينك». أي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

(٦) كما هو حال النصارى في أيامنا هذه.

(٧) لا نهم ينعمون في دينهم بانواع من المراكز الاجتماعية التي يخشون فقدها.

يبينون أنها المانعة لهم من الايمان، مع علمهم بأن دين الإسلام حق، ودينهم باطل. وهذا موجود في جميع الأمور التي هي حق. يوجد من يعرف بقلبه أنها حق وهو في الظاهر يجحد ذلك. ويعادي أهله لظنه أن ذلك يجلب له منفعة ويدفع عنه مضرة. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهودَ والنصارى أولياءَ، بعضهم أولياءُ بعض ومن يتولهم منكم فإنَّهُ منهم إن اللهَ لا يهدي القومَ الظالمينَ. فترى الَّذينَ في قلوبهم مرض يسارعونَ فيهم يقولونَ نخشى أن تصيبنا دائرةٌ، فعسى الله أن يأتي بالفتحِ أو أمر من عندهِ فيصبحوا على ما أسرُّوا في أنفسهم نادمينَ. ويقول الَّذينَ آمنوا أهؤلاءِ الَّذينَ أقسموا باللهِ جهدَ أيمانهم إنهم لمعكم، حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرينَ﴾[1].

والمفسرون متفقون على أنها نزلت بسبب قوم ممن كان يظهر الإسلام وفي قلبه مرض، وخاف أن يغلب أهل الإسلام فيتوالى الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم للخوف الذي في قلوبهم، لا لاعتقادهم أن محمداً كاذب واليهود والنصارى صادقون، وأشهر النقول في ذلك أن عبادة بن الصامت قال: يا رسول الله إن لي موالي من اليهود وإني أبرأ إلى الله من ولاية يهود، فقال عبد الله بن أبي: لكني رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية يهود فنزلت هذه الآية.

والمرجئة الذين قالوا الإيمان تصديق القلب، وقول اللسان، والأعمال ليست منه كان منهم طائفة من فقهاء الكوفة وعبادها[2]، ولم يكن قولهم مثل قول جهم، فعرفوا أن الإنسان لا يكون مؤمناً إن لم يتكلم بالايمان مع قدرته عليه[3] وعرفوا أن إبليس وفرعون وغيرهما كفار مع تصديق قلوبهم لكنهم إذا لم يدخلوا أعمال القلوب في الإيمان لزمهم قول جهم، وإن أدخلوها في الإيمان لزمهم دخول أعمال الجوارح أيضاً فإنها لازمة لها. ولكن هؤلاء لهم حجج شرعية بسببها اشتبه الأمر عليهم، فإنهم رأوا أن الله قد فرق في كتابه بين الايمان

---

(١) سورة المائدة الآيات (٥٤ - ٥٧).

(٢) وقد نسب إلى الامام أبي حنيفة رحمه القول بالارجاء وهو بريء من هذا.

(٣) الايمان عندهم ركنان تصديق واقرار.

والعمل، فقال في غير موضع: ﴿إنَّ الَّذينَ آمنوا وعملوا الصالحات﴾[1] ورأوا أن الله خاطب الإنسان بالإيمان قبل وجود الأعمال فقال: ﴿يا أيّها الّذينَ آمنوا إذ قمتم إلى الصلاةِ فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق﴾[2] ﴿يا أيّها الّذينَ آمنوا إذا نُودي للصلاةِ من يومِ الجمعة﴾[3] وقالوا لو أن رجلاً آمن بالله ورسوله ضحوة[4] ومات قبل أن يجب عليه شيء من الأعمال مات مؤمناً وكان من أهل الجنة، فدل على أن الأعمال ليست من الإيمان. وقالوا نحن نسلم أن الايمان يزيد بمعنى أنه كان كلما أنزل الله آية وجب التصديق بها، فانضم هذا التصديق إلى التصديق الذي كان قبله، لكن بعد كمال ما أنزل الله ما بقي الايمان يتفاضل عندهم، بل إيمان الناس كلهم سواء: إيمان السابقين الأولين كأبي بكر وعمر، وإيمان أفجر الناس كالحجاج وأبي مسلم الخراساني[5] وغيرهما.

والمرجئة المتكلمون منهم والفقهاء منهم يقولون: إن الأعمال قد تسمى إيماناً مجازاً لأن العمل ثمرة الإيمان ومقتضاه، ولأنها دليل عليه، ويقولون قوله: «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» مجاز[6].

والمرجئة ثلاثة أصناف: الذين يقولون الإيمان مجرد ما في القلب، ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب وهم أكثر فرق المرجئة كما قد ذكر أبو الحسن الأشعري أقوالهم في كتابه، وذكر فرقاً كثيرة يطول ذكرهم لكن ذكرنا جل أقوالهم. ومنهم من لا يدخلها كجهم ومن اتبعه كالصالحي وهذا الذي نصره هو وأكثر أصحابه، والقول الثاني من يقول: هو مجرد قول اللسان، وهذا لا

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٧.
(٢) سورة المائدة الآية ٦.
(٣) سورة الجمعة الآية ٥.
(٤) أي وقت الضحى.
(٥) الحجاج سفاح بني أمية. وأبو مسلم سفاح بني العباس.
(٦) هذا قول قريب من الصواب.

يعرف لأحد قبل الكرامية[1] ، والثالث تصديق القلب وقول اللسان » وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم، وهؤلاء غلطوا من وجوه:

أحدها: ظنهم أن الإيمان الذي فرضه الله على العباد متماثل في حق العباد، وأن الإيمان الذي يجب على شخص يجب مثله على كل شخص، وليس الأمر كذلك[2] فإن أتباع الأنبياء المتقدمين أوجب الله عليهم من الإيمان ما لم يوجبه على أمة محمد، وأوجب على أمة محمد من الإيمان ما لم يوجبه على غيرهم، والإيمان الذي كان يجب قبل نزول جميع القرآن ليس هو مثل الإيمان الذي يجب بعد نزول القرآن، والإيمان الذي يجب على من عرف ما أخبر به الرسول مفصلاً ليس مثل الإيمان الذي يجب على من عرف ما أخبر به مجملاً، فإنه لا بد في الإيمان من تصديق الرسول في كل ما أخبر، لكن من صدق الرسول أو مات عقب ذلك لم يجب عليه من الإيمان غير ذلك، وأما من بلغه القرآن والأحاديث وما فيهما من الأخبار والأوامر المفصلة فيجب عليه من التصديق المفصل بخبر خبر وأمر أمر ما لا يجب على من لم يجب عليه إلا الإيمان المجمل لموته قبل أن يبلغه شيء آخر.

وأيضاً لو قدر أنه عاش فلا يجب على كل واحد من العامة أن يعرف كل ما أمر به الرسول وكل ما نهى عنه وكل ما أخبر به[3]، بل إنما عليه أن يعرف ما يجب عليه هو وما يحرم عليه، فمن لا مال له لا يجب أن يعرف أمره المفصل في الزكاة، ومن لا استطاعة له على الحج ليس عليه أن يعرف أمره المفصل بالمناسك، ومن لم يتزوج ليس عليه أن يعرف ما وجب للزوجة فصار يجب من الإيمان تصديقاً وعملاً على أشخاص ما لا يجب على آخرين[4].

وبهذا يظهر الجواب عن قولهم خوطبوا بالإيمان قبل الأعمال، فنقول: إن قلتم

---

(١) هذا قول فاسد لانه يلزم أن يكون المنافق مؤمناً لأنه مصدق بلسانه.

(٢) وذلك لأن حقيقة الايمان تختلف من شخص إلى آخر.

(٣) بل يكفيه الايمان الاجمالي.

(٤) إذ ان ما لم يجب العمل في حقه لا يجب العلم المتعلق به.

إنهم خوطبوا به قبل أن تجب تلك الأعمال فقبل وجوبها لم تكن من الإيمان، وكانوا مؤمنين الإيمان الواجب عليهم قبل أن يفرض عليهم ما خوطبوا بفرضه، فلما نزل إن لم يقروا بوجوبه لم يكونوا مؤمنين ولهذا قال تعالى: ﴿ولله على النَّاسِ حج البيتِ مَنْ استطاعَ إليهِ سبيلاً، ومن كفرَ فإنَّ اللهَ غنيٌّ عن العالمين﴾[1] ولهذا لم يجيء ذكر الحج في أكثر الأحاديث التي فيها ذكر الإسلام والإيمان كحديث وفد عبد القيس[2] وحديث الرجل النجدي الذي يقال له ضمام ابن ثعلبة وغيرهما، وإنما جاء ذكر الحج في حديث ابن عمر وجبريل، وذلك لأن الحج آخر ما فرض من الخمس[3]. فكان قبل فرضه لا يدخل في الإيمان والإسلام، فلما فرض أدخله النبي ﷺ في الإيمان إذا أفرد، وأدخله في الإسلام إذا قرن بالإيمان وإذا أفرد. وسنذكر إن شاء الله متى فرض.

وكذلك قولهم: من آمن ومات قبل وجوب العمل عليه مات مؤمناً، صحيح، لأنه أتى بالإيمان الواجب عليه والعمل لم يكن وجب عليه بعد، فهذا مما يجب أن يعرف فإنه تزول به شبهة حصلت للطائفتين.

فإذا قيل: الأعمال الواجبة من الإيمان، فالإيمان الواجب متنوع ليس شيئاً واحداً في حق جميع الناس.

وأهل السنة والحديث يقولون جميع الأعمال الحسنة واجبها ومستحبها من الإيمان، أي من الإيمان الكامل بالمستحبات. ليست من الإيمان الواجب، فيفرق بين الإيمان الواجب وبين الإيمان الكامل بالمستحبات كما يقول الفقهاء: الغسل ينقسم إلى مجزيء وكامل فالمجزيء ما أتى فيه بالواجبات فقط، والكامل ما أتى فيه بالمستحبات، ولفظ الكمال قد يراد به الكمال الواجب، وقد يراد به الكمال المستحب.

---

(١) سورة آل عمران الآية ٩٧.

(٢) لم يذكر الشهادتان وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وإعطاء الخمس من المغنم.

(٣) قيل فرض سنة ست، وقيل سنة تسع.

وأما قولهم إن الله فرق بين الإيمان والعمل في مواضع فهذا صحيح وقد بينا أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها، وقد يقرن به الأعمال، وذكرنا نظائر ذلك كثيرة، وذلك لأن أصل الإيمان هو ما في القلب[1]، والأعمال الظاهرة لازمة لذلك[2]، لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح، بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذي في القلب فصار الإيمان متناولاً للملزوم واللازم وإن كان أصله ما في القلب، وحيث عطفت عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفي بإيمان القلب بل لا بد مع من الأعمال الصالحة.

ثم للناس في مثل هذا قولان: منهم من يقول المعطوف دخل في المعطوف عليه أولاً، ثم ذكر باسمه الخاص تخصيصاً له، لئلا يظن أنه لم يدخل في الأول، وقالوا هذا في كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله: ﴿مَنْ كانَ عدواً للهِ وملائكتهِ ورسلهِ وجبريلَ وميكالَ﴾[3] وقوله: ﴿وإذ أخذنا من النبيينَ ميثاقهم ومنكَ ومِنْ نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ بن مريم﴾ وقوله: ﴿والَّذينَ آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزلَ علىٰ محمد وهوَ الحقّ من ربهم﴾[4] فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله: ﴿والَّذينَ آمنوا﴾ وهذه نزلت في الصحابة وغيرهم من المؤمنين. وقوله: ﴿حافظوا على الصلواتِ والصلاةِ الوسطى﴾[5] وقوله: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا اللهَ مخلصينَ لهُ الدّينَ حنفاءَ ويُقيموا الصلاةَ ويُؤتوا الزكاةَ﴾[6] والصلاة والزكاة من العبادة، فقوله، ﴿آمنوا وعملوا الصالحات﴾ كقوله: ﴿وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصينَ لهُ الدّينَ حنفاء﴾[7]

---

(١) فتبقىٰ حقيقة الايمان بانتفائه.

(٢) فلا تزول حقيقة الايمان بتركها بل ينقص الايمان فقط.

(٣) سورة البقرة الآية ٩٨. (٤) سورة محمد الآية ٢.

(٥) سورة البقرة الآية ٢٣٨ والصلاة الوسطىٰ هي صلاة العصر. وقيل غير ذلك.

(٦) سورة البينة الآية ٥.

(٧) حنفاء: جمع حنيف وهو المائل عن الدين الباطل إلى الدين القيم.

﴿ويقيموا الصلاةَ ويُوتوا الزكاةَ﴾ فإنه قصد أولاً أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره، ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان، فلا يكتفي بمطلق العبادة الخاصة دونهما. وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذي لا بد منه، ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضاً من تمام الدين لا بد منه، فلا يظن الظان اكتفاء، بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح، وكذلك قوله: ﴿ألم، ذلك الكتابُ لا ريبَ فيهِ هدىً للمتقينَ الَّذينَ يُؤمنونَ بالغيبِ ويقيمونَ الصلاة ومما رزقناهم ينفقونَ والَّذينَ يؤمنونَ بما أُنزلَ اليكَ وما أُنزلَ قبلكَ وبالآخرةِ هم يوقنونَ. أولئكَ على هدىً مِنْ ربّهم وأولئكَ هم المفلحون﴾[1] وقد قيل هؤلاء هم أهل الكتاب الذين آمنوا بما أنزل عليه وما أنزل على من قبله كابن سلام ونحوه، وإن هؤلاء نوع غير النوع المتقدم الذين يؤمنون بالغيب، وقد قيل هؤلاء جميع المتقدمين الذين آمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله، وهؤلاء هم الذين يؤمنون بالغيب وهم صنف واحد، وإنما عطفوا لتغاير الصفتين[2] كقوله: ﴿سبّح اسم ربكَ الأعلى[3] الَّذي خلقَ فسوى. والَّذي قدَّرَ فهدى. والَّذي أخرجَ المرعى. فجعلهُ غثاءً أحوى﴾[4] فهو سبحانه واحد وعطف بعض صفاته على بعض، وكذلك قوله: ﴿والصلاة الوسطى﴾ وهي صلاة العصر.

والصفات إذا كانت معارف كانت للتوضيح وتضمنت المدح أو الذم. تقول هذا الرجل هو الذي فعل كذا وهو الذي فعل كذا وهو الذي فعل كذا تعدد محاسنه، ولهذا مع الاتباع قد يعطفونها وينصبون أو يرفعون، وهذا القول هو الصواب. فإن المؤمنين بالغيب إن لم يؤمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله لم يكونوا على هدى من ربهم ولا مفلحين ولا متقين، وكذلك الذين آمنوا بما أنزل إليه ما أنزل من قبله إن لم يكونوا من الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة

---

(١) سورة البقرة الآيات (١ ـ ٥).

(٢) وهذا هو الصحيح. (٣) أي قل سبحان الله.

(٤) سورة الاعلى الآيات (١ ـ ٥). وقال ابن عباس: هشيماً: متغيراً.

ومما رزقهم الله ينفقون، لم يكونوا على هدى من ربهم ولم يكونوا مفلحين ولم يكونوا متقين، فدل على أن الجميع صفة المهتدين المتقين الذين اهتدوا بالكتاب المنزل إلى محمد، فقد عطفت هذه الصفة على تلك مع أنها داخلة فيها[(١)] لكن المقصود صفة إيمانهم وأنهم يؤمنون بجميع ما أنزل الله على أنبيائه لا يفرقون بين أحد منهم وإلا فإذا لم يذكروا إلا الإيمان بالغيب فقد يقول من يؤمن ببعض ويكفر ببعض نحن نؤمن بالغيب[(٢)].

ولما كانت سورة البقرة سنام القرآن، ويقال إنها أول سورة نزلت بالمدينة، افتتحها الله بأربع آيات في صفة المؤمنين وآيتين في صفة الكافرين وبضع عشرة آية في صفة المنافقين، فإنه من حين هاجر النبي ﷺ صار الناس ثلاثة أصناف: إما مؤمن، وإما كافر مظهر للكفر، وإما منافق بخلاف ما كانوا بمكة فإنه لم يكن هناك منافق، ولهذا قال أحمد بن حنبل وغيره: لم يكن من المهاجرين منافق، وإنما كان النفاق في قبائل الأنصار، فإن مكة كانت الكفار مستولين عليها فلا يؤمن ويهاجر إلا من هو مؤمن، ليس هناك داع يدعو إلى النفاق، والمدينة من بها أهل الشوكة فصار للمؤمنين بها عز ومنعة بالأنصار فمن لم يظهر الإيمان آذوه؛ فاحتاج المنافقون إلى إظهار الإيمان مع أن قلوبهم لم تؤمن، والله تعالى افتتح البقرة ووسط البقرة وختم البقرة بالإيمان بجميع ما جاءت به الأنبياء فقال في أولها ما تقدم وقال في وسطها: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق﴾[(٣)] الآية. وقال في آخرها: ﴿آمنَ الرسول بما أُنزلَ إليهِ من ربّهِ والمؤمنونَ كلٌّ آمنَ باللهِ وملائكتهِ

(١) عطف خاص على عام.

(٢) في هذا بيان للحكمة في عدم الاكتفاء بذكر الايمان بالغيب مع شموله للايمان بما انزل اليه وما انزل من قبله.

(٣) سورة البقرة الآيات (١٣٦ - ١٣٧).

وكتبهِ ورُسلهِ، لا نفرقُ بينَ أحدٍ مِنْ رُسلهِ وقالوا سمعنَا وأطعنَا غُفرانكَ ربنا وإليكَ المصير﴾ والآية الأخرى.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال «الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلة كفتاه» والآية الوسطى قد ثبت في الصحيح أنه كان يقرأ بها في ركعتي الفجر وبـ: ﴿قلْ يا أهلَ الكتابِ تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم﴾[1] الآية تارة وبـ: ﴿قلْ يا أيّها الكافرونَ وقل هوَ اللهُ أحد﴾ فيقرأ بما فيه ذكر الإيمان والإسلام، أو بما فيه ذكر التوحيد والإخلاص.

فعلى قول هؤلاء يقال: الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت في الإيمان، وعطفت عليه عطف الخاص على العام، إما لذكره خصوصاً بعد عموم، وإما لكونه إذا عطف كان دليلاً على أنه لم يدخل في العام، وقيل بل الأعمال في الأصل ليست من الإيمان، فإن أصل الإيمان هو ما في القلب ولكن هي لازمة له، فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفياً لأن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم[2]، لكن صارت يعرف الشارع داخلة في اسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم في كلام النبي ﷺ، فإذا عطفت عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد. فكان ذكرها تخصيصاً وتنصيصاً ليعلم أن الثواب الموعود به في الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحاً، لا يكون لمن ادعى الإيمان ولم يعمل، وقد بين سبحانه في غير موضع أن الصادق في قوله آمنت لا بد أن يقوم بالواجب[3]، وحصر الإيمان في هؤلاء يدل على انتفائه عمن سواهم[4].

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦٤.

(٢) هذا في اللازم الذي لا يجوز تخلفه عن الملزوم فيستدل بانتفائه على انتفاء الملزوم. ويبدو ان الاعمال مع الايمان ليست كذلك، وإلا لحكم بالكفر على من ترك فرضاً أو ارتكب محرماً.

(٣) لأن العمل دليل على صحة الايمان.

(٤) المنتفيْ هو الايمان المطلق الموجب للوعد لا مطلق الايمان.

وللجهمية هنا سؤال ذكره أبو الحسن في كتاب المرجز وهو أن القرآن نفى الإيمان عن غير هؤلاء كقوله: ﴿إنّما المؤمنونَ الّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وجلت قلوبهم﴾[1] ولم يقل إن هذه الأعمال من الإيمان، قالوا فنحن نقول من لم يعمل هذه الأعمال لم يكن مؤمناً لأن انتفاءها دليل على انتفاء العلم من قلبه.

والجواب عن هذا من وجوه (أحدها) أنكم سلمتم أن هذه الأعمال لازمة لإيمان القلب، فإذا انتفت لم يبق في القب إيمان، وهذا هو المطلوب، وبعد هذا فكونها لازمة أو جزاءاً نزاع لفظي (الثاني) أن نصوصاً صرحت بأنها جزء كقوله «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة»[2]، (الثالث) أنكم إن قلتم بأن من انتفى عنه هذه الأمور فهو كافر حال من كل إيمان كان قولكم قول الخوارج، وأنتم في طرف، والخوارج في طرف، فكيف توافقونهم، ومن هذه الأمور إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج والجهاد والإجابة إلى حكم الله ورسوله وغير ذلك مما لا تكفرون تاركه، وإن كفرتموه كان قولكم قول الخوارج.

(الرابع) أن قول القائل إن انتفاء بعض هذه الأعمال يستلزم ألا يكون في قلب الإنسان شيء من التصديق بأن الرب حق، قول يعلم فساده بالاضطرار.

(الخامس) أن هذا إذا ثبت في هذه ثبت في الواجبات فيرتفع النزاع المعنوي.

الوجه الثاني من غلط المرجئة

الوجه الثاني من غلط المرجئة ظنهم أن ما في القلب من الإيمان ليس إلا التصديق فقط دون أعمال القلوب كما تقدم عن جهمية المرجئة (الثالث) ظنهم أن الإيمان الذي في القلب يكون تاماً بدون شيء من الأعمال، ولهذا يجعلون

---

(١) سورة الانفال الآية ٢.

(٢) هي جزء من الايمان المطلق ولازمة للتصديق.

الأعمال ثمرة الإيمان ومقتضاه بمنزلة السبب مع المسبب، ولا يجعلونها لازمة له والتحقيق أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة، ويمتنع أن يقوم بالقلب إيمان تام بدون عمل ظاهر[1]، ولهذا صاروا يقدرون مسائل يمتنع وقوعها لعدم تحقيق الارتباط الذي بين البدن والقلب، مثل أن يقولوا رجل في قلبه من الإيمان مثل ما في قلب ابي بكر وعمر وهو لا يسجد لله سجدة، ولا يصوم رمضان، ويزني بأمه وأخته ويشرب الخمر نهار رمضان، يقولون هذا مؤمن تام الايمان، فيبقى سائر المؤمنين ينكرون ذلك غاية الإنكار.

قال أحمد بن حنبل حدثنا خلف بن حيان معقل بن عبيد الله العنسي قال: قدم علينا سالم الأفطس بالإرجاء، فنفر منه أصحابنا نفوراً شديداً منهم ميمون ابن مهران وعبد الكريم بن مالك، فإنه عاهد الله ألا يؤويه وإياه سقف بيت إلا المسجد، قال معقل فحججت فدخلت على عطاء بن أبي رباح في نفر من أصحابي وهو يقرأ: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا﴾[2] قلت إن لنا حاجة فأخلنا[3] ففعل: فأخبرته أن قوماً قبلنا قد احدثوا وتكلموا وقالوا إن الصلاة والزكاة ليسا من الدين، فقال أو ليس الله تعالى يقول: ﴿وما أمِرُوا إلا ليعبدُوا اللهَ مخلصينَ لهُ الدِّين حنفاءَ ويُقيموا الصلاةَ ويُؤتوا الزكاةَ وذلكَ دينُ القيّمة﴾[4] فالصلاة والزكاة من الدين، قال فقلت إنهم يقولون ليس في الإيمان زيادة، فقال: أو ليس قد قال الله فيما أنزل: ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾ هذا الإيمان، فقلت إنهم انتحلوك وبلغني أن ابن ذر دخل عليك في أصحاب له فعرضوا عليك قولهم فقبلته فقلت هذا الأمر، فقال: لا والله الذي لا إله إلا هو. مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: قدمت المدينة فجلست إلى نافع فقلت يا أبا عبد الله إن لي إليك حاجة. فقال: سر أم علانية؟ فقلت: لا بل سر، قال رب سر

---

(١) هذا مذهب من يقول العلم الصحيح يوجب العمل بمقتضاه.

(٢) سورة يوسف الآية ١١٠. (٣) أي انفرد بنا.

(٤) سورة البينة الآية ٥.

لا خير فيه، فقلت: لبس من ذلك، فلما صلينا العصر قام وأخذ بثوبي ثم خرج من الخوخة ولم ينتظر القاص، فقال حاجتك، قال فقلت أخلني هذا، فقال: تنح، قال فذكرت له قولهم فقال قال رسول الله ﷺ «أمرت أن أضربهم بالسيف حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»، قال قلت إنهم يقولون نحن نقر بأن الصلاة فرض ولا نصلي، وبأن الخمر حرام ونشربها، وأن نكاح الأمهات حرام ونحن ننكح؛ فنثر يده من يدي وقال: من فعل هذا فهو كافر.

قال معقل: فرأيت الزهري فأخبرته بقولهم فقال: سبحان الله، وقد أخذ الناس في هذه الخصومات ، قال رسول الله ﷺ «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» قال معقل: فلقيت الحكم ابن عتبة فقلت له إن عبد الكريم وميمونا بلغهما أنه دخل عليك ناس من المرجئة فعرضوا قولهم عليك فقبلت قولهم، قال فقيل ذلك على ميمون وعبد الكريم، لقد دخل علي اثنا عشر رجلاً وأنا مريض فقالوا يا أبا محمد بلغك أن رسول الله ﷺ أتاه رجل بأمة سوداء أو حبشية فقال يا رسول الله علي رقبة مؤمنة أفترى هذه مؤمنة؟ فقال لها رسول الله ﷺ «أتشهدين أن لا إله إلا الله»؟ فقالت نعم. قال: وتشهدين أن محمداً رسول الله؟ قالت نعم. قال وتشهدين: أن الجنة حق والنار حق؟ قالت نعم. قال: وتشهدين أن الله يبعثك من بعد الموت؟ قالت نعم. قال فاعتقها فإنها مؤمنة. فخرجوا وهم ينتحلون ذلك.

قال معقل: ثم جلست إلى ميمون بن مهران فقلت يا أبا أيوب لو قرأت لنا سورة ففسرتها، قال فقرأ: ﴿إذا الشمسُ كُورت﴾[1] حتى إذا بلغ: ﴿مُطاعٍ ثَمَّ أمين﴾[2] قال ذاكم جبريل، والخيبة لمن يقول إن إيمانه كإيمان جبريل، ورواه حنبل عن أحمد، ورواه أيضاً عن أبي مليكة قال: لقد أتى علي برهة من الدهر

---

(١) سورة التكوير الآية ١ . (٢) سورة التكوير الآية ٢١ .

وما أراني أدرك قوماً يقول أحدهم إني مؤمن مستكمل الإيمان، ثم ما رضى حتى قال إيماني على إيمان جبريل وميكائيل، وما زال بهم الشيطان حتى قال أحدهم إني مؤمن وإن نكح أخته وأمه وبنته؛ والله لقد أدركت كذا وكذا من أصحاب النبي ﷺ ما مات أحد منهم إلا وهو يخشى النفاق على نفسه، وقد ذكر هذا المعنى عنه البخاري في صحيحه قال: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، وما منهم أحد يقول إيمانه كإيمان جبريل.

وروى البغوي عن عبد الله بن محمد عن ابن مجاهد قال: كنت عند عطاء بن أبي رباح فجاء ابنه يعقوب فقال يا أبتاه إن أصحاباً يزعمون أن إيمانهم كإيمان جبريل، فقال يا بني ليس إيمان من أطاع الله كإيمان من عصى الله.

(قلت) قوله عن المرجئة إنهم يقولون إن الصلاة والزكاة ليستا من الدين، قد يكون قول بعضهم فانهم كلهم يقولون ليستا من الإيمان.

وأما من الدين فقد حكى عن بعضهم أنه يقول ليستا من الدين، ولا نفرق بين الايمان والدين[1]، ومنهم من يقول بل هما من الدين ويفرق بين اسم الإيمان واسم الدين، وهذا هو المعروف من أقوالهم التي يقولونها عن أنفسهم، ولم أر أنا في كتاب أحد منهم أنه قال الأعمال ليست من الدين[2]، بل يقولون ليست من الإيمان.

وكذلك حكى أبو عبيد عمن ناظره منهم، فإن أبا عبيد وغيره يحتجون بأن الأعمال من الدين، فذكر قوله: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم﴾[3] .أنها نزلت في حجة الوداع. قال أبو عبيد فأخبر أنه إنما كمل الدين الآن في آخر الاسلام في حجة النبي ﷺ، وزعم هؤلاء أنه كان كاملاً قبل ذلك بعشرين سنة من أول ما

---

(١) لا شك ان هذا الفريق قد كفر بهذه المقالة لانه انكر امراً معلوماً من الدين بالضرورة.

(٢) هذا القول مجازفة ولا يعقل أن يصدر عن مسلم.

(٣) سورة المائدة الآية ٣.

نزل عليه الوحي بمكة حين دعا الناس إلى الاقرار، حتى قال لقد اضطر بعضهم حين أدخلت عليه هذه الحجة إلى أن قال إن الإيمان ليس بجميع الدين، ولكن الدين ثلاثة أجزاء الايمان جزء، والفرائض جزء. والنوافل جزء[1].

(قلت) هذا الذي قاله هذا هو مذهب القوم، قال أبو عبيد: وهذا غير ما نطق به الكتاب، ألا تسمع إلى قوله: ﴿إنَّ الدّينَ عندَ اللهِ الاسلام﴾[2] وقال: ﴿ومن يبتغِ غيرَ الاسلامِ ديناً فلنْ يُقبل منهُ﴾[3] وقال: ﴿ورضيتُ لكم الاسلامَ ديناً﴾[4] فأخبر أن الاسلام هو الدين برمته؛ وزعم هؤلاء أنه ثلث الدين.

(قلت) إنما قالوا إن الإيمان ثلث ولم يقولوا إن الإيمان ثلث الدين لكنهم فرقوا بين مسمى الإيمان ومسمى الدين، وسنذكر إن شاء الله تعالى الكلام في مسمى هذا ومسمى هذا، فقد يحكى عن بعضهم أنه يقول ليستا من الدين ولا يفرق بين اسم الإيمان والدين، ويفرق بين اسم الإيمان واسم الدين. والشافعي رضي الله عنه كان معظماً لعطاء بن أبي رباح ويقول ليس في التابعين أتبع للحديث منه. وكذلك أبو حنيفة قال ما رأيت مثل عطاء وقد أخذ الشافعي هذه الحجة عن عطاء فروى ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي حدثنا أبي حدثنا ميمون حدثنا أبو عثمان بن الشافعي سمعت أبي يقول ليلة للحميدي ما يحتج عليهم يعني أهل الإرجاء بآية أحج من قوله: ﴿وما أُمِرُوا إلا ليعبدُوا اللهَ مخصلينَ لهُ الدّينَ حنفاءَ ويقيمُوا الصلاةَ ويُؤتوا الزكاةَ وذلكَ دينُ القيّمة﴾[5].

وقال الشافعي رضي الله عنه في كتاب الأم في باب النية في الصلاة يحتج بأن لا يجزىء صلاة إلا بنية بحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ

---

(١) هذا دليل على اعتراف من هذا القائل بدخول الاعمال في الدين.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٩.

(٣) سورة آل عمران الآية ٨٥. (٤) سورة المائدة الآية ٣.

(٥) سورة البينة الآية ٥.

إنما الأعمال بالنيات ثم قال: وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون: الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزىء واحد من الثلاث إلا بالآخر.

وقال حنبل: حدثنا الحميدي قال وأخبرت أن ناساً يقولون، من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج ولم يفعل من ذلك شيئاً حتى يموت، ويصلي مستدبر القبلة حتى يموت، فهو مؤمن ما لم يكن جاحداً إذا علم أن تركه ذلك فيه إيمانه إذا كان مقراً بالفرائض واستقبال القبلة، فقلت هذا الكفر الصرلح[1] وخلاف كتاب الله وسنة رسوله وعلماء المسلمين، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إلا ليعبدوا اللهَ مخلصينَ له الدّين﴾ الآية، وقال حنبل سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول: من قال هذا فقد كفر بالله ورد على الله أمره وعلى الرسول ما جاء به[2].

قلت: وأما احتجاجهم بقوله للأمة «اعتقها فإنها مؤمنة» فهو من حججهم المشهورة وبه احتج ابن كلاب وكان يقول الإيمان هو التصديق والقول جميعاً فكان قوله أقرب من قول جهم وأتباعه، وهذا لا حجة فيه لأن الإيمان الظاهر الذي تجري عليه الأحكام في الدنيا لا يستلزم الإيمان في الباطن الذي يكون صاحبه من أهل السعادة في الآخرة، فإن المنافقين الذين قالوا: ﴿آمنا باللهِ وباليومِ الآخرِ وما هم بمؤمنين﴾[3] هم في الظاهر مؤمنون، يصلون مع الناس ويصومون ويحجون ويغزون، والمسلمون يناكحونهم ويوارثونهم كما كان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ، ولم يحكم النبي ﷺ في المنافقين بحكم الكفار المظهرين للكفر، لا في مناكحتهم ولا موارثتهم ولا نحو ذلك، بل لما مات عبد الله بن أبي بن سلول ـ وهو من أشهر الناس بالنفاق ـ ورثه ابنه عبد

---

(١) يعني الصريح الواضح.

(٢) ان ترك الفرائض استخفافاً بها وارتكاب المحرمات مع اعتقاد عدم ضررها هو محادة لله ورسوله، ففاعل ذلك كافر بيقين.

(٣) سورة البقرة الآية ٨.

الله وهو من خيار المؤمنين، وكذلك سائر من كان يموت منهم يرثه ورثته المؤمنون، وإذا مات لأحدهم وارث ورثوه مع المسلمين.

وقد تنازع الفقهاء في المنافق الزنديق الذي يكتم زندقته هل يرث ويورث؟ على قولين، والصحيح أنه يرث ويورث وإن علم في الباطن أنه منافق كما كان الصحابة على عهد النبي ﷺ، لأن الميراث مبناه على الموالاة الظاهرة لا على المحبة التي في القلوب، فإنه لو علق بذلك لم تمكن معرفته، والحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها وهو ما أظهره من موالاة المسلمين، فقول النبي ﷺ «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم» لم يدخل فيه المنافقون وإن كانوا في الآخرة في الدرك الأسفل من النار، بل كانوا يورثون ويرثون، وكذلك كانوا في الحقوق والحدود كسائر المسلمين، وقد أخبر الله عنهم أنهم يصلون ويزكون، ومع هذا لم يقبل ذلك منهم فقال: ﴿وما منعهم أن تُقبل منهم نفقاتهم إلاّ أنَّهم كفروا باللهِ وبرسولهِ ولا يأتونَ الصلاةَ إلاّ وهم كُسالىٰ ولا ينفقونَ إلا وهم كارهون﴾[1] وقال: ﴿إنَّ المنافقينَ يخادِعُونَ اللهَ وهوَ خادِعُهمْ وإذا قَامُوا إلىٰ الصلاةِ قاموا كُسالىٰ يراءُونَ الناس ولا يذكرونَ اللهَ إلاّ قليلاً﴾[2].

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان[3] قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلا» وكانوا يخرجون مع النبي ﷺ في المغازي، كما خرج ابن أبي في غزوة بني المصطلق[4] وقال فيها: ﴿لئن رجعنا إلىٰ المدينةِ ليخرجنَّ الأعزُّ مِنْها الأذل﴾[5] وفي الصحيحين عن زيد بن أرقم قال:

(١) سورة التوبة الآية ٥٤ . (٢) سورة النساء الآية ١٤١ .

(٣) أي اصفرت ودنت للغروب.

(٤) وكانت تسمىٰ غزوة المريسيع وفيها حصلت حادثة الافك.

(٥) سورة المنافقون الآية ٨ .

خرجنا مع النبي ﷺ في سفر أصاب الناس فيها شدة، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله فاجتهد يمينه ما فعل، وقالوا: كذب زيد يا رسول الله، فوقع في نفسي مما قالوا شدة حتى أنزل الله تصديقي في: ﴿إذا جاءك المنافقون﴾ فدعاهم النبي ﷺ ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم[1] وفي غزوة تبوك استنفرهم[2] النبي ﷺ كما استنفر غيرهم، فخرج بعضهم معه[3]، وبعضهم تخلفوا[4] وكان في الذين خرجوا معه من هم بقتله في الطريق[5]، هموا بحل حزام ناقته ليقع في واد هناك فجاءه الوحي، فأسر إلى حذيفة أسماءهم، ولذلك يقال هو صاحب السر الذي لا يعلمه غيره كما ثبت ذلك في الصحيح، ومع هذا ففي الظاهر تجرى عليهم أحكام أهل الإيمان.

النفاق شعب كثيرة

وبهذا يظهر الجواب عن شبهات كثيرة تورد في هذا المقام، فإن كثيراً من المتأخرين ما بقي في المظهرين للإسلام عندهم إلا عدل أو فاسق، وأعرضوا عن حكم المنافقين والمنافقون ما زالوا ولا يزالون إلى يوم القيامة، والنفاق شعب كثيرة، وقد كان الصحابة يخافون النفاق على أنفسهم[6]، ففي الصحيحين عن النبي ﷺ قال «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان» وفي لفظ لمسلم «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه شعبة منهم كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

---

(١) أي اعرضوا مستكبرين.

(٢) أي دعاهم للخروج للغزو.

(٣) بقصد الافساد واحداث الفتن.

(٤) مثل الجد بن قيس.

(٥) قال تعالى: (وهموا بما لم ينالوا).

(٦) أي ألا يكون عملهم مطابقاً لدعوى الايمان.

وكان النبي ﷺ أولاً يصلي عليهم ويستغفر لهم حتى نهاه الله عن ذلك فقال: ﴿ولا تُصلِّ على أحدٍ منهم ماتَ أبداً ولا تقم على قبره﴾[1] وقال: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إنْ تستغفر لهم سبعينَ مرة فلنْ يغفرَ الله لهم﴾[2] فلم يكن يصلي عليهم ولا يستغفر لهم، ولكن دماؤهم وأموالهم معصومة[3] لا يستحل منهم ما يستحله من الكفار الذين لا يظهرون أنهم مؤمنون بل يظهرون الكفر دون الإيمان فإنه ﷺ قال «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» ولما قال لأسامة بن زيد «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ قال إنما قالها تعوذاً. قال «هلا شققت عن قلبه؟» وقال «إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم» وكان إذا استؤذن في قتل رجل يقول: أليس يتشهد؟ فإذا قيل له إنه منافق، قال ذاك، فكان ﷺ حكمه في دمائهم وأموالهم كحكمه في دماء غيرهم لا يستحل منها شيئاً إلا بأمر ظاهر، مع أنه كان يعلم نفاق كثير منهم، وفيهم من لم يكن يعلم نفاقه قال تعالى: ﴿وممن حولكم من الأعرابِ منافقونَ ومنْ أهلِ المدينةِ مردُوا على النفاقِ لا تعلمهم نحنُ نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذابٍ عظيم﴾[4] وكان من مات منهم صلى عليه المسلمون الذين لا يعلمون أنه منافق ومن علم أنه منافق لم يصل عليه. وكان عمر إذا مات ميت لم يصل عليه حتى يصلي عليه حذيفة[5]، لأن حذيفة كان قد علم أعيانهم. وقد قال الله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنَّ[6] اللهُ أعلمُ بإيمانهنَّ فإن علمتموهنَّ مؤمنات فلا ترجعوهنَّ إلى الكفّار﴾[7] فأمر بامتحانهن هنا وقال: ﴿اللهُ أعلم بإيمانهن﴾.

والله تعالى لما أمر في الكفارة بعتق رقبة مؤمنة لم يكن على الناس لا يعتقوا

(١) سورة التوبة الآية ٨٤.
(٢) سورة التوبة الآية ٨٠.
(٣) لقيامهم باعمال الاسلام الظاهرة التي يترتب عليها عصمة الدم والمال.
(٤) سورة التوبة الآية ١٠٢.
(٥) لانه كان اعلم الصحابة بالمنافقين.
(٦) أي اختبروهن.
(٧) سورة الممتحنة الآية ١٠.

إلا من يعلموا أن الإيمان في قلبه. فإن هذا كما لو قيل لهم لا تعتقوا ألا من علمتم أن الإيمان في قلبه. وهم لم يؤمروا أن ينقبوا عن قلوب الناس ولا يشقوا بطونهم، فإذا رأوا رجلاً يظهر الايمان جاز لهم عتقه. وصاحب الجارية لما سأل النبي ﷺ هل هي مؤمنة إنما أراد الإيمان الظاهر الذي يفرق به بين المسلم والكافر، وكذلك من عليه نذر لم يلزمه ألا يعتق إلا من علم أن الإيمان في قلبه، فإنه لا يعلم ذلك مطلقاً بل ولا أحد من الخلق يعلم ذلك مطلقاً[1]، وهذا رسول الله ﷺ أعلم الخلق والله يقول له: ﴿وممّن حولكم من الأعرابِ منافِقُون ومن أهلِ المدينةِ مردُوا على النفاقِ لا تعلمهم نحنُ نعلمهم سَنعذبهم مرتين﴾ فأولئك إنما كان النبي ﷺ يحكم فيهم كحكمه في سائر المؤمنين، ولو حضرت جنازة أحدهم صلى عليها، ولم يكن منهياً عن الصلاة إلا على من علم نفاقه، وإلا لزم أن ينقب عن قلوب الناس ويعلم سرائرهم، وهذا لا يقدر عليه بشر.

ولهذا لما كشفهم الله بسورة براءة بقوله: ﴿ومنهم، ومنهم﴾[2] صار يعرف نفاق ناس منهم لم يكن يعرف نفاقهم قبل ذلك، فإن الله وصفهم بصفات علمها الناس منهم وما كان الناس يجزمون بأنها مستلزمة لنفاقهم، وإن كان بعضهم يظن ذلك وبعضهم يعلمه، فلم يكن نفاقهم معلوماً عند الجماعة بخلاف حالهم لما نزل القرآن. ولهذا لما نزلت سورة براءة كتموا النفاق وما بقي يمكنهم من إظهاره أحياناً ما كان يمكنهم قبل ذلك، وأنزل الله تعالى: ﴿لئن لم ينتهِ المنافقونَ والَّذينَ في قلوبهم مرضٌ والمرجفونَ في المدينةِ لنغرينّكَ بهم ثم لا يجاورونَكَ فيها إلا قليلاً. ملعونينَ أينما ثقِفُوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً. سنة اللهِ في الَّذينَ خلوا من قبلُ ولنْ تجدَ لسنَّةِ الله تبديلاً﴾[3] فلما توعدوا بالقتل إذا أظهروا النفاق كتموه.

---

(١) لان ما في القلوب غيب لا يعلمه إلا الله عز وجل.

(٢) كقوله تعالى: (ومنهم من يلمزك في الصدقات). (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني). (ومنهم من عاهد الله).

(٣) سورة الاحزاب الآيات (٦٠ - ٦٢).

ولهذا لما تنازع الفقهاء في استتابة الزنديق فقيل يستتاب. واستدل من قال ذلك بالمنافقين الذين كان النبي ﷺ يقبل علانيتهم ويكل أمرهم إلى الله فيقال له: هذا كان في أول الأمر، وبعد هذا أنزل الله ﴿ملعونينَ أينما ثقِفُوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً﴾ فعلموا أنهم إن أظهروه[١] كما كانوا يظهرونه قتلوا، فكتموه. والزنديق هو المنافق[٢]، وإنما يقتله من يقتله إذا ظهر منه أنه يكتم النفاق، قالوا ولا تعلم توبته، لأن غاية ما عنده أنه يظهر ما كان يظهر وقد كان يظهر الإيمان وهو منافق، ولو قبلت توبة الزنادقة لم يكن سبيل إلى تقتيلهم، والقرآن قد توعدهم بالقتل.

والمقصود أن النبي ﷺ إنما أخبر عن تلك الأمة[٣] بالإيمان الظاهر الذي علقت به الأحكام الظاهرة وإلا فقد ثبت عنه أن سعداً لما شهد لرجل أنه مؤمن قال أو مسلم، وكان يظهر من الإيمان ما تظهره الأمة وزيادة، فيجب أن يفرق بين أحكام المؤمنين الظاهرة التي يحكم فيها الناس في الدنيا. وبين حكمهم في الآخرة بالثواب والعقاب، فالمؤمن المستحق للجنة لا بد أن يكون مؤمناً في الباطن باتفاق جميع أهل القبلة حتى الكرامية الذين يسمون المنافق مؤمناً. ويقولون الإيمان هو الكلمة، يقولون إنه لا ينفع في الآخرة إلا الإيمان الباطن[٤].

وقد حكى بعضهم عنهم أنهم يجعلون المنافقين من أهل الجنة، وغلط عليهم[٥] إنما نازعوا في الاسم لا في الحكم بسبب شبهة المرجئة في أن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل. ولهذا أكثر ما اشترط الفقهاء في الرقبة التي يجزىء في الكفارة العمل الظاهر، فتنازعوا هل يجزىء الصغير؟ على قولين معروفين للسلف هما

---

(١) أي النفاق. (٢) لانه مبطن للكفر ومتظاهر بالاسلام.

(٣) أي الجارية.

(٤) وبهذا سقط الاحتجاج بحديث الجارية في أن الايمان المعتبر في النجاة هو الاقرار.

(٥) إذا كان هذا هو لازم مذهبهم جاز نسبته اليهم وإن يقولوه فان لازم المذهب مذهب.

روايتان عن أحمد، فقيل لا يجزىء عتقه، لأن الإيمان قول وعمل والصغير لم يؤمن بنفسه إنما إيمانه تبع لأبويه في أحكام الدنيا، ولم يشترط أحد أن يعلم أنه مؤمن في الباطن، وقيل بل يجزىء عتقه لأن العتق من الأحكام الظاهرة، وهو تبع لأبويه، فكما أنه يرث منهما ويصلي عليه ولا يصلي إلا على مؤمن، فإنه يعتق.

وكذلك المنافقون الذين لم يظهروا نفاقهم يصلى عليهم إذا ماتوا ويدفنون في مقابر المسلمين من عهد النبي ﷺ، والمقبرة التي كانت للمسلمين في حياته وحياة خلفائه وأصحابه يدفن فيها كل من أظهر الإيمان وإن كان منافقاً في الباطن، لم يكن للمنافقين مقبرة يتميزون بها عن المسلمين في شيء من ديار الإسلام، كما يكون لليهود والنصارى مقبرة يتميزون بها، ومن دفن في مقابر المسلمين صلى عليه المسلمون والصلاة لا تجوز على من علم نفاقه بنص القرآن فعلم أن ذلك[1] بناء على الإيمان الظاهر، والله يتولى السرائر، وقد كان النبي ﷺ يصلي عليهم ويستغفر لهم حتى نهى عن ذلك. وعلل ذلك بالكفر فكان ذلك دليلاً على أن كل من لم يعلم أنه كافر بالباطل جازت الصلاة عليه والاستغفار له وإن كانت فيه بدعة[2] وإن كان له ذنوب.

وإذا ترك الإمام أو أهل العلم والدين الصلاة على بعض المتظاهرين ببدعة أو فجور زجراً عنها لم يكن ذلك محرماً للصلاة عليه والاستغفار له، بل قال النبي ﷺ فيمن كان يمتنع عن الصلاة عليه وهو الغال وقاتل نفسه والمدين الذي لا وفاء له «صلوا على صاحبكم» وروى أنه كان يستغفر للرجل في الباطن وإن كان في الظاهر يدع ذلك زجراً عن مثل مذهبه كما روى في حديث محلم بن جثامة.

وليس في الكتاب والسنة المظهرون للإسلام إلا قسمان: مؤمن أو منافق فالمنافق في الدرك الأسفل من النار، والآخر مؤمن. ثم قد يكون ناقص الإيمان

---

(١) يعني الصلاة عليهم ودفنهم في مقابر المسلمين.

(٢) كيف وقد كان السلف لا يصلون على أهل الاهواء ولا يشهدون جنائزهم.

فلا يتناوله الاسم المطلق، وقد يكون تام الإيمان، وهذا يأت الكلام عليه إن شاء الله في مسألة الإسلام والإيمان ، وأسماء الفساق من أهل الملة، لكن المقصود هنا أنه لا يجعل أحد بمجرد ذنب بذنبه ولا ببدعة ابتدعها ولو دعا الناس إليها ـ كافراً في الباطن، إلا إذا كان منافقاً. فأما من كان في قلبه الايمان بالرسول وما جاء به، وقد غلط في بعض ما تأوله من البدع، فهذا ليس بكافر أصلاً[١]، والخوارج كانوا من أظهر الناس بدعة وقتالاً للأمة وتكفيراً لها، ولم يكن في الصحابة من يكفرهم لا علي بن أبي طالب ولا غيره[٢]، بل حكموا فيهم بحكمهم في المسلمين الظالمين المعتدين كما ذكرت الآثار عنهم بذلك في غير هذا الموضع.

وكذلك سائر الثنتين وسبعين فرقة من كان منهم منافقاً فهو كافر في الباطن، ومن لم يكن منافقاً بل كان مؤمناً بالله ورسوله في الباطن لم يكن كافراً في الباطن، وإن أخطأ في التأويل كائناً ما كان خطؤه، وقد يكون في بعضهم شعبة من شعب النفاق ولا يكون فيه النفاق الذي يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار. ومن قال إن الثنتين وسبعين فرقة كل واحد منهم يكفر كفراً ينقل عن الملة فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، بل وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة، فليس فيهم من كفر كل واحد من الثنتين وسبعين فرقة[٣]. وإنما يكفر بعضهم بعضاً ببعض المقالات، كما قد بسط الكلام عليهم في غير هذا الموضع.

وإنما قال الأئمة بكفر هذا لأن هذا فرض ما لا يقع، فيمتنع أن يكون

---

(١) لا يجوز القول بهذا على اطلاقه، فان هناك من البدع ما هو كفر يكفر به صاحبه، كغلاة الشيعة والمرجئة وغلاة المعطلة كجهم واصحابه.

(٢) بل كفروهم والاحاديث صريحة في كفرهم وانهم يمرقون في الدين كما يمرق السهم في الرمية.

(٣) وفي الحديث انهم في النار.

الرجل لا يفعل شيئاً مما أمر به من الصلاة والزكاة والصيام والحج، ويفعل ما يقدر عليه من المحرمات، مثل الصلاة بلا وضوء وإلى غير القبلة، ونكاح الأمهات، وهو مع ذلك مؤمن في الباطن، لا يفعل ذلك إلا لعدم الايمان الذي في قلبه، ولهذا كان أصحاب أبي حنيفة يكفرون أنواعاً ممن يقول كذا وكذا لما فيه من الاستخفاف، ويجعلونه مرتداً ببعض هذه الأنواع مع النزاع اللفظي الذي بين أصحابه وبين الجمهور في العمل: هل هو داخل في اسم الإيمان أم لا، ولهذا فرض متأخرو الفقهاء مسألة يمتنع وقوعها وهو أن الرجل إذا كان مقراً بوجوب الصلاة فدعي إليها وامتنع واستتيب ثلاثاً مع تهديده بالقتل فلم يصل حتى قتل، هل يموت كافراً أو فاسقاً؟ على قولين.

وهذا الفرض باطل فإنه يمتنع في الفطرة أن يكون الرجل يعتقد أن الله فرضها عليه، وأنه يعاقبه على تركها ويصبر على القتل ولا يسجد لله سجدة من غير عذر له في ذلك. هذا لا يفعله بشر قط بل ولا يضرب أحد ممن يقر بوجوب الصلاة إلا صلى، لا ينتهي الأمر إلى القتل، وسبب ذلك أن القتل ضرر عظيم لا يصبر عليه الإنسان إلا لأمر عظيم مثل لزومه لدين يعتقد أنه إن فارقه هلك فيصبر عليه حتى يقتل. وسواء كان الدين حقاً أو باطلاً أما مع اعتقاده أن الفعل يجب عليه باطناً وظاهراً فلا يكون فعل الصلاة أصعب عليه من احتمال القتل قط.

ونظير هذا: لو قيل إن رجلاً من أهل السنة قيل له ترض عن أبي بكر وعمر فامتنع عن ذلك حتى قتل مع محبته لهما واعتقاده فضلهما، ومع الاعذار المانعة من الترضي عنهما، فهذا لا يقع قط، وكذلك لو قيل إن رجلاً يشهد أن محمداً رسول الله باطناً وظاهراً وقد طلب منه ذلك، وليس هناك رهبة ولا رغبة يمتنع لأجلها فامتنع منها حتى قتل، فهذا يمتنع أن يكون في الباطن يشهد أن محمداً رسول الله، ولهذا كان القول الظاهر[1] من الايمان الذي لا نجاة للعبد إلا به عند

---

(١) أي الاقرار باللسان.

عامة السلف والخلف من الأولين والآخرين إلا الجهمية (جهماً ومن وافقه) فإنه إذا قدر أنه معذور لكونه أخرس أو لكونه خائفاً من قوم إن أظهر الاسلام آذوه ونحو ذلك. فهذا يمكن ألا يتكلم مع إيمان في قلبه كالمكره على كلمة الكفر. قال الله تعالى: ﴿إلاَّ مَنْ أكرهَ وقلبهُ مطمئن بالإيمانِ ولكن من شرحَ بالكفرِ صدراً فعليهم غضبٌ من اللهِ ولهم عذابٌ عظيمٌ﴾ وهذه الآية مما يدل على فساد قول جهم، فإنه جعل كل من تكلم بالكفر من أهل وعيد الكفار إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان.

فإن قيل: فقد قال تعالى ﴿ولكن مَنْ شرحَ بالكفرِ صدراً﴾ قيل وهذا موافق لأولها فإنه من كفر[1] من غير إكراه فقد شرح بالكفر صدراً وإلا تناقض أول الآية وآخرها. ولو كان المراد بمن كفر هو الشارح صدره وذلك يكون بلا إكراه لم يستثن المكره فقط، بل كان يجب أن يستثنى المكره وغير المكره إذا لم يشرح صدره، وإذا تكلم بكلمة الكفر طوعاً فقد شرح بها صدراً وهي كفر، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ويحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزؤا إن الله مخرج ما تحذرون. ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون. لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنَّهم كانُوا مجرمينَ﴾[2] فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له، بل كنا نخوض ونلعب، وبين أن الإستهزاء بآيات الله كفر، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدره بهذا الكلام؛ ولو كان الإيمان في قلبه منعه أن يتكلم بهذا الكلام.

والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه كقوله تعالى: ﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك، وما

---

(١) أي النطق بكلمة الكفر.

(٢) سورة التوبة الآيات (٦٤ - ٦٧).

أولئك بالمؤمنين. وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون. وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين﴾ [1] إلى قوله: ﴿إنّما كانَ قولَ المؤمنينَ إذا دُعوا إلى اللهِ ورسولِهِ ليحكم بينهم أنْ يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئكَ هم المفلحون﴾ [2] فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا، فبين أن هذا من لوازم الإيمان [3].

إذا كان الإيمان المطلق يتناول جميع ما أمر به لزم تكفير أهل الذنوب

فإن قيل: فإذا كان الايمان المطلق يتناول جميع ما أمر الله به ورسوله. فمتى ذهب بعض ذلك فيلزم تكفير أهل الذنوب كما تقوله الخوارج أو تخليدهم في النار وسلبهم اسم الايمان بالكلية كما يقوله المعتزلة؛ وكلا هذين القولين شر من قول المرجئة؛ فإن المرجئة منهم جماعة من العلماء والعباد المذكورين عند الأمة بخير، وأما الخوارج والمعتزلة فأهل السنة والجماعة من جميع الطوائف مطبقون على ذمهم.

قيل (أولاً) ينبغي أن يعرف أن القول الذي لم يوافق الخوارج والمعتزلة عليه أحد من أهل السنة هو القول بتخليد أهل الكبائر في النار؛ فإن هذا القول من البدع المشهورة [4]، وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد في النار أحد ممن في قلبه مثقال ذرة من إيمان، واتفقوا أيضاً على أن نبينا ﷺ يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته، وفي الصحيحين عنه أنه قال «لكل نبي دعوة مستجابة وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة» وهذه الأحاديث مذكورة في مواضعها، وقد نقل بعض الناس عن الصحابة في ذلك خلافاً كما روى عن ابن عباس أن القاتل لا توبة له؛ وهذا غلط على الصحابة، فإنه لم يقل أحد منهم إن النبي ﷺ لا

---

(1) مذعنين: منقادين.
(2) سورة النور الآيات (٤٧ - ٥١).
(3) فلا ينفك عنه وينتفي الايمان بانتفائه.
(4) المتفق على بدعتها.

يشفع لأهل الكبائر ولا قال إنهم يخلدون في النار، ولكن ابن عباس في إحدى الروايتين عنه قال إن القاتل لا توبة له، وعن أحمد بن حنبل في قبول توبة القاتل روايتان أيضاً. والنزاع في التوبة غير النزاع في التخليد، وذلك أن القتل يتعلق به حق آدمي[1]، فلهذا حصل فيه النزاع

وأما قول القائل: إن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله، فهذا ممنوع[2] وهذا هو الأصل الذي تفرعت عنه البدع في الإيمان فإنهم ظنوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله لم يبق منه شيء. ثم قالت الخوارج والمعتزلة هو مجموع ما أمر الله به ورسوله وهو الإيمان المطلق كما قاله أهل الحديث، قالوا فإذا ذهب شيء منه لم يبق مع صاحبه من الإيمان شيء فيخلد في النار، وقالت المرجئة على اختلاف فرقهم لا تذهب الكبائر وترك الواجبات الظاهرة منه إذ لو ذهب شيء منه لم يبق منه شيء فيكون شيئاً واحداً يستوي فيه البر والفاجر[3]، ونصوص الرسول وأصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه كقوله «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان» ولهذا كان أهل السنة والحديث على أنه يتفاضل، وجمهورهم يقولون يزيد وينقص، ومنهم من يقول يزيد ولا يقول ينقص كما روى عن مالك في إحدى الروايتين، ومنهم من يقول يتفاضل كعبد الله بن المبارك، وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة فروى الناس من وجوه كثيرة مشهورة عن حماد بن سلمة عن أبي جعفر عن جده عمير بن حبيب الخطمي وهو من أصحاب رسول الله ﷺ قال: الإيمان يزيد وينقص، قيل له ما زيادته وما نقصانه؟ قال إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا فذلك نقصانه، وروى إسماعيل بن عياش عن جرير بن عثمان عن الحارث بن محمد عن أبي الدرداء قال: الإيمان يزيد وينقص.

---

(١) حقوق العباد لا تسقط بالتوبة، ولا بد من ردها، وتنازلهم عنها.

(٢) ذهاب بعض الفروع لا يستلزم ذهاب الايمان وانما نقصان له.

(٣) الخوارج والمرجئة متفقان على انه إذا ذهب بعضه ذهب كله، ثم اختلفوا في مرتكب الكبيرة.

الإيمان يزيد وينقص

وقال أحمد بن حنبل حدثنا يزيد حدثنا جرير بن عثمان قال سمعت أشياخنا أو بعض أشياخنا أن أبا الدرداء قال: إن من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينقص، وإن من فقه الرجل أن يعلم نزعات الشيطان أنى تأتيه، وروى إسماعيل بن عياش عن صفوان بن عمرو عن عبد الله بن ربيعة الحضرمي عن أبي هريرة قال: الإيمان يزيد وينقص، وقال أحمد بن حنبل حدثنا يزيد بن هرون حدثنا محمد بن طلحة عن زبيد عن ذر قال كان عمر بن الخطاب يقول لأصحابه: هلموا نزداد إيماناً فيذكرون الله عز وجل، وقال أبو عبيد في الغريب في حديث علي «إن الإيمان يبدو كلمظة في القلب كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة» يروى ذلك عن عثمان بن عبد الله عن عمرو بن هند الجملي الأصمعي، اللمظة مثل النكتة أو نحوها، وقال أحمد بن حنبل حدثنا وكيع عن شريك عن هلال عن عبد الله بن عكيم قال سمعت ابن مسعود يقول في دعائه: اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهاً وروى سفيان الثوري عن جامع بن شداد عن الأسود بن هلال قال كان معاذ بن جبل يقول لرجل اجلس بنا نؤمن نذكر الله تعالى، وروى أبو اليمان حدثنا صفوان عن شريح بن عبيد أن عبد الله بن رواحة كان يأخذ بيد الرجل من أصحابه فيقول: قم بنا نؤمن ساعة، فنجلس في مجلس ذكر[1]، وهذه الزيادة أثبتها الصحابة بعد موت النبي ﷺ ونزول القرآن كله.

وصح عن عمار بن ياسر أنه قال: ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان الانصاف من نفسه، والإنفاق من الاقتار، وبذلك السلام للعالم، ذكره البخاري في صحيحه، وقال جندب بن عبد الله وابن عمر وغيرهما: تعلمنا الايمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً، والآثار في هذا كثيرة رواها المصنفون في هذا

---

(١) ذكره البخاري تعليقاً.

الباب عن الصحابة والتابعين في كتب كثيرة معروفة.

والزيادة[1] قد نطق بها القرآن في عدة آيات كقوله تعالى ﴿إنّما المؤمنونَ الّذينَ إذا ذُكِرَ الله وجلت قلوبهم وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾[2] وهذه زيادة إذا تليت عليهم الآيات أي وقت تليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول، وهذا أمر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن حتى أنه لم يسمع الآية إلا حينئذ ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن، فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته، وهذا زيادة الإيمان. وقال تعالى: ﴿والّذينَ قال لهم النّاس إن النّاسَ قد جَمَعُوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حَسْبُنا الله ونعمَ الوكيل﴾[3] فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت فازدادوا يقيناً وتوكلاً على الله وثباتاً على الجهاد وتوحيداً بألا يخافوا المخلوق، بل يخافون الخالق وحده. وقال تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيّكم زادتهُ هذهِ إيماناً، فأما الّذينَ آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرونَ. وأما الّذينَ في قلوبهم مرضٌ فزادتهم رِجْساً إلى رِجْسهم﴾[4] وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها بل زادتهم إيماناً بحسب مقتضاها.

فإن كانت أمراً بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة، وإن كانت نهياً عن شيء انتهوا عنه فكرهوه، ولهذا قال: ﴿وهم يستبشرون﴾ والاستبشار غير مجرد التصديق. وقال تعالى: ﴿والّذينَ آتيناهم الكتابَ يفرحونَ بما أُنزل إليكَ ومِنَ الأحزابِ مَنْ ينكر بعضه﴾[5] والفرح بذلك من زيادة الإيمان. قال تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمتهِ فبذلكَ فليفرحوا﴾[6] وقال تعالى: ﴿ويومئذٍ يفرحُ المؤمنونَ

---

(١) أي زيادة الايمان.

(٢) سورة الانفال الآية ٢. (٣) سورة آل عمران الآية ١٧٣.

(٤) سورة التوبة الآيات (١٢٤ ـ ١٢٥) قال ابن كثير (أي شكا إلى شكهم، وريباً إلى ريبهم).

(٥) سورة الرعد الآية ٣٨. (٦) سورة يونس الآية ٥٨.

بنصرِ اللهِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وما جعلنا أصحابَ النَّارِ إلا ملائكةً، وما جعلنا عدَّتهم إلا فتنة[2] للَّذينَ كفروا ليستيقنَ الَّذينَ أوتوا الكتابَ ويزداد الَّذينَ آمنوا إيماناً﴾[3] وقال تعالى: ﴿هوَ الَّذي أنزلَ السكينة في قلوبِ المؤمنينَ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾[4] وهذه نزلت لما رجع النبي ﷺ وأصحابه من الحديبية، فجعل السكينة موجبة لزيادة الإيمان. والسكينة طمأنينة في القلب غير علم القلب وتصديقه، ولهذا قال يوم حنين: ﴿فأنزلَ سكينتهُ علىٰ رسولهِ وعلىٰ المؤمنينَ وأنزلَ جنوداً لم ترَوها﴾[5] وقال تعالى: ﴿ثانيَ اثنين إذ هُما في الغارِ إذْ يقولُ لصاحبهِ لا تحزنْ إنَّ اللهَ معنا، فأنزلَ اللهُ سكينتهُ عليهِ وأيّدهُ بجنودٍ لم ترَوها﴾[6] ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن ولا يوم الغار، وإنما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو، فلما أنزل السكينة في قلوبهم مرجعهم من الحديبية ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم دل على أن الإيمان المزيد حال للقلب وصفة له وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه، واليقين قد يكون بالعمل والطمأنينة كما يكون بالعلم، والريب المنافي لليقين يكون ريباً في العلم وريباً في طمأنينة القلب، ولهذا جاء في الدعاء المأثور «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به إلى جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا»[7].

وفي حديث الصديق الذي رواه أحمد والترمذي وغيرهما عن النبي ﷺ أنه قال «سلوا الله العافية واليقين[8] فما أعطى أحد بعد اليقين شيئاً خيراً من العافية، فسلوهما الله تعالى» فاليقين عند المصائب بعد العلم بأن الله قدرها سكينة القلب وطمأنينته وتسليمه[9] وهذا من تمام الإيمان بالقدر خيره وشره كما قال

---

(١) سورة الروم الآيات (٤ ـ ٥).

(٢) ابتلاء واختباراً.

(٣) سورة المدثر الآية ٣١.

(٤) سورة الفتح الآية ٤.

(٥) سورة التوبة الآية ٢٧.

(٦) سورة التوبة الآية ٤١.

(٧) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

(٨) ورد الحديث بلفظ «سلو الله العفو والعافية».

(٩) هذا شيء زائد على مجرد التصديق.

تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبةٍ إلا بإذنِ اللهِ ومَنْ يؤمنْ باللهِ يهدِ قلبهُ﴾[1] قال علقمة ويروى عن ابن مسعود: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، وقوله تعالى: ﴿يهد قلبه﴾ هداه لقلبه هو زيادة في إيمانه كما قال تعالى: ﴿والذينَ اهتدوا زادهم هدىً﴾[2] وقال: ﴿إنَّهم فتيةٌ آمنوا بربهم وزدناهم هدىً﴾[3].

ولفظ الإيمان أكثر ما يذكر في القرآن مقيداً فلا يكون ذلك اللفظ متناولاً لجميع ما أمر الله به بل يجعل موجباً للوازمه وتمام ما أمر به، وحينئذ يتناوله الاسم المطلق. قال تعالى: ﴿آمنوا باللهِ ورسولهِ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفينَ فيه فالَّذينَ آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجرٌ كبيرٌ. ومالكم لا تؤمنونَ بالله والرسول يدعوكم لتُؤمنوا بربّكم وقد أخذَ ميثاقكم إن كنتم مؤمنينَ. هو الّذي ينزلُ على عبدهِ آياتٍ بيناتٍ ليخرجكم من الظلماتِ إلى النورِ﴾[4] وقال تعالى في آخر السورة: ﴿يا أيّها الّذينَ آمنوا اتقوا اللهَ وآمنوا برسولهِ يؤتكم كفلين[5] من رحمتهِ ويجعل لكم نوراً تمشونَ بهِ ويغفر لكم، واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾ وقد قال بعض المفسرين في الآية الأولى إنها خطاب لقريش، وفي الثانية إنها خطاب لليهود والنصارى، وليس كذلك، فإنَّ الله لم يقل قط للكفار: ﴿يا أيّها الّذينَ آمنوا﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿لئلا يعلمَ أهلُ الكتابِ ألاّ يقدرونَ[6] على شيءٍ من فضلِ اللهِ﴾[7] وهذه السورة مدنية باتفاق[8] لم يخاطب بها المشركين بمكة وقد قال: ﴿ومالكم لا تؤمنونَ باللهِ والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربّكم وقد أخذَ ميثاقكم إنْ كُنتم مؤمنينَ﴾[9] وهذا لا يخاطب به كافر وكفار مكة لم يكن أخذ

---

(١) سورة التغابن الآية ١١ .

(٢) سورة محمد الآية ١٧ .

(٣) سورة الكهف الآية ١٣ .

(٤) سورة الحديد الآيات (٧ ـ ٩) .

(٥) مثنى كفل وهي بمعنى الحظ والنصيب .

(٦) أي لا يضيقون ويحرجون .

(٧) سورة الحديد الآية ٢٩ .

(٨) ورد عن ابن مسعود انها مكيه .

(٩) سورة الحديد الآية ٨ .

ميثاقهم، وإنما أخذ ميثاق المؤمنين ببيعتهم له فإن كل من كان مسلماً مهاجراً كان يبايع النبي ﷺ كما بايعه الأنصار ليلة العقبة وإنما دعاهم إلى تحقيق الإيمان وتكميله بأداء ما يجب من تمامه باطناً وظاهراً[١] كما نسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم في كل صلاة، وإن كان قد هدى المؤمنين للإقرار بما جاء به الرسول جملة، لكن الهداية المفصلة في جميع ما يقولونه ويفعلونه في جميع أمورهم لم تحصل[٢] وجميع هذه الهداية المفصلة الخاصة هي من الإيمان المأمور به، وبذلك يخرجهم الله من الظلمات إلى النور.

وزيادة الإيمان الذي أمر الله به، والذي يكون من عباده المؤمنين من وجوه (أحدها) الإجمال والتفصيل فيما أمروا به فإنه، وإن وجب على جميع الخلق الايمان بالله ورسوله، ووجب على كل امة التزام ما يؤمر به رسولهم مجملاً، فمعلوم أنه لا يجب في أولي الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله. ولا يجب على كل عبد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغه فمن عرف القرآن والسنن ومعانيها لزمه من الإيمان المفصل بذلك ما لا يلزم غيره، ولو آمن الرجل بالله وبالرسول باطناً وظاهراً ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين مات مؤمناً بما وجب عليه من الإيمان، وليس ما وجب عليه ولا ما وقع منه مثل إيمان من عرف الشرائع فآمن بها وعمل بها، بل إيمان هذا أكمل وجوباً أو وقوعاً، فإن ما وجب عليه من الايمان أكمل وما وقع منه أكمل.

وقوله تعالى ﴿اليومَ أكملتُ دينكم﴾[٣] أي في التشريع بالأمر والنهي ليس المراد أن كل واحد من الأمة وجب عليه ما يجب على سائر الأمة، وأنه فعل ذلك، بل في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه وصف النساء بأنهن ناقصات عقل

---

(١) أي ان الامر بالايمان في الآية لطلب تكميله لا تحصيله إذ هو حاصل.

(٢) فهم يسألون الله تعالى تمام الهداية بالقيام بجميع الطاعات وترك جميع المنهيات مع طلب الدوام والثبات.

(٣) سورة المائدة الآية ٣.

ودين، وجعل نقصان عقلها أن شهادة امرأتين شهادة رجل واحد[1] ونقصان دينها أنها اذا حاضت لا تصوم ولا تصلي، وهذا النقصان ليس هو نقصاً مما أمرت فلا تعاقب على هذا النقصان[2]، لكن من أمر بالصلاة والصوم ففعله كان دينه كاملاً بالنسبة إلى هذه الناقصة الدين.

(الوجه الثاني) الاجمال والتفصيل فيما وقع منهم. فمن آمن بما جاء به الرسول مطلقاً فلم يكذبه قط، لكن أعرض عن معرفة أمره ونهيه وخبره وطلب العلم الواجب عليه فلم يعلم الواجب عليه ولم يعمله، بل اتبع هواه، وآخر طلب علم ما أمر به فعمل به. وآخر طلب علمه فعلمه وآمن به ولم يعمل به فهؤلاء وإن اشتركوا في الوجوب[3] لكن من طلب علم التفصيل وعمل به فإيمانه أكمل ممن عرف ما يجب عليه والتزمه وأقر به لكنه لم يعمل بذلك كله. وهذا المقر بما جاء به الرسول المعترف بذنبه الخائف من عقوبته على ترك العمل، أكمل إيماناً ممن لم يطلب معرفة ما أمره به الرسول ولا عمل بذلك، ولا هو خائف أن يعاقب، بل هو في غفلة عن تفصيل ما جاء به الرسول ﷺ، مع أنه مقر بنبوته باطناً وظاهراً.

فكل ما علم القلب ما أخبر به الرسول فصدقه وما أمر به فالتزمه، كان ذلك زيادة في إيمانه على من لم يحصل له ذلك: وإن كان معه التزام عام وإقرار عام.

وكذلك من عرف أسماء الله ومعانيها فآمن بها كان إيمانه أكمل ممن لم يعرف تلك الأسماء بل آمن بها إيماناً مجملاً، أو عرف بعضها، وكلما ازداد الإنسان معرفة بأسماء الله وصفاته وآياته كان إيمانه به أكمل.

---

(١) قال تعالى: (فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى).

(٢) لا عقاب إلا على ترك الامر، وهي لم تؤمر.

(٣) أي وجوب الايمان.

(الثالث) أن العلم والتصديق نفسه يكون بعضه أقوى من بعض وأثبت وأبعد عن الشك والريب. وهذا أمر يشهده كل أحد مّن نفسه، كما أن الحس الظاهر بالشيء الواحد مثل رؤية الناس للهلال وإن اشتركوا فيها فبعضهم تكون رؤيته أتم من بعض، وكذلك سماع الصوت الواحد وشم الرائحة الواحدة وذوق النوع الواحد من الطعام، فكذلك معرفة القلب وتصديقه يتفاضل أعظم من ذلك من وجوه متعددة، والمعاني التي يؤمن بها من معاني أسماء الرب وكلامه يتفاضل الناس في معرفتها أعظم من تفاضلهم في معرفة غيرها.

(الرابع) أن التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به، وإذا كان شخصان يعلمان أن الله حق ورسوله حق والجنة حق وهذا علمه أوجب له محبة الله وخشيته والرغبة في الجنة وَالهرب من النار، والآخر علمه لم يوجب ذلك، فعلم الأول أكمل، فإن قوة المسبب دليل على قوة السبب وهذه الأمور نشأت عن العلم، فالعلم بالمحبوب يستلزم طلبه، والعلم بالمخوف يستلزم الهرب منه، فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم، ولهذا قال النبي ﷺ «ليس المخبر كالمعاين[1]» فإن موسى لما أخبره ربه أن قومه عبدوا العجل لم يلق الألواح، فلما رآهم قد عبدوه ألقاها، وليس ذلك لشك موسى في خبر الله لكن المخبر وإن جزم بصدق المخبر فقد لا يتصور المخبر به في نفسه كما يتصوره إذا عاينه، بل يكون قلبه مشغولاً عن تصور المخبر به وإن كان مصدقاً به، ومعلوم أنه عند المعاينة يحصل له من تصور المخبر به ما لم يكن عند الخبر، فهذا التصديق أكمل من ذلك التصديق.

(الخامس) أن أعمال القلوب مثل محبة الله ورسوله، وخشية الله تعالى ورجائه ونحو ذلك، هي كلها من الايمان كما دل على ذلك الكتاب والسنة واتفاق

---

(١) رواه ابن ابي حاتم من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس.

السلف، وهذه يتفاضل الناس فيها تفاضلاً عظيماً.

(السادس) أن الأعمال الظاهرة مع الباطنة هي أيضاً من الإيمان والناس يتفاضلون فيها.

(السابع) ذكر الإنسان بقلبه ما أمره الله به واستحضاره لذلك بحيث لا يكون غافلاً عنه أكمل ممن صدق به وغفل عنه، فإن الغفلة تضاد كمال العلم والتصديق والذكر والاستحضار يكمل العلم واليقين، ولهذا قال عمر بن حبيب من الصحابة: إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته[1]، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فتلك نقصانه، كان معاذ بن جبل يقول لأصحابه اجلسوا بنا ساعة نؤمن، قال تعالى: ﴿ولا تُطع من أغفلنا قلبهُ عن ذِكرنا واتبعَ هواهُ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وذكر فإنَّ الذكرىٰ تنفعُ المؤمنينَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿سيذكَّرُ مَنْ يخشىٰ. ويتجنبها الأشقىٰ﴾[4] ثم كلما تذكر الإنسان ما عرفه قبل ذلك وعمل به حصل له معرفة شيء آخر لم يكن عرفه قبل ذلك، وعرف من معاني أسماء الله وآياته ما لم يكن عرفه قبل ذلك كما في الأثر «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»[5] وهذا أمر يجده في نفسه كل مؤمن.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت قال تعالى: ﴿وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾[6] وذلك أنها تزيدهم علم ما لم يكونوا قبل ذلك علموه. وتزيدهم عملاً بذلك العلم، وتزيدهم تذكراً لما كانوا نسوه وعملاً بتلك التذكرة، وكذلك ما يشاهده العباد من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم، قال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي

---

(١) أي زيادة الايمان.

(٢) سورة الكهف الآية ٢٨. (٣) سورة الذاريات الآية ٥٥.

(٤) سورة الاعلى الآيات (١٠ - ١١).

(٥) رواه أبو نعيم. والحديث ضعيف.

(٦) سورة الانفال الآية ٢.

أنفسهم حتى يتبيّنَ لهم أنَّهُ الحقّ﴾ [1] أي القرآن حق، ثم قال: ﴿أو لم يكفِ بربكَ أنَّهُ علىٰ كلِّ شيءٍ شهيد﴾ [2] فإن الله شهيد في القرآن بما أخبر به، فآمن به المؤمن. ثم أراهم في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات ما يدل على مثل ما أخبر به في القرآن، فبينت لهم هذه الآيات أن القرآن حق مع ما كان قد حصل لهم قبل ذلك.

وقال تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلىٰ السَّماءِ فوقهم كيفَ بنيناهَا وزيناهَا ومالها من فروجٍ [3]. والأرضَ مددناها [4] وألقينا فيها رواسيَ وأنبتنا فيها من كلِّ زوجٍ بهيجٍ. تبصرةً وذكرىٰ لكلِّ عبدٍ منيبٍ﴾ [5] فالآيات المخلوقة والمتلوة فيها تبصرةٌ وفيها تذكرة، تبصرة من العمى، وتذكرة من الغفلة؛ فيبصر من لم يكن عرف حتى يعرف، ويذكر من عرف ونسي. والإنسان يقرأ السورة مرات حتى سورة الفاتحة ويظهر له في أثناء الحال [6] من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك حتى كأنها تلك الساعة نزلت، فيؤمن بتلك المعاني ويزداد علمه وعمله. وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر، بخلاف من قرأه مع الغفلة، ثم كلما فعل شيئاً مما أمر به استحضر أنه أمر به فصدق الأمر، فحصل له في تلك الساعة من التصديق في قلبه ما كان غافلاً عنه وإن لم يكن مكذباً.

(الثامن) أن الإنسان قد يكون مكذباً ومنكراً لأمور لا يعلم أن الرسول أخبر بها وأمر بها ولو علم ذلك لم يكذب ولم ينكر، بل قلبه جازم بأنه لا يخبر إلا بصدق ولا يأمر إلا بحق، ثم يسمع الآية أو الحديث أو يتدبر ذلك أو يفسر له معناه، أو يظهر له ذلك بوجه من الوجوه، فيصدق بما كان مكذباً به، ويعرف ما كان منكراً، وهذا تصديق جديد وإيمان جديد ازداد به إيمانه، ولم يكن قبل ذلك كافراً بل جاهلاً، وهذا وإن أشبه المجمل قد يكون قلبه سليماً

---

(1) سورة فصلت الآية ٥٣.
(2) سورة فصلت الآية ٥٣.
(3) أي شقوق.
(4) بسطناها وفرشناها.
(5) سورة ق الآيات (٦ ـ ٨).
(6) أي اثناء القراءة.

عن تكذيب وتصديق، لشيء من التفاصيل، وعن معرفة وإنكار لشيء من ذلك، فيأتيه التفصيل بعد الإجمال على قلب ساذج، وأما كثير من الناس بل من أهل العلوم والعبادات فيقوم بقلوبهم من التفصيل أمور كثيرة تخالف ما جاء به الرسول؛ وهم لا يعرفون أنها تخالف، فإذا عرفوا رجعوا وكل من ابتدع في الدين قولاً أخطأ فيه أو عمل عملاً أخطأ فيه وهو مؤمن بالرسول أو عرف ما قاله وآمن به، لم يعدل عنه هو من هذا الباب، وكل مبتدع قصده متابعة الرسول فهو من هذا الباب، فمن علم ما جاء به الرسول وعمل به أكمل ممن أخطأ ذلك، ومن علم الصواب بعد الخطأ وعمل به فهو أكمل ممن لم يكن كذلك.

وقد أثبت في القرآن إسلاماً بلا إيمان

وقد أثبت في القرآن إسلاماً بلا إيمان في قوله تعالى: ﴿قالت الأعرابُ آمنا. قلْ لم تُؤمنوا ولكنْ قُولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم، وإن تُطيعوا اللهَ ورسوله لا يلتكم[1] من أعمالكم شيئاً﴾[2] وقد ثبت في الصحيحين عن سعد ابن أبي وقاص قال: أعطى النبي ﷺ رهطاً[3]، وفي رواية قسم قسماً وترك فيهم من لم يعطه، وهو أعجبهم إلي فقلت يا رسول الله مالك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمناً، فقال رسول الله ﷺ «أو مسلماً» أقولها ثلاثاً ويرددها علىّ رسول الله ﷺ ثلاثا ثم قال «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه مخافة أن يكبه الله في النار» وفي رواية فضرب بين عنقي وكتفي وقال أقتال أي سعد.

فهذا الاسلام الذي نفى الله عن أهله دخول الايمان في قلوبهم هل هو إسلام يثابون عليه أم هو من جنس إسلام المنافقين؟ فيه قولان مشهوران للسلف والخلف (أحدهما) أنه إسلام يثابون عليه ويخرجهم من الكفر والنفاق، وهذا مروى عن الحسن وابن سيرين وإبراهيم النخعي وأبي جعفر الباقر، وهو قول

---

(١) أي لا ينقصكم. (٢) سورة الحجرات الآية ١٤.

(٣) رهطاً: نفراً.

حماد بن زيد وأحمد بن حنبل وسهل بن عبد الله التستري وأبي طالب المكي وكثير من أهل الحديث والسنة والحقائق[1].

قال أحمد بن حنبل: حدثنا مؤمل عن عمار بن زيد قال: سمعت هشاما يقول: كان الحسن ومحمد[2] يقولان (مسلم) ويهابان مؤمن، وقال أحمد بن حنبل: حدثنا أبو سلمة الخزاعي قال: قال مالك وشريك وأبو بكر بن عياش وعبد العزيز بن أبي سلمة وحماد بن سلمة وحماد بن زيد: الايمان المعرفة والاقرار والعمل إلا أن حماد بن زيد يفرق بين الاسلام والايمان، يجعل الايمان خاصاً والاسلام عاماً.

والقول الثاني: أن هذا الاسلام هو الاستسلام خوف السبي والقتل مثل إسلام المنافقين، قال وهؤلاء كفار. فإن الايمان لم يدخل في قلوبهم، ومن لم يدخل الايمان في قلبه فهو كافر. وهذا اختيار البخاري ومحمد بن نصر المروزي، والسلف مختلفون في ذلك.

قال محمد بن نصر: حدثنا إسحاق أنبأنا جرير عن مغيرة قال أتيت إبراهيم النخعي فقلت إن رجلاً خاصمني يقال له سعيد العنبري، فقال إبراهيم: ليس بالعنبري ولكنه زبيدي، قوله: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ فقال هو الاستسلام، فقال إبراهيم: لا هو الاسلام.

وقال حدثنا محمد بن يحي حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن مجاهد ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ قال استسلمنا خوف السبي والقتل، ولكن هذا منقطع، سفيان لم يدرك مجاهداً[3] والذين قالوا إن الاسلام هو كإسلام المنافقين لا يثابون عليه قالوا: لأن الله نفى عنهم الإيمان، ومن نفى

---

(١) اختاره ابن جرير وابن كثير في تفسيريهما.

(٢) هو ابن سيرين.

(٣) قال بهذا القول أيضاً سعيد بن جبير وابن زيد وهو صحيح عن مجاهد.

عنه الايمان فهو كافر، وقال هؤلاء: الاسلام هو الإيمان وكل مسلم مؤمن، وكل مؤمن مسلم[1]، ومن جعل الفساق مسلمين غير مؤمنين لزمه ألا يجعلهم داخلين في قوله تعالى: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاةِ﴾[2] وفي قوله تعالى: ﴿يا أيّها الّذينَ آمنوا إذا نُودي للصلاةِ من يوم الجمعة﴾[3] وأمثال ذلك فإنهم إنما دعوا باسم الإيمان لا باسم الإسلام. فمن لم يكن مؤمناً لم يدخل في ذلك.

وجواب هذا أنْ يقال: الذين قالوا من السلف إنهم خرجوا من الإيمان إلى الإسلام لم يقولوا إنه لم يبق معهم من الإيمان شيء بل هذا قول الخوارج والمعتزلة وأهل السنة الذين قالوا الفساق يخرجون من النار بالشفاعة وإن معهم إيمان يخرجون به من النار. لكن لا يطلق عليهم اسم الإيمان، لأن الإيمان المطلق هو الذي يستحق صاحبه الثواب ودخول الجنة، وهؤلاء ليسوا من أهله، وهم يدخلون في الخطاب بالإيمان لأن الخطاب بذلك هو لمن دخل في الإيمان وإن لم يستكمله، فإنه إنما خوطب ليفعل تمام الإيمان، فكيف يكون قد أتمه قبل الخطاب، وإلا كنا قد تبينا أن هذا المأمور من الإيمان قبل الخطاب وإنما صار من الإيمان بعد أن أمروا به، فالخطاب بيا أيها الذين آمنوا غير قوله: ﴿إنَّما المؤمنونَ الّذينَ آمنوا باللهِ ورسولِهِ ثمّ لم يرتابوا أو جاهدُوا بأموالهم وأنفسهم﴾[4] ونظائره فإن الخطاب بيا أيها الذين آمنوا يدخل فيه من أظهر الإيمان وإن كان منافقاً في الباطن يدخل فيه في الظاهر، فكيف لا يدخل فيه من لم يكن منافقاً وإن لم يكن من المؤمنين حقاً، وحقيقة أن من لم يكن من المؤمنين حقاً يقال فيه إنه مسلم ومعه إيمان يمنعه الخلود في النار، وهذا متفق عليه بين أهل السنة، لكن هل يطلق عليه اسم الإيمان؟ هذا هو الذي تنازعوا فيه فقيل يقال مسلم، ولا يقال مؤمن، وقيل بل يقال مؤمن.

---

(١) أي انهما متلازمان فلا يوجد اسلام شرعي معتد به إلا مع ايمان، ولا يوجد ايمان معتد به إلا مع اسلام.

(٢) سورة المائدة الآية ٦. (٣) سورة الجمعة الآية ٩. (٤) سورة الحجرات الآية ١٥.

والتحقيق أن يقال إنه مؤمن ناقص الإيمان، مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ولا يعطى الاسم المطلق، فإن الكتاب والسنة نفيا عنه الاسم المطلق، واسم الإيمان يتناوله فيما أمر الله به ورسوله، لأن ذلك إيجاب عليه وتحريم عليه وهو لازم له كما يلزمه غيره، وإنما الكلام في اسم المدح المطلق[١]، وعلى هذا فالخطاب بالإيمان يدخل في ثلاث طوائف: يدخل فيه المؤمن حقاً، ويدخل فيه المنافق في أحكامه الظاهرة وإن كانوا في الآخرة في الدرك الأسفل من النار[٢] وهو في الباطن ينفـى عنـه الإسلام والإيمان، وفي الظـاهـر يثبـت لـه الإسلام والإيمان الظاهر، ويدخل فيه الذين أسلموا ولم تدخل حقيقة الايمان في قلوبهم[٣]، لكن معهم جزء من الايمان وإسلام يثابون عليه، ثم قد يكونون مفرطين فيما فرض عليهم وليس معهم من الكبائر ما يعاقبون عليه كأهل الكبائر، لكن يعاقبون على ترك المفروضات، وهؤلاء كالأعراب المذكورين في الآية وغيرهم، فإنهم قالوا آمنا من غير قيام منهم بما أمروا به باطناً وظاهراً، فلا دخلت حقيقة الايمان في قلوبهم، ولا جاهدوا في سبيل الله، وقد كان دعاهم النبي ﷺ إلى الجهاد. وقد يكونون من أهل الكبائر المعرضين للوعيد كالذين يصلون ويزكون ويجاهدون ويأتون الكبائر، وهؤلاء لا يخرجون من الاسلام بل هم مسلمون، ولكن بينهم نزاع لفظي: هل يقال إنهم مؤمنون كما سنذكره إن شاء الله.

وأما الخوارج والمعتزلة فيخرجونهم من اسم الايمان والاسلام، فإن الايمان والاسلام عندهم واحد، فإذا خرجوا عندهم من الايمان خرجوا من الاسلام، لكن الخوارج تقول هم كفـار[٤]. والمعتـزلـة تقـول لا مسلمـون ولا كفـار، ينزلونهم منزلة بين المنزلتين[٥]، والدليل على أن الاسلام المذكور في الآية هو

---

(١) هذا لا يستحقه إلا المؤمن الكامل. (٢) أي قعرها.

(٣) المعنى انه لم يرسخ في قلوبهم الايمان ولم يكمل.

(٤) لقد شذ الخوارج بهذا القول فلم يقله أحد من الأمة غيرهم.

(٥) ويسمون لدى البعض « فساقاً ».

إسلام يثابون عليه وأنهم ليسوا منافقين أنه قال: ﴿قالت الأعرابُ آمنا قلْ لم تؤمنوا ولكنْ قُولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمانُ في قلوبكم﴾ ثم قال: ﴿وإنْ تُطيعـوا الله ورسولهُ لا يلتكم مِنْ أعمالِكم شيْئاً﴾ فدل أنهم إذا أطاعوا الله ورسوله مع هذا الاسلام آجرهم الله على الطاعة، والمنافق عمله حابط في الآخرة.

وأيضاً فإنه وصفهم بخلاف صفات المنافقين. وصفهم[1] بكفر في قلوبهم وأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون كما قال تعالى: ﴿ومنَ النَّاسِ من يقولُ آمنا باللهِ وباليومِ الآخرِ، وما هُمْ بمؤمنينَ. يُخَادِعُونَ اللهَ والَّذينَ آمنوا وما يخدعونَ إلا أنفسهم وما يشعرونَ. في قلوبهم مرضٌ فزادهم اللهُ مرضاً﴾[2] الآيات، وقال: ﴿إذا جاءكَ المنافقونَ قالوا نشهدُ إنَّكَ لرسولُ اللهِ واللهُ يعلمُ إنَّكَ لرسولهُ واللهُ يشهد إن المنافقينَ لكاذبونَ﴾[3] فالمنافقون يصفهم في القرآن بالكذب، وأنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، وبأن في قلوبهم من الكفر ما يعاقبون عليه، وهؤلاء لم يصفهم بشيء من ذلك، لكن لما ادعوا الايمان قال للرسول: ﴿قل لم تؤمنوا[4]، ولكن قُولوا أسلمنا ولما يدخل الايمانُ في قلوبكم، وإن تُطيعوا اللهَ ورسولهُ لا يلتكم من أعمالكم شيئاً﴾.

نفي الإيمان المطلق لا يستلزم النفاق

ونفـي الإيمان المطلـق لا يستلـزم أن يكـونـوا منـافقين[5] كما في قوله: ﴿يسألونكَ عَنْ الأنفال[6] قِل الأنفالُ للهِ والرَّسول فاتقوا اللهَ وأصلحوا ذات بينكم[7] وأطيعوا اللهَ ورسوله إنْ كنتم مؤمنين﴾[8] ثم قال: ﴿إنَّما المؤمنونَ الَّذينَ

---

(١) أي المنافقين.
(٢) سورة البقرة الآيات (٨ ـ ١٠).
(٣) سورة المنافقون الآية ١.
(٤) أي الايمان الكامل.
(٥) لأن معهم مطلق الايمان.
(٦) النفل: الغنيمة.
(٧) أي حقيقة ما وقع بينكم من فساد ونزاع.
(٨) سورة الانفال الآية ١.

اذا ذُكر الله وَجلَت قلوبهم وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربّهم يتوكلونَ. الّذينَ يقيمونَ الصلاةَ ومما رزقناهم ينفقونَ. أولئكَ هم المؤمنونَ حقاً﴾ [1] ومعلوم أنه ليس من لم يكن كذلك يكون منافقاً من أهل الدرك الأسفل من النار. بل لا يكون قد أتى بالايمان الواجب[2] فنفى عنه كما ينفى سائر الأسماء عمن ترك بعض ما يجب فيها، فكذلك الأعراب لم يأتوا بالايمان الواجب، فنفي عنهم لذلكَ وإن كانوا مسلمين، معهم من الايمان ما يثابون عليه.

وهذا حال أكثر الداخلين في الاسلام ابتداء، بل حال أكثر من لم يعرف حقائق الايمان، فإن الرجل إذا قوتل حتى أسلم كما كان الكفار يقاتلون حتى يسلموا أو أسلم بعد الأسر أو سمع بالاسلام فجاء فأسلم، فإنه مسلم ملتزم طاعة الرسول ولم تدخل إلى قلبه المعرفة بحقائق الايمان[3]، فإن هذا إنما يحصل لمن تيسرت له أسباب ذلك، إما بفهم القرآن، وإما بمباشرة أهل الإيمان والاقتداء بما يصدر من الأقوال والأعمال، وإما بهداية خاصة من الله يهديه بها، والإنسان قد يظهر له من محاسن الإسلام ما يدعوه إلى الدخول فيه، وإن كان قد ولد عليه وتربى بين أهله فإنه يحبه، فقد ظهر له بعض محاسنه وبعض مساوىء الكفار، وكثير من هؤلاء قد يرتاب إذا سمع الشبه القادحة فيه ولا يجاهد في سبيل الله فليس هو داخلاً في قوله: ﴿إنَّما المؤمنونَ الّذينَ آمنوا باللهِ ورسولهِ ثمَّ لم يرتابوا وَجَاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيلِ اللهِ﴾ وليس هو منافقاً في الباطن مضمراً للكفر، فلا هو من المؤمنين حقاً[4]، ولا هو من المنافقين، ولا هو أيضاً من أصحاب الكبائر، بل يأتي بالطاعات الظاهرة ولا يأتي بحقائق الإيمان التي يكون بها من المؤمنين حقاً، فهذا معه إيمان[5] وليس هو من المؤمنين

---

(١) سورة الانفال الآيات (٢ - ٤).

(٢) أي الكامل.

(٣) إلا أن معه من الايمان ما يصح به اسلامه وإلا كان منافقاً.

(٤) هو الايمان الكامل الواجب.

(٥) أي مطلق فهو مؤمن على وجه الاجمال.

حقاً . ويثاب على ما فعل من الطاعات ولهذا قال تعالى: ﴿ولكن قُولوا أسلمنا﴾ ولهذا قال: ﴿يمنونَ عليكَ أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامَكم بل الله يمن عليكم أنْ هَداكم للإيمانِ إنْ كنتم صادقينَ﴾ [١] يعني في قولكم ﴿آمنا﴾ يقول إن كنتم صادقين، فالله يمن عليكم أن هداكم للإيمان، وهذا يقتضي أنهم قد يكونون صادقين في قولهم ﴿آمنا﴾ ثم صدقهم إما أن يراد به اتصافهم بأنهم آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون، وإما أن يراد به أنهم لم يكونوا كالمنافقين بل معهم إيمان وإن لم يكن لهم أن يدعوا مطلق الإيمان، وهذا أشبه [٢] والله أعلم، لأن النسوة الممتحنات قال فيهن: ﴿فإن علمتموهنَّ مؤمناتٍ فلا ترجعوهنَّ إلى الكفَّار﴾ ولا يمكن نفي الريب عنهن في المستقبل، ولأن الله إنما كذب المنافقين لم يكذب غيرهم، وهؤلاء لم يكذبهم ولكن قال ﴿لم تؤمنوا﴾ [٣] كما قال « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وقوله: « لا يَزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » [٤] وهؤلاء ليسوا منافقين.

وسياق الآية يدل على أن الله ذمهم لكونهم منوا بإسلامهم لجهلهم وجفائهم [٥]، وأظهروا ما في أنفسهم مع علم الله به، فإن الله تعالى قال: ﴿قل أتعلمونَ اللهَ بدينكم واللهُ يعلمُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ﴾ [٦] فلو لم يكن في قلوبهم شيء من الدين لم يكونوا يعلمون الله بدينهم، فإن الإسلام الظاهر يعرفه كل أحد، ودخلت الباء في قوله ﴿أتعلمونَ اللهَ بدينكم﴾ لأنه ضمن معنى يخبرون ويحدثون كأنه قال أتخبرونه وتحدثونه بدينكم وهو يعلم ما في السموات وما في الأرض، وسياق الآية يدل على أن الذين أخبروا به الله هو ما

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٧ .

(٢) أي هو الاقرب من سياق الآيات ومدلولها .

(٣) فهو ليس تكذيباً لهم فيما ادعوه من الايمان ولكنه نفي للايمان الواجب عنهم .

(٤) أي ظلمه وأذاه. (٥) أي بداوتهم وخشونتهم.

(٦) سورة الحجرات الآية ١٦ .

ذكره الله عنهم من قولهم﴿آمناً﴾فإنهم أخبروا عما في قلوبهم.

وقد ذكر المفسرون أنه لما نزلت هاتان الآيتان أتوا رسول الله ﷺ يحلفون أنهم مؤمنون صادقون فنزل قوله تعالى: ﴿قل أتعلمونَ اللهَ بدينكم﴾ وهذا يدل على أنهم كانوا صادقين أولاً في دخولهم في الدين لأنه لم يتجدد لهم بعد نزول الآية جهاد حتى يدخلون في الآية إنما هو كلام قالوه وهو سبحانه قال: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ ولفظ ﴿لما﴾ ينفى به ما يقرب حصوله ويحصل غالباً فقوله: ﴿أم حسبتم أنْ تدخُلوا الجنة ولمّا يعلم الله الّذينَ جاهَدوا منكم﴾[1] وقد قال السدى: نزلت هذه الآية في أعراب مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار، وهم الذين ذكرهم الله في سورة الفتح وكانوا يقولون آمنا بالله ليأمنوا على أنفسهم، فلما استنفروا[2] إلى الحديبية تخلفوا فنزلت فيهم هذه الآية.

وعن مقاتل كانت منازلهم بين مكة والمدينة، وكانوا إذا مرت بهم سرية من سرايا رسول الله ﷺ قالوا: ﴿آمنا﴾ ليأمنوا على مائهم وأموالهم، فلما سار رسول الله ﷺ إلى الحديبية استنفرهم فلم ينفروا معه.

وقال مجاهد: نزلت في أعراب بني أسد بن خزيمة، ووصف غيره حالهم فقالوا قدموا المدينة في سنه جدبه و
وأفسدوا طريق المدينة بالعذرات[3] وأغلو
الله ﷺ يقولون أتيناك بالأثقال والعيال، فنزلت فيهم سد
قتادة في قوله: ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسا
عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ قال منوا على النبي ﷺ حين جاءوا فقالوا إنا أسلمنا بغير قتال لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، فقال الله لنبيه: ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان﴾.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٢.

(٢) أي طلب منهم الخروج.

(٣) جمع عذرة بفتح فكسر وهي الغائط.

وقال مقاتل بن حيان: هم أعراب بني أسد بن خزيمة قالوا يا رسول الله أتيناك بغير قتال وتركنا العشائر والأموال، وكل قبيلة من العرب قاتلتك حتى دخلوا كرهاً في الإسلام، فلنا بذلك عليك حق، فأنزل الله تعالى: ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ فله بذلك المن عليكم وفيهم أنزل: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ [1]، ويقال من الكبائر التي ختمت بنار كل موجبة من ركبها ومات عليها لم يتب منها.

وهذا كله يبين أنهم لم يكونوا كفاراً في الباطن، ولا كانوا قد دخلوا فيما يجب من الايمان، وسورة الحجرات [2] قد ذكرت هذه الأصناف فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يِنادونكَ مِنْ وراءِ الحجراتِ أكثرهم لا يعلقونَ﴾ [3] ولم يصفهم بكفر ولا نفاق، لكن هؤلاء يخشى عليهم الكفر والنفاق ولهذا ارتد بعضهم لأنهم لم يخالط الإيمان بشاشة قلوبهم [4]، وقال بعد ذلك: ﴿يا أيَّها الَّذينَ آمنوا إن جاءَكم فاسقٌ بنبأ فتبينوا﴾ [5] وهذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة وكان قد كذب فيما أخبر.

قال المفسرون: نزلت هذه الآية في الوليد بن عقبة بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق [6] ليقبض صدقاتهم، وقد كانت بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فسار بعض الطريق ثم رجع فقال إنهم منعوا الصدقة وأرادوا قتلي، فضرب رسول الله ﷺ: البعث إليهم [7]، فنزلت هذه الآية: وهذه الآية معروفة من وجوه كثيرة ثم قال تعالى في تمامها: ﴿واعلموا أنَّ فيكم رسولُ اللهِ لو يطيعكمْ في كثيرٍ منَ الأمرِ لعنتم﴾ [8] وقال تعالى: ﴿وإنْ طائفتان مِنَ المؤمنين اقتتلوا

---

(١) أي لا تحبطوها بالمن بها.

(٢) هي بيوت ازواج النبي ﷺ.

(٣) الآية نزلت في وفد بني تميم عندما قدموا المدينة عند الظهر والنبي ﷺ قائل فلم يصبروا حتى يخرج اليهم ونادوه من وراء الحجرات.

(٤) أي لم يخالط بشاشة الايمان قلوبهم.

(٥) سورة الحجرات الآية ٦. وتبينوا: تثبتوا.

(٦) هم رهط أم المؤمنين جورية بنت الحارث رضي الله عنها.

(٧) كان بقيادة خالد بن الوليد.

(٨) العنت: الحرج والمشقة.

فأصلحوا بينهما فإنْ بغت إحداهُما على الأخرى﴾ [1] الآيَة، ثم نهاهم عن أن يسخر بعضهم ببعض، وعن اللمز[2] والتنابز بالألقاب وقال: ﴿بئسَ الاسمُ الفسوق بعدَ الإيمان﴾ [3] وقد قيل معناه لا تسميه فاسقاً ولا كافراً بعد إيمانه، وهذا ضعيف بل المراد بئس الاسم أن تكونوا فساقاً بعد إيمانكم كما قال تعالى في الذي كذب: ﴿إنْ جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبيَّنُوا﴾ فسماه فاسقاً.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «سباب المسلم[4] فسوق وقتاله كفر» يقول: «فإذا سابيتم المسلم وسخرتم منه ولمزتموه استحققتم أن تسموا فساقاً.» وقد قال في آية القذف: ﴿ولا تَقْبَلوا لهم شهادةً أبداً وأولئكَ هم الفاسقونَ﴾ يقول إذا أتيتم بهذه الأمور التي تستحقون بها أن تسموا فساقاً كنتم قد استحققتم اسم الفسوق بعد الإيمان، وإلا فهم في تنابزهم ما كانوا يقولون فاسق كافر، فإن النبي ﷺ قدم المدينة وبعضهم يلقب بعضاً.

وقد قال طائفة من المفسرين في هذه الآية لا تسميه بعد الإسلام بذنبه قبل الإسلام كقوله لليهودي إذا أسلم يا يهودي، وهذا مروى عن ابن عباس وطائفة من التابعين كالحسن وسعيد بن جبير وعطاء الخراساني والقرظي، وقال عكرمة هو قول الرجل: يا كافر يا منافق، وقال عبد الرحمن بن زيد هو تسميته بالأعمال كقوله يا زاني يا سارق يا فاسق، وفي تفسير العوفي عن ابن عباس قال هو تعيير التائب بسيئات كان قد عملها، ومعلوم أن اسم الكفر واليهودية والزاني والسارق وغير ذلك من السيئات ليست هي اسم الفاسق فعلم أن قوله: ﴿بئسَ الاسم الفسوق﴾ لم يرد به تسمية المسبوب باسم الفاسق، فإن تسميته كافراً أعظم بل إن الساب يصير فاسقاً لقوله: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» ثم قال: ﴿ومن لم يتبْ فأولئكَ هم الظالمونَ﴾ [5] فجعلهم ظالمين إذا لم يتوبوا من ذلك وإن كانوا يدخلون في اسم المؤمنين، ثم ذكر النهي عن الغيبة، ثم ذكر النهي عن التفاخر

---

(١) سورة الحجرات الآية ٩.
(٢) اللمز: الرمي بالعيب.
(٣) سورة الحجرات الآية ١١.
(٤) أي المشاتمة.
(٥) سورة الحجرات الآية ١١.

بالأحساب وقال: ﴿إنَّ أكرمَكم عندَ اللهِ أتقاكم﴾ [١] ثم ذكر قول الأعراب آمنا [٢].

فالسورة تنهى عن هذه المعاصي والذنوب التي فيها تعد على الرسول وعلى المؤمنين[٣]، فالأعراب المذكورون فيها من جنس المنافقين[٤]، وأهل السباب والفسوق والمنادين من وراء الحجرات وأمثالهم ليسوا من المنافقين، ولهذا قال المفسرون: إنهم الذين استنفروا عام الحديبية، وأولئك وإن كانوا من أهل الكبائر فلم يكونوا في الباطن كفاراً منافقين.

قال ابن اسحاق: لما أراد رسول الله ﷺ العمرة (عمرة الحديبية) استنفر من حول المدينة من أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه خوفاً من قومه أن يعرضوا له بحرب أو بصد[٥]، فتثاقل عنه كثير منهم، فهم الذين عنى الله بقوله ﴿سيقولُ لك المخلَّفونَ من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا﴾ أي ادع الله أن يغفر لنا تخلفنا عنك: ﴿يقولونَ بألسنتهم ما ليسَ في قلوبهم﴾[٦] أي ما يبالون استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، وهذا حال الفاسق الذي لا يبالي بالذنب. والمنافقون قال فيهم: ﴿وإذا قيلَ لهم تعالوا يستغفر لكم رسول اللهِ لووا رُءوسهم ورأيتهم يصدُّونَ وهمْ مُستكبرونَ. سواء عليهم استغفرتَ لهم أمْ لم تستغفرْ لهم لنْ يغفرَ اللهُ لهم﴾[٧] ولم يقل مثل هذا في هؤلاء الأعراب، بل الآية دليل على أنهم لو صدقوا في طلب الاستغفار نفعهم استغفار الرسول. ثم قال: ﴿ستدعونَ إلى قومٍ أولي بأسٍ شديدٍ تقاتلونهم أو يسلمونَ، فإنْ تُطيعوا يؤتِكمُ الله أجراً حسناً وإنْ تتولوا كما توليتم مِنْ قبلُ يعذبكم عذاباً أليماً﴾[٨] فوعدهم الله بالثواب على طاعة الداعي إلى الجهاد وتوعدهم بالتولي عن طاعته.

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣

(٢) هذا تلخيص للاغراض التي اشتملت عليها السورة.

(٣) هي جامعة للآداب التي يجب على المؤمنين التقيد بها في معاملة رسول الله ﷺ وفي معاملة بعضهم بعضاً.

(٤) أي يشبه المنافقين.

(٥) أي بمنع.

(٦) سورة الفتح الآية ١١.

(٧) سورة المنافقون الآيات (٥ ـ ٦).

(٨) سورة الفتح الآية ١٦.

وهذا كخطاب أمثالهم من أهل الذنوب والكبائر بخلاف من هو كافر في الباطن فإنه لا يستحق الثواب بمجرد طاعة الأمر حتى يؤمن أولاً، ووعيده ليس على مجرد توليه عن الطاعة في الجهاد فإن كفره أعظم من هذا.

فهذا كله يدل على أن هؤلاء من فساق الملة، فإن الفسق يكون تارة بترك الفرائض، وتارة بفعل المحرمات، وهؤلاء لما تركوا ما فرض الله عليهم من الجهاد وحصل عندهم نوع من الريب الذي أضعف إيمانهم، لم يكونوا من الصادقين الذين وصفهم، وإن كانوا صادقين في أنهم في الباطن متدينون بدين الإسلام.

وقول المفسرين «لم يكونوا مؤمنين» نفيٌ لما نفاه الله عنهم من الإيمان[1] كما نفاه عن الزاني والسارق والشارب وعمن لا يأمن جاره بوائقه، وعمن لا يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه، وعمن لا يجيب إلى حكم الله ورسوله، وأمثال هؤلاء[2] وقد يحتج على ذلك بقوله: ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ كما قال «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» فذم من استبدل اسم الفسوق بعد الإيمان، فدل على أن الفاسق لا يسمى مؤمناً، فدل ذلك على أن هؤلاء الأعراب من جنس أهل الكبائر لا من جنس المنافقين.

وأما ما نقل من أنهم أسلموا خوف القتل والسباء[3] فهكذا كان إسلام غير المهاجرين، والأنصار أسلموا رغبة ورهبة، كإسلام الطلقاء من قريش[4] بعد أن قهرهم النبي ﷺ وإسلام المولفة قلوبهم من هؤلاء ومن أهل نجد، وليس كل من أسلم لرغبة أو رهبة كان من المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار، بل يدخلون في الإسلام والطاعة وليس في قلوبهم تكذيب ومعاداة للرسول، ولا استنارت قلوبهم بنور الإيمان واستبصروا فيه، وهؤلاء قد يحسن إسلام أحدهم فيصير من المؤمنين كأكثر الطلقاء، وقد يبقى من فساق الملة، ومنهم من يصير

---

(١) وهو الايمان المطلق الذي لا ريب معه.

(٢) ممن معهم مطلق الايمان. (٣) أي الاسرى والسبي.

(٤) سموا بالطلقاء لقول رسول الله ﷺ «اذهبوا فأنتم الطلقاء». حيث تكرم عليهم بالعفو.

منافقاً مرتاباً إذا قال له منكر ونكير[١] : ما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته .

وقد تقدم قول من قال إنهم أسلموا بغير قتال، فهؤلاء كانوا أحسن إسلاماً من غيرهم[٢]، وأن الله إنما ذمهم لكونهم منوا بالإسلام وأنزل فيهم: ﴿ولا تُبطلوا أعمالكم﴾[٣] وأنهم من جنس أهل الكبائر.

وأيضاً قوله: ﴿ولكنْ قُولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمانُ في قلوبكم﴾ و « لما » إنما ينتفى بها ما ينتظر ويكون حصوله مترقباً كقوله: ﴿أم حَسِبتُم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾[٤] وقوله: ﴿أم حَسِبتُم أن تدخُلوا الجنة ولمّا يأتِكم مثلُ الَّذينَ خَلوا من قبلِكُمْ﴾[٥] فقوله: ﴿ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ يدل على أن دخول الإيمان منتظر منهم، فإن الذي يدخل في الإسلام ابتداء لا يكون قد حصل في قلبه الإيمان لكنه يحصل فيما بعد كما في الحديث: كان الرجل يسلم أول النهار رغبة في الدنيا فلا يجيء آخر النهار إلا والإسلام أحب اليه مما طلعت عليه الشمس ولهذا كان عامة الذين أسلموا رغبة ورهبة دخل الإيمان في قلوبهم بعد ذلك، وقوله: ﴿ولكنْ قُولوا أسلمنا﴾ أمر لهم بأن يقولوا ذلك، والمنافق لا يؤمر بشيء؛ ثم قال: ﴿وإنْ تُطيعوا اللهَ ورسولهُ لا يلِتكم من اعمالِكم شَيئاً﴾ والمنافق لا تنفعه طاعة الله ورسوله حتى يؤمن أولاً .

وهذه الآية مما احتج بها أحمد بن حنبل وغيره على أنه يستثنى في الإيمان[٦] دون الإسلام، وأن أصحاب الكبائر يخرجون من الإيمان إلى الإسلام[٧]، قال الميموني: سألت أحمد بن حنبل عن رأيه في، أنا مؤمن إن شاء الله؟ فقال أقول

(١) هما الملكان الموكلان بالسؤال في القبر .

(٢) أي ممن اسلموا كرهاً بعد القتال.

(٣) سورة محمد الآية ٣٣ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٤٢ .

(٥) سورة البقرة الآية ٢١٤ .

(٦) كأن تقول انا مؤمن إن شاء الله .

(٧) أي من اسم الايمان إلى اسم الاسلام.

مؤمن إن شاء الله وأقول مسلم ولا أستثني، قال قلت لأحمد: تفرق بين الإسلام والإيمان؟ فقال لي: نعم، فقلت له: بأي شيء تحتج؟ قال لي: ﴿قالت الأعرابُ آمنا قلْ لم تُؤمنوا ولكنْ قُولوا أسلمنا﴾ وذكر أشياء. وقال الشالنجي: سألت أحمد عمن قال أنا مؤمن عند نفسي من طريق الأحكام والمواريث ولا أعلم ما أنا عند الله؟ قال ليس بمرجىء.

وقال أبو أيوب: سليمان بن داود الهاشمي: الاستثناء جائز، ومن قال أنا مؤمن حقاً، ولم يقل عند الله، ولم يستثن فذلك عندي جائز وليس بمرجيء[1]، وبه قال أبو خيثمة وابن أبي شيبة، وذكر الشالنجي أنه سأل أحمد بن حنبل عن المصرّ على الكبائر يطلبه بجهده أي يطلب الذنب بجهده، إلا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصوم هل يكون مصراً من كانت هذه حاله؟ قال هو مصر مثل قوله «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» يخرج من الإيمان ويقع في الإسلام[2]، ومن نحو قوله «ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن» ومن نحو قول ابن عباس في قوله: ﴿ومنْ لم يحكُمْ بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هم الفاسقون﴾[3] فقلت له ما هذا الكفر؟ قال: كفر لا ينقل عن الملة مثل الإيمان بعضه دون بعض، فكذلك الكفر حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه، وقال ابن أبي شيبة «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» لا يكون مستكمل الإيمان يكون ناقصاً من إيمانه.

قال الشالنجي: وسألت أحمد عن الإيمان والإسلام، فقال: الإيمان قول وعمل، والإسلام إقرار قال وبه قال أبو خيثمة؛ وقال ابن أبي شيبة لا يكون إسلام إلا بإيمان ولا إيمان إلا بإسلام[4]، وإذا كان على المخاطبة فقال قد قبلت الإيمان فهو داخل في الإسلام، وإذا قال قد قبلت الإسلام فهو داخل في الإيمان. وقال محمد بن نصر المروزي: وحكى غير هؤلاء أنه سأل أحمد بن حنبل

---

(١) اي لا يقع الارجاء بسبب القول.

(٢) اي لا يجوز إطلاق اسم الايمان عليه وان كان مؤمناً.

(٣) سورة المائدة الآيه ٤٧

(٤) اي انهما متلازمان في الوجود فلا يوجد احدهما بدون الآخر.

عن قول النبي ﷺ «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فقال من أتى هذه الأربعة[1] أو مثلهن أو فوقهن فهو مسلم ولا أسميه مؤمناً، ومن أتى دون ذلك (يريدون الكبائر) أسميه مؤمناً ناقص الإيمان.

(قلت) أحمد بن حنبل[2] كان يقول تارة بهذا الفرق وتارة كان بذكر الاختلاف ويتوقف وهو المتأخر عنه، قال أبو بكر الأثرم في السنة: سمعت أبا عبد الله يسأل عن الاستثناء في الإيمان ما تقول فيه؟ فقال أما أنا فلا أعيبه أي من الناس من يعيبه. قال أبو عبد الله إذا كان يقول إن الايمان قول وعمل يزيد وينقص فاستثنى مخافة واحتياطاً ليس كما يقولون على الشك، إنما يستثنى للعمل، قال أبو عبد الله قال تعالى: ﴿لتدخلنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ اللهُ﴾ أي أن هذا الاستثناء بغير شك، وقال النبي ﷺ «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» أي لم يكن يشك في هذا وقد استثناه، وذكر قول النبي ﷺ «وعليها نبعث إن شاء الله» يعني من القبر، وذكر قول النبي ﷺ «إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله» قال هذا كله تقوية للاستثناء في الإيمان.

قلت لأبي عبد الله: وكأنك لا ترى بأساً ألا يستثنى، فقال: إذا كان ممن يقول الإيمان قول وعمل يزيد وينقص فهو أسهل عندي، ثم قال أبو عبد الله إن قوماً تضعف قلوبهم عن الاستثناء كالتعجب منهم، وسمعت أبا عبد الله وقيل له شبابة أي شيء تقول فقال شبابة كان يدعى الارجاء، قال وحكى عن شبابة قول أخبث من هذه الأقاويل ما سمعت عن أحد بمثله، قال أبو عبد الله قال شبابة

---

(١) أي التي اشتمل عليها الحديث.

(٢) هو أحمد بن أحمد بن حنبل ـ أبو عبد الله ـ الشيباني الوائلي. امام المذهب الحنبلي وأحد الأئمة الاربعة. أصله من رد ولد ببغداد سنة (١٦٤ هـ ـ ٧٨٠ م). نشأ منكباً على العلم، وسافر في سبيله اسفاراً كثيرة. صنف: «المسند» ستة مجلدات، يحتوي على ثلاثين ألف حديث. وله كتب في «التاريخ» و «الناسخ والمنسوخ» و «فضائل الصحابة» و «المناسك» و «الزهد» وغيرها كثير.

توفي رحمه الله سنة (٢٤١ هـ ـ ٨٥٥ م).

إذا قال فقد عمل بلسانه كما يقولون فإذا قال فقد عمل بجارحته أي بلسانه حين تكلم به، ثم قال أبو عبد الله. وهذا قول خبيث ما سمعت أحداً يقول به ولا بلغني، قيل لأبي عبد الله كنت كتبت عن شبابة شيئاً؟ فقال نعم كنت كتبت عنه قديماً يسيراً قبل أن نعلم أنه يقول بهذا. قلت لأبي عبد الله كتبت عنه قال: لا ولا حرف. قيل لأبي عبد الله يزعمون أن سفيان كان يذهب إلى الاستثناء في الإيمان، فقال: هذا مذهب سفيان المعروف به الاستثناء: قلت لأبي عبد الله من يرويه عن سفيان؟ فقال كل من حكى عن سفيان في هذا حكاية كان يستثني، قال وقال وكيع عن سفيان الناس عندنا مؤمنون في الأحكام والمواريث ولا ندرهم ما هم عند الله، قلت لأبي عبد الله فأنت بأي شيء تقول، فقال نحن نذهب إلى الاستثناء.

قلت لأبي عبد الله: فأما إذا قال أنا مسلم فلا يستثني، فقال: نعم لا يستثني إذا قال أنا مسلم، قلت لأبي عبد الله أقول هذا مسلم وقد قال النبي ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» وأنا أعلم أنه لا يسلم الناس منه؟ فذكر حديث معمر عن الزهري: فنرى أن الإسلام الكلمة والايمان العمل. قال أبو عبد الله حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قيل لأبي عبد الله فتقول الإيمان يزيد وينقص، فقال: حديث النبي ﷺ: يدل على ذلك، فذكر قوله «أخرجوا من كان في قلبه مثقال كذا، أخرجوا من كان في قلبه مثقال كذا[1]» فهو يدل على ذلك، وذكر عند أبي عبد الله: عيسى الأحمر وقوله في الإرجاء، فقال نعم وذاك خبيث القول: وقال أبو عبد الله حدثنا مؤمل حدثنا حماد بن زيد سمعت هشاماً يقول كان الحسن ومحمد[2] يقولان مسلم ويهابان مؤمن.

قلت لأبي عبد الله: رواه غير سويد، قال: ما علمت بذلك، وسمعت أبا عبد الله يقول: الإيمان قول وعمل. قلت لأبي عبد الله فالحديث الذي يروى

---

(١) في الاولى قال: أخرجوا من كان في قلبه مثقال شعيرة، وفي الثانية قال: مثقال برة، وفي الثالثة قال: مثقال ذرة.

(٢) يقصد الحسن البصري ومحمد بن سيرين وهما من سادات التابعين.

« أعتقها فإنها مؤمنة »: قال ليس كل أحد يقول إنها مؤمنة يقولون أعتقها قال ومالك سمعه من هذا الشيخ هلال بن علي لا يقول: « فإنها مؤمنة » قال: وقد قال بعضهم بأنها مؤمنة فهي تقر بذاك فحكمها حكم المؤمنة هذا معناه. قلت لأبي عبد الله، تفرق بين الإيمان والإسلام، فقال: قد اختلف الناس فيه، وكان حماد بن زيد زعموا يفرق بين الإيمان والإسلام، قيل له من المرجئة، قال الذين يقولون الايمان قول بلا عمل.

قلت: فأحمد بن حنبل لم يرد قط أنه سلب جميع الإيمان فلم يبق معه منه شيء كما تقوله الخوارج والمعتزلة، فإنه قد صرح في غير موضع بأن أهل الكبائر معهم إيمان يخرجون به من النار، واحتج بقول النبي ﷺ: « أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ». وليس هذا قوله ولا قول أحد من أئمة أهل السنة، بل كلهم متفقون على أن الفساق الذين ليسوا منافقين معهم شيء من الإيمان يخرجون به من النار هو الفارق بينهم وبين الكفار والمنافقين، ولكن إذا كان معه بعض الإيمان لم يلزم أن يدخل في الاسم المطلق الممدوح، وصاحب الشرع قد نفى الاسم عن هؤلاء فقال: « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »، وقال: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحبه لنفسه »: وقال « لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » وأقسم على ذلك مرات. وقال « المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم ».

والمعتزلة ينفون عنه اسم الإيمان بالكلية واسم الإسلام أيضاً[١]، ويقولون ليس معه شيء من الإيمان والإسلام، ويقولون ننزله منزلة بين منزلتين[٢]، فهم يقولون إنه يخلد في النار لا يخرج منها بالشفاعة[٣]، وهذا هو الذي أنكر عليهم

---

(١) وذلك لأن الايمان والاسلام عندهم بمعنى واحد. وكلاهما حقيقة مركبة من اجزاء فتنتفي بانتفاء بعض اجزائها.

(٢) أي انهم لا يطلقون عليه اسم كافر أيضاً بل يجعلونه في منزلة بين الايمان والكفر.

(٣) اتفقوا مع الخوارج في هذا.

وإلا لو نفوا مطلق الاسم وأثبتوا معه شيئاً من الإيمان يخرج به من النار لم يكونوا مبتدعة، وكل أهل السنة متفقون على أنه قد سلب كمال الإيمان الواجب فزال بعض إيمانه الواجب لكنه من أهل الوعيد، وإنما ينازع في ذلك من يقول الإيمان لا يتبعض من الجهمية والمرجئة فيقولون إنه كامل الإيمان. فالذي ينفي إطلاق الاسم[1] يقول: الاسم المطلق مقرون بالمدح واستحقاق الثواب، كقولنا: متق وبر وعلى الصراط المستقيم، فإذا كان الفاسق لا تطلق عليه هذه الأسماء فكذلك اسم الإيمان، وأما دخوله في الخطاب فلأن المخاطب باسم الإيمان كل من معه شيء منه، لأنه أمر لهم، فمعاصيهم لا تسقط عنهم.

وأما ما ذكره أحمد في الإسلام[2] فأتبع فيه الزهري حيث قال: فكانوا يرون الإسلام الكلمة والإيمان العمل في حديث سعد بن أبي وقاص، وهذا على وجهين؛ فإنه قد يراد به الكلمة بتوابعها من الأعمال الظاهرة، وهذا هو الإسلام الذي بينه النبي ﷺ حيث قال «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت» وقد تراد الكلمة فقط من غير فعل الواجبات الظاهرة، وليس هذا هو الذي جعله النبي ﷺ الإسلام.

لكن قد يقال: إسلام الأعراب كان من هذا، فيقال: الأعراب وغيرهم كانوا إذا أسلموا على عهد النبي ﷺ ألزموا بالأعمال الظاهرة الصلاة والزكاة والصيام والحج، ولم يكن أحد يترك بمجرد الكلمة بل كان من أظهر المعصية يعاقب عليها وأحمد إن كان أراد في هذه الرواية أن الإسلام هو الشهادتان فقط فكل من قالها فهو مسلم فهذه إحدى الروايات عنه، والرواية الأخرى لا يكون مسلماً حتى يأتي بها ويصلي، فإذا لم يصل كان كافراً. والثالثة أنه كافر بترك الزكاة أيضاً. والرابعة أنه يكفر بترك الزكاة إذا قاتل الإمام عليها دون ما إذا لم

---

(١) هم أهل السنة والجماعة. (٢) هو الاقرار باللسان.

يقاتله، وعنده أنه لو قال أنا أؤديها ولا أدفعها إلى الإمام لم يكن للإمام أن يقتله، وكذلك عنه رواية أنه يكفر بترك الصيام والحج إذا عزم أنه لا يحج أبداً. ومعلوم أنه على القول بكفر تارك المباني[١] يمتنع أن يكون الإسلام مجرد الكلمة بل المراد أنه إذا أتى بالكلمة دخل في الإسلام، وهذا صحيح فإنه يشهد له بالإسلام، ولا يشهد له بالإيمان الذي في القلب، ولا يستثنى في هذا الإسلام[٢] لأنه أمر مشهور، لكن الاسلام الذي هو أداء الخمس كما أمر به يقبل الاستثناء، فالإسلام الذي لا يستثنى فيه الشهادتان باللسان فقط فإنها لا تزيد ولا تنقص فلا استثناء فيه.

وقد صار الناس في مسمى الإسلام على ثلاثة أقوال: قيل هو الإيمان وهو اسمان لمسمى واحد[٣] وقيل هو الكلمة، وهذان القولان لهما وجه سنذكره، لكن التحقيق ابتداء هو ما بينه النبي ﷺ لما سئل عن الإسلام والإيمان ففسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالأصول الخمسة[٤]، فليس لنا إذا جمعنا بين الإسلام والإيمان أن نجيب بغير ما أجاب به النبي ﷺ؛ وأما إذا أفرد اسم الإيمان فإنه يتضمن الإسلام، وإذا أفرد الإسلام فقد يكون مع الإسلام مؤمناً بلا نزاع، وهذا هو الواجب؛ وهل يكون مسلماً ولا يقال له مؤمن؟ قد تقدم الكلام فيه، وكذلك هل يستلزم الإسلام للإيمان؟ هذا فيه النزاع المذكور وسنبينه، والوعد الذي في القرآن بالجنة وبالنجاة من العذاب إنما هو معلق باسم الإيمان، وأما اسم الإسلام مجرداً فما علق به في القرآن دخول الجنة؛ لكنه فرضه وأخبر أنه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه، وبالاسلام[٥] بعث الله جميع النبيين. قال تعالى: ﴿ومن يبتغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلنْ يُقبلَ منهُ وهوَ في الآخرةِ منَ الخاسرينَ﴾[٦]

---

(١) هي الخمس التي بني عليها الاسلام. (٢) الذي يقوم على النطق بالشهادتين.

(٣) هو مذهب الخوارج والمعتزلة.

(٤) هي الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والايمان بالبعث.

(٥) اي الاسلام العام الذي هو توحيد الله واتباع رسله.

(٦) سورة آل عمران الآية ٨٥.

وقال: ﴿إنَّ الدّينَ عندَ اللهِ الإسلام﴾[1] وقال نوح: ﴿يا قوم إن كانَ كَبُرَ عليكم مقامي وتذكيري بآياتِ اللهِ فعلىٰ اللهِ توكّلتُ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثمّ لا يكن أمركم عليكم غُمّةً ثمّ اقضوا إليَّ ولا تنظرونَ. فإنْ توليتم فما سألتكم من أجرٍ إنْ أجري إلاّ علىٰ الله وأمرتُ أنْ أكونَ منَ المسلمينَ﴾[2] وقد أخبر أنه لم ينج من العذاب إلا المؤمنين فقال: ﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلاّ مَنْ سَبَقَ عليهِ القولُ وَمَنْ آمنَ وما آمنَ معهُ إلا قليلٌ﴾[3] وقال: ﴿وأوحىٰ إلىٰ نوحٍ أنّهُ لنْ يؤمنَ من قومِكَ إلاّ مَنْ قدْ آمنَ﴾[4] وقال نوح: ﴿وما أنا بطاردِ الّذينَ آمنوا﴾[5].

وكذلك أخبر عن إبراهيم أن دينه الاسلام فقال تعالى: ﴿وَمَن يرغب عن ملةِ إبراهيمَ إلا من سَفِهَ نفسهُ ولقد اصطفيناهُ في الدّنيا وإنهُ في الآخرة لمنَ الصالحينَ: إذ قالَ لهُ ربه أسلم، قالَ أسلمتُ لربّ العالمينَ. ووصىٰ بها إبراهيم بنيهِ ويعقوب يا بنيَّ إن اللهَ اصطفىٰ لكم الدّينَ فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمونَ﴾[6] وقال: ﴿وَمَنْ أحسنُ ديناً ممن أسلمَ وَجْهَهُ للهِ وهوَ مُحسنٌ واتَّبع ملةَ إبراهيمَ حنيفاً واتخذ اللهُ ابراهيم خليلاً﴾[7] وبمجموع هذين الوصفين علق السعادة فقال: ﴿بلىٰ من أسلمَ وجهه للهِ وهوَ مُحسنٌ فلهُ أجرهُ عندَ ربّهِ ولا خوفَ عليهم ولا هم يحزنون﴾[8] كما علقه بالايمان باليوم الآخر والعمل الصالح في قوله: ﴿إن الّذينَ آمنوا والّذينَ هادوا والنصارىٰ والصابئينَ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وعملَ صالحاً فلهم أجرهمْ عِندَ ربّهم ولا خوفٌ عليهمْ ولا هم يحزنونَ﴾[9] وهذا يدل على أن

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩ .

(٢) سورة يونس الآية ٧١ – ٧٢ .

(٣) سورة هود الآية ٤٠ .

(٤) سورة هود الآية ٣٦ .

(٥) سورة هود الآية ٢٩ .

(٦) سورة البقرة الآيات (١٣٠ – ١٣٢).

(٧) سورة النساء الآية ١٢٥ .

(٨) سورة البقرة الآية ١١٢ .

(٩) سورة البقرة الآية ٦٢ .

الاسلام الذي هو إخلاص الدين لله مع الاحسان وهو العمل الصالح الذي أمر الله به هو والايمان المقرون بالعمل الصالح متلازمان[1]، فإن الوعد على الوصفين وعد واحد وهو الثواب وانتفاء العقاب، فإن انتفاء الخوف علة تقتضي انتفاء ما يخافه، ولهذا قال: ﴿لا خوفٌ عليهمْ ولا همْ يحزنونَ﴾ لم يقل لا يخافون فهم لا خوف عليهم وإن كانوا يخافون الله، ونفى عنهم أن يحزنوا لأن الحزن إنما يكون على ماض، فهم لا يحزنون بحال لا في القبر ولا في عرصات القيامة. بخلاف الخوف فإنه قد يحصل لهم قبل دخول الجنة ولا خوف عليهم في الباطن كما قال تعالى: ﴿ألا إنَّ أولياءَ اللهِ لا خوفٌ عليهم ولا همْ يحزنونَ. الَّذينَ آمنوا وكانُوا يتقونَ﴾[2].

وأما الاسلام المطلق المجرد[3] فليس في كتاب الله تعليق دخول الجنة به كما في كتاب الله تعليق دخول الجنة بالإيمان المطلق المجرد كقوله: ﴿سابقُوا إلى مغفرةٍ منْ ربِّكم وجنةٍ عرضُها كعرضِ السماءِ والأرضِ أعدَّت للذينَ آمنوا باللهِ ورسلهِ﴾[4] وقال: ﴿وبشرِ الَّذينَ آمنوا أنَّ لهمْ قَدَمَ صدقٍ عندَ ربّهم﴾ وقد وصف الخليل ومن اتبعه بالإيمان كقوله: ﴿فآمنَ لهُ لوطٌ﴾[5] ووصفه بذلك فقال: ﴿فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمونْ. الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم[6] أولئكَ لهمْ الأمنُ وهمْ مهتدونَ﴾[7] وقال تعالى: ﴿وتلكَ حجتنا آتيناها إبراهيم علىٰ قومهِ﴾[8] ووصفه بأعلى طبقات الإيمان، وهو أفضل البرية بعد محمد ﷺ والخليل إنما دعا بالرزق للمؤمنين خاصة فقال: ﴿وارزق أهلهُ منَ الثمراتِ مَنْ آمنَ منهم باللهِ واليومِ الآخرِ﴾[9] وقال: ﴿واجعلنا مسلمينَ لكَ

---

(١) فيلزم من وجود احدهما وجود الآخر، ومن انتفاء احدهما انتفاء الآخر.

(٢) سورة يونس الآيات (٦٢ - ٦٣).

(٣) أي الذي لم يذكر معه عمل.

(٤) سورة الحديد الآية ٢١.

(٥) سورة العنكبوت الآية ٢٦.

(٦) أي لم يخلطوا ايمانهم بشرك.

(٧) سورة الانعام الآية ٨١ - ٨٢.

(٨) سورة الانعام الآية ٨٣.

(٩) سورة البقرة الآية ١٢٦.

ومِنْ ذريتنا أمةً مسلمةً لكَ﴾[1] وقال موسى: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم باللهِ فعليه توكّلوا إنْ كُنتم مسلمينَ﴾[2] بعد قوله: ﴿فما آمنَ لموسىٰ إلا ذريةٌ من قومهِ على خوفٍ مِنْ فرعونَ وملإيهم أن يفتنهم﴾[3] وقال: ﴿وأوحينا إلىٰ موسىٰ وأخيهِ أن تبوءا لقومكما بمِصرَ بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلةً وأقيموا الصلاةَ وبشر المؤمنينَ﴾ [4].

وقد ذكرنا البشرى المطلقة للمؤمنين في قوله: ﴿ونزلنا عليكَ الكتابَ تبياناً لكلّ شيءٍ وهدىً ورحمةً وبشرىٰ للمسلمينَ﴾ [5].

وقد وصف الله السحرة بالإسلام والإيمان معاً فقالوا[6] : ﴿آمنا بربِّ العالمينَ. ربِّ موسىٰ وهارونَ﴾ [7] وقالوا: ﴿وما تنقم منا [8] إلاّ أنْ آمنا بآياتِ ربنا لما جاءتنا﴾ [9] وقالوا: ﴿إنا نطمعُ أنْ يغفرَ لنا ربنا خطايانا أن كنا أولَ المؤمنينَ﴾[10] وقالوا: ﴿ربنا أفرغْ علينا صبراً وتوفنا مسلمينَ﴾ ووصف الله أنبياء بني إسرائيل بالإسلام في قوله: ﴿إنا أنزلنا التوراةَ فيها هدىً ونور يحكم بها النبيونَ الّذينَ أسلموا للّذينَ هَادوا﴾[11] والأنبياء كلهم مؤمنون. ووصف الحواريين بالإيمان والإسلام فقالتعالى: ﴿وإذا أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون﴾ ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون﴾ .

وحقيقة الفرق أن الإسلام دين، والدين مصدر دان يدين ديناً إذا خضع

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٨ .
(٢) سورة يونس الآية ٨٤ .
(٣) سورة يونس الآية ٨٣ .
(٤) سورة يونس الآية ٨٧ .
(٥) سورة النحل الآية ٨٩ .
(١٢ وذلك حين عاينوا الآية الكبرى ورأوا العصا تبتلع كل ما أفكوه .
(٧) سورة الاعراف الآيات (١٢١ ـ ١٢٢).
(٨) أي ما تنكر منا وتعيب .
(٩) سورة الاعراف الآية ١٢٦ .
(١٠) سورة الشعراء الآية ٥١ .
(١١)سورة المائدة الآية ٤٤ .

وذل، ودين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فأصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه فمن عبده وعبد معه إلهاً آخر لم يكن مسلماً، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً، والإسلام هو الاستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له، هكذا قال أهل اللغة: أسلم الرجل إذا استسلم، فالإسلام في الأصل من باب العمل، عمل القلب والجوارح.

أما الإيمان فأصله تصديق وإقرار ومعرفة، فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب، والأصل فيه التصديق والعمل تابع له، فلهذا فسر النبي ﷺ الايمان بإيمان القلب وبخضوعه، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وفسر الإسلام باستسلام مخصوص هو المباني الخمس، وهكذا في سائر كلامه ﷺ يفسر الإيمان بذلك النوع[1] ويفسر الإسلام بهذا[2] وذلك النوع أعلى[3] ولهذا قال النبي ﷺ «الاسلام علانية والإيمان في القلب» فإن الأعمال الظاهرة يراها الناس وأما ما في القلب من تصديق ومعرفة وحب وخشية ورجاء فهذا باطن. لكن له لوازم قد تدل عليه واللازم لا يدل إلا إذا كان ملزوماً، فلهذا كان من لوازمه ما يفعله المؤمن والمنافق فلا يدل ففي حديث عبد الله بن عمرو وأبي هريرة جميعاً أن النبي ﷺ قال «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم» ففسر المسلم بأمر ظاهر وهو سلامة الناس منه، وفسر المؤمن بأمر باطن وهو أن يأمنوه على دمائهم وأموالهم، وهذه الصفة أعلى من تلك فإن من كان مأموناً سلم الناس منه، وليس كل من سلموا منه يكون مأموناً فقد يترك أذاهم وهم لا يأمنون إليه خوفاً أن يكون ترك أذاهم لرغبة ورهبة لا لإيمان في قلبه.

وفي حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عبسة عن النبي ﷺ أن رجلاً قال

---

(١) الذي هو تصديق القلب وخضوعه. (٢) اي بالانقياد الكامل الظاهر.

(٣) أي ان ما يرجع إلى تصديق القلب وخضوعه أعلى مرتبة من الانقياد الظاهر.

للنبي ﷺ ما الإسلام؟ قال « إطعام الطعام ولين الكلام » قال فما الإيمان؟ قال « السماحة والصبر » فإطعام الطعام عمل ظاهر يفعله الإنسان لمقاصد متعددة، وكذلك لين الكلام، وأما السماحة والصبر فخلقان في النفس، قال تعالى ﴿وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾[1] وهذا أعلى من ذاك، وهو أن يكون صباراً شكوراً فيه سماحة بالرحمة للإنسان وصبر على المكاره، وهذا ضد الذي خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا[2] فإن ذاك ليس فيه سماحة عند النعمة ولا صبر عند المصيبة.

وتمام الحديث: فأي الاسلام أفضل؟ قال « من سلم المسلمون من لسانه ويده » قال يا رسول الله أي المؤمنين أكمل إيماناً؟ قال « أحسنهم خلقاً » قال يا رسول الله أيّ القتل أشرف؟ قال « من أريق دمه وعقر جواده »[3]وقال يا رسول الله فأي الجهاد أفضل؟ قال « الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله » قال يا رسول الله فأي الصدقة أفضل؟ قال « جهد المقل » قال يا رسول الله فأي الصلاة أفضل؟ قال « طول القنوت »[4] قال يا رسول الله فأي الهجرة أفضل؟ قال « من هجر السوء » وهذا محفوظ عن عبيد بن عمير تارة يروى مرسلاً وتارة يروى مسنداً، وفي رواية أي الساعات أفضل؟ قال « جوف الليل الغابر »[5]، وقوله « أفضل الإيمان السماحة والصبر » يروى من وجه آخر عن جابر عن النبي ﷺ.

حقيقة الفرق بين الإيمان والإسلام

وهكذا في سائر الأحاديث إنما يفسر الإسلام بالاستسلام لله بالقلب مع الأعمال الظاهرة كما في الحديث المعروف الذي رواه أحمد عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال: والله يا رسول الله ما أتيتك حتى حلفت عدد أصابعي

(١) مصدر ميمي وهي بمعنى الرحمة.

(٢) الهلع: هو الحرص والبخل والجزع: هو القنوط والضجر، والمنوع: الكثير المنع.

(٣) أي ذبح فرسه. (٤) أي القراءة. (٥) أي الباقي.

هذه ألا آتيك فبالذي بعثك بالحق مابعثك به؟ قال« الاسلام »،قال وما الاسلام؟ قال: « أن تسلم قلبك لله[1] وأن توجه وجهك إلى الله[2] وأن تصلي الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة أخوان نصيران لا يقبل الله من عبد أشرك بعد إسلامه » وفي رواية قال « أن تقول أسلمت وجهي لله وتخليت[3] وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وكل مسلم على مسلم محرم »[4] وفي لفظ تقول: « أسلمت نفسي لله وخليت وجهي إليه » وروى محمد بن نصر من حديث خالد بن معدان عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « إن للإسلام صوى[5] ومناراً كمنار الطريق، من ذلك أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وأن تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتسلم على بني آدم إذا لقيتهم، فإن ردوا عليك ردت عليك وعليهم الملائكة، وإن لم يردوا عليك ردت عليك الملائكة، ولعنتهم إن سكت عنهم، وتسليمك على أهل بيتك إذا دخلت عليهم، فمن انتقص منهن شيئاً فهو سهم في الاسلام تركه، ومن تركهن فقد نبذ الإسلام وراء ظهره[6].

تفسير قوله تعالى (ادخلوا في السلم كافة)

وقد قال تعالى: ﴿يا أيها الَّذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾[7] قال مجاهد وقتادة نزلت في المسلمين يأمرهم بالدخول في شرائع الاسلام كلها، وهذا لا ينافي قول من قال نزلت فيمن أسلم من أهل الكتاب[8] أو فيمن لم يسلم، لأن

---

(١) ان تخبت له وتستكين وتخضع.

(٢) ان تخلص له القصد والارادة فلا تعمل العمل إلا ابتغاء وجهه.

(٣) أي تركت ما كنت عليه من عبادة غير الله تعالى.

(٤) أي دمه وماله وعرضه.

(٥) جمع صوة وهي العلامة. (٦) أي طرحه والقاه.

(٧) سورة البقرة الآية ٢٠٨.

(٨) قيل نزلت في عبد الله بن سلام، كره لحوم الابل بعد اسلامه على عادة اليهود.

هؤلاء كلهم مأمورون أيضاً بذلك والجمهور يقولون ﴿في السلم﴾ أي في الإسلام، وقالت طائفة هو الطاعة وكلاهما مأثور عن ابن عباس وكلاهما حق، فإن الإسلام هو الطاعة كما تقدم أنه من باب الأعمال، وأما قوله ﴿كافة﴾ فقد قيل المراد ادخلوا كلكم وقيل المراد به ادخلوا في الاسلام جميعه وهذا هو الصحيح فإن الإنسان لا يؤمر بعمل غيره، وإنما يؤمر بما يقدر عليه، وقوله ﴿ادخلوا﴾ خطاب لهم كلهم، فقوله ﴿كافة﴾ إن أريد به مجتمعين لزم أن يترك الإنسان الإسلام حتى يسلم غيره فلا يكون الاسلام مأموراً به إلا بشرط الغير له كالجمعة، وهذا لا يقوله مسلم، وإن أريد بكافة أي ادخلوا جميعكم فكل أوامر القرآن كقوله: ﴿آمنوا بالله ورسوله﴾[1]، ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾[2] كلها من هذا الباب وما قيل فيها كافة، وقوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾[3] أي قاتلوهم كلهم لا تدعوا مشركاً حتى تقاتلوه، فإنها أنزلت بعد نبذ العهود، ليس المراد قاتلوهم مجتمعين أو جميعكم، فإن هذا لا يجب، بل يقاتلون بحسب المصلحة، والجهاد فرض على الكفاية[4]، فإذا كانت فرائض الأعيان لم يؤكد المأمورين فيها بكافة فكيف يؤكد بذلك في فروض الكفاية، وإنما المقصود تعميم المقاتلين وقوله ﴿كما يقاتلونكم كافة﴾[5] احتمالان.

والمقصود أن الله أمر بالدخول في جميع الإسلام كما دل عليه هذا الحديث، فكل ما كان من الإسلام وجب الدخول فيه، فإن كان واجباً على الأعيان لزمه فعله، وإن كان واجباً على الكفاية اعتقد وجوبه وعزم عليه اذا تعين، أو أخذ

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٥ .

(٢) سورة البقرة الآية ٤٣ .

(٣) سورة التوبة الآية ٣٦ .

(٤) رجح ابن قيم الجوزية في الزاد انه فرض عين بحسب الامكان، فمن لم يقدر على الجهاد بالنفس وجب عليه بالمال وهكذا .

(٥) سورة التوبة الآية ٣٦ .

بالفضل ففعله، وإن كان مستحباً اعتقد حسنه وأحب فعله، وفي حديث جرير أن رجلاً قال يا رسول الله صف لي الاسلام قال « تشهد أن لا إله إلا الله وتقر بما جاء من عند الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت » قال أقررت، في قصة طويلة فيها أنه وقع في أخاقيق جرذان وأنه قتل وكان جائعاً وملكان يدسان في شدقه من ثمار الجنة، فقوله وتقر بما جاء من عند الله هو الاقرار بأن محمداً رسول الله فإنه هو الذي جاء بذلك.

وفي الحديث الذي يرويه أبو سليمان الداراني حديث الوفد الذين قالوا نحن المؤمنون؛ قال فما علامة إيمانكم، قالوا خمس عشرة خصلة: خمس أمرتنا رسلك أن نعمل بهن، وخمس أمرتنا رسلك أن نؤمن بهن، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية ونحن عليها في الاسم الا أن تكره منها شيئاً، قال فما الخمس التي أمرتكم رسلي أن تعملوا بها، قالوا: أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ونقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونصوم رمضان، ونحج البيت: قال وما الخمس التي أمرتكم أن تؤمنوا بها؟ قالوا: أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت؛ قال وما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية وثبتم عليها في الإسلام؟ قالوا: الصبر عند البلاء؛ والشكر عند الرخاء؛ والرضى بمر القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء، فقال النبي ﷺ: « علماء حكماء كادوا من صدقهم أن يكونوا أنبياء » وقال ﷺ: «وأنا أزيدكم خمساً فتتم لكم عشرون خصلة إن كنتم كما تقولون: فلا تجمعوا ما لا تأكلون. ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا فيما أنتم عنه منتقلون، واتقوا الله الذي ترجعون وعليه تعرضون، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون ».

فقد فرقوا بين الخمس التي يعمل بها فجعلوها الاسلام والخمس التي يؤمن بها فجعلوها الإيمان، وجميع الأحاديث المأثورة عن النبي ﷺ تدل على مثل هذا.

وفي الحديث الذي رواه أحمد من حديث أيوب عن أبي قلابة عن رجل من

أهل الشام عن أبيه أن النبي ﷺ قال له« أسلم تسلم »قال وما الاسلام؟قال« أن تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك ».قال فأي الإسلام أفضل؟ قال « الايمان ».قال وما الايمان؟ قال« أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت ». قال فأي الايمان أفضل؟قال« الهجرة »،قال وما الهجرة؟ قال« أن تهجر السوء »: قال فأي الهجرة أفضل؟قال« الجهاد »،قال وما الجهاد، قال « أن تجاهد الكفار إذا لقيتهم ولا تغل[1] ولاتجبن ».ثم قال رسول الله ﷺ« ثم عملان هما أفضل الأعمال إلا من عمل بمثلها قالها ثلاثا: حجة مبرورة أو عمرة ».وقوله عما أفضل الأعمال أي بعد الجهاد لقوله ثم عملان، ففي الحديث جعل الايمان خصوصاً في الاسلام، والاسلام أعم منه كما جعل الهجرة خصوصاً في الايمان والايمان أعم منه، وجعل الجهاد خصوصاً من الهجرة، والمهاجر أعم منه. فالاسلام أن تعبد الله وحده لا شريك له مخلصاً له الدين.

وهذا دين الله الذي لا يقبل من أحد غيره لا من الأولين ولا من الآخرين ولا تكون عبادته مع إرسال الرسل إلينا إلا بما أمرت به رسله، لا بما يضاد ذلك فإن ضد ذلك معصية، وقد ختم الله الرسل بمحمد ﷺ فلا يكون مسلماً إلا من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. وهذه الكلمة بها يدخل الانسان في الاسلام[2] فمن قال الاسلام الكلمة وأراد هذا فقد صدق ثم لا بد من التزام ما أمر به الرسول من الأعمال الظاهرة كالمباني الخمس، ومن ترك من ذلك شيئاً نقص إسلامه بقدر ما نقص من ذلك كما في الحديث من نقص منهن شيئاً فهو سهم من الاسلام تركة. وهذه الأعمال إذا عملها الانسان مخلصاً لله تعالى فإنه يثيبه عليها، ولا يكون ذلك إلا مع إقراره بقلبه أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله[3]، فيكون معه من الايمان هذا الاقرار وهذا الاقرار لا يستلزم أن

---

(١) من الغلول وهو الخيانة في الغنيمة.

(٢) المقصود أول الامر ثم يؤمر بعد ذلك ببقية الاركان.

(٣) حتى يتميز عن المنافق الذي ليس لديه سوى هذا الاقرار.

يكون صاحبه معه من اليقين ما لا يقبل الريب ولا أن يكون مجاهداً ولا سائر ما يتميز به المؤمن عن المسلم الذي ليس بمؤمن. وخلق كثير من المسلمين باطناً وظاهراً معهم هذا الاسلام بلوازمه من الايمان. ولم يصلوا إلى اليقين والجهاد[1]، فهؤلاء يثابون على إسلامهم وإقرارهم بالرسول مجملاً[2] قد لا يعرفون أنه جاء بكتاب، وقد لا يعرفون أنه جاءه ملك، ولا أنه أخبر بكذا، وإذا لم يبلغهم أن الرسول أخبر بذلك لم يكن عليهم الإقرار المفصل به لكن لا بد من الإقرار بأنه رسول الله وأنه صادق في كل ما يخبر به عن الله.

ثم الإيمان الذي يمتاز به فيه تفصيل وفيه طمأنينة ويقين، فهذا متميز بصفته وقدره في الكمية والكيفية، فإن أولئك معهم من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتفصيل المعاد والقدر ما لا يعرفه هؤلاء.

وأيضاً ففي قلوبهم من اليقين والثبات ولزوم التصديق لقلوبهم ما ليس مع هؤلاء، وأولئك هم المؤمنون حقاً، وكل مؤمن لا بد أن يكون مسلماً. فإن الإيمان يستلزم الأعمال، وليس كل مسلم مؤمناً هذا الإيمان المطلق، لأن الاستسلام لله والعمل له لا يتوقف على هذا الايمان الخاص، وهذا الفرق يجده الإنسان من نفسه ويعرفه من غيره، فعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر وولدوا على الإسلام والتزموا شرائعه وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله، فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل، ولكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم إنما يحصل شيئاً فشيئاً إن أعطاهم الله ذلك، وإلا فكثير من الناس لا يصلون لا إلى اليقين ولا إلى الجهاد. ولو شككوا لشكوا ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا. وليسوا كفاراً ولا منافقين، بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب[3]، ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه على الأهل والمال، وهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة، وإن ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب

---

(١) وهما شرطان اساسيان للايمان.

(٢) فالايمان الاجمالي كاف للنجاة من النار.

(٣) أي يدفع الشك عنهم.

ريبهم[1] فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين، وانتقلوا إلى نوع من النفاق.

وكذلك إذا تعين عليهم الجهاد ولم يجاهدوا كانوا من أهل الوعيد، ولهذا لما قدم النبي ﷺ المدينة أسلم عامة أهلها، فلما جاءت المحنة والابتلاء نافق من نافق،[2] فلو مات هؤلاء قبل الامتحان[3] لماتوا على الاسلام ودخلوا الجنة ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين ابتلوا فظهر صدقهم قال تعالى: ﴿ألم، أحسبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهُمْ لا يُفتنونَ؛ ولقد فتنا الَّذينَ من قبلهم فليعلمنَّ اللهُ الَّذينَ صدقُوا وليعلمنَّ الكاذبينَ﴾[4] وقال تعالى: ﴿ما كانَ اللهُ ليذرَ المؤمنينَ على ما أنتم عليهِ حتى يميزَ الخبيثَ مِنَ الطيّبِ﴾[5] وقال: ﴿ومِنَ النَّاسِ من يعبد اللهَ علىٰ حَرفٍ، فإنْ أصابهُ خيرٌ اطمأنَ بهِ وإنْ أصابتهُ فتنةٌ انقلبَ على وجههِ خسر الدنيا والآخرةَ ذلكَ هو الخسرانُ المبينُ﴾[6] ولهذا ذم المنافقين بأنهم دخلوا في الإيمان ثم خرجوا منه بقوله تعالى: ﴿إنَّ المنافقينَ لكاذبونَ، اتخذوا أيمانهم جُنةً[7] فصدُّوا عن سبيل الله﴾ إلى قوله ـ﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كَفَرُوا فطبعَ علىٰ قلوبِهم فهم لا يفقهونَ﴾[8] وقال في الآية الأخرى: ﴿يحذر المنافقونَ أن تنزل عليهم سورةٌ﴾ إلى قوله ﴿قل أبالله وآياتهِ ورسوله كنتم تستهزئون. لا تعتذروا قدْ كفرتم بعدَ ايمانكم، ان نعف عن طائفةٍ منكم نعذّبْ طائفة بأنهم كانوا مجرمينَ﴾[9] فقد أمره أن يقول لهم قد كفرتم بعد ايمانكم[10].

---

(١) أي تستلزم قلقهم وشكهم.

(٢) كان سبب ظهور النفاق هو انتصار المسلمين ببدر مما دفع من بقي على شركه من أهلها ان يدخلوا في الاسلام ظاهراً ليعصموا به دماءهم وأموالهم.

(٣) أي ان يختبروا ويمتحنوا في دينهم.

(٤) سورة العنكبوت الآيات (١ ـ ٣).

(٥) سورة آل عمران الآية ١٧٩.

(٦) سورة الحج الآية ١١.

(٧) أي وقاية يحتمون بها.

(٨) سورة المنافقون الآيات (١ ـ ٣).

(٩) سورة التوبة الآيات (٦٤ ـ ٦٦).

(١٠) المعنىٰ ان المنافقين لم يؤمنوا اصلاً ليقال انهم خرجوا من الايمان ومعنى الآية: قد ظهر منكم الكفر بعد الايمان.

وقول من يقول عن مثل هذه الآيات إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم، لا يصح لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر، فلا يقال قد كفرتم بعد إيمانكم فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم، وهم مع خواصهم ما زالوا هكذا، بل لما نافقوا وحذروا أن تنزل سورة تبين ما في قلوبهم من النفاق وتكلموا بالاستهزاء صاروا كافرين بعد إيمانهم، ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين وقد قال تعالى: ﴿يا أيّها النبي جاهد الكفّارَ والمنافقينَ واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئسَ المصير. يحلفونَ باللهِ ما قالوا ولقد قالوا كلمةَ الكفرِ وكفروا بعدَ إسلامهم وهمّوا بما لم ينالوا، وما نقمُوا إلاّ أنْ أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يكُ خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدّنيا والآخرة﴾[1] فهنا قال كفروا بعد إسلامهم، فهذا الاسلام قد يكون من جنس إسلام الأعراب، فيكون قوله بعد إيمانهم وبعد إسلامهم سواء، وقد يكونون ما زالوا منافقين، فلم يكن لهم حال كان معهم فيها من الإيمان شيء، لكنهم أظهروا الكفر والردة. ولهذا دعاهم إلى التوبة فقاله: ﴿فإنْ يتوبوا[2] يكُ خيراً لهم وإنْ يتولوا﴾ بعد التوبة عن التوبة ﴿يُعذبهم عذاباً أليماً في الدّنيا والآخرة﴾، وهذا إنما هو كمن أظهر الكفر فيجاهده الرسول بإقامة الحد والعقوبة. ولهذا ذكر هذا في سياق قوله: ﴿جاهد الكفّار والمنافقينَ واغلظ عليهم﴾ ولهذا قال في تمامها: ﴿وما لهم في الأرضِ من وليّ ولا نصيرٍ﴾.

وهؤلاء الصنف الذين كفروا بعد إسلامهم غير الذين كفروا بعد ايمانهم[3] فإن هؤلاء حلفوا بالله ما قالوا، وقد قالوا كلمة الكفر التي كفروا بها بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوه، وهو يدل على أنهم سعوا في ذلك فلم يصلوا إلى

---

(١) سورة التوبة الآيات (٧٣ - ٧٤).

(٢) أي عن نفاقهم ويدخلوا في الاسلام ظاهراً وباطناً.

(٣) كلاهما منافق مضمر للكفر.

مقصودهم، فإنه لم يقل هموا بما لم يفعلوا، لكن ﴿بما لم ينالوا﴾ فصدر منهم قول وفعل قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم ليقولنَّ إنَّما كنَّا نخوضُ ونلعبُ﴾[1] فاعترفوا واعتذروا ولهذا قيل: ﴿لا تعتذروا قد كفرتُمْ بعدَ إيمانكم إن نعفُ عن طائفةٍ منكم نعذّبْ طائفة﴾[2] فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفراً بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر، فبين أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد ايمانه، فدل على أنه كان عندهم ايمان ضعيف ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم، ولكن لم يظنوه كفراً وكان كفراً كفروا به، فإنهم لم يعتقدوا جوازه، وهكذا قال غير واحد من السلف في صفة المنافقين الذين ضرب لهم المثل في سورة البقرة أنهم أبصروا ثم عموا، وعرفوا ثم أنكروا، وآمنوا ثم كفروا ولذلك قال قتادة ومجاهد: ضرب المثل لاقبالهم على المؤمنين وسماعهم ما جاء به الرسول وذهاب نورهم. قال: ﴿مثلهم كمثلِ الذي استوقدَ ناراً فلما أضاءت ما حولهُ ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرونَ. صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون﴾[3] إلى ما كانوا عليه.

وأما قول من قال: المراد بالنور ما حصل في الدنيا من حقن دمائهم وأموالهم فإذا ماتوا سلبوا ذلك الضوء كما سلب ذلك النور ضوءه، فلفظ الآية يدل على خلاف ذلك، فإنه قال: ﴿وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرونَ، صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعونَ﴾[4] ويوم القيامة يكونون في العذاب كما قال تعالى: ﴿يومَ يقولُ المنافقونَ والمنافقاتِ للَّذينَ آمنوا انظرونا نقتبس مِنْ نوركم، قيلَ ارجعوا وراءكم فالتمِسُوا نوراً، فضربَ بينهم بسورٍ لهُ باب باطنهُ فيهِ الرحمةُ وظاهرهُ من قبله العذاب. ينادونهم: ألم نكنْ معكم، قالوا بلىٰ ولكنكم فتنتم أنفسكم﴾[5] الآية، وقد قال غير واحد من السلف: إن المنافق يعطى يوم القيامة نوراً ثم

---

(١) سورة التوبة الآية ٦٥.

(٢) سورة التوبة الآية ٦٦.

(٣) سورة البقرة الآيات (١٧ ـ ١٨).

(٤) سورة البقرة الآيات (١٧ ـ ١٨).

(٥) سورة الحديد الآيات (١٣ ـ ١٤).

يطفأ[1] ولهذا قال تعالى: ﴿يوم لا يُخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا﴾[2].

قال المفسرون: إذا رأى المؤمنون نور المنافقين يطفأ سألوا الله أن يتم لهم نورهم ويبلغهم به الجنة.

قال ابن عباس: ليس أحد من المسلمين إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فأما المنافق فيطفأ نوره والمؤمن يشفق مما رأى من اطفاء نور المنافق، فهو يقول ربنا أتمم لنا نورنا، وهو كما قال، فقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وهو ثابت من وجوه أخر عن النبي ﷺ: ورواه مسلم من حديث جابر وهو معروف من حديث ابن مسعود وهو أطولها، ومن حديث أبي موسى في الحديث الطويل الذي يذكر فيه «أنه ينادي يوم القيامة: ليتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم. فيقولون نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون، فيقول أنا ربكم، فيقولون أنت ربنا فيتبعونه»، وفي رواية: «فيكشف عن ساقه»، وفي رواية فيقول «هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها»؟ فيقولون نعم. فيكشف عن ساق، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد أنفاً ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه».

فبين أن المنافقين يحشرون مع المؤمنين في الظاهر كما كانوا معهم في الدنيا ثم

---

(1) وهو على متن الصراط، فيقفون متحيرين وينادون المؤمنين (أنظرونا نقتبس من نوركم) فيقال لهم استهزاء بهم وخداعاً كما كانوا يخدعون المؤمنين في الدنيا (ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً)...

(2) سورة التحريم الآية ٨.

وقت الحقيقة هؤلاء يسجدون لربهم، وأولئك لا يتمكنون من السجود، فإنهم لم يسجدوا في الدنيا له، بل قصدوا الرياء للناس، والجزاء في الآخرة هو من جنس العمل في الدنيا، فلهذا أعطوا نوراً ثم طفيء لأنهم في الدنيا دخلوا في الإيمان ثم خرجوا. ولهذا ضرب الله لهم المثل بهذا بذلك. وهذا المثل هو لمن كان فيهم آمن ثم كفر، وهؤلاء الذين يعطون في الآخرة نوراً ثم يطفأ. ولهذا قال: ﴿فهم لا يرجعون﴾ قال قتادة ومقاتل: لا يرجعون عن ضلالهم. وقال السدى: لا يرجعون إلى الإسلام يعني في الباطن وإلا فهم يظهرونه، وهذا المثل إنما يكون في الدنيا، وهذا المثل مضروب لبعضهم وهم الذين آمنوا ثم كفروا. وأما الذين لم يزالوا منافقين فضرب لهم المثل الآخر وهو قوله: ﴿أو كصيّبٍ من السَّماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ﴾[1] وهذا أصح القولين، فإن المفسرين اختلفوا هل المثلان مضروبان لهم كلهم أو هذا المثل لبعضهم؟ على قولين. والثاني هو الصواب لأنه قال ﴿وكصيب﴾ وإنما يثبت بها أحد الأمرين، فدل ذلكْ على أنهم مثلهم هذا وهذا فإنهم لا يخرجون عن المثلين، بل بعضهم يشبه هذا وبعضهم يشبه هذا، ولو كانوا كلهم يشبهون المثلين لم يذكر «أو» بل يذكر الواو العاطفة.

وقول من قال «أو» ههنا للتخيير كقولهم: جالس الحسن أو ابن سيرين ليس بشيء لأن التخيير يكون في الأمر لا يكون في الخبر، وهذا خبر[2]. وكذلك قول من قال (أو) بمعنى الواو أو لتشكيك المخاطبين أو الإبهام عليهم ليس بشيء، فإن الله يريد بالأمثال البيان والتفهيم لا يريد التشكيك والإبهام.

والمقصود تفهيم المؤمنين حالهم؛ ويدل على ذلك أنه قال في المثل الأول ﴿صم بكم عمي﴾ وقال في الثاني: ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩.

(٢) ليس خبراً. وإنما هو تصوير لهم بصورتين.

الله على كل شيء قدير﴾ فبين في المثل الثاني أنهم يسمعون ويبصرون ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم، وفي الأول كانوا يبصرون ثم صاروا في ظلمات لا يبصرون، صم بكم عمي، وفي الثاني إذا أصابهم البرق مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، فلهم حالان: حال ضياء وحال ظلام، والأولون بقوا في الظلمة فالأول حال من كان في ضوء فصار في ظلمة، والثاني حال من لم يستقر لا في ضوء ولا في ظلمة، بل تختلف عليه الأحوال التي توجب مقامه واسترابته.

،يبين هذا أنه سبحانه ضرب للكفار أيضاً مثلين بحرف أو فقال:﴿والَّذينَ كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعةٍ يحسبهُ الظمآنُ ماء حتى إذا جاءهُ لم يجدهُ شيئاً ووجدَ اللهَ عندهُ فوفاهُ حسابهُ واللهُ سريعُ الحساب. أو كظلماتٍ في بحرٍ لجيٍّ يغشاهُ موجٌ من فوقهِ موجٌ من فوقهِ سحابٌ ظلماتٌ بعضها فوقَ بعضٍ إذا أخرجَ يده لم يكدْ يراها ومن لم يجعل الله لهُ نوراً فما له من نورٍ﴾[1] فالأول مثل الكفر الذي يحسب صاحبه أنه على حق وهو على باطل كمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإنه لا يعلم ولا يعلم أنه لا يعلم، فلهذا مثل بسراب بقيعة، والثاني مثل الكفر الذي لا يعتقد صاحبه شيئاً بل هو في ظلمات بعضها فوق بعض من عظم جهله لم يكن معه اعتقاد أنه على حق، بل لم يزل جاهلاً ضالاً في ظلمات متراكمة.

وأيضاً فقد يكون المنافق والكافر تارة متصفاً بهذا الوصف، فيكون التقسيم في المثلين لنوع الأشخاص ولتنوع أحوالهم، وبكل حال فليس ما ضرب له هذا المثل هو مماثل لما ضرب له هذا المثل لاختلاف المثلين صورة ومعنى، ولهذا لم يضرب للإيمان إلا مثل واحد، لأن الحق واحد، فضرب مثله بالنور، وأولئك ضرب لهم المثل بضوء لا حقيقة له كالسراب بالقيعة أو الظلمات المتراكمة، وكذلك المنافق يضرب له بمن أبصر ثم عمي أو هو مضطرب يسمع ويبصر ما لا ينتفع به. فتبين أن من المنافقين من كان آمن ثم كفر باطناً، وهذا مما استفاض

---

(١) سورة النور الآيات (٣٩ ـ ٤٠).

به النقل عند أهل العلم بالحديث والتفسير والسيرة أنه كان رجال قد آمنوا ثم نافقوا[1]، وكان يجري ذلك لأسباب: منها أمرَ القبلة لما حولت ارتد عن الإيمان لأجل ذلك طائفة وكانت محنة امتحن الله بها الناس، قال تعالى: ﴿وما جعلنا القِبلةَ التي كنتَ عليها إلا لنعلمَ مَنْ يتّبعَ الرسولَ ممّن ينقلب علىٰ عقبيهِ﴾[2] قال أي إذا حولت، والمعنى أن الكعبة هي القبلة التي كان في علمنا أن نجعلها قبلتكم، فإن الكعبة ومسجدها وحرمها أفضل بكثير من بيت المقدس، وهي البيت العتيق، وقبلة إبراهيم وغيره من الأنبياء، ولم يأمر الله قط أحداً أن يصلي إلى بيت المقدس لا موسى ولا عيسى ولا غيرهما، فلم نكن لنجعلها قبلة دائمة، ولكن جعلناها أولاً قبلة لنمتحن بتحويلك منها الناس فيتبين من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، فكان في شرعها هذه الحكمة.

وكذلك أيضاً لما انهزم المسلمون يوم أُحد وشج وجه النبي ﷺ وكسرت رباعيته ارتد طائفة نافقوا، قال تعالى: ﴿ولا تهِنُوا ولا تحزنُوا وأنتم الأعلونَ إنْ كنتم مؤمنينَ. إن يمسسكم قرحٌ فقد مسَّ القومَ قرحٌ مثلهُ وتلكَ الأيام نداولها بينَ النّاسِ وليعلمَ اللهُ الّذينَ آمنوا ويتّخذ منكم شهداءَ واللهُ لا يحبُّ الظالمينَ. وليمَحِصَ اللهُ الّذينَ آمنوا ويمحقَ الكافرينَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وما أصابَكم يومَ التقىٰ الجمعانِ فبإذنِ اللهِ وليعلمَ المؤمنينَ. وليعلمَ الّذينَ نافقوا وقيلَ لهم تعالَوا قاتِلُوا في سبيلِ اللهِ أو ادفعوا قالوا لو نعلمُ قِتالاً لاتبعناكم، وهم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم واللهُ أعلمُ بما يكتمونَ﴾[4] فقوله ﴿وليعلمَ الّذينَ نافَقُوا﴾ ظاهر فيمن أحدث نفاقاً وهو يتناول من لم ينافق قبل ومن نافق ثم جدد نفاقاً ثانياً. وقوله ﴿هم للكفرِ يومئذٍ أقربُ منهم للايمانِ﴾[5] يبين أنهم لم يكونوا قبل ذلك أقرب منهم، بل إما أن

---

(١) أي ظهر نفاقهم في المحن والشدائد. (٢) سورة البقرة الآية ١٤٣.

(٣) سورة آل عمران الآيات (١٣٩ ـ ١٤١). (٤) سورة آل عمران الآيات (١٦٦ ـ ١٦٧).

(٥) أي بحسب الظاهر، إن ما ظهر منهم من علامات الكفر كان أقوى مما يدعونه من الايمان، والا فهم لم يؤمنوا أصلاً.

يتساويا وإما أن يكونوا للايمان أقرب، وكذلك كان؛ فإن ابن أبي لما إنخذل عن النبي ﷺ يوم أُحد إنخذل ثلث الناس قالوا كانوا نحو ثلاثمائة، وهؤلاء لم يكونوا قبل ذلك كلهم منافقين في الباطن، إذ لم يكن لهم داع إلى النفاق، فإن ابن أبي كان مظهراً لطاعة النبي ﷺ والإيمان به، وكان كل يوم جمعة يقوم خطيباً في المسجد يأمر باتباع النبي ﷺ ولم يكن ما في قلبه يظهر إلا لقليل من الناس إن ظهر، وكان معظماً في قومه، وكانوا قد عزموا على أن يتوجوه ويجعلوه مثل الملك عليهم، فلما جاءت النبوة بطل ذلك، فحمله الحسد على النفاق، وإلا فلم يكن هو في الباطن على دين يدعو إليه، وإنما كان هذا في اليهود فلما جاء النبي ﷺ بدينه وقد ظهر حسنه ونوره مالت إليه القلوب لا سيا لما نصره الله يوم بدر ونصره من يهود بني قينقاع صار معه الدين والدنيا، فكان المقتضي للايمان في عامة الأنصار قائماً، وكان كثير منهم يعظم ابن أبي تعظيماً كثيراً ويواليه، ولم يكن ابن أبي أظهر مخالفة توجب الامتياز، فلما إنخذل يوم أحد وقال يدع رأيي ورأيه ويأخذ برأي الصبيان أو كما قال، انخذل معه خلق كثير منهم لم ينافق قبل ذلك.

وفي الجملة: في الأخبار ممن نافق بعد إيمانه ما يطول ذكره هنا. فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم إيمان هو الضوء الذي ضرب الله به المثل. فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق ماتوا على هذا الاسلام الذي يثابون عليه ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين امتحنوا فثبتوا على الايمان. ولا من المنافقين حقاً الذين ارتدوا عن الايمان بالمحبة. وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا وأكثرهم إذا ابتلوا بالمحن التي يتضعضع فيها أهل الايمان ينقص إيمانهم كثيراً وينافق كثير منهم، ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالباً، وقد رأينا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة. وإذا كانت العافية[1]، أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم

---

(١) أي السلامة من الفتن وانواع البلاء.

كانوا مسلمين، وهم مؤمنون بالرسول باطناً وظاهراً لكن إيماناً لا يثبت على المحنة.

ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم، وهؤلاء من الذين قالوا آمنا فقيل لهم: ﴿قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم[1]﴾ أي الإيمان المطلق الذي أهله هم المؤمنون حقاً فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق في كتاب الله تعالى كما دل عليه الكتاب والسنة، ولهذا قال تعالى: ﴿إنَّما المؤمنونَ الَّذينَ آمنوا باللهِ ورسولهِ ثمَّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسِهم في سبيلِ اللهِ أولئكَ هم الصَّادقون[2]﴾ فلم يحصل لهم ريب عند المحن التي تقلقل الإيمان في القلوب[3] والريب يكون في علم القلب وفي عمل القلب بخلاف الشك فإنه لا يكون إلا في العلم[4] ولهذا لا يوصف باليقين إلا من اطمأن قلبه علماً وعملاً [5]. وإلا فإذا كان عالماً بالحق ولكن المصيبة أو الخوف أورثه جزعاً عظيماً لم يكن صاحب يقين، قال تعالى: ﴿هنالكَ ابتلي المؤمنونَ وزُلزلوا زلزالاً شديداً﴾[6].

وكثيراً ما يعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ثم يتوب الله عليه، وقد يرد على قلبه بعض ما يوجب النفاق ويدفعه الله عنه، والمؤمن يبتلى بوساوس الشيطان بوساوس الكفر التي يضيق بها صدره كما قالت الصحابة يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه مالئن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به، فقال «ذاك صريح الإيمان» وفي رواية ما يتعاظم أن يتكلم به، قال: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة» أي حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهة العظيمة له، ودفعه عن القلب هو من صريح الإيمان، كالمجاهد الذي جاءه العدو فدافعه حتى غلبه، فهذا عظيم الجهاد، والصريح الخالص كاللبن الصريح. وإنما

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٤.
(٢) سورة الحجرات الآية ١٥.
(٣) أي تجعله قلقاً مضطرباً.
(٤) لأن الشك تردد في تصديق الخبر.
(٥) لأن اليقين معناه السكون والطمأنينة.
(٦) سورة الاحزاب الآية ١١.

صار صريحاً لما كرهوا تلك الوساوس الشيطانية ودفعوها. فخلص الإيمان فصار صريحاً.

ولا بد لعامة الخلق من هذه الوساوس، فمن الناس من يجيبها[1] فيصير كافراً أو منافقاً، ومنهم من قد غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يجيبها إلا إذا طلب الدين فإما أن يصير مؤمناً وإما أن يصير منافقاً. ولهذا يعرض للناس من الوساوس في الصلاة ما لا يعرض لهم إذا لم يصلوا، لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى ربه والتقرب إليه والاتصال به، فلهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم، ويعرض للخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة، ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوساوس والشبهات ما ليس عند غيرهم، لأنه لم يسلك شرع الله ومنهاجه، بل هو مقبل على هواه في غفلة عن ذكر ربه، وهذا مطلوب الشيطان بخلاف المتوجهين إلى ربهم بالعلم والعبادة فإنه عدوهم يطلب صدهم عن الله قال تعالى: ﴿إنَّ الشيطانَ لكم عدو فاتخذُوهُ عدواً﴾[2] ولهذا أمر قارىء القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، فإن قراءة القرآن على الوجه المأمور به[3]، تورث القلب الإيمان العظيم، وتزيده يقيناً وطمأنينة وشفاء، وقال تعالى: ﴿وننزّلُ مِنَ القرآنِ ما هوَ شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنينَ، ولا يزيدُ الظالمينَ إلا خساراً﴾[4] وقال تعالى: ﴿هذا بيانٌ للناسِ وهدىً وموعظةٌ للمتقينَ﴾[5] وقال تعالى: ﴿هدىً للمتقينَ﴾[6] وقال تعالى: ﴿فأمَّا الَّذينَ آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرونَ﴾[7].

وهذا مما يجده كل مؤمن من نفسه فالشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن، فأمر الله القارىء إذا قرأ القرآن أن يستعيذ منه. قال تعالى:

---

(١) أي يستجيب لها.
(٢) سورة فاطر الآية ٦.
(٣) هو ان يقرأه بتدبر وفهم ويتلوه حق تلاوته فيحل حلاله ويحرم حرامه.
(٤) سورة الاسراء الآية ٨٢.
(٥) سورة آل عمران الآية ١٣٨
(٦) سورة البقرة الآية ٢.
(٧) سورة التوبة الآية ١٢٤.

﴿فإذا قرأتَ القرآنَ فاستعذْ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ، إنه ليسَ له سُلطانٌ على الّذينَ آمنوا وعلى ربّهم يتوكلون. إنّما سلطانهُ على الّذينَ يتولونهُ والّذينَ همْ بهِ مُشركونَ﴾[1] فإن المستعيذ بالله مستجير به لاجيء إليه مستغيث به من الشيطان، فالعائذ بغيره مستجير به، فإذا عاذ العبد بربه متوكلاً عليه فيعيذه الله من الشيطان ويجيره منه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ادفع بالتي هيَ أحسنُ فإذا الّذي بينكَ وبينهُ عداوة كأنهُ وليّ حميمٌ. وما يُلقّاها إلاّ الّذين صبَروا وما يُلقّاها إلا ذو حظٍ عظيمٍ. وإما ينزغنكَ من الشيطانِ نزغٌ فاستعذ باللهِ إنّه هوَ السميعُ العليمُ﴾[2].

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»[3]، فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير، لئلا يعوقه الشيطان عنه، وعندما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند إرادة العبد للحسنات، وعندما يأمره الشيطان بالسيئات، ولهذا قال النبي ﷺ: «لا يزال الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته» فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان أو يوقعه في شر، أو يمنعه من خير، كما يفعل العدو مع عدوه.

وكلما كان الإنسان أعظم رغبة في العلم والعبادة، وأقدر على ذلك من غيره، بحيث تكون قوته على ذلك أقوى، ورغبته وإرادته في ذلك أتم، كان ما يحصل له إن سلمه الله من الشيطان أعظم، وكان ما يفتتن به إن تمكن الشيطان منه أعظم، ولهذا قال الشعبي: كل أمة علماؤها شرارها، إلا المسلمين، فإن علماءهم خيارهم.

---

(١) سورة النحل الآيات (٩٨ ـ ١٠٠).

(٢) سورة فصلت الآية (٣٤ ـ ٣٦).

(٣) روياه من حديث سليمان بن صرد رضي الله عنه.

وأهل السنة في الإسلام، كالإسلام في الملل[1]، وذلك أن كل أمة غير المسلمين، فهم ضالون، وإنما يضلهم علماؤهم، فعلماؤهم شرارهم، والمسلمون على هدى، وإنما يتبين الهدى بعلمائهم، فعلماؤهم خيارهم، وكذلك أهل السنة، أئمتهم خيار الأمة[2]، وأئمة أهل البدع، أضر على الأمة من أهل الذنوب. ولهذا أمر النبي ﷺ بقتل الخوارج[3]، ونهى عن قتال الولاة الظلمة، وأولئك لهم نهمة[4] في العلم والعبادة، فصار يعرض لهم من الوساوس التي تضلهم وهم يظنونها هدى فيطيعونها ما لا يعرض لغيرهم، ومن سلم من ذلك منهم كان من أئمة المتقين مصابيح الهدى، وينابيع العلم، كما قال ابن مسعود لأصحابه: كونوا ينابيع العلم مصابيح الحكمة، سرج الليل، جدد[5] القلوب أحلاس البيوت[6]، خلقان الثياب[7]، تعرفون في أهل السماء، وتخفون على أهل الأرض.

ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم[8]، ولهذا قال الفقهاء: الأسماء ثلاثة أنواع: نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة، ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر، ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض؛ ولفظ المعروف في قوله ﴿وعاشروهنّ بالمعروف﴾ ونحو ذلك. وروي عن ابن عباس أنه قال: تفسير القرآن على أربعة أوجه: تفسير تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله، من ادعى علمه فهو كاذب، فاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو ذلك قد بين الرسول ﷺ ما يراد بها في كلام الله ورسوله، وكذلك لفظ

---

(١) فكما أن الإسلام هو الدين الحق بين الملل فكذلك مذهب أهل السنة هو المذهب الحق بين النحل.

(٢) لأنهم يهدون إلى الحق ويدفعون عنه شبهات أهل الضلال.

(٣) وبدعتهم شر بدعة. (٤) أي شدة رغبة. (٥) جمع جديد.

(٦) يعني ملازميها،

(٧) خلقان جمع خلق وهو الثوب البالي. (٨) وهذا هو الحق الذي لا شك فيه.

الخمر وغيرها، ومن هناك يعرف معناها، فلو اراد أحد أن يفسرها بغير ما بينه النبي ﷺ لم يقبل منه[1]، وأما الكلام في اشتقاقها ووجه دلالتها فذاك من جنس علم البيان، وتعليل الأحكام هو زيادة في العلم وبيان حكمة ألفاظ القرآن، لكن معرفة المراد بها لا يتوقف على هذا.

واسم الإيمان والإسلام والنفاق والكفر، هي أعظم من هذا كله، فالنبي ﷺ قد بين المراد بهذه الألفاظ بياناً لا يحتاج معه إلى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك، فلهذا يجب الرجوع في مسميات هذه الأسماء إلى بيان الله ورسوله، فإنه شاف كاف، بل معاني هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة، بل كل من تأمل ما تقوله الخوارج والمرجئة في معنى الإيمان، علم بالاضطرار أنه مخالف للرسول، ويعلم بالاضطرار أن طاعة الله ورسوله من تمام الإيمان وأنه لم يكن يجعل كل من أذنب ذنباً كافراً[2]، ويعلم أنه لو قدر أن قوماً قالوا للنبي ﷺ: نحن نؤمن بما جئتنا به بقلوبنا من غير شك، ونقر بألسنتنا بالشهادتين، إلا أنا لا نطيعك في شيء مما أمرت به ونهيت عنه، فلا نصلي ولا نصوم ولا نحج، ولا نصدق الحديث، ولا نؤدي الأمانة، ولا نفي بالعهد، ولا نصل الرحم، ولا نفعل شيئاً من الخير الذي أمرت به، ونشرب الخمر، وننكح ذوات المحارم بالزنا الظاهر، ونقتل من قدرنا عليه من أصحابك وأمتك، ونأخذ أموالهم، بل نقتلك أيضاً ونقاتلك مع أعدائك، هل كان يتوهم عاقل أن النبي ﷺ يقول لهم: أنتم مؤمنون كاملو الإيمان، وأنتم من أهل شفاعتي يوم القيامة، ويرجى لكم أن لا يدخل أحد منكم النار[3]، بل كل مسلم يعلم بالاضطرار أنه يقول لهم: أنتم أكفر الناس بما جئت به ويضرب رقابهم إن لم يتوبوا من ذلك.

وكذلك كل مسلم يعلم أن شارب الخمر والزاني والقاذف والسارق، لم يكن

---

(١) فهو عليه السلام أعرف بالمراد منها من كل أحد.

(٢) كما تقول الخوارج.

(٣) كل هذه الشناعات لازمة على مذهب المرجئة قبحهم الله.

النبي ﷺ يجعلهم مرتدين يجب قتلهم[1]، بل القرآن والنقل المتواتر عنه يبين أن هؤلاء لهم عقوبات غير عقوبة المرتد عن الإسلام، كما ذكر الله في القرآن جلد القاذف والزاني، وقطع السارق، وهذا متواتر عن النبي ﷺ، ولو كانوا مرتدين لقتلهم، فكلا القولين مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسول ﷺ[2].

وأهل البدع إنما دخل عليهم الداخل، لأنهم أعرضوا عن هذه الطريق، وصاروا يبنون دين الإسلام على مقدمات يظنون صحتها، إما في دلالة الألفاظ، وإما في المعاني المعقولة، ولا يتأملون بيان الله ورسوله، وكل مقدمات تخالف بيان الله ورسوله، فإنها تكون ضلالاً، ولهذا تكلم أحمد في رسالته المعروفة في الرد على من يتمسك بما يظهر له من القرآن من غير استدلال ببيان الرسول والصحابة والتابعين، وكذلك ذكر في رسالته إلى أبي عبد الرحمن الجرجاني في الرد على المرجئة، وهذه طريقة سائر أئمة المسلمين، لا يعدلون عن بيان الرسول إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً، ومن عدل من سبيلهم وقع في البدع التي مضمونها أنه يقول على الله ورسوله مالا يعلم، أو غير الحق، وهذا مما حرمه الله ورسوله، وقال تعالى في الشيطان: ﴿إنما يأمركم بالسوء والفحشاء، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ألم يُؤْخَذْ عليهم ميثاقُ الكتاب ألاَّ يقولوا على الله إلا الحق﴾[4]. وهذا من تفسير القرآن بالرأي الذي جاء فيه الحديث: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار».

مثال ذلك أن المرجئة لما عدلوا عن معرفة كلام الله ورسوله، أخذوا يتكلمون في مسمى الإيمان والإسلام وغيرهما بطرق ابتدعوها، مثل أن يقولوا: الإيمان في اللغة: هو التصديق، والرسول إنما خاطب الناس بلغة العرب لم

---

(١) والخوارج يقولون هذا يكفرون مرتكب الكبيرة.

(٢) ومقتضى هذا أن تكون الخوارج والمرجئة كفاراً، لكن سبق أن المؤلف لم يكفرهم واعتبر ذلك منهم غلطا في التأويل.

(٣) سورة البقرة الآية ١٦٩. (٤) سورة الاعراف الآية ١٦٩.

يخبرها، فيكون مراده بالإيمان التصديق، ثم قالوا: والتصديق إنما يكون بالقلب واللسان، أو بالقلب، فالأعمال ليست من الإيمان، ثم عمدتهم في أن الإيمان: هو التصديق قوله: ﴿وما أنتَ بمؤمنٍ لنا﴾(١). أي بمصدق لنا.

فيقال لهم: اسم الإيمان قد تكرر ذكره في القرآن أكثر من ذكر سائر الألفاظ، وهو أصل الدين، وبه يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويفرق بين السعداء والأشقياء، ومن يوالي ومن يعادي، والدين كله تابع لهذا، وكل مسلم مُحتاج إلى معرفة ذلك، أفيجوز أن يكون الرسول قد أهمل بيان هذا، ووكله إلى هاتين المقدمتين؟ ومعلوم أن الشاهد الذي استشهدوا به على أن الإيمان: هو التصديق أنه من القرآن، ونقل معنى الإيمان متواتر عن النبي ﷺ أعظم من تواتر لفظ الكلمة، فإن الإيمان يحتاج إلى معرفته جميع الأمة فينقلونه، بخلاف كلمة من سورة، فأكثر المؤمنين لم يكونوا يحفظون هذه السورة، فلا يجوز أن يجعل بيان أصل الدين مبنياً على مثل هذه المقدمات، ولهذا كثر النزاع والاضطراب بين الذين عدلوا عن صراط الله المستقيم، وسلكوا السبل(٢)، وصاروا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً(٣)، ومن الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، فهذا كلام عام مطلق.

إبطال ما يقال ان لفظ الإيمان مرادف للتصديق

ثم يقال: هاتان المقدمتان كلاهما ممنوعة، فمن الذي قال: إن لفظ الإيمان مرادف للفظ التصديق. وهب أن المعنى يصح إذا استعمل في هذا الموضع، فلم قلت: إنه يوجب الترادف(٤). ولو قلت: ما أنت بمسلم لنا، ما أنت بمؤمن لنا صح المعنى، لكن لم قلت: إن هذا هو المراد بلفظ مؤمن؟ وإذا قال الله: ﴿أقيموا

---

(١) سورة يوسف الآية ١٧.
(٢) قال تعالى: ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله.
(٣) أي احزاباً وطوائف كل منها تتشيع لمذهبها.
(٤) أي لا يلزم من صحة استعمال احديها مكان الاخرى ان تكونا مترادفين.

الصلاة﴾ : ولو قال القائل: أتموا الصلاة، ولازموا الصلاة، التزموا الصلاة، افعلوا الصلاة، كان المعنى صحيحاً، لكن لا يدل هذا على معنى: أقيموا فكون اللفظ يرادف اللفظ، يراد دلالته على ذلك.

ثم يقال: ليس هو مرادفاً له، وذلك من وجوه: أحدها: أن يقال للمخبر إذا صدقته: صدقه، ولا يقال: آمنه وآمن به، بل يقال: آمن له، كما قال. ﴿فآمنَ له لوط﴾[1]. وقال: ﴿فما آمنَ لموسى إلا ذريةٌ من قومهِ﴾[2]، وقال فرعون: ﴿آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾[3]. وقالوا لنوح: ﴿أنؤمنُ لك واتبعك الأرذلونَ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿قل أذُن خيرٍ لكم يُؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾[5]، ﴿فقالوا: أنؤمن لبشرين مثلِنا وقومهما لنا عابدون﴾[6]، وقال: ﴿وإنْ لم تُؤمنوا لي فاعتزلون﴾[7].

فإن قيل: فقد يقال: ما أنت بمصدق لنا؟ قيل: اللام تدخل على ما يتعدى بنفسه إذا ضعف عمله، إما بتأخيره، أو بكونه اسم فاعل، أو مصدراً، أو باجتماعهما، فيقال: فلان يعبد الله ويخافه ويتقيه، ثم إذا ذكر باسم الفاعل قيل: هو عابد لربه، متق لربه، خائف لربه، وكذلك تقول: فلان يرهب الله، ثم تقول: هو راهب لربه، وإذا ذكرت الفعل وأخرته، تقويه باللام، كقوله: ﴿وفي نسختها هدى ورحمة للذينَ هم لربهم يَرْهَبُون﴾[8]. وقد قال: ﴿فإياي فارهبون﴾[9]. فعداه بنفسه، وهناك ذكر اللام، فإن هنا قوله: ﴿فإياي﴾ أتم من قوله: فلي، وقوله هنالك ﴿لربهم﴾ أتم من قوله: ربهم، فإن الضمير المنفصل

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٢٦. (٢) سورة يونس الآية ٨٣.
(٣) سورة الشعراء الآية ٤٩.
(٤) سورة الشعراء الآية ١١١ والارذلون: هم أصحاب المهن الحقيرة.
(٥) سورة التوبة الآية ٦١.
(٦) سورة المؤمنون الآية ٤٧. (٧) سورة الدخان الآية ٢١.
(٨) سورة الاعراف الآية ١٥٤. (٩) سورة النحل الآية ٥١.

المنصوب، أكمل من ضمير الجر بالياء، وهناك اسم ظاهر، فتقويته باللام أولى وأتم من تجريده، ومن هذا قوله: ﴿إنْ كنتم للرؤيا تعبرون﴾[1]. ويقال: عبرت رؤياه، وكذلك قوله: ﴿وإنهم لنا لغائظونَ﴾[2]. وإنما يقال: غظته، لا يقال: غظت له، ومثله كثير، فقول القائل: ما أنت بمصدق لنا، أدخل فيه اللام، كونه اسم فاعل وإلا فإنما يقال: صدقته، لا يقال: صدقت له، ولو ذكروا الفعل، لقالوا: ما صدقتنا، وهذا بخلاف لفظ الإيمان، فإنه تعدى إلى الضمير باللام دائماً، لا يقال: آمنته قط، وإنما يقال: آمنت له، كما يقال: أقررت له، فكان تفسيره بلفظ الإقرار، أقرب من تفسيره بلفظ التصديق، مع أن بينهما فرقاً.

الثاني: أنه ليس مرادفاً للفظ التصديق في المعنى، فإن كل مخبر عن مشاهدة أو غيب يقال له في اللغة: صدقت، كما يقال: كذبت، فمن قال: السماء فوقنا، قيل له: صدق، كما يقال: كذب، وأما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن غائب، لم يوجد في الكلام أن من أخبر عن مشاهدة، كقوله: طلعت الشمس، وغربت، أنه يقال: آمناه، كما يقال: صدقناه، ولهذا، المحدثون والشهود ونحوهم، يقال: صدقناهم، وما يقال: آمنا لهم، فإن الإيمان مشتق من الأمن، فإنما يستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر، كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبر، ولهذا لم يوجد قط في القرآن وغيره لفظ: آمن له، إلا في هذا النوع، والاثنان إذا اشتركا في معرفة الشيء، يقال: صدق أحدهما صاحبه، ولا يقال: آمن له، لأنه لم يكن غائباً عنه ائتمنه عليه، ولهذا قال: ﴿فآمنَ له لوط﴾[3]. ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾[4]. ﴿آمنتم له﴾[5]. ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾[6] فيصدقهم فيما أخبروا به مما غاب عنه، وهو مأمون عنده على

---

(١) سورة يوسف الآية ٤٣ .
(٢) سورة الشعراء الآية ٥٥ .
(٣) سورة العنكبوت الآية ٢٦ .
(٤) سورة المؤمنون الآية ٤٧ .
(٥) سورة طه الآية ٧١ .
(٦) سورة التوبة الآية ٦١ .

ذلك، فاللفظ متضمن مع التصديق ومعنى الائتمان والأمانة، كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق، ولهذا قالوا: ﴿ماأنتَ بمؤمنٍ لنا﴾[1]. أي لا تقر بخبرنا، ولا تثق به، ولا تطمئن إليه، ولو كنا صادقين، لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك، فلو صدقوا لم يأمن لهم.

(الثالث): أن لفظ الإيمان في اللغة لم يقابل بالتكذيب، كلفظ التصديق، فإنه من المعلوم في اللغة أن كل مخبر يقال له: صدقت أو كذبت، ويقال: صدقناه، أو كذبناه، ولا يقال لكل مخبر: آمنا له أو كذبناه، ولا يقال: أنت مؤمن له، أو مكذب له، بل المعروف في مقابلة الإيمان لفظ الكفر، يقال: هو مؤمن أو كافر، والكفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال: أنا أعلم أنك صادق، لكن لا أتبعك، بل أعاديك وأبغضك، وأخالفك، ولا أوافقك، لكان كفره أعظم، فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط، علم أن الإيمان ليس هو التصديق فقط، بل إذا كان الكفر يكون تكذيباً، ويكون مخالفة ومعاداة وامتناعاً بلا تكذيب، فلا بد أن يكون الإيمان تصديقاً مع موافقة وموالاة وانقياد، لا يكفي مجرد التصديق، فيكون الإسلام جزء مسمى الإيمان، كما كان الامتناع عن الانقياد مع التصديق جزء مسمى الكفر، فيجب أن يكون كل مؤمن مسلماً منقاداً للأمر، وهذا هو العمل[2].

فإن قيل: فالرسول ﷺ فسر الإيمان بما يؤمن به.

قيل: فالرسول ذكر ما يؤمن به، لم يذكر ما يؤمن له، وهو نفسه يجب أن يؤمن به ويؤمن له، فالإيمان به من حيث ثبوته غيب[3] عنا أخبرنا به، وليس كل غيب آمنا به علينا أن نطيعه، وأما ما يجب من الإيمان له، فهو الذي يوجب

---

(١) سورة يوسف الآية ١٧.

(٢) وهذا وجه رائع جداً في الاحتجاج.

(٣) هكذا بالأصل ولعل صوابه (من حيث إثباته أموراً غائبة عنا).

طاعته، والرسول يجب الإيمان به وله، فينبغي أن يعرف هذا، وأيضاً فإن طاعته طاعة لله، وطاعة الله من تمام الإيمان به.

(الرابع): أن من الناس من يقول: الإيمان أصله في اللغة من الأمن الذي هو ضد الخوف، فآمن، أي: صار داخلاً في الأمن، وأنشدوا[1]..

وأما المقدمة الثانية، فيقال: إنه إذا فرض أنه مرادف للتصديق، فقولهم: إن التصديق لا يكون إلا بالقلب أو اللسان، عنه جوابان، أحدهما: المنع، بل الأفعال تسمى تصديقاً، كما ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «العينان تزنيان وزناهما النظر، والأذن تزني وزناها السمع، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والقلب يتمنى ذلك ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»[2]. وكذلك قال أهل اللغة وطوائف من السلف والخلف، قال الجوهري[3]: والصديق مثال الفسِّيق: الدائم التصديق، ويكون الذي يصدق قوله بالعمل. وقال الحسن البصري: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكنه ما وقر[4] في القلوب، وصدقته الأعمال، وهذا مشهور عن الحسن ويروى عنه من غير وجه، كما رواه عباس الدوري، حدثنا حجاج، حدثنا أبو عبيدة الناجي، عن الحسن قال: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال، من قال حسناً وعمل غير صالح، رد الله عليه قوله، ومن قال حسناً وعمل صالحاً، رفعه العمل، ذلك بأن الله يقول: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾[5] رواه ابن بطة من الوجهين. وقوله: ليس الإيمان بالتمني - يعني الكلام[6] - وقوله: «بالتحلي» يعني أن يصير حلية ظاهرة له،

---

(١) يظهر أن ها هنا كلاماً ساقطاً. (٢) فأسند المفرج التصديق والتكذيب وهو فعل من الأفعال.

(٣) أي في كتابه (الصحاح). (٤) أي ثبت واستقر.

(٥) هذا على أحد الوجهين في تفسير الآية وهو أن الضمير في (يرفعه) للعمل الصالح أي أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب.

(٦) الظاهر أنه من التمني بمعنى الرغبة والاشتهاء.

فيظهره من غير حقيقة من قلبه، ومعناه ليس هو ما يظهر من القول، ولا من الحلية الظاهرة، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال، فالعمل يصدق أن في القلب إيماناً، وإذا لم يكن عمل، كذب أن في قلبه إيماناً، لأن ما في القلب مستلزم للعمل الظاهر، وانتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم.

وقد روى محمد بن نصر المروزي بإسناده، أن عبد الملك بن مروان، كتب إلى سعيد بن جبير يسأله عن هذه المسائل، فأجابه عنها: سألت عن الإيمان، فالإيمان: هو التصديق، أن يصدق العبد بالله وملائكته، وما أنزل الله من كتاب، وما أرسل من رسول، وباليوم الآخر، وسألت عن التصديق، والتصديق: أن يعمل العبد بما يصدق به من القرآن، وما ضعف عن شيء منه وفرط فيه، عرف أنه ذنب، واستغفر الله وتاب منه، ولم يصر عليه، فذلك هو التصديق، وتسأل عن الدين، فالدين: هو العبادة، فإنك لن تجد رجلاً من أهل الدين ترك عبادة أهل دين، ثم لا يدخل في دين آخر إلا صار دين له، وتسأل عن العبادة، والعبادة هي الطاعة، ذلك أنه من أطاع الله فيما أمره به وفيما نهاه عنه، فقد آثر عبادة الله، ومن أطاع الشيطان في دينه وعمله، فقد عبد الشيطان، ألا ترى أن الله قال للذين فرطوا: ﴿ألم أعهدْ إليكم يا بني آدمَ ألا تعبدوا الشيطان﴾(١) وإنما كانت عبادتهم الشيطان أنهم أطاعوه في دينهم ... وقال أسد بن موسى: حدثنا الوليد بن مسلم(٢)، عن الأوزاعي، حدثنا حسان بن عطية: قال: الإيمان في كتاب الله صار إلى العمل، وقال الله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وَجِلَتْ قلوُبهم﴾(٣)، ثم صيرهم إلى العمل فقال: ﴿الذين يقيمونَ الصلاة ومما رزقناهم يُنفقون﴾(٤) قال: وسمعت الأوزاعي يقول: قال الله تعالى: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصّلاة، وآتَوُا الزكاةَ، فإخوانكم في الدين﴾(٥)

---

(١) سورة يس الآية ٦٠.
(٢) هو مدلس في الحديث.
(٣) سورة الانفال الآية ٢.
(٤) سورة البقرة الآية ٣.
(٥) سورة التوبة الآية ١١١.

والإيمان بالله باللسان، والتصديق به العمل.

وقال معمر عن الزهري: كنا نقول: الإسلام بالإقرار[1]، والإيمان بالعمل، والإيمان: قول وعمل قرينان، لا ينفع أحدهما إلا بالآخر، وما من أحد إلا يوزن قوله وعمله، فإن كان عمله أوزن من قوله، صعد إلى الله، وإن كان كلامه أوزن من عمله لم يصعد إلى الله. ورواه أبو عمر الطلمنكي بإسناده المعروف. وقال معاوية بن عمرو، عن أبي إسحاق الفزاري، عن الأوزاعي قال: لا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنية موافقة للسنة.

وكان من مضى من سلفنا، لا يفرقون بين الإيمان والعمل، العمل من الإيمان والإيمان من العمل، وإنما الايمان اسم يجمع كما يجمع هذه الأديان اسمها، ويصدقه العمل، فمن آمن بلسانه، وعرف بقلبه، وصدق بعمله، فتلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومن قال بلسانه، ولم يعرف بقلبه، ولم يصدق بعمله، كان في الآخرة من الخاسرين[2]، وهذا معروف عن غير واحد من السلف والخلف، أنهم يجعلون العمل مصدقاً للقول، ورووا ذلك عن النبي ﷺ كما رواه معاذ بن أسد، حدثنا الفضيل بن عياض، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، أن أبا ذر سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: الإيمان: «الإقرار والتصديق بالعمل»، ثم تلا ﴿ليسَ البرَّ أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغربِ﴾ إلى قوله: ﴿وأولئكَ هم المتقونَ﴾.

قلت: حديث أبي ذر هذا مروي من غير وجه، فإن كان هذا اللفظ هو لفظ الرسول، فلا كلام، وإن كانوا رووه بالمعنى، دل على أنه من المعروف في لغتهم أنه يقال: صدق قوله بعمله، وكذلك قال شيخ الإسلام الهروي: الإيمان تصديق كله.

---

(١) أي النطق بالشهادتين.

(٢) هذا كلام طيب من الأوزاعي رحمه الله.

وكذلك الجواب الثاني، أنه إذا كان أصله التصديق، فهو تصديق مخصوص[1]، كما أن الصلاة دعاء مخصوص، والحج قصد مخصوص، والصيام إمساك مخصوص، وهذا التصديق له لوازم صارت لوازمه داخلة في مسماه عند الإطلاق، فإن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم، ويبقى النزاع لفظياً: هل الإيمان دال على العمل بالتضمن أو باللزوم[2].

ومما ينبغي أن يعرف أن أكثر التنازع بين أهل السنة في هذه المسألة هو نزاع لفظي، وإلا فالقائلون بأن الإيمان قول، من الفقهاء كحماد بن أبي سليمان - وهو أول من قال ذلك، ومن اتبعه من أهل الكوفة[3] وغيرهم - متفقون مع جميع علماء السنة على أن أصحاب الذنوب داخلون تحت الذم والوعيد، وإن قالوا: إن إيمانهم كامل كإيمان جبريل فهم يقولون: إن الإيمان بدون العمل المفروض ومع فعل المحرمات يكون صاحبه مستحقاً للذم والعقاب، كما تقوله الجماعة، ويقولون أيضاً بأن من أهل الكبائر من يدخل النار كما تقوله الجماعة، والذين ينفون عن الفاسق اسم الإيمان من أهل السنة متفقون على أنه لا يخلد في النار، فليس بين فقهاء الملة نزاع في أصحاب الذنوب إذا كانوا مقرين باطناً وظاهراً بما جاء به الرسول، وما تواتر عنه أنهم من أهل الوعيد، وأنه يدخل النار منهم من أخبر الله ورسوله بدخوله إليها، ولا يخلد منهم فيها أحد، ولا يكونون مرتدين مباحي الدماء[4]، ولكن الأقوال المنحرفة قول من يقول بتخليدهم في النار، كالخوارج، والمعتزلة، وقول غلاة المرجئة الذين يقولون: ما نعلم أن أحداً منهم يدخل النار، بل نقف في هذا كله.

---

(١) يعني أن الشرع نقله من معناه واستعمله في معنى خاص.

(٢) الحق أنه دال عليه باللزوم لا بالتضمن لأن الأعمال غير داخلة في حقيقة الإيمان، بل هي لوازم ومقتضيات. نعم إذا أطلق الإيمان ولم تذكر معه الأعمال فإنها تدخل في مسماه لأنه حيث أطلق يراد به الايمان الكامل المستلزم للوازمه.

(٣) كأبي حنيفة وأصحابه.

(٤) اتفاقهم في هذه الأمور لا يدل على أن النزاع لفظي بل هو حقيقي.

وحكي عن بعض غلاة المرجئة الجزم بالنفي العام[1] ويقال للخوارج: الذي نفى عن السارق والزاني والشارب وغيرهم الإيمان، هو لم يجعلهم مرتدين عن الإسلام، بل عاقب هذا بالجلد وهذا بالقطع، ولم يقتل أحداً إلا الزاني المحصن، ولم يقتله قتل المرتد، فإن المرتد يقتل بالسيف بعد الاستتابة، وهذا يرجم بالحجارة بلا استتابة، فدل ذلك على أنه وإن نفى عنهم الإيمان، فليسوا عنده مرتدين عن الإسلام مع ظهور ذنوبهم، وليسوا كالمنافقين الذين كانوا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، فأولئك لم يعاقبهم إلا على ذنب ظاهر.

اختلف الناس هل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها في اللغة؟

وبسبب الكلام في مسألة الإيمان تنازع الناس، هل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها في اللغة؟ أو أنها باقية في الشرع على ما كانت عليه في اللغة، لكن الشارع زاد في أحكامها لا في معنى الأسماء، وهكذا قالوا في اسم الصلاة والزكاة والصيام والحج: إنها باقية في كلام الشارع على معناها اللغوي، لكن زاد في أحكامها، ومقصودهم أن الإيمان هو مجرد التصديق، وذلك يحصل بالقلب واللسان، وذهبت طائفة ثالثة إلى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف، فهي بالنسبة إلى اللغة مجاز، وبالنسبة إلى عرف الشارع حقيقة.

والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها[2]، ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة، كما يستعمل نظائرها، كقوله تعالى: ﴿ولله على النَّاس حجُّ البيتِ﴾ فذكر حجاً خاصاً، وهو حج البيت، وكذلك قوله: ﴿فمن حجَّ البيتَ أو اعتمرَ﴾ فلم يكن لفظ الحج متناولاً لكل قصد، بل لقصد مخصوص دل عليه اللفظ نفسه

---

(١) وهم محجوجون بالأحاديث المتواترة.

(٢) بل الظاهر أنها نقلت وغيرت مع بقاء المناسبة بين معانيها الأصلية والمعنى المنقول إليه فإن الحج في اللغة هو القصد مطلقاً أو إلى معظم، فاستعمله الشارع في تلك الأعمال، والأقوال من سعي وطواف ووقوف ورمي جمار الخ.

من غير تغيير اللغة[1]، والشاعر إذا قال:

وأشْهَدُ مِنْ عَوْفٍ حُلولاً كثيرةً ... يَحُجُّونَ سِبَّ الزِّبْرِقانِ المُزَعْفَرا

كان متكلماً باللغة، وقد قيل لفظه: يحج سب الزبرقان المزعفرا. ومعلوم أن ذلك الحج المخصوص دلت عليه الإضافة، فكذلك الحج المخصوص الذي أمر الله به دلت عليه الإضافة أو التعريف باللام، فإذا قيل: الحج فرض عليك، كانت لام العهد تبين أنه حج البيت، وكذلك الزكاة هي اسم لما تزكو به النفس، وزكاة النفس زيادة خيرها وذهاب شرها، والإحسان إلى الناس من أعظم ما تزكو به النفس، كما قال تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾[2]. وكذلك ترك الفواحش مما تزكو به، قال تعالى: ﴿ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُهُ ما زَكَا منكم مِنْ أحدٍ أبداً﴾[3]، وأصل زكاتها بالتوحيد وإخلاص الدين لله، قال تعالى: ﴿وويلٌ للمشركينَ الَّذينَ لا يؤتونَ الزكاة﴾[4]. وهي عند المفسرين: التوحيد.

وقد بين النبي ﷺ مقدار الواجب، وسماها الزكاة المفروضة، فصار لفظ الزكاة إذا عرف باللام ينصرف إليها لأجل العهد، ومنَ الأسماء ما يكون أهل العرف نقلوه، وينسبون ذلك إلى الشارع، مثل لفظ التيمم، فإن الله تعالى قال: ﴿فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ . فلفظ التيمم استعمل في معناه المعروف في اللغة، فإنه أمر بتيمم الصعيد ثم أمر بمسح الوجوه والأيدي منه، فصار لفظ التيمم في عرف الفقهاء يدخل فيه هذا المسح، وليس هو لغة الشارع، بل الشارع فرق بين تيمم الصعيد وبين المسح الذي يكون بعده، ولفظ الإيمان أمر به مقيداً بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وكذلك لفظ

---

(١) ليس الحج شرعاً هو قصد البيت فقط بل هو كما قلنا اسم متناول للمناسك المعروفة.

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٣. (٣) سورة النور الآية ٢١.

(٤) سورة فصلت (٦ ـ ٧).

الإسلام بالاستسلام لله رب العالمين، وكذلك لفظ الكفر مقيداً، ولكن لفظ النفاق قد قيل: إنه لم تكن العرب تكلمت به، لكنه مأخوذ من كلامهم، فإن نفق يشبه خرج، ومنه نفقت الدابة: إذا ماتت، ومنه نافق اليربوع، والنفق في الأرض، قال تعالى: ﴿فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض﴾[1]، فالمنافق هو الذي خرج من الإيمان باطناً بعد دخوله فيه ظاهراً، وقيد النفاق بأنه نفاق من الإيمان، ومن الناس من يسمي من خرج عن طاعة الملك منافقاً عليه، لكن النفاق الذي في القرآن هو النفاق على الرسول، فخطاب الله ورسوله للناس بهذه الأسماء كخطاب الناس بغيرها، وهو خطاب مقيد خاص لا مطلق يحتمل أنواعاً.

وقد بين الرسول تلك الخصائص، والاسم دل عليها، فلا يقال: إنها منقولة، ولا أنه زيد في الحكم دون الاسم، بل الاسم إنما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع،[2] لم يستعمل مطلقاً، وهو إنما قال: ﴿أقيموا الصلاة﴾ بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها[3]، فكان التعريف منصرفاً إلى الصلاة التي يعرفونها، لم ينزل لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه[4]، ولهذا قال من قال في لفظ الصلاة: إنه عام للمعنى اللغوي، أو إنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوي والشرعي ونحو ذلك، فأقوالهم ضعيفة، فإن هذا اللفظ إنما ورد خبراً أو أمراً، فالخبر كقوله: ﴿أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى﴾. وسورة ﴿إقرأ﴾ من أول ما نزل من القرآن، وكان بعض الكفار إما أبو جهل أو غيره قد نهى النبي ﷺ عن الصلاة وقال: «لئن رأيته يصلي لأطأن عنقه»، فلما رآه ساجداً رأى من الهول ما أوجب

(١) سورة الانعام الآية ٣٥.

(٢) وهذا الوجه المختص هو المراد بالنقل فإنه لولا استعمال الشارع له في ذلك ما دل عليه الاسم ولا أمكن معرفته منه.

(٣) والصلاة المأمور بها أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم إلخ فأين ذلك من الدعاء الذي هو معناها في اللغة.

(٤) كانوا يعرفون المعنى اللغوي وأما الحقيقة الشرعية فبينها لهم الرسول ﷺ فعرفوها.

نكوصه على عقبيه، فإذا قيل: ﴿أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى﴾ فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال في اللفظ، ولا عموم[1].

ثم إنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبي ﷺ لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم، وكان جبرائيل يؤم النبي ﷺ، والمسلمون يأتمون بالنبي ﷺ، فإذا قيل لهم: ﴿أقيموا الصلاة﴾ عرفوا أنها تلك الصلاة، وقيل: إنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفي النهار، فكانت أيضاً، فلم يخاطبوا باسم من هذه الأسماء إلاَّ ومسماه معلوم عندهم[2]، فلا إجمال في ذلك، ولا يتناول كل ما يسمى حجاً ودعاء وصوماً، فإن هذا إنما يكون إذا كان اللفظ مطلقاً، وذلك لم يرد.

وكذلك الإيمان والإسلام وقد كان معنى ذلك عندهم من أظهر الأمور[3]، وإنما سأل جبريل النبي ﷺ عن ذلك وهم يسمعون وقال: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم» ليبين لهم كمال هذه الأسماء وحقائقها التي ينبغي أن تقصد لئلا يقتصروا على أدنى مسمياتها، وهذا كما في الحديث الصحيح أنه قال: «ليس المسكين هذا الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غناء يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس إلحافاً» فهم كانوا يعرفون المسكين وأنه المحتاج، وكان ذلك مشهوراً عندهم فيمن يظهر حاجته بالسؤال، فبين النبي ﷺ أن الذي يظهر حاجته بالسؤال والناس يعطونه تزول مسكنته بإعطاء الناس له، والسؤال له بمنزلة الحرفة، وهو وإن كان مسكيناً يستحق من الزكاة إذا لم يعط من غيرها كفايته، فهو إذا وجد من يعطيه كفايته، لم يبق مسكيناً، وإنما المسكين المحتاج الذي لا يسأل ولا يعرف فيعطى، فهذا هو الذي يجب أن يقدم في العطاء، فإنه مسكين قطعاً،

---

(١) لكنه عرف تلك من فعل الرسول ﷺ وكانوا يعجبون من قيامه وركوعه وسجوده لأنه شيء لم يألفوه.

(٢) لكن بتعليمه هو عليه السلام.

(٣) كيف والله يقول (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان).

وذاك مسكنته تندفع بعطاء من يسأله، وكذلك قوله: «الإسلام هو الخمس»، يريد أن هذا كله واجب داخل في الإسلام، فليس للإنسان أن يكتفي بالإقرار بالشهادتين، وكذلك الإيمان يجب أن يكون على هذا الوجه المفصول، لا يكتفي فيه بالإيمان المجمل، ولهذا وصف الإسلام بهذا.

اتفق الناس على كفر من ترك الشهادتين واختلفوا في التكفير بترك الأركان الأربعة

وقد اتفق المسلمون على أنه من لم يأت بالشهادتين فهو كافر[1]، وأما الأعمال الأربعة، فاختلفوا في تكفير تاركها، ونحن إذا قلنا: أهل السنة متفقون على أنه لا يكفر بالذنب، فإنما نريد به المعاصي كالزنا والشرب، وأما هذه المباني ففي تكفير تاركها نزاع مشهور، وعن أحمد في ذلك نزاع وإحدى الروايات عنه: أنه يكفر من ترك واحدة منها، وهو اختيار أبي بكر[2] وطائفة من أصحاب مالك، كابن حبيب، وعنه رواية ثانية: لا يكفر إلا بترك الصلاة والزكاة فقط، ورواية ثالثة: لا يكفر إلا بترك الصلاة، والزكاة إذا قاتل الإمام عليها، ورابعة: لا يكفر إلا بترك الصلاة، وخامسة: لا يكفر بترك شيء منهن. وهذه أقوال معروفة للسلف. قال الحكم بن عتيبة[3]: من ترك الصلاة متعمداً، فقد كفر، ومن ترك الزكاة متعمداً، فقد كفر، ومن ترك الحج متعمداً، فقد كفر، ومن ترك صوم رمضان متعمداً، فقد كفر. وقال سعيد بن جبير: من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر بالله، ومن ترك الزكاة متعمداً، فقد كفر بالله، ومن ترك صوم رمضان متعمداً، فقد كفر بالله، وقال الضحاك: لا ترفع الصلاة إلا بالزكاة وقال عبد الله بن مسعود: من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة، فلا صلاة له. رواهن أسد بن موسى[4].

---

(١) يعني إذا كان قادراً على النطق بها.
(٢) هو أبو بكر بن العربي أحد علماء المالكية.
(٣) وهو من التابعين.
(٤) وبالجملة فأقوال السلف تميل إلى التكفير بترك هذه المباني كلها أو بعضها.

وقال عبد الله بن عمرو: من شرب الخمر ممسياً[1]، أصبح مشركاً، ومن شربه مصبحاً، أمسى مشركاً، فقيل لإبراهيم النخعي: كيف ذلك؟ قال: لأنه يترك الصلاة. قال أبو عبد الله الأخنس في كتابه: من شرب المسكر فقد تعرض لترك الصلاة، ومن ترك الصلاة فقد خرج من الإيمان، ومما يوضح ذلك أن جبريل لما سأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، كان في آخر الأمر بعد فرض الحج، والحج إنما فرض سنة تسع أو عشر[2].

وقد اتفق الناس على أنه لم يفرض قبل ست من الهجرة، ومعلوم أن الرسول ﷺ لم يأمر الناس بالإيمان، ولم يبين لهم معناه إلى ذلك الوقت، بل كانوا يعرفون أصل معناه وهذه المسائل لبسطها موضع آخر.

القلوب أربعة

والمقصود هنا أن من نفى عنه الرسول اسم الإيمان أو الإسلام، فلا بد أن يكون قد ترك بعض الواجبات فيه وإن بقي بعضها، ولهذا كان الصحابة والسلف يقولون: إنه يكون في العبد إيمان ونفاق. قال أبو داود السجستاني: حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا وكيع، عن الأعمش عن شقيق، عن أبي المقدام، عن أبي يحي قال: سئل حذيفة عن المنافق؟ قال: الذي يصف الإسلام ولا يعمل به. وقال أبو داود: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي البحتري عن حذيفة قال: القلوب أربعة: قلب أغلف[3]، فذلك قلب الكافر، وقلب مصفح[4]، وذلك قلب المنافق، وقلب أجرد فيه سراج يزهر[5]، فذلك قلب المؤمن، وقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل

(١) أي في المساء.

(٢) وقيل إنه فرض سنة ست وهو أظهر فإنا نستبعد أن يكون فرض الحج قد تأخر إلى هذا الوقت.

(٣) أي مغطى بغلاف.

(٤) وفي رواية (منكوس) أي مقلوب.

(٥) أي يلمع ويضيء.

شجرة يمدها ماء طيب، ومثل النفاق مثل قرحة[1] يمدها قيح ودم، فأيهما غلب عليه غلب، وقد روي مرفوعاً، وهو في « المسند » مرفوعاً .

وهذا الذي قاله حذيفة يدل عليه قوله تعالى: ﴿هم لِلْكفرِ يومئذٍ أقربُ منهم للإيمانِ﴾ فقد كان قبل ذلك فيهم نفاق مغلوب، فلما كان يوم أحد، غلب نفاقهم فصاروا إلى الكفر أقرب. وروى عبد الله بن المبارك، عن عوف ابن أبي جميلة، عن عبد الله بن عمرو بن هند، عن علي بن أبي طالب قال: « إن الإيمان يبدو لُمْظَةً[2] بيضاء في القلب، فكلما ازداد العبد إيماناً ازداد القلب بياضاً، حتى إذا استكمل الإيمان ابيض القلب كله، وإن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب، فكلما ازداد العبد نفاقاً، ازداد القلب سواداً، حتى إذا استكمل النفاق اسودَّ القلب، وايم الله لو شققتم عن قلب المؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب المنافق والكافر لوجدتموه أسود»[3]. وقال ابن مسعود: الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل، رواه أحمد وغيره وهذا كثير في كلام السلف، يثبتون أن القلب قد يكون فيه إيمان ونفاق، والكتاب والسنة يدلان على ذلك، فإن النبي ﷺ ذكر شعب الإيمان، وذكر شعب النفاق، وقال: « من كانت فيه شعبة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها » وتلك الشعبة قد يكون معها كثير من شعب الإيمان، ولهذا قال: « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » فعلم أن من كان معه من الإيمان أقل القليل لم يخلد في النار، وإن كان معه كثير من النفاق، فهو يعذب في النار على قدر ما معه من ذلك، ثم يخرج من النار، وعلى هذا فقوله للأعراب: ﴿لم تُؤمنوا ولكن قُولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قُلوبكم﴾[4] نفى حقيقة دخول الإيمان في قلوبهم، وذلك لا يمنع أن يكون معهم شعبة منه، كما نفاه عن الزاني والسارق، ومن لا يحب لأخيه

---

(١) وهي الدمل. (٢) أي بقعة.

(٣) يقصد بهذا البياض والسواد انهما امران حسيان فقط.

(٤) سورة الحجرات الآية ١٤ .

ما يحب لنفسه، ومن لا يأمن جاره بوائقه وغير ذلك، كما تقدم ذكره، فإن في القرآن والحديث ممن نفي عنه الإيمان لترك بعض الواجبات شيء كثير.

في أنه قد يجتمع في القلب إيمان ونفاق

وحينئذ فنقول: من قال من السلف: أسلمنا، أي: استسلمنا خوف السيف، وقول من قال: هو الإسلام، الجميع صحيح، فإن هذا إنما أراد الدخول في الإسلام والإسلام الظاهر يدخل فيه المنافقون، فيدخل فيه من كان في قلبه إيمان ونفاق، وقد علم أنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، بخلاف المنافق المحض[1] الذي قلبه كله أسود،[2] فهذا هو الذي يكون في الدرك الأسفل من النار، ولهذا كان الصحابة يخشون النفاق على أنفسهم، ولم يخافوا التكذيب لله ورسوله، فإن المؤمن يعلم من نفسه أنه لا يكذب الله ورسوله يقيناً، وهذا مستند من قال: أنا مؤمن حقاً، فإنه إنما أراد بذلك ما يعلمه من نفسه من التصديق الجازم، ولكن الإيمان ليس مجرد التصديق، بل لا بد من أعمال قلبية تستلزم أعمالاً ظاهرة كما تقدم، فحب الله ورسوله من الإيمان، وحب ما أمر الله به، وبغض ما نهى عنه، وهذا من أخص الأمور بالإيمان، ولهذا ذكر النبي ﷺ في عدة أحاديث أن: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» فهذا يحب الحسنة ويفرح بها، ويبغض السيئة ويسوؤه فعلها وإن فعلها بشهوة غالبة، وهذا الحب والبغض من خصائص الإيمان.

ومعلوم أن الزاني حين يزني إنما يزني لحب في نفسه لذلك الفعل،[3] فلو قام بقلبه خشية الله التي تقهر الشهوة، أو حب الله الذي يغلبها لم يزن، ولهذا قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿كذلكَ لنصرفَ عنهُ السوء والفحشاءَ إنهُ من عبادنا المخلَصينَ﴾ فمن كان مخلصاً لله حق الإخلاص لم يزن، وإنما يزني

---

(١) أي الخالص النفاق. (٢) أي خال من الايمان.

(٣) أي لرغبتها واشتهائها.

خلوه عن ذلك، وهذا هو الإيمان الذي ينزع منه، لم ينزع منه نفس التصديق، ولهذا قيل: هو مسلم وليس بمؤمن، فإن المسلم المستحق للثواب لا بد أن يكون مصدقاً، وإلا كان منافقاً، لكن ليس كل من صدق قام بقلبه من الأحوال الإيمانية الواجبة مثل كمال محبة الله ورسوله، ومثل خشية الله والإخلاص له في الأعمال والتوكل عليه، بل يكون الرجل مصدقاً بما جاء به الرسول، وهو مع ذلك يرائي بأعماله، ويكون أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله، وقد خوطب بهذا المؤمنون في آخر الأمر في سورة براءة[2] فقيل لهم: ﴿إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها[3]، وتجارةٌ تخشَوْنَ كسادَها[4] ومساكنُ ترضونَها أحبَّ إليكمْ من الله ورسولهِ وجهاد في سبيله، فتربصوا[5] حتى يأتيَ اللهُ بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقينَ﴾[6] ومعلوم أن كثيراً من المسلمين أو أكثرهم بهذه الصفة.

وقد ثبت أنه لا يكون الرجل مؤمناً حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإنما المؤمن من لم يرتب، وجاهد بماله ونفسه في سبيل الله، فمن لم تقم بقلبه الأحوال الواجبة في الإيمان، الذي نفى عنه الرسول الإيمان وإن كان معه التصديق، والتصديق من الإيمان، ولا بد أن يكون مع التصديق شيء من حب الله وخشية الله، وإلا فالتصديق الذي لا يكون معه شيء من ذلك ليس إيماناً البتة، بل هو كتصديق فرعون واليهود وإبليس، وهذا هو الذي أنكره السلف على الجهمية. قال الحميدي: سمعت وكيعاً يقول: أهل السنة يقولون: الإيمان قول وعمل، والمرجئة يقولون: الإيمان قول، والجهمية يقولون: الإيمان المعرفة، وفي رواية أخرى عنه: وهذا كفر. قال محمد بن عمر الكلابي: سمعت

---

(١) أي يسلب عند مباشرة الزنا فلا يكون في قلبه من خشية الله ومراقبته ما يقوى على رد الشهوة.

(٢) وكانت اخر ما نزل من القرآن الكريم.

(٣) أي اكتسبوها.

(٤) أي بوارها وعدم رواجها.

(٥) أي انتظروا على ما انتم عليه.

(٦) سورة التوبة الآية ٢٤.

وكيعاً يقول: الجهمية شر من القدرية، قال: وقال وكيع: المرجئة: الذين يقولون: الإقرار يجزى[1] من العمل، ومن قال هذا فقد هلك، ومن قال: النية تجزى من العمل، فهو كفر، وهو قول جهم، وكذلك قال أحمد بن حنبل.

نقل إجماع الصحابة والتابعين على أن الإيمان قول وعمل

ولهذا كان القول: إن الإيمان قول وعمل عند أهل السنة، من شعائر السنة، وحكى غير واحد الإجماع على ذلك، وقد ذكرنا عن الشافعي رضي الله عنه ما ذكره من الإجماع على ذلك قوله في «الأم»: وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون: إن الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزىء واحد من الثلاثة إلا بالآخر، وذكر ابن أبي حاتم في «مناقبه» سمعت حرملة يقول: اجتمع حفص الفرد ومصلان الإباضي عند الشافعي في دار الجروي، فتناظرا معه في الإيمان، فاحتج مصلان في الزيادة والنقصان وخالفه حفص الفرد، فحمي الشافعي وتقلد المسألة على أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، فطحن حفصاً الفرد، وقطعه.

وروى أبو عمر الطلمنكي بإسناده المعروف عن موسى بن هارون الحمال قال: أملى علينا إسحاق بن راهويه أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، لا شك أن ذلك كما وصفنا، وإنما عقلنا هذا بالروايات الصحيحة والآثار العامة المحكمة، وآحاد أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين وهلم جراً على ذلك، وكذلك بعد التابعين من أهل العلم على شيء واحد لا يختلفون فيه، وكذلك في عهد الأوزاعي بالشام، وسفيان الثوري بالعراق، ومالك بن أنس بالحجاز، ومعمر باليمن، على ما فسرنا وبينا، أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

وقال إسحاق: من ترك الصلاة متعمداً حتى ذهب وقتها، الظهر إلى المغرب، والمغرب إلى نصف الليل، فإنه كافر بالله العظيم، يستتاب ثلاثة أيام، فإن لم

---

(١) أي يكفي ويغني.

يرجع وقال: تركها لا يكون كفراً، ضربت عنقه، يعني تركها وقال ذلك، وأما إذا صلى وقال ذلك، فهذه مسألة اجتهاد، قال: واتبعهم على ما وصفنا من بعدهم من عصرنا هذا أهل العلم، إلا من باين الجماعة، واتبع الأهواء المختلفة، فأولئك قوم لا يعبأ الله بهم لما باينوا الجماعة[1].

قال أبو عبيد القاسم بن سلام الامام وله كتاب مصنف في الإيمان، قال: هذه تسمية من كان يقول: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. من أهل مكة: عبيد بن عمير الليثي، عطاء بن أبي رباح، مجاهد بن جبير، ابن أبي مليكة، عمرو بن دينار، ابن أبي نجيح، عبيد الله بن عمر، عبد الله بن عمرو بن عثمان، عبد الملك بن جريج، نافع بن جبير داود بن عبد الرحمن العطار، عبد الله بن رجاء. ومن أهل المدينة: محمد ابن شهاب الزهري، ربيعة ابن أبي عبد الرحمن[2]، أبو حازم الأعرج، سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن، يحيى ابن سعيد الأنصاري، هشام بن عروة بن الزبير، عبد الله بن عمر العمري، مالك بن أنس، محمد بن أبي ذئب، سليمان بن بلال، عبد العزيز بن عبد الله - يعني الماجشون - عبد العزيز بن أبي حازم. ومن أهل اليمن: طاوس اليماني، وهب بن منبه، معمر بن راشد، عبد الرزاق بن همام. ومن أهل مصر والشام: مكحول، الأوزاعي، سعيد بن عبد العزيز، الوليد بن مسلم، يونس بن يزيد الأيلي، يزيد بن أبي حبيب، يزيد بن شريح، سعيد بن أبي أيوب، الليث ابن سعد، عبد الله بن أبي جعفر، معاوية بن صالح، حيوة بن شريح، عبد الله بن وهب. وممن سكن العواصم وغيرها من الجزيرة: ميمون بن مهران، يحيى بن عبد الكريم، معقل بن عبيد، عبيد الله بن عمرو الرقي، عبد الملك بن

---

(١) وفيها خلاف مشهور بين السلف والأئمة، ومذهب أحمد وإسحاق أن تركها كفر مخرج عن الملة، وأما الأئمة الثلاثة فقالوا إن تركها كسلا مع اعتقاده بوجوبها لا يكفر.

(٢) ويقال له ربيعه الرأي وهو شيخ مالك.

دمالك، المعاذ بن عمران، محمد بن سلمة الحراني، أبو إسحاق الفزاري، مخلد ابن الحسين، علي بن بكار، يوسف بن أسباط، عطاء بن مسلم، محمد بن كثير، الهيثم بن جميل. ومن أهل الكوفة: علقمة، الأسود بن يزيد[1]، أبو وائل، سعيد بن جبير، الربيع بن خيثم، عامر الشعبي، ابراهيم النخعي، الحكم بن عتيبة، طلحة بن مصرف، منصور بن المعتمر، سلمة بن كهيل، مغيرة الضبي، عطاء بن السائب، إسماعيل بن أبي خالد، أبو حيان، يحيي بن سعيد، سليمان بن مهران الأعمش، يزيد بن أبي زياد، سفيان بن سعيد الثوري، سفيان بن عيينة، الفضيل بن عياض، أبو المقدام، ثابت بن العجلان، ابن شبرمة، ابن أبي ليلى، زهير، شريك بن عبد الله، الحسن بن صالح، حفص بن غياث، أبو بكر بن عياش، أبو الأحوص، وكيع بن الجراح، عبد الله بن نمير، أبو أسامة، عبد الله بن إدريس، زيد بن الحباب، الحسين بن علي الجعفي، محمد بن بشر العبدي، يحيي بن آدم، ومحمد، ويعلى، وعمرو بنو عبيد.

ومن أهل البصرة: الحسن بن أبي الحسن، محمد بن سيرين، قتادة بن دعامة،، بكر بن عبد الله المزني، أيوب السختياني، يونس بن عبيد، عبد الله بن عون، سليمان التيمي، هشام بن حسان الدستوائي، شعبة بن الحجاج، حماد بن سلمة، حماد بن زيد، أبو الأشهب، يزيد بن إبراهيم، أبو عوانة، وهيب بن خالد، عبد الوارث بن سعيد، معتمر بن سليمان التيمي، يحيي بن سعيد القطان، عبد الرحمن بن مهدي، بشر بن المفضل، يزيد بن زريع، المؤمل بن إسماعيل، خالد بن الحارث، معاذ بن معاذ، أبو عبد الرحمن المقري.

ومن أهل واسط: هشيم بن بشير، خالد بن عبد الله، علي بن عاصم، يزيد بن هارون، صالح بن عمر، عاصم بن علي.

ومن أهل المشرق: الضحاك بن مزاحم، أبو جمرة، نصر بن عمران، عبد الله بن المبارك، النضر بن شميل، جرير بن عبد الحميد الضبي.

---

(١) علقمة والأسود من تلاميذ ابن مسعود.

قال أبو عبيد: هؤلاء جميعاً يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص قول أهل السنة المعمول به عندنا[1].

قلت: ذكر من الكوفيين من قال ذلك أكثر مما ذكر من غيرهم، لأن الإرجاء في أهل الكوفة، وكان أول من قاله حماد بن أبي سليمان، فاحتاج علماؤها أن يظهروا إنكار ذلك، فكثُر منهم من قال ذلك، كما أن التجهم وتعطيل الصفات لما كان ابتداء حدوثه من خراسان[2]،كثر من علماء خراسان ذلك الوقت من الإنكار على الجهمية ما لم يوجد لمن لم تكن هذه البدعة في بلده ولا سمع بها، كما جاء في حديث: «إن لله عند كل بدعة يكاد[3] بها الإسلام وأهله من يتكلم بعلامات الإسلام، فاغتنموا تلك المجالس، فإن الرحمة تنزل على أهلها» أو كما قال. وإذا كان من قول السلف: إن الإنسان يكون فيه إيمان ونفاق، فكذلك في قولهم: إنه يكون فيه إيمان وكفر، ليس هو الكفر الذي ينقل عن الملة، كما قال ابن عباس وأصحابه في قوله تعالى: ﴿ومَنْ لم يحكم بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هم الكافرونَ﴾[4] قالوا: كفر لا ينقل عن الملة، وقد اتبعهم على ذلك أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة.

قال الإمام محمد بن نصر المروزي في كتاب «الصلاة»: اختلف الناس في تفسير حديث جبريل هذا، فقال طائفة من أصحابنا: قول النبي ﷺ: «الإيمان أن نؤمن بالله» وما ذكر معه كلام جامع مختصر له غور، وقد أوهمت المرجئة في تفسيره، فتأولوه على غير تأويله قلةَ معرفة منهم بلسان العرب، وغور كلام النبي ﷺ الذي قد أعطي جوامع الكلم وفواتحه، واختصر له الحديث اختصاراً أما قوله: «الإيمان أن تؤمن بالله» فأن توحده وتصدق به بالقلب واللسان

(١) فهؤلاء هم جمهرة أهل السنة وخلاصة علماء الأمة قد أطبقوا على هذا فلا يعتد به بمن شذ عن قولهم وسلك غير سبيلهم.

(٢) وكان الذي احدثه هو الجهم بن صفوان الترمذي.

(٣) أي يحارب ويعادي.

(٤) سورة المائدة الاية ٤٤.

وتخضع له ولأمره بإعطاء العزم للأداء لما أمر، مجانباً للاستنكاف والاستكبار والمعاندة، فإذا فعلت ذلك، لزمت محابه ﷺ، واجتنب مساخطه[1]، وأما قوله: «وملائكته» فأن تؤمن بمن سمى الله لك منهم في كتابه[2]، وتؤمن بأن لله ملائكة سواهم، لا يعرف أساميهم وعددهم إلا الذي خلقهم. وأما قوله: «وكتبه» فأن تؤمن بما سمى الله من كتبه في كتابه من التوراة والانجيل والزبور خاصة، وتؤمن بأن لله سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه لا يعرف أسماءها وعددها إلا الذي أنزلها، وتؤمن بالفرقان[3] وإيمانك به غير إيمانك بسائر الكتب، إيمانك بغيره من الكتب إقرارك به بالقلب واللسان، وإيمانك بالفرقان إقرارك به واتباعك ما فيه.

وأما قوله: «ورسله» فأن تؤمن بما سمى الله في كتابه من رسله، وتؤمن بأن لله سواهم رسلاً وأنبياء لا يعلم أسماءهم إلا الذي أرسلهم، وتؤمن بمحمد ﷺ، وإيمانك به غير إيمانك بسائر الرسل: إيمانك بسائر الرسل إقرارك بهم، وإيمانك بمحمد إقرارك به وتصديقك إياه واتباعك دائباً على ما جاء به. فإذا اتبعت ما جاء به، أديت الفرائض، وأحللت الحلال وحرمت الحرام، ووقفت عند الشبهات، وسارعت في الخيرات، وأما قوله: «واليوم الآخر» فأن تؤمن بالبعث بعد الموت، والحساب والميزان، والثواب والعقاب، والجنة والنار، وبكل ما وصف الله به يوم القيامة. وأما قوله: «وتؤمن بالقدر خيره وشره»، فأن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولا تقل: لو كان كذا لم يكن كذا، ولولا كذا وكذا، لم يكن كذا وكذا، قال: فهذا هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر[4].

---

(١) فكل هذه الأمور داخلة في الايمان بالله عز وجل.

(٢) وهم جبريل وميكائيل ومالك خازن النار.

(٣) يعني القرآن وسمي فرقاناً لأنه فرق بين الحق والباطل.

(٤) وهذا شرح طيب لأركان الايمان.

ومما يسأل عنه إذا كان ما أوجبه الله من الأعمال الظاهرة أكثر من هذه الخمس، فلماذا قال: الإسلام هذه الخمس؟[1] وقد أجاب بعض الناس بأن هذه أظهر شعائر الإسلام وأعظمها، وبقيام العبد بها يتم استسلامه، وتركه لها يشعر بانحلال قيد إنقياده[2].

والتحقيق أن النبي ﷺ ذكر الدين الذي هو استسلام العبد لربه مطلقاً، الذي يجب لله عبادة محضة على الأعيان، فيجب على كل من كان قادراً عليه أن يعبد الله بها مخلصاً له الدين، وهذه هي الخمس، وما سوى ذلك فإنما يجب بأسباب لمصالح، فلا يعم وجوبها جميع الناس، بل إما أن يكون فرضاً على الكفاية، كالجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وما يتبع ذلك من إمارة، وحكم، وفتيا، وإقراء وتحديث، وغير ذلك، وإما أن يجب بسبب حق للآدميين يختص به من وجب له وعليه، وقد يسقط بإسقاطه. وإذا حصلت المصلحة أو الإبراء، إما بإبرائه وإما بحصول المصلحة، فحقوق العباد مثل قضاء الديون، ورد الغصوب، والعواري والودائع، والإنصاف من المظالم من الدماء والأموال والأعراض، إنما هي حقوق الآدميين، وإذا أبرئوا منها سقطت. وتجب على شخص دون شخص في حال دون حال، لم تجب عبادة محضة لله على كل عبد قادر، ولهذا يشترك فيها المسلمون واليهود والنصارى، بخلاف الخمسة فإنها من خصائص المسلمين.

وكذلك ما يجب من صلة الأرحام، وحقوق الزوجة، والأولاد، والجيران، والشركاء، والفقراء، وما يجب من أداء الشهادة، والفتيا، والقضاء، والإمارة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد، كل ذلك يجب بأسباب عارضة على بعض الناس دون بعض لجلب منافع ودفع مضار، لو حصلت بدون فعل الإنسان

---

(١) الحديث لم يقل إن الاسلام هو هذه الخمس فقط ولكن قال إن الاسلام بني عليها فهي له كالأساس للبناء.

(٢) وهو جواب لا بأس به.

لم تجب، فما كان مشتركاً فهو واجب على الكفاية، وما كان مختصاً فإنما يجب على زيد دون عمرو، لا يشترك الناس في وجوب عمل بعينه على كل أحد قادر سوى الخمس،[1] فإن زوجة زيد وأقاربه ليست زوجة عمرو وأقاربه، فليس الواجب على هذا، مثل الواجب على هذا بخلاف صوم شهر رمضان، وحج البيت، والصلوات الخمس، والزكاة، فإن الزكاة وإن كانت حقاً مالياً فإنها واجبة لله،[2] والأصناف الثمانية مصارفها[3] ولهذا وجب فيها النية، ولم يجز أن يفعلها الغير عنه بلا إذنه، ولم تطلب من الكفار، وحقوق العباد لا يشترط لها النية، ولو أداها غيره عنه بغير إذنه برئت ذمته، ويطالب بها الكفار، وما يجب حقاً لله تعالى كالكفارات هو بسبب من العبد، وفيها شوب العقوبات،[4] فإن الواجب لله ثلاثة أنواع: عبادة محضة كالصلوات، وعقوبات محضة كالحدود، وما يشبهها كالكفارات.

وكذلك كفارات الحج وما يجب بالنذر، فإن ذلك يجب بسبب فعل من العبد، وهو واجب في ذمته. وأما الزكاة فإنها تجب حقاً لله في ماله، ولهذا يقال: ليس في المال حق سوى الزكاة[5] أي ليس فيه حق يجب بسبب المال سوى الزكاة، وإلا ففيه واجبات بغير سبب المال، كما تجب النفقات للأقارب، والزوجة، والرقيق، والبهائم، ويجب حمل العاقلة، ويجب قضاء الديون، ويجب الاعطاء في النائبة، ويجب إطعام الجائع وكسوة العاري فرضاً على الكفاية، إلى غير ذلك من الواجبات المالية، لكن بسبب عارض، والمال شرط في وجوبها، كالاستطاعة في الحج، فإن البدن سبب الوجوب والاستطاعة، والمال في الزكاة هو السبب الوجوب معه، حتى لو لم يكن في بلده من يستحقها حملها إلى

---

(١) وهذا تعليل رائع.

(٢) فإخراجها هو من حق الله على عباده وهو مما تعبدهم به.

( ) وهي المذكورة في قوله تعالى من سورة براءة (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) الآية.

(٤) أي متضمنه العقوبة لأنها إنما تجب بسبب ذنب.

(٥) وبعضهم يقول في المال حق سوى الزكاة كأبي هريرة وابن عمر.

بلد أخرى، وهي حق وجب لله تعالى، ولهذا قال من قال من الفقهاء: إن التكليف شرط فيها، فلا تجب على الصغير والمجنون، وأما عامة الصحابة والجمهور، كمالك والشافعي وأحمد، فأوجبوها في مال الصغير والمجنون، لأن مالهما من جنس مال غيرهما، ووليهما يقوم مقامهما، بخلاف بدنهما، فإنه إنما يتصرف بعقلهما، وعقلهما ناقص، وصار هذا كما يجب العشر في أرضهما، مع أنه إنما يستحقه الثمانية، وكذلك إيجاب الكفارة في مالهما، والصلاة والصيام إنما تسقط لعجز العقل عن الإيجاب، لا سيما إذا انضم إلى عجز البدن كالصغير، وهذا المعنى منتف في المال، فإن الولي قام مقامهما في الفهم، كما يقوم مقامهما في جميع ما يجب في المال، وأما بدنهما فلا يجب عليهما فيه شيء.

استدلوا على أن الإيمان هو ما ذكروه بالآيات

قال محمد بن نصر: واستدلوا على أن الإيمان هو ما ذكروه بالآيات التي تلوناها عند ذكر تسمية الله الصلاة وسائر الطاعات إيماناً، واستدلوا أيضاً مما قص الله من نبأ إبليس حين عصى ربه في سجدة واحدة أمر أن يسجدها لآدم فأباها، فكيف جحد إبليس ربه وهو يقول: ﴿ربِ بما أغويتني﴾[1]؟! ويقول: ﴿ربّ فأنظرني إلى يوم يبعثونَ﴾[2] إيماناً منه بالبعث، وإيماناً بنافذ قدرته في إنظاره إياه إلى يوم يبعثون، وهل جحد أحداً من أنبيائه، أو أنكر شيئاً من سلطانه وهو يحلف بعزته، وهل كان كفره إلا بترك سجدة واحدة أمر بها فأباها. قال: واستدلوا أيضاً بما قص الله علينا من نبأ ابني آدم ﴿إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر﴾ إلى قوله: ﴿فأصبح من الخاسرين﴾ قال: وهل جحد ربه؟ وكيف يجحده وهو يقرب له القربان؟، قالوا: قال الله تعالى: ﴿إنَّمَا يؤمنُ بآياتنا الّذينَ إذا ذُكِّرُوا بها خَرُّوا[3] سُجَّداً وسبّحوا بحمدِ ربهم وهم لا يستكبرون﴾[4]. ولم

---

(١) سورة الحجر الآية ٣٩ .

(٢) سورة الحجر الآية ٣٦ . والمعنى اخرني وامهلني إلى يوم القيامة .

(٣) أي وقعوا . (٤) سورة السجدة الآية ١٥ .

يقل: إذا ذكروا بها أقروا بها، فقط، وقال: ﴿الَّذينَ آتيناهم الكتابَ يتلونهُ حقَّ تلاوتهِ أولئكَ يؤمنونَ بهِ﴾[1]. يعني: يتبعونه حق اتباعه.

فإن قيل: فهل مع ما ذكرت من سنة ثابتة تبين أن العمل داخل في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله؟، قيل: نعم عامة السنن والآثار تنطق بذلك، منها حديث وفد عبد القيس، وذكر حديث شعبة وقرة بن خالد عن أبي جمرة عن ابن عباس كما تقدم، ولفظه «آمركم بالإيمان بالله وحده»، ثم قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟» قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا خمس ماغنمتم». وذكر أحاديث كثيرة توجب دخول الأعمال في الإيمان مثل قوله في حديث ولما سئل ﷺ.

- ثم قال أبو عبد الله محمد بن نصر: اختلف أصحابنا في تفسير قول النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فقالت طائفة منهم: إنما أراد النبي ﷺ إزالة اسم الإيمان عنه من غير أن يخرجه من الإسلام، ولا يزيل عنه اسمه، وفرقوا بين الإسلام والإيمان بقوله: ﴿قالت الاعراب آمنا﴾ الآية فقالوا: الإيمان خاص يثبت الاسم به بالعمل مع التوحيد، والإسلام عام يثبت الاسم بالتوحيد والخروج من ملل الكفر واحتجوا بحديث سعد بن أبي وقاص، وذكره عن سعد أن رسول الله ﷺ أعطى رجلاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً. فقلت: يا رسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً وهو مؤمن، فقال رسول الله ﷺ: «أو مسلم» أعادها ثلاثاً، والنبي ﷺ يقول: «أو مسلم» ثم قال: «إني لأعطي رجالاً وأمنع آخرين وهم أحب إلي منهم مخافة أن يكبوا على وجوههم في النار» قال الزهري: فنرى أن الإسلام الكلمة، والإيمان العمل.

قال محمد بن نصر: واحتجوا بإنكار عبد الله بن مسعود على من شهد لنفسه

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢١.

بالإيمان فقال: أنا مؤمن من غير استثناء، وكذلك أصحابه من بعده،[1] وجل علماء الكوفة؛ واحتجوا بحديث أبي هريرة: «يخرج منه الإيمان فإن رجع رجع إليه»، وبما أشبه ذلك من الأخبار، وبما روي عن الحسن ومحمد بن سيرين أنهما كانا يقولان: مسلم، ويهابان: مؤمن، واحتجوا بقول أبي جعفر الذي حدثناه إسحاق بن إبراهيم، أنبأنا وهب بن جرير بن حازم، حدثني أبي، عن فضيل بن يسار، عن أبي جعفر محمد بن علي أنه سأل عن قول النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»، فقال أبو جعفر: هذا الإسلام ودوَّر دارة واسعة،[2] وهذا الإيمان ودوَّر دارة صغيرة في وسط الكبيرة، فإذا زنى أو سرق خرج من الإيمان إلى الإسلام، ولا يخرج من الإسلام إلى الكفر بالله[3] واحتجوا بما روي عن النبي ﷺ قال: «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص»، حدثنا بذلك يحيى بن يحيى، حدثنا ابن لهيعة،[4] عن شريح بن هانىء عن عقبة بن عامر الجهمي، أن رسول الله ﷺ قال: «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص»[5].

وذكر عن حماد بن زيد أنه كان يفرق بين الإيمان والإسلام، فجعل الإيمان خاصاً والإسلام عاماً. قال. فلنا في هؤلاء أسوة وبهم قدوة، مع ما يثبت ذلك من النظر، وذلك أن الله جعل اسم المؤمن اسم ثناء وتزكية ومدحة، أوجب عليه الجنة فقال: ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً. تَحيَّتُهم يوم يلقونه سلام وأعدَّلهم أجراً كريما﴾[6] وقال: ﴿وبشر المؤمنينَ بأنَّ لهم مِنْ اللهِ فضلاً كبيراً﴾[7] وقال: ﴿وبشر الَّذين آمنوا أنَّ لهم قدمَ صدقٍ عندَ ربهم﴾[8] وقال: ﴿يوم ترى المؤمنينَ

---

(١) ولو كان الإيمان مجرد التصديق لا يزيد ولا ينقص لما أنكروا عليه ذلك.

(٢) أي رسم دائرة واسعة.

(٣) أي جحده لتوحيد الله وصفاته. (٤) هو ضعيف في الحديث.

(٥) ولعل هذا إن صح الحديث بالنسبة لأناس أسلموا ظاهراً ولم يرسخ الإيمان عندهم.

(٦) سورة الاحزاب الآيات (٤٣ - ٤٤). (٧) سورة الاحزاب الآية ٤٧.

(٨) سورة يونس الآية ٢.

والمؤمناتِ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾[1] وقال: ﴿اللهُ ولي الَّذيـن آمنـوا يخرجهم من الظلماتِ إلى النـور﴾[2] وقـال: ﴿وَعَـدَ اللهُ الَّذيـنَ آمنـوا وعملـوا الصالحاتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ﴾[3].

قال: ثم أوجب الله النار على الكبائر، فدل بذلك على أن اسم الإيمان زائل عمن أتى كبيرة، قالوا: ولم نجده أوجب الجنة باسم الإسلام، فثبت أن اسم الإسلام له ثابت على حاله، واسم الإيمان زائل عنه.

فإن قيل لهم في قولهم هذا: ليس الإيمان ضد الكفر، قالوا: الكفر ضد لأصل الإيمان، لأن للإيمان أصلاً وفروعاً، فلا يثبت الكفر حتى يزول أصل الإيمان الذي هو ضد الكفر، فإن قيل لهم: فالذي زعمتم أن النبي ﷺ أزال عنهم اسم الإيمان هل فيه من الإيمان شيء؟ قالوا: نعم أصله ثابت، ولولا ذلك لكفروا. ألم تسمع إلى ابن مسعود أنكر على الذي شهد أنه مؤمن ثم قال: لكنا نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، يخبرك أنه قد آمن من جهة أنه صدق، وأنه لا يستحق اسم المؤمن إذا كان يعلم أنه مقصر، لأنه لا يستحق هذا الاسم عنده إلا من أدى ما وجب عليه وانتهى عما حرم عليه من الموجبات للنار التي هي الكبائر.

قالوا: فلما أبان الله أن هذا الاسم يستحقه من قد استحق الجنة، وأن الله قد أوجب الجنة عليه، علمنا أنه قد آمنا وصدقنا، لأنه لا يخرج من التصديق إلا بالتكذيب، ولسنا بشاكين ولا مكذبين، وعلمنا أنا عـاصـون لـه مستـوجبـون للعذاب وهو ضد الثواب الذي حكم الله به للمؤمنين على اسم الإيمان، علمنا أنا قد آمنا، وأمسكنا عن الاسم الذي أثبت الله عليه الحكم بالجنة وهو من الله اسم ثناء وتزكية، وقد نهانا الله أن نزكي أنفسنا، وأمرنا بالخوف على

---

(١) سورة الحديد الآية ١٢.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٧. (٣) سورة البقرة الآية ٢٥.

أنفسنا، وأوجب لنا العذاب بعصياننا، فعلمنا أنا لسنا بمستحقين بأن نتسمى مؤمنين إذ أوجب الله على اسم الإيمان الثناء والبركة والرأفة والرحمة والمغفرة والجنة، وأوجب على الكبائر النار، وهذان حكمان متضادان.

فإن قيل: فكيف أمسكتم عن اسم الإيمان أن تسموا به، وأنتم تزعمون أن أصل الإيمان في قلوبكم وهو التصديق بأن الله حق، وما قاله صدق؟ قالوا: إن الله ورسوله وجماعة المسلمين سموا الأشياء بما غلبَ عليها من الأسماء، فسموا الزاني فاسقاً، والقاذف فاسقاً، وشارب الخمر فاسقاً، ولم يسموا واحداً من هؤلاء متقياً ولا ورعاً، وقد أجمع المسلمون أن فيه أصل التقوى والورع، وذلك أنه يتقي أن يكفر أو يشرك بالله شيئاً، وكذلك يتقي الله أن يترك الغسل من الجنابة أو الصلاة، ويتقي أن يأتي أمه، فهو في جميع ذلك متق، وقد أجمع المسلمون من الموافقين والمخالفين أنهم لا يسمونه متقياً ولا ورعاً إذا كان يأتي بالفجور، فلما أجمعوا أن أصل التقى والورع ثابت فيه، وأنه قد يزيد فيه فروعاً بعد الأصل كتورعه عن إتيان المحارم، ثم لا يسمونه متقياً ولا ورعاً مع إتيانه بعض الكبائر، بل سموه فاسقاً وفاجراً مع علمهم أنه قد أتى بعض التقى والورع، فمنعهم من ذلك أن اسم التقى اسم ثناء وتزكية، وأن الله قد أوجب عليه المغفرة والجنة.

قالوا: فلذلك لا نسميه مؤمناً ونسميه فاسقاً زانياً، وإن كان في قلبه أصل اسم الإيمان، لأن الإيمان اسم أثنى الله به على المؤمنين، وزكاهم به وأوجب عليه الجنة، فمن ثم قلنا: مسلم ولم نقل: مؤمن[1]، قالوا: ولو كان أحد من المسلمين الموحدين يستحق ألا يكون في قلبه إيمان ولا إسلام لكان أحق الناس بذلك أهل النار الذين دخلوها، فلما وجدنا النبي ﷺ يخبر أن الله يقول: «أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان» ثبت أن شر المسلمين في قلبه إيمان،

(١) وهذا كلام نفيس جداً ويحل إشكالات كثيرة.

ولما وجدنا الأمة تحكم عليه بالأحكام التي ألزمها الله للمسلمين ولا يكفرونهم، ولا يشهدون لهم بالجنة، ثبت أنهم مسلمون إذ أجمعوا أن يمضوا عليهم أحكام المسلمين، وأنهم لا يستحقون أن يسموا مؤمنين، إذ كان الإسلام ثبتاً للملة التي يخرج بها الإنسان من جميع الملل، فتزول عنه أسماء الملل إلا اسم الاسلام وتثبت أحكام الاسلام عليه، وتزول عنه أحكام جميع الملل.

فإن قال لهم قائل: لمَ لم تقولوا: كافر إن شاء الله، تريدون به كمال الكفر، كما قلتم: مؤمن إن شاء الله تريدون به كمال الإيمان؟ قالوا: لأن الكافر منكر للحق، والمؤمن أصل إيمانه الإقرار، والإنكار لا أول له ولا آخر، فتنتظر به الحقائق، والإيمان أصله التصديق، والإقرار ينتظر به حقائق الأداء لما أقر والتحقيق لما صدق، ومثل ذلك كمثل رجلين عليهما حق لرجل، فسأل أحدهما حقه، فقال: ليس لك عندي حق، فأنكر وجحد، فلم يبق له منزلة يحقق بها ما قال إذ جحد وأنكر، وسأل الآخر حقه فقال: نعم لك علي كذا وكذا، فليس إقراره بالذي يصل إليه بذلك حقه دون أن يوفيه، فهو منتظر له أن يحقق ما قال بالأداء، وتصديق إقراره بالوفاء، ولو أقر ثم لم يؤد إليه حقه كان كمن جحده في المعنى إذا استويا. في الترك للأداء، فتحقيق ما قال أن يؤدي إليه حقه، فإن أدى جزءاً منه حقق بعض ما قال، ووفى ببعض ما أقر به، وكلما أدى جزءاً ازداد تحقيقاً لما أقر به، وعلى المؤمن الأداء أبداً بما أقر به حتى يموت، فمن ثم قلنا: مؤمن إن شاء الله، ولم نقل: كافر إن شاء الله[1].

---

(١) وخلاصة هذا الجواب أن الكفر لما كان إنكاراً وجحوداً للحق والإنكار ليس له نهاية ينتهي إليها لم ينتظر من المنكر بلوغ نهاية الانكار. وأما الايمان فلما كان إقراراً بالحق وهو شيء محدد ثابت كان ينتظر من المؤمن أن يبلغ الكمال في أداء هذا الحق شيئاً فشيئاً حتى يبلغ كمال الايمان.

من الكفر كفر لا ينقل عن الملة

قال محمد بن نصر: وقالت طائفة أخرى من أصحاب الحديث بمثل مقالة هؤلاء، إلا أنهم سموه مسلماً لخروجه من ملل الكفر ولإقراره بالله، وبما قال، ولم يسموه مؤمناً، وزعموا أنهم مع تسميتهم إياه بالإسلام كافر، لا كافر بالله، ولكن كافر من طريق العمل، وقالوا: كفر لا ينقل عن الملة، وقالوا: محال أن يقول النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» والكفر ضد الإيمان، فلا يزول عنه اسم الإيمان إلا واسم الكفر لازم له، لأن الكفر ضد الإيمان، إلا أن الكفر كفران: كفر هو جحد بالله وبما قال، فذاك ضده الإقرار بالله والتصديق به وبما قال: وكفر هو عمل فهو ضد الإيمان الذي هو عمل، ألا ترى إلى ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه» قالوا: فإذا لم يؤمن فقد كفر، ولا يجوز غير ذلك إلا أنه كفر من جهة العمل، إذ لم يؤمن من جهة العمل، لأنه لا يضيع ما فرض عليه ويرتكب الكبائر إلا من قلة خوفه، وقلة تعظيمه لله ووعيده، فقد ترك من الإيمان التعظيم الذي صدر عنه الخوف والورع عن الخوف، فأقسم النبي ﷺ أنه لا يؤمن إذا لم يأمن جاره بوائقه[1].

ثم قد روى جماعة عن النبي ﷺ أنه قال: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» وأنه قال: «إذا قال المسلم لأخيه: يا كافر ولم يكن كذلك باء بالكفر»[2] فقد سماه النبي ﷺ بقتاله أخاه كافراً وبقوله له: يا كافر كافراً، وهذه الكلمة دون الزنا، والسرقة، قالوا: فأما قول من احتج علينا، فزعم أنا إذا سميناه كافراً لزمنا أن يحكم عليه بحكم الكافرين بالله، فنستتيبه ونبطل الحدود عنه، لأنه إذا كفر فقد زالت عنه أحكام المؤمنين

---

(١) ولعل النصوص التي وردت بتكفير المقصرين في بعض الواجبات أو المرتكبين لبعض المحرمات تشهد لأصحاب هذا الرأي.

(٢) أي رجع به واستحق اسمه.

وحدودهم، وفي ذلك إسقاط الحدود وأحكام المؤمنين على كل من أتى كبيرة، فإنا لم نذهب في ذلك إلى حيث ذهبوا ولكنا نقول: للإيمان أصل وفرع، وضد الإيمان الكفر في كل معنى[1]، فأصل الإيمان الإقرار والتصديق، وفرعه إكمال العمل بالقلب والبدن، فضد الإقرار والتصديق الذي هو أصل الإيمان، الكفر بالله وبما قال، وترك التصديق به وله، وضد الإيمان الذي هو عمل، وليس هو إقرار، كفر بالله ينقل عن الملة، ولكن كفر تضييع العمل، كما كان العمل إيماناً، وليس هو الإيمان الذي هو إقرار بالله، فلما كان من ترك الإيمان الذي هو إقرار بالله كافراً، يستتاب، ومن ترك الإيمان-الذي هو عمل مثل الزكاة والحج والصوم، أو ترك الورع عن شرب الخمر والزنا، قد زال عنه بعض الإيمان، ولا يجب أن يستتاب عندنا ولا عند من خالفنا من أهل السنة وأهل البدع ممن قال: إن الإيمان تصديق وعمل، إلا الخوارج وحدها، فكذلك لا يجب بقولنا: كافر من جهة تضييع العمل أن يستتاب، ولا تزول عنه الحدود، كما لم يكن بزوال الإيمان الذي هو عمل استتابة، ولا إزالة الحدود عنه، إذ لم يزل أصل الإيمان عنه، فكذلك لا يجب علينا استتابته وإزالة الحدود والأحكام عنه بإثباتنا له اسم الكفر من قبل العمل، إذ لم يأت بأصل الكفر الذي هو جحد بالله أو بما قال[2].

وقالوا: ولما كان العلم بالله إيماناً، والجهل به كفراً، وكان العمل بالفرائض إيماناً، والجهل بها قبل نزولها ليس بكفر، لأن أصحاب رسول الله ﷺ وقد أقروا بالله أول ما بعث الله رسوله ﷺ إليهم، ولم يعلموا الفرائض التي افترضت عليهم بعد ذلك، فلم يكن جهلهم بذلك كفراً، ثم أنزل عليهم هذه الفرائض، فكان إقرارهم بها والقيام بها إيماناً، وإنما يكفر من جحدها لتكذيبه

---

(١) يعني أن كل شعبة من شعب الايمان يقابلها كفر من جنسها.

(٢) خلاصة هذا الكلام أن الكفر كفران كفر اعتقاد وكفر عمل وأن الأول هو الذي يبطل إجراء حكم الايمان.

خبر الله، ولو لم يأت خبر من الله، ما كان يجهلها كافراً، وبعد مجيء الخبر، من لم يسمع بالخبر من المسلمين، لم يكن يجهلها كافراً، والجهل بالله في كل حال كفر قبل الخبر وبعد الخبر.

قالوا: فمن ثم قلنا: إن ترك التصديق بالله كفر، وإن ترك الفرائض مع تصديق الله أنه قد أوجبها كفر، ليس بكفر بالله، إنما هو كفر من جهة ترك الحق، كما يقول القائل: كفرتني حقي ونعمتي، يريد: ضيعت حقي وضيعت شكر نعمتي[1]، قالوا: ولنا في هذا قدوة بمن روي عنهم من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين، إذ جعلوا للكفر فروعاً دون أصله، لا ينقل صاحبه عن ملة الإسلام، كما أثبتوا للإيمان من جهة العمل فروعاً للأصل لا ينقل تركه عن ملة الإسلام، من ذلك قول ابن عباس في قوله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ قال محمد بن نصر: حدثنا يحيى، حدثنا سفيان بن عيينة، عن هشام يعني ابن حجير، عن طاووس، عن ابن عباس: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾وليس بالكفر الذي يذهبون إليه[2].

حدثنا محمد بن يحيى ومحمد بن رافع، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن ابن طاووس، عن أبيه قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هُمُ الكافِرُونَ﴾ قال: هي به كفر، قال ابن طاووس: وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله

حدثنا إسحاق، أنبأنا وكيع، عن سفيان، عن معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: هو به كفر، وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه

---

(١) ويشهد لهذا قوله تعالى (قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) فإنه لم يرد بالكفر هنا الجحد والإنكار ولكن الإهمال والتضييع وكذلك قوله تعالى في شأن من ترك الحج مع الاستطاعة (ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) فلم يرد بالكفر هنا إنكار وجوب الحج ولكن ترك أدائه، وهكذا.

(٢) يعني المخرج عن الملة.

ورسله . وبه أنبأنا وكيع عن سفيان، عن معمر، عن ابن طاووس عن أبيه قال: قلت لابن عباس: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ فهو كافر؟ قال: هو به كفر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر وملائكته وكتبه ورسله .

حدثنا محمد بن يحيي، حدثنا عبد الرزاق، عن سفيان، عن رجل، عن طاووس، عن ابن عباس قال: كفر لا ينقل عن الملة .

حدثنا إسحاق، أنبأنا وكيع، عن سفيان، عن سعيد المكي، عن طاووس قال: ليس بكفر ينقل عن الملة .

حدثنا إسحاق، أنبأنا وكيع، عن ابن جريج، عن عطاء قال: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق .

قال محمد بن نصر: قالوا: وقد صدق عطاء، قد يسمى الكافر ظالماً، ويسمى العاصي من المسلمين ظالماً، فظلم ينقل عن ملة الإسلام، وظلم لا ينقل، قال الله تعالى: ﴿الَّذينَ آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلم﴾[1] وقال: ﴿إنَّ الشركَ لظلمٌ عظيمٌ﴾[2] وذكر حديث ابن مسعود المتفق عليه قال: لما نزلت: ﴿الَّذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلم﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ قال رسول الله ﷺ «ليس بذلك، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: ﴿إنَّ الشركَ لظلمٌ عظيمٌ﴾ إنما هو الشرك» .

تفسير قوله تعالى: (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم)

حدثنا محمد بن يحيي، حدثنا الحجاج بن المنهال، عن حماد بن سلمة، عن علي ابن زيد عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب كان إذا دخل بيته نشر المصحف فقرأ، فدخل ذات يوم فقرأ، فأتى على هذه الآية

---

(١) سورة الانعام الآية ٨٢ . (٢) سورة لقمان الآية ١٣ .

﴿الَّذين آمنوا ولَم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلمٍ﴾ إلى آخر الآية. فانسل وأخذ رداءه، ثم أتى أبي بن كعب، فقال: يا أبا المنذر أتيت قبل على هذه الآية﴿الَّذين آمنوا ولَم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلمٍ﴾وقد ترى أنا نظلم ونفعل؟! فقال: يا أمير المؤمنين إن هذا ليس بذلك، يقول الله:﴿ إنَّ الشركَ لظلمٌ عظيمٌ﴾[1] إنما ذلك الشرك.

قال محمد بن نصر: وكذلك الفسق فسقان: فسق ينقل عن الملة فيسمى الكافر فاسقاً، والفاسق من المسلمين فاسقاً، ذكر الله إبليس فقال: ﴿ ففسقَ عن أمرِ ربه﴾[2] وكان ذلك الفسق منه كفراً، وقال الله تعالى: ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾[3] يريد الكفار، دل على ذلك قوله: ﴿ كلّما أرادُوا أن يخرجُوا منها أُعيدُوا فيها وقيلَ لهم ذوقوا عذابَ النَّارِ الذي كنتم بِه تكذبون﴾[4] وسمى الفاسق من المسلمين فاسقاً ولم يخرجه من الإسلام، قال الله تعالى: ﴿والَّذين يرمُون المحصنات ثمَّ لم يأتوا بأربعةِ شهداءَ فاجلدوهم ثمانينَ جلدة ولا تقبلوا لهم شهادةً أبداً وأولئكَ هم الفاسقونَ﴾[5] وقال تعالى: ﴿ فمن فرضَ فيهنَّ الحج فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ في الحج﴾[6] فقالت العلماء في تفسير الفسوق ها هنا: هي المعاصي.

قالوا: فلما كان الظلم ظلمين والفسق فسقين، كذلك الكفر كفران: أحدهما ينقل عن الملة، والآخر لا ينقل عن الملة، وكذلك الشرك شركان: شرك في التوحيد ينقل عن الملة، وشرك في العمل لا ينقل عن الملة[7]، وهو الرياء قال تعالى: ﴿فمن كانَ يرجو لقاءَ ربهِ فليعملْ عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادةِ ربهِ

---

(١) سورة لقمان الآية ١٣ . (٢) سورة الكهف الآية ٥٠ .
(٣) سورة السجدة الآية ٢٠ . (٤) سورة السجدة الآية ٢٠ .
(٥) سورة النور الآية ٤ . (٦) سورة البقرة الآية ١٩٧ .
(٧) ويسمى الشرك الاصغر وذلك مثل: القسم بغير الله، والطيرة، والتوله، والطواف بالقبور، والتمسح بها.

أحداً﴾[1] يريد بذلك المراءاة بالأعمال الصالحة، وقال النبي ﷺ: «الطيرة شرك».

قال محمد بن نصر: فهذان مذهبان هما في الجملة محكيان عن أحمد بن حنبل في موافقيه من أصحاب الحديث، حكى الشالنجي إسماعيل بن سعيد أنه سأل أحمد بن حنبل عن المصر على الكبائر يطلبها بجهده، إلا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصيام، هل يكون مصراً من كانت هذه حاله؟ قال: هو مصر، مثل قوله: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» يخرج من الإيمان ويقع في الإسلام، ومن نحو قوله: «لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن» ومن نحو قول ابن عباس في قوله: ﴿ومَنْ لَمْ يحكم بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هم الكافرون﴾ فقلت له: ما هذا الكفر؟ فقال: كفر لا ينقل عن الملة، مثل الإيمان بعضه دون بعض، وكذلك الكفر حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه[2]. وقال ابن أبي شيبة: لا يزني حين يزني وهو مؤمن: لا يكون مستكمل الإيمان، يكون ناقصاً من إيمانه[3] قال: وسألت أحمد بن حنبل عن الإسلام والإيمان؟ فقال: الإيمان قول وعمل، والإسلام إقرار، قال: وبه قال أبو خيثمة: لا يكون الإسلام إلا بإيمان، ولا الإيمان إلا بإسلام.

قلت: وقد تقدم تمام الكلام بتلازمهما وإن كان مسمى أحدهما ليس هو مسمى الآخر، وقد حكى غير واحد إجماع أهل السنة والحديث على أن الإيمان قول وعمل[4]. قال أبو عمر بن عبد البر في «التمهيد»: أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان، إلا ما ذكر عن أبي حنيفة

---

(١) سورة الكهف الآية ١١٠.

(٢) يعني يقع الاتفاق على أنه كفر مخرج عن الملة.

(٣) وهذا هو التأويل الصحيح للحديث.

(٤) ولا عبرة بشذوذ من شذ منهم كحماد بن أبي سليمان وأتباعه.

وأصحابه، فإنهم ذهبوا إلى أن الطاعات لا تسمى إيماناً، قالوا إنما الإيمان التصديق والإقرار، ومنهم من زاد المعرفة وذكر ما احتجوا به... إلى أن قال:

وأما سائر الفقهاء من أهل الرأي والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر، منهم مالك بن أنس، والليث بن سعد، وسفيان الثوري، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وداود بن علي والطبري، ومن سلك سبيلهم فقالوا: الإيمان قول وعمل، قول باللسان وهو الإقرار، والإعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح مع الإخلاص بالنية الصادقة. قالوا: وكل ما يطاع الله عز وجل به من فريضة ونافلة، فهو من الإيمان[1]، والإيمان يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي، وأهل الذنوب عندهم مؤمنون غير مستكملي الإيمان من أجل ذنوبهم، وإنما صاروا ناقصي الإيمان بارتكابهم الكبائر، ألا ترى إلى قول النبي ﷺ «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»... الحديث - يريد مستكمل الإيمان، ولم يرد به نفي جميع الإيمان عن فاعل ذلك، بدليل الإجماع على توريث الزاني والسارق وشارب الخمر إذا صلوا إلى القبلة، وانتحلوا دعوة الإسلام، من قراباتهم المؤمنين الذين ليسوا بتلك الأحوال، واحتج على ذلك ثم قال: وأكثر أصحاب مالك على أن الإيمان والإسلام شيء واحد[2].

قول المعتزلة في الايمان

قال: وأما المعتزلة، فالإيمان عندهم جماع الطاعات، ومن قصر منها عن شيء فهو فاسق، لا مؤمن ولا كافر، وهؤلاء المتحققون بالاعتزال أصحاب المنزلة بين المنزلتين... إلى أن قال: على أن الايمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، جماعة أهل الآثار، والفقهاء من أهل الفتيا في

---

(١) أي من شعبه وفروعه.

(٢) لا بل الصحيح أنهما متغايران مفهوماً كما تقدم وأن الإسلام أوسع دائرة من الإيمان.

الأمصار، وروى ابن القاسم عن مالك أن الإيمان يزيد، وتوقف في نقصانه، وروى عنه عبد الرزاق ومعن بن عيسى، وابن نافع أنه يزيد وينقص؛ وعلى هذا مذهب الجماعة من أهل الحديث، والحمد لله.

ثم ذكر حجج المرجئة، ثم حجج أهل السنة، ورد على الخوارج التكفير بالحدود المذكورة للعصاة في الزنا والسرقة، ونحو ذلك، وبالموارثة[1]، وبحديث عبادة: «من أصاب شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة» وقال: الإيمان مراتب، بعضها فوق بعض، فليس ناقص الإيمان ككامل الايمان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي حقاً[2]، ولذلك قال: ﴿هم المؤمنون حقاً﴾ وكذلك قوله ﷺ: «المؤمن من أمنه الناس والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» - يعني حقاً - ومن هذا قوله: «أكمل المؤمنين». ومعلوم أن هذا لا يكون أكمل حتى يكون غيره أنقص!

وقوله: «أوثق عرى الإيمان[3] الحب في الله والبغض في الله». وقوله: «لا إيمان لمن لا أمانة له»، يدل على أن بعض الإيمان أوثق وأكمل من بعض، وذكر الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: «من أحب لله وأبغض لله» - الحديث - وكذلك ذكر أبو عمر الطلمنكي إجماع أهل السنة على أن الإيمان قول وعمل ونية وإصابة السنة. وقال أبو طالب المكي: مباني الإسلام الخمسة: يعني الشهادتين، والصلوات الخمس، والزكاة، وصيام شهر رمضان، والحج، قال: وأركان الإيمان سبعة: يعني الخمسة المذكورة في حديث جبرائيل، والإيمان بالقدر، والإيمان بالجنة والنار، وكلاهما قد رويت في حديث جبرائيل كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

---

(١) لأنهم لو كانوا بالمعصية كفاراً لوجب قتلهم ولم يكتف بإقامة الحدود عليهم ولما جاز التوارث بينهم وبين أقربائهم المؤمنين.

(٢) قوله أي حقاً تفسير لكلمة (إنما المؤمنون).

(٣) يعنى أمتن عقده وأقواها.

قال: والإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته، والإيمان بكتب الله وأنبيائه، والإيمان بالملائكة والشياطين، يعني والله أعلم الإيمان بالفرق بينهما، فإن من الناس من يجعلهما جنساً واحداً، لكن تختلف باختلاف الأعمال، كما يختلف الإنسان البر والفاجر، والإيمان بالجنة والنار، وأنهما قد خلقتا قبل آدم. والإيمان بالبعث بعد الموت، والإيمان بجميع أقدار الله خيرها وشرها، وحلوها ومرّها، أنها من الله قضاء وقدراً ومشيئة وحكماً، وأن ذلك عدل منه، وحكمة بالغة، استأثر بعلم غيبها ومعنى حقائقها.

قال: وقد قال قائلون: إن الإيمان هو الإسلام، وهذا قد أذهب التفاوت والمقامات، وهذا يقرب من مذهب المرجئة،[1] وقال آخرون: إن الإسلام غير الإيمان وهؤلاء قد أدخلوا التضاد والتغاير،[2] وهذا قريب من قول الإباضية، فهذه مسألة مشكلة تحتاج إلى شرح وتفصيل، فمثل الاسلام من الايمان، كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى في المعنى والحكم، فشهادة الرسول غير شهادة الوحدانية، فهما شيئان في الأعيان، وإحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم كشيء واحد، كذلك الايمان والاسلام أحدهما مرتبط بالآخر، فهما كشيء واحد، لا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له،[3] إذ لا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه، ولا يخلو المؤمن من إسلام به يحقق إيمانه من حيث اشترط الله للأعمال الصالحة الإيمان، واشترط للإيمان الأعمال الصالحة فقال في تحقيق ذلك: ﴿وَمَنْ يعمل مِنْ الصالحاتِ وهو مؤمن فلا كفرانَ لسعيه﴾[4] وقال في تحقيق الإيمان بالعمل: ﴿ومن يأته مؤمناً قد عَمِلَ الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى﴾[5] فمن كان ظاهره أعمال الاسلام ولا يرجع إلى عقود الإيمان

---

(١) لان الايمان عندهم هو القول والاقرار فقط.

(٢) أي جعلوهما امرين منفصلين ومتغايرين.

(٣) أي انهما وان تغايرا لكنهما متلازمان وجوداً.

(٤) سورة الانبياء الآية ٩٤. (٥) سورة طه الآية ٧٥.

بالغيب، فهو منافق نفاقاً ينقل عن الملة، ومن كان عقده الإيمان بالغيب، ولا يعمل بأحكام الإيمان، وشرائع الإسلام، فهو كافر كفراً لا يثبت معه توحيد، ومن كان مؤمناً بالغيب مما أخبرت به الرسل عن الله عاملاً بما أمر الله فهو مؤمن مسلم، ولولا أنه كذلك لكان المؤمن يجوز ألا يسمى مسلماً، ولجاز أن المسلم لا يسمى مؤمناً بالله.

وقد أجمع أهل القبلة على أن كل مؤمن مسلم، وكل مسلم مؤمن بالله وملائكته وكتبه قال: ومثل الإيمان في الأعمال كمثل القلب في الجسم لا ينفك أحدهما عن الآخر، لا يكون ذو جسم حي، ولا ذا قلب بغير جسم، فهما شيئان منفردان، وهما في الحكم والمعنى منفصلان، ومثلهما أيضاً مثل حبة لها ظاهر وباطن وهي واحدة. لا يقال: حبتان: لتفاوت صفتها، فكذلك أعمال الاسلام من الاسلام هو ظاهر الإيمان، وهو من أعمال الجوارح، والايمان باطن الاسلام، وهو من أعمال القلوب.

وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «الاسلام علانية، والإيمان في القلب»، وفي لفظ: «الإيمان سر» فالإسلام أعمال الإيمان، والإيمان عقود الإسلام، فلا إيمان إلا بعمل، ولا عمل إلا بعقد، ومثل ذلك مثل العلم الظاهر والباطن، أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وعمل الجوارح، ومثله قول رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» أي: لا عمل إلا بعقد وقصد، لأن «إنما» تحقيق للشيء ونفي لما سواه، فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات: وعمل القلوب من النيات، فمثل العمل من الإيمان كمثل الشفتين من اللسان لا يصح الكلام إلا بهما، لأن الشفتين تجمع الحروف، واللسان يظهر الكلام، وفي سقوط أحدهما بطلان الكلام، وكذلك في سقوط العمل ذهاب الإيمان، ولذلك حين عدد الله نعمه على الإنسان بالكلام ذكر الشفتين مع اللسان في قوله: ﴿ألم نجعل لهُ عينين ولساناً وشفتين﴾[1] بمعنى ألم نجعله ناظراً متكلماً، فعبر عن الكلام

(١) سورة البلد الآيات (٨ ـ ٩).

باللسان والشفتين، لأن الكلام الذي جرت به النعمة لا يتم إلا بهما[1].

ومثل الإيمان والاسلام أيضاً كفسطاط قائم في الارض له ظاهر وأطناب، وله عمود في باطنه، فالفسطاط مثل الإسلام، له أركان من أعمال العلانية والجوارح، وهي الأطناب التي تمسك أرجاء الفسطاط والعمود الذي في وسط الفسطاط، مثله كالايمان لا قوام للفسطاط إلا به، فقد احتاج الفسطاط إليها، إذ لا قوام له ولا قوة إلا بهما، كذلك الإسلام في أعمال الجوارح لا قوام له إلا بالايمان، والايمان من أعمال القلوب، لا نفع له إلا بالاسلام، وهو صالح الأعمال.

وأيضاً فإن الله قد جعل ضد الاسلام والايمان واحداً، فلولا أنهما كشيء واحد في الحكم والمعنى ما كان ضدهما واحداً فقال: ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾[2] وقال: ﴿أيأمركم بالكفرِ بعدَ إذْ أنتم مسلمون﴾[3] فجعل ضدهما الكفر.

قال: وعلى مثل هذا أخبر رسول الله ﷺ عن الايمان، والاسلام من صنف واحد، فقال في حديث ابن عمر: «بني الإسلام على خمس» وقال في حديث ابن عباس عن وفد عبد القيس أنهم سألوه عن الايمان فذكر هذه الأوصاف، فدل ذلك على أنه لا إيمان باطن إلاّ بإسلام ظاهر ولا إسلام ظاهر علانية إلا بإيمان سر، وأن الايمان والعمل قرينان لا ينفع أحدهما بدون صاحبه.

قال: فأما تفرقة النبي ﷺ في حديث جبرائيل بين الايمان والاسلام، فإن ذلك تفصيل أعمال القلوب وعقودها على ما توجب هذه المعاني التي وصفناها أن تكون عقوداً من تفصيل أعمال الجوارح مما يوجب الأفعال الظاهرة التي وصفها

---

(١) إلا أن النعمة باللسان والشفتين أوسع من مجرد الكلام.

(٢) سورة آل عمران الآية ٨٦. (٣) سورة آل عمران الآية ٨٠.

أن تكون علانية، لا أن ذلك بفرق بين الاسلام والايمان في المعنى باختلاف وتضاد. ليس فيه دليل أنهما مختلفان في الحكم، قال: ويجتمعان في عبد واحد مسلم مؤمن. فيكون ما ذكره من عقود القلب وصف قلبه، وما ذكره من العلانية وصف جسمه.

قال: وأيضاً فإن الأمة مجتمعة أن العبد لو آمن بجميع ما ذكره من عقود القلب في حديث جبريل من وصف الايمان ولم يعمل بما ذكره من وصف الاسلام أنه لا يسمى مؤمناً،[1] وأنه إن عمل بجميع ما وصف به الاسلام، ثم لم يعتقد ما وصفه من الايمان أنه لا يكون مسلماً،[2] وقد أخبر النبي ﷺ أن الأمة لا تجتمع على ضلالة.

قلت: كأنه أراد بذلك إجماع الصحابة ومن اتبعهم، أو أنه لا يسمى مؤمناً في الأحكام، وأنه لا يكون مسلماً إذا أنكر بعض هذه الأركان، أو علم أن الرسول أخبر بها ولم يصدقه، أو أنه لم ير خلاف أهل الأهواء خلافاً،[3] وإلا فأبو طالب كان عارفاً بأقوالهم، وهذا ـ والله أعلم ـ مراده، فإنه عقد الفصل الثالث والثلاثين في بيان تفصيل الاسلام والايمان، وشرح عقود معاملة القلب من مذهب أهل الجماعة، وهذا الذي قاله أجود مما قاله كثير من الناس، لكن ينازع في شيئين: أحدهما: أن المسلم[4] المستحق للثواب لا بد أن يكون معه الايمان الواجب المفصل المذكور في حديث جبرائيل. (والثاني:) أن النبي ﷺ إنما يطلق «مؤمناً» دون «مسلم» في مثل قول النبي ﷺ: «أو مسلم» لكونه ليس من خواص المؤمنين وأفاضلهم، كأنه يقول. لكونه ليس من السابقين المقربين بل من المقتصدين الأبرار، فهذان مما تنازع فيهما جمهور العلماء، ويقولون: لم يقل

---

(١) لأن الايمان لا بد له من عمل يحققه فلا يكفي فيه عقد القلب.

(٢) لأن الإسلام لا بد له من إيمان يصححه وإن كان نفاقاً.

(٣) وهذا هو الظاهر أنه لم يعتد بخلافهم.

(٤) أي الكامل الإسلام.

النبي ﷺ في ذلك الرجل «أو مسلم» لكونه لم يكن من خواص المؤمنين وأفاضلهم كالسابقين المقربين، فإن هذا لو كان كذلك لكان ينفي الايمان المطلق عن الأبرار المقتصدين المتقين الموعودين بالجنة بلا عذاب إذا كانوا من أصحاب اليمين، ولم يكونوا من السابقين والمقربين، وليس الأمر كذلك، بل كل من أصحاب اليمين مع السابقين المقربين، كلهم مؤمنون موعودون بالجنة بلا عذاب، وكل من كان كذلك، فهو مؤمن باتفاق المسلمين من أهل السنة، وأهل البدع،[1] ولو جاز أن ينفى الايمان عن شخص لكون غيره أفضل منه إيماناً، نفي الايمان عن أكثر أولياء الله المتقين، بل وعن كثير من الأنبياء، وهذا في غاية الفساد، وهذا من جنس قول من يقول: نفي الاسم لنفي كماله المستحب.

وقد ذكرنا أن مثل هذا لا يوجد في كلام الله ورسوله، بل هذا الحديث خص من قيل فيه. مسلم وليس بمؤمن، فلا بد أن يكون ناقصاً عن درجة الأبرار المقتصدين أهل الجنة، ويكون إيمانه ناقصاً عن إيمان هؤلاء فلا يكون قد أتى بالايمان الذي أمر به هؤلاء كله،[2] ثم إن كان قادراً على ذلك الايمان وترك الواجب، كان مستحقاً للذم، وإن قدر أنه لا يقدر على ذلك الايمان الذي اتصف به هؤلاء، كان عاجزاً عن مثل إيمانهم، ولا يكون هذا وجب عليه، فهو ـ وإن دخل الجنة ـ لا يكون كمن قدر أنه آمن إيماناً مجملاً ومات قبل أن يعلم تفصيل الإيمان وقبل أن يتحقق به ويعمل بشيء منه، فهو يدخل الجنة، لكن لا يكون مثل أولئك.

لكن قد يقال: الأبرار أهل اليمين هم أيضاً على درجات، كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القوي[3] خير وأحب إلى الله من المؤمن

---

(١) يظهر أن هنا كلاماً محذوفاً [illegible] (مؤمن) والله أعلم.

(٢) وهو بالنسبة للأبرار فعل كل الواجبات وترك جميع المحرمات.

(٣) أي الجريء المقدام الذي لا يتهيب ولا يتردد.

الضعف[1] وفي كل خير، وقد قال الله تعالى ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر﴾[2] الآية فدرجة المؤمن القوي في الجنة أعلى وإن كان كل منهما كمل ما وجب عليه، وقد يريد أبو طالب وغيره بقولهم: ليس هذا من خواص المؤمنين هذا المعنى، أي ليس إيمانه كإيمان من حقق خاصة الإيمان سواء كان من الأبرار أو من المقربين، وإن لم يكن ترك واجباً لعجزه عنه أو لكونه لم يؤمر به فلا يكون مذموماً، ولا يمدح مدح أولئك، ولا يلزم أن يكون من أولئك المقربين.

فيقال: وهذا أيضاً لا ينفي عنه الإيمان، فيقال: هو مسلم لا مؤمن، كما يقال: ليس بعالم ولا مفت، ولا من أهل الاجتهاد، وقد قال النبي ﷺ: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» وهذا كثير، فليس كل ما فضل به الفاضل يكون مقدوراً لمن دونه، فكذلك من حقائق الإيمان ما لا يقدر عليه كثير من الناس، بل ولا أكثرهم، فهؤلاء يدخلون الجنة، وإن لم يكونوا ممن تحققوا بحقائق الإيمان التي فضل الله بها غيرهم، ولا تركوا واجباً عليهم وإن كان واجباً على غيرهم، ولهذا كان من الإيمان ما هو من المواهب والفضل من الله، فإنه من جنس العلم والإسلام الظاهر من جنس العمل، وقد قال تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم﴾[3] وقال: ﴿ويزيدُ اللهُ الّذينَ اهتـدوا هـدىً﴾ وقال: ﴿هوَ الذي أنزلَ السكينةَ في قلوب المؤمنين ليزدادُوا إيماناً مع إيمانهم﴾[4].

ومثل هذه السكينة قد لا تكون مقدورة، ولكن الله يجعل ذلك في قلبه فضلاً منه وجزاء على عمل سابق، كما قال: ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً. وإذاً لآتيناهم من لدنّا أجراً عظيماً. ولهديناهم

(١) أي الواهن العزيمة الضعيف الارادة.

(٢) سورة النساء الآية ٩٥. (٣) سورة محمد الآية ١٧.

(٤) سورة الفتح الآية ٤.

صراطاً مستقيماً﴾[1] كما قال: ﴿اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته، ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾[2] وكما قال: ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾[3] ولهذا قيل: من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم[4]. وهذا الجنس غير مقدور للعباد وإن كان ما يقدرون عليه من الأعمال الظاهرة والباطنة هو أيضاً بفضل الله وإعانته وإقداره لهم، لكن الأمور قسمان: منه ما جنسه مقدور لهم لإعانة الله لهم، كالقيام والقعود، ومنه ما جنسه غير مقدور لهم. وإذا قيل: إن الله يعطي من أطاعه قوة في قلبه وبدنه يكون بها قادراً على ما لا يقدر عليه غيره فهذا أيضاً حق وهو من جنس هذا المعنى، قال تعالى: ﴿إذ يوحي ربكَ إلى الملائكةِ أني معكم فثبتوا الَّذينَ آمنوا﴾[5] وقد قال: ﴿إذا لقيتم فئة فأثبتوا﴾[6] فأمرهم بالثبات وهذا الثبات يوحي إلى الملائكة أنهم يفعلونه بالمؤمنين.

والمقصود أنه قد يكون من الإيمان ما يؤمر به بعض الناس ويذم على تركه، ولا يذم عليه بعض الناس ممن لا يقدر عليه، ويفضل الله ذاك بهذا الإيمان، وإن لم يكن المفضول ترك واجباً، فيقال: وكذلك في الأعمال الظاهرة يؤمر القادر على الفعل بما لا يؤمر به العاجز عنه، ويؤمر بعض الناس بما لا يؤمر به غيره، لكن الأعمال الظاهرة قد يعطى الإنسان مثل أجر العامل إذا كان يؤمن بها ويريدها جهده، ولكن بدنه عاجز كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم» قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة حبسهم العذر» ، وكما قال تعالى: ﴿لا يستوي القاعدونَ من المؤمنين غَيْرُ أولي الضرر والمجاهدون في سبيلِ اللهِ بأموالهم وأنفسهم. فَضَّلَ الله المجاهدينَ بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾[7]

---

(١) سورة النساء الآيات (٦٦ ـ ٦٨).
(٢) سورة الحديد الآية ٢٨. (٣) سورة المجادلة الآية ٢٢.
(٤) حديث ضعيف. (٥) سورة الانفال الآية ١٢.
(٦) سورة الانفال الآية ٤٥. (٧) سورة النساء الآية ٩٥.

فاستثنى أولي الضرر.

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً».

إنما الدنيا لأربعة

وفي حديث أبي كبشة الأنماري: «هما في الأجر سواء، وهما في الوزر سواء»[1]، رواه الترمذي وصححه ولفظه: «إنما الدنيا لأربعة[2]: رجل آتاه الله علماً ومالا فهو يتقي في ذلك المال ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً يخبط في ماله بغير علم[3]، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً وعلماً فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته، فوزرهما سواء».

ولفظ ابن ماجه: «مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالاً وعلما فهو يعمل بعلمه في ماله ينفقه في حقه، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً، فهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل»، قال رسول الله ﷺ: «فهما في الأجر سواء»، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً، فهو يختبط في ماله ينفقه في غير حقه، ورجل لم تؤته الله علماً ولا مالاً وهو يقول: لو كان لي مثل مال هذا عملت مثل الذي يعمل، فهما في الوزر سواء».

---

(١) يعني الفاعل وصاحب النية.

(٢) وفي رواية بزيادة (نفر).

(٣) أي يتصرف فيه بهواه بغير هدى من الشرع.

كالشخصين إذا تماثلا في إيمان القلوب معرفة وتصديقاً وحباً وقوة وحالاً ومقاماً، فقد يتماثلان، وإن كان لأحدهما من أعمال البدن ما يعجز عنه بدن الآخر، كما جاء في الأثر: إن المؤمن قوته في قلبه وضعفه في جسمه، والمنافق قوته في جسمه وضعفه في قلبه[1]، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ليس الشديد بالصرعة[2] إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» وقد قال: «رأيت كأني أنزع على قليب[3]، فأخذها ابن أبي قحافة، فنزع ذنوباً أو ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له، فأخذها ابن الخطاب، فاستحالت في يده غرباً، فلم أر عبقرياً يفري فريه حتى صدر الناس بطعن»[4]، فذكر أن أبا بكر أضعف، وسواء أراد قصر مدته أو أراد ضعفه عن مثل قوة عمر، فلا ريب أن أبا بكر أقوى إيماناً من عمر، وعمر أقوى عملاً منه، كما قال ابن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر، وقوة الإيمان أقوى وأكمل من قوة العمل، وصاحب الإيمان يكتب له أجر عمل غيره، وما فعله عمر في سيرته مكتوب مثله لأبي بكر، فإنه هو الذي استخلفه.

وفي «المسند» من وجهين[5] عن النبي ﷺ أن النبي ﷺ وزن بالأمة فرجح، ثم وزن أبو بكر بالأمة فرجح، ثم وزن عمر بالأمة فرجح، وكان في حياة النبي ﷺ وبعد موته يحصل لعمر بسبب أبي بكر من الإيمان والعلم ما لم يكن عنده، فهو قد دعاه إلى ما فعله من خير وأعانه عليه بجهده، والمعين على الفعل إذا كان يريده إرادة جازمة كان كفاعله، كما ثبت في الحديث الصحيح

---

(١) قال تعالى في المنافقين (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم).

(٢) هو بضم أوله وفتح ثانيه الذي يصرع الناس كثيراً ويغلبهم.

(٣) أي بئر.

(٤) أي ثقل ميزان كل منهم على ميزان سائر الأمة.

(٥) فكل ما فعله عمر من أعمال عظيمة هو بسبب أبي بكر رضي الله عنهما فيعطى أبو بكر مثل أجره فيها.

عن النبي ﷺ أنه قال: «من جهز غازياً فقد غزا، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا» وقال: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» وقال: «من فطر صائماً فله مثل أجره».

وقد روي في الترمذي «من عزى مصاباً[1] فله مثل أجره» وهذا وغيره مما يبين أن الشخصين قد يتماثلان في الأعمال الظاهرة، بل يتفاضلان ويكون المفضول فيها أفضل عند الله من الآخر، لأنه أفضل في الإيمان الذي في القلب، وأما إذا تفاضلا في إيمان القلوب، فلا يكون المفضول فيها أفضل عند الله البتة، وإن كان المفضول لم يهبه الله من الإيمان ما وهبه للفاضل، ولا أعطى قلبه من الأسباب التي بها ينال ذلك الإيمان الفاضل ما أعطى المفضول، ولهذا فضل الله بعض النبيين على بعض، وإن كان الفاضل أقل عملاً بالبدن، كما فضل الله نبينا ﷺ ومدة نبوته بضع وعشرون سنة - على نوح وقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وفضل أمة محمد وقد عملوا من صلاة العصر إلى المغرب - على من عمل من أول النهار إلى صلاة الظهر، وعلى من عمل من صلاة الظهر إلى العصر. فأعطى الله أمة محمد أجرين، وأعطى كلاً من أولئك أجراً أجراً، لأن الإيمان الذي في قلوبهم كان أكمل وأفضل، وكان أولئك أكثر عملاً، وهؤلاء أعظم أجراً، وهو فضله يؤتيه من يشاء بالأسباب التي تفضل بها عليهم وخصهم بها.

وهكذا سائر من يفضله الله تعالى، فإنه يفضله بالأسباب التي يستحق بها التفضيل بالجزاء، كما يخص أحد الشخصين بقوة ينال بها العلم، وبقوة ينال بها اليقين والصبر والتوكل والإخلاص، وغير ذلك مما يفضله الله به، وإنما فضله في الجزاء بما فضل به من الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار[2] واكفروا آخره لعلهم يرجعون، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما

---

(١) أي واساه في مصيبته. (٢) يعني أوله.

وتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله﴾[1] وقال في الآية الأخرى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾[2] وقال: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾[3] وقال: ﴿يغفر لمن يشاءُ ويعذبُ من يشاء﴾[4].

وقد بين في مواضع أسباب المغفرة وأسباب العذاب، وكذلك يرزق من يشاء بغير حساب، وقد عرف أنه قد يخص من يشاء بأسباب الرزق.

وإذا كان من الإيمان ما يعجز عنه كثير من الناس، ويختص الله به من يشاء، فذلك ما يفضلهم الله به، وذلك الإيمان يُنفى عن غيرهم، لكن لا على وجه الذم، بل على وجه التفضيل، فإن الذم إنما يكون على ترك مأمور أو فعل محظور. لكن على ما ذكره أبو طالب، يقال: فمثل هؤلاء مسلمون، لا مؤمنون باعتبار، ويقال: إنهم مؤمنون باعتبار آخر، وعلى هذا ينفى الإيمان عمن فاته الكمال المستحب، بل الكمال الذي يفضل به على من فاته، وإن كان غير مقدور للعباد، بل ينفى عنه الكمال الذي وجب على غيره، وإن لم يكن في حقه لا واجباً ولا مستحباً، لكن هذا لا يعرف في كلام الشارع، ولم يعرف في كلامه إلا أن نفي الإيمان يقتضي الذم حيث كان، فلا ينفى إلا عمن له ذنب، فتبين أن قوله: «أو مسلم» توقف في أداء الواجبات الباطنة والظاهرة كما قال جماهير الناس.

ثم طائفة يقولون: قد يكون منافقاً ليس معه شيء من الإيمان، وهم الذين يقولون: الأعراب المذكورون منافقون ليس معهم من الإيمان شيء، وهذا هو القول الذي نصره طائفة، كمحمد بن نصر[5]، والأكثرون يقولون: بل هؤلاء لم يكونوا من المنافقين الذين لا يقبل منهم شيء من أعمالهم، وإن كان فيهم شعبة نفاق، بل كان معهم تصديق يقبل معه منهم ما عملوه لله، ولهذا جعلهم

---

(١) سورة آل عمران الآية ٧٢ ـ ٧٣.
(٢) سورة الانعام الآية ١٢٤
(٣) سورة الحج الآية ٧٥.
(٤) سورة آل عمران الآية ١٢٩.
(٥) وذهب اليه البخاري أيضاً.

مسلمين. وهذا قال: ﴿أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾[1] كما قالوا مثل ذلك في الزاني والسارق وغيرهما ممن نفي عنه الإيمان، مع أن معه التصديق، وهذا أصح الأقوال الثلاثة فيهم.

وأبو طالب جعل من كان مذموماً لترك واجب من المؤلفة قلوبهم الذين لم يعطوا شيئاً، وجعل ذلك الشخص مؤمناً غيره أفضل منه، وأما الأكثرون فيقولون: إثبات الإسلام لهم دون الإيمان كإثباته لذلك الشخص، كان مسلماً لا مؤمناً كلاهما مذموم، لا لمجرد أن غيره أفضل منه، وقد قال النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» ولم يسلب عمن دونه الإيمان. وقال تعالى: ﴿لا يستوي منكم مَنْ أنفقَ مِنْ قَبْلِ الفتح وقاتلَ، أولئك أعظمُ درجةً من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا، وكلاً وعدَ الله الحسنى﴾[2].

فأثبت الإيمان للفاضل والمفضول، وهذا متفق عليه بين المسلمين. وقد قال النبي ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر»، وقال لسعد بن معاذ لما حكم في بني قريظة: «لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبعة أرقعة»[3] وكان يقول لمن يرسله في جيش أو سرية: «إذا حاصرت أهل حصن فسألوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، فإنك لا تدري ما حكم الله فيهم[4]، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك». وهذه الأحاديث الثلاثة في «الصحيح»، وفي حديث سليمان عليه السلام: «وأسألك حكماً يوافق حكمك».

فهذه النصوص وغيرها تدل على ما اتفق عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان أن أحد الشخصين قد يخصه الله باجتهاد يحصل له به من العلم ما يعجز عنه غيره

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٧. (٢) سورة الحديد الآية ١٠.

(٣) كلاهما مؤمن جيد الايمان، إلا الذين انفقوا وقاتلوا قبل الفتح فازوا بفضيلة السبق.

(٤) فلا يجوز لأحد أن يقول حكم الله في هذه المسألة كذا ولكن يقول رأيي فيها كذا فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان.

ويكون له أجران، وذلك الآخر عاجز له أجر ولا إثم عليه، وذلك العلم الذي خص به هذا، والعمل به باطناً وظاهراً زيادة في إيمانه، وهو إيمان يجب عليه لأنه قادر عليه، وغيره عاجز عنه فلا يجب، فهذا قد فضل بإيمان واجب عليه، وليس بواجب على من عجز عنه.

وهذا حال جميع الأمة فيما تنازعت فيه من المسائل الخبرية والعلمية[1]، إذا خص أحدهما بمعرفة الحق في نفس الأمر مع اجتهاد الآخر وعجزه، كلاهما محمود مثاب مؤمن، وذاك خصه الله من الإيمان الذي وجب عليه بما فضله به على هذا، وذلك المخطىء لا يستحق ذماً ولا عقاباً، وإن كان ذاك لو فعل ما فعل ذم وعوقب، كما خص الله أمة نبينا بشريعة فضلها بها، ولو تركنا مما أمرنا به فيها لكان سبباً للذم والعقاب، والأنبياء قبلنا لا يذمون بترك ذلك[2]، لكن محمداً ﷺ فضله الله على الأنبياء وفضل أمته على الأمم من غير ذم لأحد من الأنبياء، ولا لمن اتبعهم من الأمم.

وأيضاً فإذا كان الإنسان لا يجب عليه من الإيمان إلا ما يقدر عليه، وهو إذا فعل ذلك كان مستحقاً لما وعد الله به من الجنة، فلو كان مثل هذا يسمى مسلماً ولا يسمى مؤمناً لوجب أن يكون من أهل الوعد بالجنة من يسمى مسلماً لا مؤمناً كالأعراب، وكالشخص الذي قال فيه النبي ﷺ: «أو مسلم» وكسائر من نفي عنه الإيمان مع أنه مسلم، كالزاني، والشارب، والسارق، ومن لا يأمن جاره بوائقه، ومن لا يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه، وغير هؤلاء، وليس الأمر كذلك، فإن الله لم يعلق وعد الجنة إلا باسم الإيمان، لم يعلقه باسم الإسلام مع إيجابه الإسلام وإخباره أنه دينه الذي ارتضاه، وأنه لا يقبل ديناً غيره، ومع هذا فما قال: إن الجنة أعدت للمسلمين، ولا قال: وعد الله المسلمين بالجنة، بل إنما ذاك باسم الإيمان كقوله: ﴿وعدَ اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾[3] فهو يعلقها باسم الإيمان المطلق، أو المقيد بالعمل الصالح، كقوله:

---

(١) المسائل الخبرية ليست محل اجتهاد. (٢) لأنه لم يشرع لهم. (٣) سورة التوبة الآية ٧٢.

﴿إنَّ الَّذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ أولئك هم خيرُ البريَّة، جزاؤهم عند ربِّهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار﴾[1] وقوله: ﴿وبشّرِ الَّذينَ آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلَّما رُزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الَّذي رُزِقْنا من قَبْلُ﴾ وقوله: ﴿إنَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصَّلاةَ وآتوا الزكاةَ لهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وقوله: ﴿فأما الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضلِه﴾[2] وقوله: ﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمةٍ منهُ وفضل ويهديهم إليهِ صراطاً مستقيماً﴾[3] وقوله: ﴿والَّذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ سندخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدينَ فيها أبداً لهم فيها أزواجٌ مطهرةٌ[4] ونُدخلهم ظلاً ظليلاً﴾[5] وفي الآية الأخرى: ﴿ومن أصْدَقُ منَ اللهِ قيلاً﴾[6] وقال: ﴿وأما الَّذينَ آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ فَيُوفيهم أجورهم والله لا يحبُّ الظالمينَ﴾[7] وقال: ﴿وَعَدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ لهم مغفرة وأجر عظيم﴾[8] وقال: ﴿فمن آمن وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾[9] وقال: ﴿والَّذينَ آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ لا نُكَلِّفُ نفساً إلا وسعها أولئكَ أصحابُ الجنةِ هم فيها خالدون﴾[10]

اسم المنافقين يجري على المنافقين لأنهم استسلموا ظاهراً

فالوعد بالجنة والرحمة في الآخرة، وبالسلامة من العذاب، علق باسم الإيمان المطلق، والمقيد بالعمل الصالح، ونحو ذلك، وهذا كما تقدم أن المطلق يدخل

---

(١) سورة البينة الآيات (٧ ـ ٨).

(٢) سورة النساء الآية ١٧٣.

(٣) سورة النساء الآية ١٧٥.

(٤) أي من الحيض وسائر الاقذار.

(٥) سورة النساء الآية ٥٧.

(٦) سورة النساء الآية ١٢٢

(٧) سورة آل عمران الآية ٥٧.

(٨) سورة المائدة الآية ٩.

(٩) سورة الانعام الآية ٤٨.

(١٠) سورة الاعراف الآية ٤٢.

فيه فعل ما أمر الله به ورسوله، ولم يعلق باسم الإسلام فلو كان من أتى من الإيمان بما يقدر عليه، وعجز عن معرفة تفاصيله قد يسمى مسلماً لا مؤمناً، لكان من أهل الجنة وكانت الجنة يستحقها من يسمى مسلماً وإن لم يسم مؤمناً، وليس الأمر كذلك، بل الجنة لم تعلق إلا باسم الإيمان، وهذا أيضاً مما استدل به من قال: إنه ليس كل مسلم من المؤمنين الموعودين بالجنة، إذ لو كان الأمر كذلك، لكان وعد الجنة معلقاً باسم الإسلام، كما علق باسم الإيمان، وكما علق باسم «التقوى» واسم «البر» في مثل قوله: ﴿إن المتقينَ في جناتٍ ونَهَرٍ﴾[1] وقوله: ﴿إن الأبـرارَ لفي نعيم﴾[2] وباسم أولياء الله، كقوله: ﴿ألا إنَّ أولياءَ الله لا خـوفٌ عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون، لَهُمُ البشرىٰ في الحياةِ الدّنيا وفي الآخرة، لا تبديلَ لكلماتِ اللهِ ذلكَ هوَ الفوزُ العظيم﴾[3] فلما لم يجر اسم الإسلام هذا المجرى، علم أن مسماه ليس ملازماً لمسمى الإيمان كما يلازمه اسم البر والتقوى وأولياء الله، وإن اسم «الإسلام» يتناول من هو من أهل الوعيد وإن كان الله يثيبه على طاعته، مثل أن يكون في قلبه إيمان، ونفاق يستحق به العذاب، فهذا يعاقبه الله ولا يخلده في النار، لأن في قلبه مثقال ذرة أو أكثر من مثقال ذرة من إيمان.

وهكذا سائر أهل الكبائر إيمانهم ناقص، وإذا كان في قلب أحدهم شعبة نفاق عوقب بها إذا لم يعف الله عنه، ولم يخلد في النار، فهؤلاء مسلمون وليسوا مؤمنين ومعهم إيمان[4] لكن معهم أيضاً ما يخالف الإيمان من النفاق، فلم تكن تسميتهم مؤمنين بأولى من تسميتهم منافقين، لا سيا إن كانوا للكفر أقرب منهم للإيمان، وهؤلاء يدخلون في اسم الإيمان في أحكام الدنيا، كما يدخل المنافق المحض وأولى، لأن هؤلاء معهم إيمان يدخلون به في خطاب الله ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾، لأن ذلك أمر لهم بما ينفعهم، ونهي لهم عما يضرهم، وهم محتاجون إلى

---

(١) سورة القمر الآية ٥٤. (٢) سورة الانفطار الآية ١٣.

(٣) سورة يونس الآيات (٦٢ - ٦٤).

(٤) يعني لا يقال لهم مؤمنون وإن كان معهم من الايمان ما ينجيهم من الخلود في النار.

ذلك، ثم الإيمان الذي معهم إن اقتضى شمول لفظ الخطاب لهم، فلا كلام، وإلا فليس بأسوأ حالاً من المنافق المحض، وذلك المنافق يخاطب بهذه الأعمال وتنفعه في الدنيا، ويحشر بها مع المؤمنين يوم القيامة، ويتميز بها عن سائر الملل يوم القيامة كما تميز عنهم بها في الدنيا، لكن وقت الحقيقة يضرب ﴿بينهم بسور له باب، باطنهُ فيهِ الرحمةُ وظاهِرهُ مِنْ قِبَلِهِ العذابُ ينادونهم[1] ألم نكن معكم؟ قالوا بلى[2] ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم[3] وارتبتم وغرتكم الأمانيُّ، حتى جاءَ أمرُ الله، وغركم باللهِ الغَرور، فاليومَ لا يُؤخَذُ منكم فديةٌ ولا من الَّذينَ كفروا، مأواكم النارُ هي مولاكم وبئسَ المصير﴾[4] وقد قال تعالى: ﴿إن المنافقينَ في الدركِ الاسفلِ من النارِ ولن تجدَ لهم نصيراً إلا الَّذينَ تابوا وأصلحوا واعتصموا باللهِ وأخلصوا دينهم للهِ فأولئك مع المؤمنينَ وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾[5].

فإذا عمل العبد صالحاً لله، فهذا هو الإسلام الذي هو دين الله، ويكون معه من الإيمان ما يحشر به مع المؤمنين يوم القيامة، ثم إن كان معه من الذنوب ما يعاقب به، عذب وأخرج من النار، إذا كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، وإن كان معه نفاق[6]، ولهذا قال تعالى في هؤلاء ﴿فأولئكَ مع المؤمنينَ، وسوفَ يؤتي الله المؤمنينَ أجراً عظيماً﴾ فلم يقل: إنهم مؤمنون[7] بمجرد هذا، إذ لم يذكر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، بل هم معهم، وإنما ذكر العمل الصالح وإخلاصه لله، وقال: ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ فيكون لهم حكمهم.

---

(١) أي ينادي المنافقون المؤمنين.

(٢) أي كنتم معنا بظاهركم. (٣) الدوائر بالمؤمنين.

(٤) سورة الحديد الآيات (١٣ - ١٥).

(٥) سورة النساء الآيات (١٤٥ - ١٤٦).

(٦) أي نفاق عمل لا نفاق اعتقاد وإلا لم يخرج من النار.

(٧) وكيف تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله وليسوا مؤمنين بل الظاهر أن المراد بقوله (فأولئك مع المؤمنين) أنهم صاروا بهذا من جلة المؤمنين الموعودين بعظيم الأجر.

وقد بين تفاضل المؤمنين في مواضع أخر، وأنه من أتى بالإيمان الواجب استحق الثواب، ومن كان فيه شعبة نفاق وأتى بالكبائر، فذاك من أهل الوعيد، وإيمانه ينفعه الله به، ويخرجه به من النار ولو أنه مثقال حبة خردل، ولكن لا يستحق به الاسم المطلق المعلق به وعد الجنة بلا عذاب، وتمام هذا أن الناس قد يكون فيهم من معه شعبة من شعب الإيمان، وشعبة من شعب الكفر أو النفاق، ويسمى مسلماً، كما نص عليه أحمد.

وتمام هذا أن الإنسان قد يكون فيه شعبة من شعب الإيمان، وشعبة من شعب النفاق، وقد يكون مسلماً وفيه كفر دون الكفر الذي ينقل عن الإسلام بالكلية، كما قال الصحابة : ابن عباس وغيره: كفر دون كفر[1]، وهذا قول عامة السلف، وهو الذي نص عليه أحمد وغيره ممن قال في السارق، والشارب، ونحوهم، ممن قال فيه النبي ﷺ: «إنه ليس بمؤمن»، أنه يقال لهم: مسلمون لا مؤمنون، واستدلوا بالقرآن والسنة على نفي اسم الإيمان، مع إثبات اسم الإسلام، وبأن الرجل قد يكون مسلماً ومعه كفر لا ينقل عن الملة، بل كفر دون كفر، كما قال ابن عباس وأصحابه في قوله: ﴿ومَنْ لم يحكمْ بما أنزلَ الله فأولئكَ هم الكافرون﴾[2] قالوا: كفر لا ينقل عن الملة، وكفر دون كفر، وفسق دون فسق، وظلم دون ظلم.

وهذا أيضاً مما استشهد به البخاري في «صحيحه» فإن كتاب «الإيمان» الذي افتتح به «الصحيح» قرر مذهب أهل السنة والجماعة، وضمنه الرد على المرجئة، فإنه كان من القائمين بنصر السنة والجماعة مذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

وقد اتفق العلماء على أن اسم المسلمين في الظاهر يجري على المنافقين، لأنهم استسلموا ظاهراً، وأتوا بما أتوا به من الأعمال الظاهرة بالصلاة الظاهرة،

---

(١) ويسمونه كفر العمل أو النعمة.

(٢) سورة المائدة الآية ٤٤.

والزكاة الظاهرة، والحج الظاهر، والجهاد الظاهر، كما كان النبي يجري عليهم أحكام الإسلام الظاهرة، واتفقوا على أنه من لم يكن معه شيء من الإيمان فهو كما قال الله تعالى: ﴿إن المنافقينَ في الدرك الأسفلِ منَ النّار﴾[1]، وفيها قراءتان: درْك ودرَك قال أبو الحسين بن فارس: الجنة درجات، والنار دركات، قال الضحاك: الدرج: إذا كان بعضها فوق بعض، والدرك: إذا كان بعضها أسفل من بعض، فصار المظهرون للإسلام بعضهم في أعلى درجة في الجنة وهو رسول الله ﷺ كما قال في الحديث الصحيح: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم سلوا الله الوسيلة، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد اللهَ وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة» وقوله: ﷺ: «وأرجو أن أكون» مثل قوله: «إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده»[2] ولا ريب أنه أخشى الأمة لله وأعلمهم بحدوده.

وكذلك قوله: «اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً». وقوله: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» وأمثال هذه النصوص، وكان يستدل به أحمد وغيره على الاستثناء في الإيمان كما نذكره في موضعه.

والمقصود أنه خير المؤمنين في أعلى درجات الجنة، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار، وإن كانوا في الدنيا مسلمين ظاهراً تجري عليهم أحكام الإسلام الظاهرة، فمن كان فيه إيمان ونفاق يسمى مسلماً، إذ ليس هو دون المنافق المحض[3]، وإذا كان نفاقه أغلب لم يستحق اسم الإيمان، بل اسم المنافق أحق به، فإن ما فيه بياض وسواد وسواده أكثر، هو باسم الأسود أحق منه باسم

---

(١) سورة النساء الآية ١٤٤.١٤٥.

(٢) والاتيان بفعل الرجاء هنا مع علمه بكونه كذلك من قبيل التواضع وهضم النفس.

(٣) أي الخالص النفاق.

الأبيض، كما قال تعالى: ﴿هم للكفرِ يومئذٍ أقربُ منهم للإيمانِ﴾[1] وأما إذا كان إيمانه أغلب ومعه نفاق يستحق به الوعيد، لم يكن أيضاً من المؤمنين الموعودين بالجنة، وهذا حجة لما ذكره محمد بن نصر عن أحمد، ولم أره أنا فيما بلغني من كلام أحمد، ولا ذكره الخلال ونحوه. وقال محمد بن نصر: وحكي غير هذا عن أحمد أنه قال: من أتى هذه الأربعة: الزنا، والسرقة، وشرب الخمر، والنهبة التي يرفع الناس فيها أبصارهم إليه، أو مثلهن أو فوقهن، فهو مسلم ولا أسميه مؤمناً، ومن أتى دون الكبائر نسميه مؤمناً ناقص الإيمان، فإن صاحب هذا القول يقول: لما نفى عنه النبي ﷺ الإيمان، نفيته عنه كما نفاه عنه الرسول ﷺ، والرسول لم ينفه إلا عن صاحب كبيرة، وإلا فالمؤمن الذي يفعل الصغيرة هي مكفرة عنه بفعله للحسنات واجتنابه للكبائر، لكنه ناقص الإيمان عمن اجتنب الصغائر، فما أتى بالإيمان الواجب ولكن خلطه بسيئات كفرت عنه بغيرها، ونقص بذلك درجته عمن لم يأت بذلك.

وأما الذين نفى عنهم الرسول الإيمان، فننفيه كما نفاه الرسول، وأولئك ـ وإن كان معهم التصديق وأصل الإيمان ـ فقد تركوا منه ما استحقوا لأجله سلب الإيمان[2]، وقد يجتمع في العبد نفاق وإيمان، وكفر وإيمان فالإيمان المطلق عند هؤلاء ما كان صاحبه مستحقاً للوعد بالجنة.

وطوائف أهل الأهواء من الخوارج والمعتزلة، والجهمية، والمرجئة، كراميهم وغير كراميهم يقولون: إنه لا يجتمع في العبد إيمان ونفاق[3]، ومنهم من يدعي الإجماع على ذلك، وقد ذكر أبو الحسن في بعض كتبه الإجماع على ذلك، ومن هنا غلطوا فيه وخالفوا فيه الكتاب والسنة، وآثار الصحابة والتابعين لهم بإحسان

---

(١) سورة آل عمران الاية ١٦٧ والمراد بالآية ظهور كفرهم وغلبته على دعوى الايمان.

(٢) أي المطلق الذي يصحح التسمية ويترتب عليه الوعد.

(٣) لأن النفاق عندهم مساو للكفر فلا يجامع الإيمان.

مع مخالفة صريح المعقول، بل الخوارج والمعتزلة طردوا هذا الأصل الفاسد[1]، وقالوا: لا يجتمع في الشخص الواحد طاعة يستحق بها الثواب، ومعصية يستحق بها العقاب[2]، ولا يكون الشخص الواحد محموداً من وجه مذموماً من وجه، ولا محبوباً مدعواً له من وجه، مسخوطاً ملعوناً من وجه، ولا يتصور أن الشخص الواحد يدخل الجنة والنار جميعاً عندهم، بل من دخل إحداهما لم يدخل الأخرى عندهم، ولهذا أنكروا خروج أحد من النار، أو الشفاعة في أحد من أهل النار. وحكي عن غالية المرجئة أنهم وافقوهم على هذا الأصل، لكن هؤلاء قالوا: إن أهل الكبائر يدخلون الجنة ولا يدخلون النار مقابلة لأولئك.

وأما أهل السنة والجماعة، والصحابة، والتابعون لهم بإحسان، وسائر طوائف المسلمين من أهل الحديث والفقهاء وأهل الكلام من مرجئة الفقهاء والكرامية، والكلابية، والأشعرية، والشيعة مرجئهم وغير مرجئهم، فيقولون: إن الشخص الواحد قد يعذبه الله بالنار، ثم يدخله الجنة، كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة، وهذا الشخص الذي له سيئات عذب بها، وله حسنات دخل بها الجنة، وله معصية وطاعة باتفاق هؤلاء الطوائف لم يتنازعوا في حكمه، لكن تنازعوا في اسمه، فقالت المرجئة: جهميتهم وغير جهميتهم: هو مؤمن كامل الإيمان[3]، وأهل السنة والجماعة على أنه مؤمن ناقص الإيمان[4] ولولا ذلك لما عذب، كما أنه ناقص البر والتقوى[5] باتفاق المسلمين، وهل يطلق عليه اسم مؤمن؟ هذا فيه القولان، والصحيح التفصيل، فإذا سئل عن أحكام الدنيا كعتقه في الكفارة، قيل: هو مؤمن، وكذلك إذا سئل عن دخوله في خطاب المؤمنين.

---

(١) يعني عمموه.

(٢) لأنه بالمعصية خرج من الايمان واستحق الخلود في النار عندهم.

(٣) لأن الأعمال عندهم غير داخلة في الإيمان فلا ينقص عندهم إيمانه بفعل معصية ولا بترك طاعة.

(٤) قد نقص من إيمانه بقدر معصيته.

(٥) فإنهما مرادفان للإيمان المطلق.

وأما إذا سئل عن حكمه في الآخرة، قيل: ليس هذا النوع من المؤمنين الموعودين بالجنة، بل معه إيمان يمنعه الخلود في النار ويدخل به الجنة بعد أن يعذب في النار إن لم يغفر الله له ذنوبه، ولهذا قال من قال: هو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، أو مؤمن ناقص الايمان، والذين لا يسمونه مؤمناً من أهل السنة ومن المعتزلة يقولون: اسم الفسوق ينافي اسم الايمان كقوله: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بعد الإيمان﴾[1] وقوله: ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً﴾[2] وقد قال النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر».

وعلى هذا الأصل فبعض الناس يكون معه شعبة من شعب الكفر، ومعه إيمان أيضاً، وعلى هذا ورد عن النبي ﷺ في تسمية كثير من الذنوب كفراً، مع أن صاحبها قد يكون معه أكثر من مثقال ذرة من إيمان، فلا يخلد في النار، كقوله. «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»، وقوله: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» وهذا مستفيض عن النبي ﷺ في «الصحيح» من غير وجه، فإنه أمر في حجة الوداع أن ينادى به في الناس، فقد سمى من يضرب بعضهم رقاب بعض بلا حق كفاراً، سمي هذا الفعل كفراً، ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنينَ اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ إلى قوله: ﴿إنَّما المؤمنونَ إخوة﴾ فبين أن هؤلاء لم يخرجوا من الإيمان بالكلية، ولكن فيهم ما هو كفر وهي هذه الخصلة، كما قال الصحابة: كفر دون كفر، وكذلك قوله: «من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما» فقد سماه أخاه حين القول، وقد أخبر أن أحدهما باء بها، فلو خرج أحدهما عن الإسلام بالكلية لم يكن أخاه، بل فيه كفر.

وكذلك قوله في الحديث الصحيح: «ليس من رجل ادعى[3] لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر» وفي حديث آخر: «كفر بالله من تبرأ من نسب وإن

---

(١) سورة الحجرات الآية ١١ . (٢) سورة السجدة الآية ١٨ .

(٣) أي انتسب.

دق» ، وكان من القرآن الذي نسخ لفظه: لا ترغبوا عن آبائكم[1] فإن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم فإن حق الوالدين مقرون بحق الله في مثل قوله: ﴿أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير﴾[2] وقوله: ﴿وقضى ربُّك ألا تعبدوا إلا إياهُ وبالوالدين إحساناً﴾[3] فالوالد أصله الذي منه خلق، والولد من كسبه، كما أغنى عنه ماله وما كسب قال: ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾[4]؛ فالجحد لهما[5] شعبة من شعب الكفر، فإنه جحد لما منه خلقه ربه، فقد جحد خلق الرب إياه، وقد كان في لغة من قبلنا يسمى الرب أباً، فكان فيه كفر بالله من هذا الوجه، ولكن ليس هذا كمن جحد الخالق بالكلية، وسنتكلم إن شاء الله على سائر الأحاديث.

ذكر أصل جامع تنبني عليه معرفة النصوص

والمقصود هنا ذكر أصل جامع تنبني عليه معرفة النصوص، ورد ما تنازع فيه الناس إلى الكتاب والسنة، فإن الناس كثر نزاعهم في مواضع في مسمى الإيمان والإسلام لكثرة ذكرهما، وكثرة كلام الناس فيهما، والاسم كلما كثر التكلم فيه، فتكلم به مطلقاً، ومقيداً بقيد، ومقيداً بقيد آخر في موضع آخر، كان هذا سبباً لأشتباه بعض معناه، ثم كلما كثر سماعه، كثر من يشتبه عليه ذلك، ومن أسباب ذلك أن يسمع بعض الناس بعض موارده ولا يسمع بعضه، ويكون ما سمعه مقيداً بقيد أوجبه اختصاصه بمعنى، فيظن معناه في سائر موارده كذلك، فمن اتبع علمه[6] حتى عرف مواقع الاستعمال عامة، وعلم مأخذ الشبهة، أعطى كل ذي حق حقه، وعلم أن خير الكلام كلام الله، وأنه لا بيان أتم من بيانه، وأن ما أجمع عليه المسلمون من دينهم الذي يحتاجون إليه أضعاف أضعاف ما تنازعوا فيه.[7]

---

(١) أي لا تتركوا الانتساب اليهم كراهة لذلك أو زهداً فيه.

(٢) سورة لقمان الآية ١٤. (٣) سورة الاسراء الآية ٢٣.

(٤) هذه العبارة غير مفهومة ولعل صحتها: كما قال تعالى (ما أغنى عنه ما له وما كسب).

(٥) أي للوالدين. (٦) أي طلب معرفته في سائر استعمالاته.

(٦) وهذا كلام نفيس جداً.

فالمسلمون: سنيهم وبدعيهم متفقون على وجوب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومتفقون على وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج، ومتفقون على أن من أطاع الله ورسوله فإنه يدخل الجنة، ولا يعذب، وعلى أن من لم يؤمن بأن محمداً رسول الله ﷺ إليه فهو كافر، وأمثال هذه الأمور التي هي أصول الدين وقواعد الإيمان التي اتفق عليها المنتسبون إلى الإسلام والإيمان، فتنازعهم بعد هذا في بعض أحكام الوعيد أو بعض معاني بعض الأسماء أمر خفيف بالنسبة إلى ما اتفقوا عليه، مع أن المخالفين للحق البين من الكتاب والسنة هم عند جمهور الأمة معروفون بالبدعة، مشهود عليهم بالضلالة، ليس لهم في الأمة لسان صدق ولا قبول عام، كالخوارج والروافض والقدرية ونحوهم، وإنما يتنازع أهل العلم والسنة في أمور دقيقة تخفى على أكثر الناس، ولكن يجب رد ما تنازعوا فيه إلى اللهورسوله[1]، والرد إلى الله ورسوله في مسألة الإسلام والإيمان يوجب أن كلاً من الاسمين - وإن كان مسماه - واجباً - لا يستحق أحد الجنة إلا بأن يكون مؤمناً، مسلماً، فالحق في ذلك ما بينه النبي في حديث جبريل، فجعل الدين وأهله ثلاث طبقات: أولها: الإسلام، وأوسطها الإيمان، وأعلاها الإحسان، ومن وصل إلى العليا، فقد وصل إلى التي تليها، فالمحسن مؤمن، والمؤمن مسلم، وأما المسلم فلا يجب أن يكون مؤمناً[2].

وهكذا جاء القرآن، فجعل الأمة على هذه الأصناف الثلاثة، قال تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتابَ الَّذينَ اصطفينا من عبادِنَا فمنهم ظالمٌ لنفسهِ ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيراتِ بإذنِ اللهِ ذلك هوالفضـــلُ الكبير﴾[3] فالمسلم الذي لم يقم بواجب الإيمان هو الظالم لنفسه، والمقتصد هو المؤمن المطلق الذي أدى الواجب وترك المحرم، والسابق بالخيرات هو المحسن الذي عبد الله كأنه يراه، وقد ذكر الله

---

(١) كما أمر الله بذلك في قوله (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) فجعل هذا الرد من مقتضيات الايمان.

(٢) ولكن الاسلام الشرعي المعتد به لا يتحقق إلا مع الايمان.

(٣) سورة فاطر الآية ٣٢.

سبحانه تقسيم الناس في المعاد إلى هذه الثلاثة في سورة ﴿الواقعة﴾ و ﴿المطففين﴾، و ﴿هل أتى﴾، وذكر الكفار أيضاً، وأما هنا فجعل التقسيم للمصطفين من عباده.

وقال أبو سليمان الخطابي: ما أكثر ما يغلط الناس في هذه المسألة! فأما الزهري فقال: الإسلام الكلمة، والإيمان العمل، واحتج بالآية، وذهب غيره إلى أن الإسلام والإيمان شيء واحد، فاحتج بقوله: ﴿فأخرجنا من كانَ فيها من المؤمنينَ، فما وجدنا فيهاغيرَ بيتٍ من المسلمين﴾[1] قال الخطابي: وقد تكلم رجلان من أهل العلم وصار كل واحد منهما إلى قول من هذين، ورد الآخر منهما على المتقدم، وصنف عليه كتاباً يبلغ عدد أوراقه المائتين، قال الخطابي: والصحيح من ذلك أن يقيد الكافر في هذا، ولا يطلق، وذلك أن المسلم قد يكون مؤمناً في بعض الأحوال ولا يكون مؤمناً في بعضها، والمؤمن مسلم في جميع الأحوال، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً، وإذا حملت الأمر على هذا استقام لك تأويل الآيات، واعتدل القول فيها، ولم يختلف شيء منها.

قلت: الرجلان اللذان أشار إليهما الخطابي، أظن أحدهما وهو السابق، محمد بن نصر، فإنه الذي علمته بسط الكلام في أن الإسلام والإيمان شيء واحد من أهل السنةوالحديث، وما علمت لغيره قبله بسطاً في هذا، والآخر الذي رد عليه أظنه .. . لكن لم أقف على رده؛ والذي اختاره الخطابي هو قول من فرق بينهما، كأبي جعفر، وحماد بن زيد، وعبد الرحمن بن مهدي، وهو قول أحمد بن حنبل، وغيره، وما علمت أحداً من المتقدمين خالف هؤلاء، فجعل نفس الإسلام نفس الإيمان، ولهذا كان عامة أهل السنة على هذا الذي قاله هؤلاء، كما ذكره الخطابي.

وكذلك ذكر أبو القاسم التيمي الأصبهاني، وابنه محمد شارح «مسلم»، وغيرهما أن المختار عند أهل السنة أنه لا يطلق على السارق والزاني اسم مؤمن،

---

(١) سورة الذاريات الآيات (٣٥ ـ ٣٦).

كما دل عليه النص، وقد ذكر الخطابي: في «شرح البخاري» كلاماً يقتضي تلازمهما مع افتراق[1] اسميهما، وذكره البغوي في «شرح السنة» فقال: قد جعل النبي ﷺ الإسلام إسماً لما ظهر من الأعمال، وجعل الإيمان اسماً لما بطن من الاعتقاد، وليس ذلك لأن الأعمال ليست من الإيمان، أو التصديق بالقلب ليس من الاسلام، بل ذلك تفصيل لجملة[2] هي كلها شيء واحد، وجماعها الدين، ولذلك قال ﷺ: «هذا جبرائيل جاءكم يعلمكم دينكم»، والتصديق والعمل يتناولهما اسم الإسلام والإيمان جميعاً، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عند اللهِ الإسلام﴾ وقوله تعالى: ﴿ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً﴾ وقوله: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنه﴾[3] فبين أن الدين الذي رضيه ويقبله من عباده هو الإسلام، ولا يكون الدين في محل الرضى والقبول إلا بانضمام التصديق إلى العمل.

قلت: تفريق النبي ﷺ في حديث جبرائيل وإن اقتضى أن الأعلى هو الإحسان والإحسان يتضمن الإيمان، والإيمان يتضمن الإسلام، فلا يدل على العكس، ولو قدر أنه دل على التلازم، فهو صريح بأن مسمى هذا ليس مسمى هذا،[4] لكن التحقيق أن الدلالة تختلف بالتجريد والاقتران كما قد بيناه، ومن فهم هذا انحلت عنه إشكالات كثيرة في كثير من المواضع حاد عنها طوائف في مسألة الايمان وغيرها، وما ذكره من أن الدين لا يكون في محل الرضى والقبول إلا بانضمام التصديق إلى العمل، يدل على أنه لا بد مع العمل من الإيمان، فهذا يدل على وجوب الإيمان مطلقاً،[5] لكن لا يدل على أن العمل الذي هو الدين، ليس اسمه إسلاماً، وإذا كان الإيمان شرطاً في قبوله، لم يلزم أن يكون ملازماً له، ولو كان ملازماً له لم يلزم أن يكون جزء مسماه.

---

(١) يعني مفهوميهما.

(٢) وكلام البغوي في غاية السداد.

(٣) لا بل يدل إذا أريد الإسلام المرضى المعتد به عند الله.

(٤) هذا صحيح ولكن لا يضر ما داما متلازمين.

(٥) وهذا صحيح إذ لا عبرة بالعمل إلا مع الإيمان.

وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح: قوله ﷺ: « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله » إلى آخره، والإيمان « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » إلى آخره، قال: هذا بيان لأصل الإيمان، وهو التصديق الباطن، وبيان لأصل الاسلام، وهو الاستسلام والانقياد الظاهر، وحكم الإسلام في الظاهر يثبت بالشهادتين، وإنما أضاف إليهما الأربع لكونها أظهر شعائر الإسلام ومعظمها، وبقيامه بها يتم استسلامه، وتركه لها يشعر بحل قيد انقياده أو انحلاله.

ثم إن اسم الإيمان يتناول ما فسر به الإسلام في هذا الحديث، وسائر الطاعات لكونها ثمرات التصديق الباطن الذي هو أصل الإيمان، ومقومات ومتممات وحافظات له، ولهذا فسر النبي ﷺ الإيمان في حديث وفد عبد القيس بالشهادتين، والصلاة، والزكاة، والصوم، وإعطاء الخمس من المغنم، ولهذا لا يقع اسم المؤمن المطلق على من ارتكب كبيرة أو ترك فريضة، لأن اسم الشيء الكامل يقع على الكامل منه، ولا يستعمل في الناقص ظاهراً إلا بقيد، ولذلك جاز إطلاق نفيه عنه في قوله ﷺ: « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ».

واسم الاسلام يتناول أيضاً ما هو أصل الإيمان وهو التصديق[1]، ويتناول أصل الطاعات، فإن ذلك كله استسلام، قال: فخرج مما ذكرناه وحققناه أن الإسلام والإيمان يجتمعان ويفترقان، وأن كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً، قال: فهذا تحقيق وافٍ بالتوفيق بين متفرقات النصوص الواردة في الإيمان والإسلام التي طالما غلط فيها الخائضون، وما حققناه من ذلك موافق لمذاهب جماهير العلماء من أهل الحديث وغيرهم.

فيقال: هذا الذي ذكره رحمه الله فيه من الموافقة ما قد بين من أقوال الأئمة، وما دل عليه الكتاب والسنة ما يظهر به أن الجمهور يقولون: كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً، وقوله: إن الحديث ذكر فيه أصل الإيمان وأصل

---

(١) هذا إذا ذكر الإسلام وحده فإنه يكون متناولاً للتصديق، أما اذا ذكرا معاً أريد بكل منهما غير ما أريد بالآخر.

الإسلام .قد يورد عليه أن النبي ﷺ أجاب عن الإيمان والإسلام بما هو من جنس الجواب بالحد عن المحدود[1]، فيكون ما ذكره مطابقاً لهما لا لأصلهما فقط، فالإيمان هو الإيمان بما ذكره باطناً وظاهراً، لكن ما ذكره من الإيمان تضمن الإسلام، كما أن الإحسان تضمن الإيمان.

وقول القائل: أصل الاستسلام هو الإسلام الظاهر، فالإسلام هو الاستسلام لله، والانقياد له ظاهراً وباطناً، فهذا هو دين الاسلام الذي ارتضاه الله كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، ومن أسلم بظاهره دون باطنه، فهو منافق يقبل ظاهره، فإنه لم يؤمر أن يشق عن قلوب الناس. وأيضاً فإذا كان الاسلام يتناول التصديق الباطن الذي هو أصل الإيمان، فيلزم أن يكون كل مسلم مؤمناً[2]، وهو خلاف ما نقل عن الجمهور، لكن لا بد في الاسلام من تصديق يحصل به أصل الإيمان، وإلا لم يثبت عليه، فيكون حينئذ مسلماً مؤمناً، فلا بد أن يتبين المسلم الذي ليس بمؤمن ودخوله في الاسلام والنبي ﷺ قال: « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » وقوله: الاسلام هو الأركان الخمسة. لا يعني به من أداها بلا إخلاص لله بل مع النفاق، بل المراد من فعلها كما أمر بها باطناً وظاهراً، وذكر الخمس أنها هي الاسلام[3]، لأنها هي العبادات المحضة التي تجب لله تعالى على كل عبد مطبق لها، وما سواها إما واجب على الكفاية لمصلحة إذا حصلت سقط الوجوب، وإما من حقوق الناس بعضهم على بعض، وإن كان فيها قربة ونحو ذلك، وتلك تابعة لهذه كما قال: « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » و « أفضل الاسلام أن تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت، ومن لم تعرف » ونحو ذلك، فهذه الخمس هي الأركان والمباني كما في الإيمان.

وقول القائل: الطاعات ثمرات التصديق الباطن، يراد به شيئان: يراد به أنها

---

(١) بل الظاهر أن الجواب فيهما إنما هو بذكر متعلقات كل منهما لا بالحد فإن حد الايمان التصديق وحد الإسلام الانقياد.

(٢) نعم إذا أريد الإسلام المعتبر شرعاً.

(٣) لم يقل إنما هي الإسلام بل بني عليها الإسلام.

لوازم له، فمتى وجد الإيمان الباطن وجدت[1]، وهذا مذهب السلف وأهل السنة، ويراد به أن الإيمان الباطن قد يكون سبباً، وقد يكون الإيمان الباطن تاماً كاملاً وهي لم توجد[2]، وهذا قول المرجئة من الجهمية وغيرهم، وقد ذكرنا فيما تقدم أنهم غلطوا في ثلاثة أوجه: (أحدها): ظنهم أن الإيمان الذي في القلب تصديق بلا عمل للقلب كمحبة الله وخشيته. والثاني: ظنهم أن الإيمان الذي في القلب يكون تاماً بدون العمل الظاهر، وهذا يقول به جميع المرجئة. والثالث: قولهم كل من كفره الشارع، فإنما كان لانتفاء تصديق القلب بالرب تبارك وتعالى، وكثير من المتأخرين لا يميزون بين مذاهب السلف وأقوال المرجئة والجهمية، لاختلاط هذا بهذا في كلام كثير منهم ممن هو في باطنه يرى رأي الجهمية والمرجئة في الإيمان، وهو معظم للسلف والحديث، فيظن أنه يجمع بينهما أو يجمع بين كلام أمثاله وكلام السلف.

قال أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي: وقالت طائفة ثالثة وهم الجمهور الأعظم من أهل السنة والجماعة وأصحاب الحديث: الإيمان الذي دعا الله العباد إليه وافترضه عليهم هو الإسلام الذي جعله ديناً وارتضاه لعباده ودعاهم إليه[3]، وهو ضد الكفر الذي سخطه فقال: ﴿ولا يرضىٰ لعباده الكفرَ﴾[4]. وقال: ﴿ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً﴾. وقال: ﴿فمن يُرِدْ اللهُ أنْ يَهديَه يشرحْ صدرهُ للإسلام﴾[5]. وقال: ﴿أفمن شرحَ اللهُ صدرهُ للإسلامِ فهو على نورٍ من ربه﴾[6]. فمدح الله الإسلام بمثل ما مدح به الإيمان، وجعله اسم ثناء وتزكية، فأخبر أن من أسلم، فهو على نور من ربه وهدى، وأخبر أنه دينه الذي ارتضاه، فقد أوجبه وامتدحه، ألا ترى أن أنبياء الله ورسله رغبوا فيه إليه وسألوه إياه،

---

(١) وعدم وجودها دليل على ضعفه وعدمه.

(٢) ولا يعقل وجود إيمان تام في الباطن دون أن توجد لوازمه.

(٣) بل الإسلام بهذا المعنى هو الدين كله فيتناول التصديق والعمل جميعاً.

(٤) سورة الزمر الآية ٧.

(٥) سورة الانعام الآية ١٢٥. (٦) سورة الزمر الآية ٢٢.

فقال إبراهيم وإسماعيل: ﴿ربنا واجعلنا مسلمينَ لكَ ومِنْ ذريتنا أمةً مسلمةً لكَ﴾[1]. وقال يوسف: ﴿توفني مسلماً وألحقني بالصالحينَ﴾. وقال: ﴿ووصىٰ بها إبراهيمُ بنيهِ ويعقوبُ يا بنيَّ إنَّ اللهَ اصطفىٰ لكم الدينَ فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾[2]. وقال: ﴿وقلْ للَّذينَ أوتوا الكتابَ والأميين أأسلمتم؟ فإنْ أسلموا فقد اهتدوا﴾[3]، وقال في موضع آخر: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزلَ إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾[4] إلى قوله: ﴿فإن آمنوا بمثلِ ما آمنتم بهِ فقد اهتدوا﴾[5]. فحكم الله بأن من أسلم، فقد اهتدى، ومن آمن فقد اهتدى، فسوى بينهما.

قال: وقد ذكرنا تمام الحجة في أن الإسلام هو الإيمان، وأنهما لا يفترقان، ولا يتباينان في موضع غير هذا، فكرهنا إعادته في هذا الموضع كراهة التطويل والتكرير، غير أنا سنذكر من الحجة في ذلك ما لم نذكره في غير هذا الموضع، ونبين خطأ تأويلهم، والحجج التي احتجوا بها من الكتاب والأخبار على التفرقة بين الإسلام والإيمان.

قلت: مقصود محمد بن نصر المروزي رحمه الله: أن المسلم الممدوح هو المؤمن الممدوح، وأن المذموم ناقص الإسلام والإيمان، وأن كل مؤمن فهو مسلم، وكل مسلم فلا بد أن يكون معه إيمان، وهذا صحيح، وهو متفق عليه، ومقصوده أيضاً: أن من أطلق عليه الاسلام أطلق عليه الايمان، وهذا فيه نزاع لفظي، ومقصوده أن مسمى أحدهما هو مسمى الآخر[6]، وهذا لا يعرف عن أحد من السلف، وإن قيل: هما متلازمان، فالمتلازمان لا يجب أن يكون مسمى هذا هو مسمى هذا، وهو لم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا أئمة الإسلام المشهورين أنه قال: مسمى الإسلام هو مسمى الإيمان كما نصره، بل

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٨.
(٢) سورة البقرة الآية ١٣٢.
(٣) سورة آل عمران الآية ٢٠.
(٤) سورة البقرة الآية ١٣٦.
(٥) سورة البقرة الآية ١٣٧.
(٦) هذا غير صحيح وإلا لما فرق الرسول ﷺ بينهما في حديث جبريل.

ولا عرفت أنا أحداً قال ذلك من السلف، ولكن المشهور عن الجماعه من السلف والخلف أن المؤمن المستحق لوعد الله هو المسلم المستحق لوعد الله، فكل مسلم مؤمن، وكل مؤمن مسلم، وهذا متفق على معناه بين السلف والخلف، بل وبين فرق الأمة كلهم يقولون: إن المؤمن الذي وعد بالجنة لا بد أن يكون مسلماً، والمسلم الذي وعد بالجنة لا بد أن يكون مؤمناً، وكل من يدخل الجنة بلا عذاب من الأولين والآخرين، فهو مؤمن مسلم.

ثم إن أهل السنة يقولون: الذين يخرجون من النار ويدخلون الجنة معهم بعض ذلك، وإنما النزاع في إطلاق الاسم، فالنقول متواترة عن السلف بأن الإيمان قول وعمل، ولم تنقل عنهم شيء من ذلك في الإسلام، ولكن لما كان الجمهور الأعظم يقولون: إن الإسلام هو الدين كله،[1] ليس هو الكلمة فقط خلاف ظاهر ما نقل عن الزهري، فكانوا يقولون: إن الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك من الأفعال المأمور بها هي من الإسلام كما هي من الإيمان،[2] ظن أنهم يجعلونها شيئاً واحداً، وليس كذلك، فإن الإيمان مستلزم للإسلام باتفاقهم، وليس إذا كان الإسلام داخلاً فيه يلزم أن يكون هو إياه،[3] وأما الإسلام فليس معه دليل على أنه يستلزم الإيمان، ولكن هل يستلزم الإيمان الواجب أو كمال الإيمان؟ فيه نزاع، وليس معه دليل على أنه مستلزم للإيمان، ولكن الأنبياء الذين وصفهم الله بالإسلام كلهم كانوا مؤمنين، وقد وصفهم الله بالإيمان ولو لم يذكر ذاك عنهم، فنحن نعلم قطعاً أن الأنبياء كلهم مؤمنون[4].

وكذلك السابقون الأولون كانوا مسلمين مؤمنين، ولو قدر أن الاسلام يستلزم الإيمان الواجب، فغاية ما يقال: إنهما متلازمان، فكل مسلم مؤمن، وكل مؤمن مسلم، وهذا صحيح إذا أريد أن كل مسلم يدخل الجنة معه الايمان

---

(١) نعم قد يطلق الإسلام ويراد به الدين كله أن الإيمان كذلك.

(٢) فهي أركان للإسلام ولوازم للإيمان. (٣) فإن الجزء ليس هو الكل.

(٤) يعني أن إيمانهم لم يفهم من وصفهم بالإسلام بل من نصوص أخرى.

الواجب، وهو متفق عليه إذا أريد أن كل مسلم يثاب على عبادته، فلا بد أن يكون معه أصل الايمان، فما من مسلم إلا وهو مؤمن، وإن لم يكن هو الإيمان الذي نفاه النبي ﷺ عمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وعمن يفعل الكبائر، وعن الأعراب وغيرهم، إذا قيل: إن الإسلام والايمان التام متلازمان، لم يلزم أن يكون أحدهما هو الآخر، كالروح والبدن، فلا يوجد عندنا روح إلا مع البدن، ولا يوجد بدن حي إلا مع الروح، وليس أحدهما الآخر، فالإيمان كالروح، فإنه قائم بالروح ومتصل بالبدن، والإسلام كالبدن ولا يكون البدن حياً إلا مع الروح، بمعنى أنهما متلازمان، لا أن مسمى أحدهما هو مسمى الآخر، وإسلام المنافقين، كبدن الميت جسد بلا روح،(١) فما من بدن حي إلا وفيه روح، ولكن الأرواح متنوعة، كما قال النبي ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» وليس كل من صلى ببدنه يكون قلبه منوراً بذكر الله والخشوع وفهم القرآن، وإن كانت صلاته يثاب عليها(٢) ويسقط عنه الفرض في أحكام الدنيا، فهكذا الإسلام الظاهر بمنزلة الصلاة الظاهرة، والإيمان بمنزلة ما يكون في القلب حين الصلاة من المعرفة بالله والخشوع وتدبر القرآن، فكل من خشع قلبه، خشعت جوارحه، ولا ينعكس، ولهذا قيل: إياكم وخشوع النفاق، وهو أن يكون الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع، فإذا صلح القلب صلح الجسد كله، وليس إذا كان الجسد في عبادة يكون القلب قائماً بحقائقها.

الناس في الإيمان والإسلام على ثلاث مراتب

والناس في الإيمان والإسلام على ثلاث مراتب: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، فالمسلم ظاهراً وباطناً إذا كان ظالماً لنفسه، فلا بد أن يكون معه إيمان، ولكن لم يأت بالواجب، ولا ينعكس، كذلك في الآخر، وسيأتي إن شاء الله.

---

(١) هذا تشبيه لطيف

(٢) كيف يثاب عليها إذا كانت بالبدن وحده مع غفلة القلب وعدم الخشوع؟.

والآيات التي احتج بها محمد بن نصر تدل على وجوب الاسلام، وأنه دين الله، وأن الله يحبه ويرضاه، وأنه ليس له دين غيره، وهذا كله حق، لكن ليس في هذا ما يدل على أنه هو الايمان، بل يدل على أنه بمجرد الاسلام يكون الرجل من أهل الجنة، كما ذكره في حجة القول الأول، وإن الله وعد المؤمنين بالجنة في غير آية، ولم يذكر هذا الوعد باسم الاسلام، حينئذ فمدحه وإيجابه ومحبة الله له تدل على دخوله في الايمان، وأنه بعض منه، وهذا متفق عليه بين أهل السنة، كلهم يقولون: كل مؤمن مسلم، وكل من أتى بالإيمان الواجب، فقد أتى بالاسلام الواجب، لكن النزاع في العكس[1]، وهذا كما أن الصلاة يحبها الله ويأمر بها ويوجبها ويثني عليها وعلى أهلها في غير موضع، ثم لم يدل ذلك على أن مسمى الصلاة مسمى الإيمان، بل الصلاة تدخل في الإيمان، فكل مؤمن مصلٍ، ولا يلزم أن يكون كل من صلى، وأتى الكبائر مؤمناً.

وجميع ما ذكره من الحجة عن النبي ﷺ فإن فيها التفريق بين مسمى الإيمان والاسلام إذا ذكرا جميعاً، كما في حديث جبرائيل وغيره[2]، وفيها أيضاً أن اسم الايمان اذا أطلق دخل فيه الاسلام، قال أبو عبد الله بن حامد في كتابة المصنف في «أصول الدين»:

الإسلام في قول أحمد بن حنبل يحتمل روايتين

قد ذكرنا أن الايمان قول وعمل، فأماالإسلام،فكلام أحمد يحتمل روايتين: إحداهما: أنه كالايمان، والثانية: أنه قول بلا عمل، وهو نصه في رواية إسماعيل بن سعيد، قال: والصحيح أن المذهب رواية واحدة أنه قول وعمل، ويحتمل قوله: إن الاسلام قول يريد به أنه لا يجب فيه ما يجب في الايمان من العمل المشروط فيه، لأن الصلاة ليست من شرطه، إذ النص عنه لا يكفر بتركه الصلاة.

---

(١) وهو أن كل مسلم مؤمن وأن من أتى بالإسلام فقد أتى الإيمان.

(٢) وقد سبق أن نبهنا على ذلك.

قال: وقد قضينا أن الاسلام والايمان اسمان لمعنيين،[1] وذكرنا اختلاف الفقهاء، وقد ذكر قبل ذلك أن الاسلام والايمان اسمان لمعنيين مختلفين، وبه قال مالك، وشريك، وحماد بن زيد، بالتفرقة بين الاسلام والايمان، قال: وقال أصحاب الشافعي، وأصحاب أبي حنيفة: إنهما اسمان معناهما واحد، قال: ويفيد هذا أن الايمان قد تنتفي عنه تسميته مع بقاء الاسلام عليه، وهو بإتيان الكبائر التي ذكرت في الخبر، فيخرج عن تسمية الايمان، إلا أنه مسلم، فإذا تاب من ذلك، عاد إلى ما كان عليه من الايمان. ولا تنتفي عنه تسمية الإيمان بارتكاب الصغائر من الذنوب، بل الاسم باق عليه، ثم ذكر أدلة ذلك، ولكن ما ذكره فيه أدلة كثيرة على من يقول: الاسلام مجرد الكلمة، فإن الأدلة الكثيرة تدل على أن الأعمال من الاسلام، بل النصوص كلها تدل على ذلك،[2] فمن قال: إن الأعمال الظاهرة المأمور بها ليست من الاسلام، فقوله باطل، بخلاف التصديق الذي في القلب، فإن هذا ليس في النصوص ما يدل على أنه من الاسلام، بل هو من الايمان، وإنما الاسلام الدين، كما فسره النبي ﷺ بأن يسلم وجهه وقلبه لله، فإخلاص الدين لله إسلام، وهذا غير التصديق، ذاك من جنس عمل القلب، وهذا من جنس علم القلب.

وأحمد بن حنبل، وإن كان قد قال في هذا الموضع: إن الاسلام هو الكلمة، فقد قال في موضع آخر: إن الأعمال من الاسلام، وهو اتبع هنا الزهري رحمه الله، فإن كان مراد من قال ذلك، إنه بالكلمة يدخل في الاسلام، ولم يأت بتمام الاسلام، فهذا قريب، وإن كان مراده أنه أتى بجميع الاسلام، فهذا غلط قطعاً، بل قد أنكر أحمد هذا الجواب، وهو قول من قال: يطلق عليه الاسلام

---

(١) أي مختلفين.

(٢) كقوله عليه السلام «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» ولما سئل أي الاسلام خير قال «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» وقال «الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً».

وإن لم يعمل، متابعة لحديث جبرائيل، فكان ينبغي أن يذكر قول أحمد جميعه .

قال إسماعيل بن سعيد: سألت أحمد عن الاسلام والايمان فقال: الايمان قول وعمل، والاسلام الإقرار[1]، وقال: وسألت أحمد عمن قال في الذي قال جبرائيل للنبي ﷺ إذا سأله عن الاسلام، فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم؟ فقال: نعم، فقال قائل: وإن لم يفعل الذي قال جبرائيل للنبي ﷺ، فهو مسلم أيضاً؟ فقال: هذا معاند للحديث[2].

فقد جعل أحمد من جعله مسلماً إذا لم يأت بالخمس معانداً للحديث، مع قوله: إن الاسلام الاقرار، فدل ذلك على أن ذاك[3] أول الدخول في الاسلام، وأنه لا يكون قائماً بالاسلام الواجب حتى يأتي بالخمس، وإطلاق الاسم مشروط بها، فإنه ذم من لم يتبع حديث جبرائيل، وأيضاً فهو في أكثر أجوبته يكفر من لم يأت بالصلاة[4]، بل وبغيرها من المباني، والكافر لا يكون مسلماً باتفاق المسلمين، فعلم أنه لم يرد أن الاسلام هو مجرد القول بلا عمل، وإن قدر أنه أراد ذلك، فهذا يكون أنه لا يكفر بترك شيء من المباني الأربعة، وأكثر الروايات عنه بخلاف ذلك، والذين لا يكفرون من ترك هذه المباني يجعلونها من الاسلام، كالشافعي ومالك، وأبي حنيفة، وغيرهم، فكيف لا يجعلها أحمد من الاسلام؟! وقوله في دخولها في الاسلام أقوى من قول غيره، وقد روي عنه أنه جعل حديث سعد معارضاً لحديث عمر، ورجح حديث سعد[5].

وقال الحسن بن علي: سألت أحمد بن حنبل عن الايمان أو كذا و الاسلام قال جاء حديث عمر هذا، وحديث سعد أحب إلي، كأنه فهم أن حديث عمر يدل على أن الأعمال هي مسمى الاسلام، فيكون مسماه أفضل، وحديث سعد

---

(١) يعني النطق بالشهادتين. (٢) أي مخالف ومناف له .

(٣) أي اعتبار الاقرار وحده.

(٤) فترك الصلاة عند أحمد كما هو عند كثير من السلف كفر مخرج عن الملة .

(٥) والحق أنه لا تعارض.

يدل على أن مسمى الايمان أفضل، ولكن حديث عمر لم يـذكر من الاسلام إلا الأعمال الظاهرة فقط، وهذه لا تكون إيماناً إلا مع الايمان الذي في القلب بالله وملائكته وكتبه ورسله، فيكون حينئذ بعض الايمان، فيكون مسمى الايمان أفضل كما دل عليه حديث سعد، فلا منافاة بين الحديثين.

وأما تفريق أحمد بين الاسلام والايمان، فكان يقول تارة، وتارة يحكي الخلاف ولا يجزم به، وكان إذا فرق بينهما تارة يقول: الاسلام الكلمة، وتارة لا يقول ذلك، وكذلك التكفير بترك المباني، كان تارة يكفر بها حتى يغضب، وتارة لا يكفر بها[1]. قال الميموني: قلت: يا أبا عبد الله تفرق بين الاسلام والايمان؟ قال: نعم. قلت: بأي شيء تحتج؟ قال: عامة الأحاديث تدل على هذا، ثم قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»[2] وقال الله تعالى: ﴿قالتِ الأعرابُ آمنا قلْ لم تُؤمنوا ولكـنْ قولوا أسلمنا﴾[3] قال: وحماد بن زيد يفرق بين الاسلام والايمان، قال: وحدثنا أبو سلمة الخزاعي قال: قال مالك وشريك، وذكر قولهم وقول حماد بن زيد: في فرق بين الاسلام والايمان.

قال أحمد: قال لي رجل: لو لم يجئنا في الايمان إلا هذا لكان حسناً. قلت لأبي عبد الله: فتذهب إلى ظاهر الكتاب مع السنن؟ قال: نعم، قلت: فإذا كانت المرجئة يقولون: إن الاسلام هو القول[4]، قال: هم يصيرون هذا كله واحداً، ويجعلونه مسلماً ومؤمناً شيئاً واحداً على إيمان جبرائيل ومستكمل الايمان[5]، قلت: فمن ههنا حجتنا عليهم؟ قال: نعم. فقد ذكر عنه الفرق مطلقاً واحتجاجه بالنصوص.

---

(١) وهذا شأن أحمد رحمه الله في جميع المسائل التي تنازع فيها السلف كان يفتي مرة بهذا ومرة بهذا.

(٢) فقد نفى الحديث عنه الإيمان مع صحة القول بأنه مسلم.

(٣) فقد نفت الآية عنهم الإيمان وأثبتت الإسلام.

(٤) يعني يكون قولك موافقاً لقولهم؟. (٥) هذا بيان للفرق بين قوله وقول المرجئة.

وقال صالح بن أحمد: سئل أبي عن الاسلام والايمان؟ قال: قال ابن أبي ذئب: الاسلام: القول، والايمان: العمل. قيل له: ما تقول أنت؟ قال: الاسلام غير الايمان، وذكر حديث سعد، وقول النبي ﷺ، فهو في هذا الحديث لم يختر قول من قال: الاسلام: القول، بل أجاب بأن الاسلام غير الايمان، كما دل عليه الحديث الصحيح مع القرآن.

وقال حنبل: حدثنا أبو عبد الله بحديث بريدة: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين،[1] وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» . . . الحديث ـ قال: وسمعت أبا عبد الله يقول: في هذا الحديث حجة على من قال: الايمان قول، فمن قال: أنا مؤمن قوله: من المؤمنين والمسلمين. فبيّن المؤمن من المسلم، ورد على من قال: أنا مؤمن مستكمل الايمان ـ وقوله: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» وهو يعلم أنه ميت يشد قول من قال: أنا مؤمن إن شاء الله، الاستثناء في هذا الموضع.

حديث لا يزني الزاني حين يزْني وهو مؤمن

وقال أبو الحارث: سألت أبا عبد الله قلت: قوله: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» قال: قد تأولوه، فأما عطاء فقال: يتنحى عنه الايمان،[2] وقال طاووس: إذا فعل ذلك زال عنه الايمان، وروي عن الحسن قال: إن رجع راجعه الايمان. وقد قيل: يخرج من الايمان إلى الاسلام، ولا يخرج من الاسلام، وروى هذه المسألة صالح، فإن مسائل أبي الحارث يرويها صالح أيضاً، وصالح سأل أباه عن هذه القصة، فقال فيها: هكذا يروى عن أبي جعفر قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»، قال: يخرج

---

(١) والعطف هنا دليل المغايرة.

(٢) قيل إنه يصير فوق رأسه كالظلة فإن نزع وتاب عاد إليه.

من الايمان إلى الاسلام، فالايمان مقصور في الاسلام[1]، فإذا زنى خرج من الايمان إلى الاسلام. قال الزهري ـ يعني ـ لما روى حديث سعد: «أو مسلم» فنرى أن الاسلام الكلمة والايمان العمل ـ قال أحمد: وهو حديث متأول والله أعلم ـ

فقد ذكر أقوال التابعين ولم يرجح شيئاً، وذلك والله أعلم لأن جميع ما قالوه حق[2]، وهو يوافق على ذلك كله، كما قد ذكر في مواضع أخر أنه يخرج من الايمان إلى الاسلام، ونحو ذلك، وأحمد وأمثاله من السلف لا يريدون بلفظ التأويل صرف اللفظ عن ظاهره[3]، بل التأويل عندهم مثل التفسير، وبيان ما يؤول اليه اللفظ، كقول عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك» يتأول القرآن، وإلا فما ذكره التابعون لا يخالف ظاهر الحديث بل يوافقه، وقول أحمد بتأوله، أي: تفسير معناه، وإن كان ذلك يوافق ظاهره لئلا يظن مبتدع أن معناه أنه صار كافراً لا إيمان معه بحال، كما تقوله الخوارج، فإن الحديث لا يدل على هذا، والذي نفى عن هؤلاء الايمان كان يجعلهم مسلمين لا يجعلهم مؤمنين.

قال المروزي: قيل لأبي عبد الله: نقول نحن المؤمنون؟ فقال: نقول نحن المسلمون، قلت لأبي عبد الله: نقول: إنا مؤمنون؟ قال: ولكن نقول: إنا مسلمون وهذا لأن من أصله الاستثناء في الايمان[4]، لأنه لا يعلم أنه مؤد لجميع ما أمر الله به، فهو مثل قوله: أنا بر، أنا تقي، أنا ولي الله، كما يذكر في موضعه، وهذا لا يمنع ترك الاستثناء إذا أراد: إني مصدق، فإنه يجزم بما في قلبه من التصديق، ولا يجزم بأنه ممتثل لكل ما أمر به، وكما يجزم بأنه يحب الله ورسوله، فإنه يبغض

---

(١) يعني أن دائرته أضيق من دائرة الإسلام، فإذا خرج من الإيمان لا يلزم خروجه من الإسلام.

(٢) لا يعقل أن يكون جميع ما قالوه حق إلا إذا كان الاختلاف بينهم اختلاف عبارة، أما مع وجود خلاف حقيقي فالحق مع واحد فقط.

(٣) فهذا اصطلاح لم يعرفه السلف.

(٤) وهو أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله.

الكفر، ونحو ذلك مما يعلم أنه في قلبه، وكذلك إذا أراد بأنه مؤمن في الظاهر، فلا يمنع أن يجزم بما هو معلوم له، وإنما يكره ما كرهه سائر الغالية من قول المرجئة[1] إذ يقولون: الإيمان شيء متماثل في جميع أهله، مثل كون كل إنسان له رأس، فيقول أحدهم: أنا مؤمن حقاً، وأنا مؤمن عند الله، ونحو ذلك، كما يقول الإنسان: لي رأس حقاً، وأنا لي رأس في علم الله حقاً، فمن جزم به على هذا الوجه، فقد أخرج الأعمال الباطنة والظاهرة عنه، وهذا منكر من القول وزور عند الصحابة والتابعين، ومن اتبعهم من سائر المسلمين، وللناس في مسألة الاستثناء كلام يذكر في موضعه.

والمقصود هنا أن هنا قولين متطرفين: قول من يقول: الإسلام مجرد الكلمة، والأعمال الظاهرة ليست داخلة في مسمى الاسم، وقول من يقول: مسمى الإسلام والايمان واحد وكلاهما قول ضعيف مخالف لحديث جبرائيل[2]، وسائر أحاديث النبي ﷺ، ولهذا لما نصر محمد بن نصر المروزي القول الثاني[3] لم يكن معه حجة على صحته، ولكن احتج بما يبطل به القول الأول، فاحتج بقوله في قصة الأعراب: ﴿بل الله يَمُنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾[4] قال: فدل ذلك على أن الإسلام هو الايمان[5]، فيقال: بل يدل على نقيض ذلك، لأن القوم لم يقولوا: أسلمنا، بل قالوا: آمنا، والله أمرهم أن يقولوا: أسلمنا، ثم ذكر تسميتهم بالإسلام فقال: ﴿بل الله يمنّ عليكم أنْ هداكم للإيمان إنْ كنتم صادقينَ﴾ في قولكم: آمنا، ولو كان الإسلام هو الايمان لم يحتج أن يقول: ﴿إن كنتم صادقين﴾ فإنهم صادقون في قولهم: أسلمنا، مع أنهم لم يقولوا، ولكن الله قال:

---

(١) هذه العبارة غير مستقيمة ولعل صحتها (وإنما يكره ما كرهه سائر السلف من قول المرجئة الغالية).

(٢) فإن حديث جبريل جعل الإسلام غير الإيمان وجعل الأعمال الظاهرة داخلة في مسمى الإسلام.

(٣) وهو أن الإيمان والإسلام مفهومها واحد.

(٤) سورة الحجرات الآية ١٧. (٥) لأنه وضعه موضعه.

﴿يمنون عليك أنْ أسلموا قل لا تَمُنّوا علي إسلامَكُم بل اللهُ يمنُ عليكم﴾ أي: يمنون عليك ما فعلوه من الاسلام، فالله تعالى سمّى فعلهم إسلاماً، وليس في ذلك ما يدل على أنهم سموه إسلاماً، وإنما قالوا: آمنا ثم أخبر أن المنة تقع بالهداية إلى الإيمان، فأما الاسلام الذي لا إيمان معه، فكان الناس يفعلونه خوفاً من السيف، فلا منة لهم بفعله، وإذا لم يمن الله عليهم بالإيمان كان ذلك كإسلام المنافقين فلا يقبله الله منهم، فأما إذا كانوا صادقين في قولهم: آمنا، فالله هو المان عليهم بهذا الايمان وما يدخل فيه من الاسلام، وهو سبحانه نفى عنهم الايمان أولاً، وهنا علق منة الله به على صدقهم، فدل على جواز صدقهم[1] .

وقد قيل: إنهم صاروا صادقين بعد ذلك، ويقال: المعلق بشرط لا يستلزم وجود ذلك الشرط، ويقال: لأنه كان معهم إيمان ما، لكن ما هو الايمان الذي وصفه ثانياً بل معهم شعبة من الايمان.

قال محمد بن نصر: وقال الله تعالى: ﴿وما أُمروا إلا ليعبدوا اللهَ مخلصينَ لهُ الدين﴾[2] الآية. وقال: ﴿إن الدينَ عندَ اللهِ الاسلام﴾ فسمى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ديناً قيماً، وسمى الدين إسلاماً، فمن لم يؤد الزكاة، فقد ترك من الدين القيم ـ الذي أخبر الله أنه عنده الدين وهو الاسلام ـ بعضاً[3]، قال: وقد جاء معيناً هذه الطائفة التي فرقت بين الاسلام والايمان، على أن الايمان قول وعمل، وأن الصلاة والزكاة من الايمان، وقد سماها الله ديناً، وأخبر أن الدين عنده الاسلام فقد سمى الله الاسلام بما سمى به الايمان وسمى الإيمان بما سمى به الاسلام، وبمثل ذلك جاءت الأخبار عن النبي ﷺ . فمن زعم أن الاسلام هو الاقرار، وأن العمل ليس منه، فقد خالف الكتاب والسنة، ولا فرق بينه وبين المرجئة إذ زعمت أن الإيمان إقرار بلا عمل.

---

(١) هذا تحليل بارع للآيات (٢) سورة البينة الآية ٥ .

(٣) ومعنى هذا أنه يرى أن الكلمات الثلاث (الدين والإسلام والإيمان) مترادفة.

فيقال: أما قوله: إن الله جعل الصلاة والزكاة من الدين، والدين عنده هو الاسلام، فهذا كلام حسن موافق لحديث جبرائيل[1]، ورده على من جعل العمل خارجاً من الاسلام كلام حسن، وأما قوله: إن الله سمى الايمان بما سمى به الاسلام وسمى الاسلام بما سمى به الايمان، فليس كذلك، فإن الله إنما قال: ﴿إن الدينَ عندَ اللهِ الاسلام﴾، ولم يقل قط: إن الدين عند الله الايمان، ولكن هذا الدين من الايمان، وليس إذا كان منه يكون هو إياه،[2] فإن الايمان أصله معرفة القلب وتصديقه، وقوله: والعمل تابع لهذا العلم والتصديق ملازم له ولا يكون العبد مؤمناً إلا بهما،[3] وأما الاسلام فهو عمل محض مع قول، والعلم والتصديق ليس جزء مسماه، لكن يلزمه جنس التصديق، فلا يكون عمل إلا بعلم، لكن لا يستلزم الايمان المفصل الذي بينه الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿إنّما المؤمنونَ الّذينَ آمنوا باللهِ ورسولِه ثّم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيلِ الله أولئك هم الصادقونَ﴾[4]. وقوله: ﴿إنّما المؤمنونَ الّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياتُه زادتهمْ إيماناً وعلى ربِّهم يتوكلون﴾[5].

وسائر النصوص التي تنفي الايمان عمن لم يتصف بما ذكره، فإن كثيراً من المسلمين مسلم باطناً وظاهراً ومعه تصديق مجمل، ولم يتصف بهذا الايمان، والله تعالى قال: ﴿ومن يبتغِ غيرَ الاسلام دِيناً فلنْ يقبلَ منهُ﴾ وقال: ﴿وَرَضيتُ لكم الاسلاَم ديناً﴾ ولم يقل: ومن يبتغ غير الاسلام علماً ومعرفة وتصديقاً وإيماناً، ولا قال: رضيت لكم الايمان تصديقاً وعلماً، فإن الاسلام من جنس الدين والعمل والطاعة والانقياد والخضوع، فمن ابتغى غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه والايمان طمأنينة ويقين، أصله علم وتصديق ومعرفة، والدين تابع له، يقال: آمنت بالله وأسلمت لله، قال موسى: ﴿يا قومِ إنْ كنتم آمنتم باللهِ فعليه توكلوا

---

(١) لأنه بعد ما سأل عن الإسلام والإيمان والإحسان قال عليه السلام «هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم».

(٢) فالجزء لا يكون عين الكل.

(٣) أي بالتصديق والعمل جميعاً.

(٤) سورة الحجرات الآية ١٥.

(٥) سورة الانفال الآية ٢.

إنْ كنتم مسلمين﴾[1] فلو كان مسماهما واحداً كان هذا تكريراً، وكذلك قوله: ﴿إنَّ المسلمينَ والمسلماتِ والمؤمنين والمؤمنـــاتِ﴾[2] كما قـــال: والصـــادقين، والصابرين، والخاشعين: فالمؤمن متصف بهذا كله، لكن هذه الأسماء لا تطابق الإيمان في العموم والخصوص، وكان النبي ﷺ يقول: «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت» كما ثبت في «الصحيحين» أنه كان يقول ذلك إذا قام من الليل، وثبت في «صحيح مسلم» وغيره أنه كان يقول في سجوده: «اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت» وفي الركوع يقول: «لك ركعت ولك أسلمت وبك آمنت» ولما بين النبي ﷺ خاصة كل منهما قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم» ومعلوم أن السلامة من ظلم الانسان غير كونه مأموناً على الدم والمال، فإن هذا أعلى، والمأمون يسلم الناس من ظلمه، وليس من سلموا من ظلمه يكون مأموناً عندهم[3].

قال محمد بن نصر: فمن زعم أن الاسلام هو الاقرار، وأن العمل ليس منه، فقد خالف الكتاب والسنة، وهذا صحيح، فإن النصوص كلها تدل على أن الأعمال من الاسلام، قال: ولا فرق بينه وبين المرجئة إذا زعمت أن الايمان إقرار بلا عمل.

فيقال: بل بينهما فرق، وذلك أن هؤلاء الذين قالوا من أهل السنة كالزهري ومن وافقه يقولون: الأعمال داخلة في الإيمان والاسلام عندهم جزء من الايمان، والايمان عندهم أكمل، وهذا موافق للكتاب والسنة، ويقولون: الناس يتفاضلون في الايمان، وهذا موافق للكتاب والسنة، والمرجئة يقولون: الايمان

---

(1) سورة يونس الآية ٨٤ . (٢) سورة الاحزاب الآية ٣٥ .

(٣) لا شك أن النصوص كثيرة على الفرق بين الإسلام والإيمان ولكن إذا أريد من كل منهما الفرد الكامل الذي يحمد به صاحبه ويوعد بالجنة فهما متلازمان قطعاً أو هما واحد .

بعض الاسلام، والاسلام أفضل،[1] ويقولون: إيمان الناس متساو، فإيمان الصحابة وأفجر الناس سواء،[2] ويقولون: لا يكون مع أحد بعض الايمان دون بعض،[3] وهذا مخالف للكتاب والسنة.

وقد أجاب أحمد عن هذا السؤال كما قاله في إحدى روايتيه: إن الاسلام هو الكلمة، كما قال الزهري: فإنه تارة يوافق من قال ذلك، وتارة لا يوافقه، بل يذكر ما دل عليه الكتاب والسنة من أن الاسلام غير الإيمان، فلما أجاب بقول الزهري، قال له الميموني: قلت يا أبا عبد الله! تفرق بين الاسلام والايمان؟ قال: نعم، قلت: بأي شيء تحتج؟ قال: عامة الأحاديث تدل على هذا، ثم قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن». وقال تعالى: ﴿قالت الاعرابُ آمنا قلْ لم تُؤمنوا ولكن قُولوا أسلمنَا﴾ قلت له: فتذهب إلى ظاهر الكتاب مع السنن؟ قال: نعم، قلت: فإذا كانت المرجئة تقول: إن الاسلام هو القول قال: هم يصيرون هذا كله واحداً ويجعلونه مسلماً ومؤمناً شيئاً واحداً على إيمان جبرائيل، ومستكمل الايمان، قلت: فمن ههنا حجتنا عليهم؟ قال: نعم. فقد أجاب أحمد بأنهم يجعلون الفاسق مؤمناً مستكمل الايمان على إيمان جبرائيل.

وأما قوله: يجعلونه مسلماً ومؤمناً شيئاً واحداً، فهذا قول من يقول: الدين والإيمان شيء واحد، فالاسلام هو الدين، فيجعلون الاسلام والايمان شيئاً واحداً،[4] وهذا القول قول المرجئة فيما يذكره كثير من الأئمة، كالشافعي وأبي عبيد وغيرهما، ومع هؤلاء يناظرون،[5] فالمعروف من كلام المرجئة الفرق بين لفظ الدين والإيمان، والفرق بين الاسلام والايمان، ويقولون: الاسلام بعضه إيمان

---

(١) يعني أنهم يعكسون القضية.

(٢) وهو قول في غاية الشناعة.

(٣) لأن الايمان عندهم لا يتبعض.

(٤) كالذي حكاه قريباً عن محمد بن نصري المروزي.

(٥) يعني يناقشون فيه.

وبعضه أعمال،[1] والأعمال منها فرض ونفل، ولكن كلام السلف كان فيما يظهر لهم ويصل إليهم من كلام أهل البدع[2] كما تجدهم في الجهمية، إما يحكون عنهم أن الله في كل مكان،[3] وهذا قول طائفة منهم كالنجارية، وهو قول عوامهم وعبادهم، وأما جمهور نظارهم من الجهمية، والمعتزلة، والضراوية، وغيرهم، فإنما يقولون: لا داخل العالم ولا خارجه، ولا هو فوق العالم[4]، وكذلك كلامهم في القدرية يحكون عنهم إنكار العلم والكتاب،[5] وهؤلاء هم القدرية الذين قال ابن عمر فيهم: إذا لقيت أولئك، فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم براء مني، وهم الذين كانوا يقولون: إن الله أمر العباد ونهاهم، وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه، ولا من يدخل الجنة ممن يدخل النار حتى فعلوا ذلك، فعلمه بعد ما فعلوه![6] ولهذا قالوا: الأمر أنف، أي: مستأنف، يقال: روض أنف: إذا كانت وافرة لم ترع قبل ذلك، يعني أنه مستأنف العمل السعيد والشقي، ويبتدىء ذلك من غير أن يكون قد تقدم بذلك علم ولا كتاب، فلا يكون العمل على ما قد قدر فيحتذى به حذو القدر، بل هو أمر مستأنف مبتدأ، والواحد من الناس إذا أراد أن يعمل عملاً قدر في نفسه ما يريد عمله، ثم عمله كما قدر في نفسه، وربما أظهر ما قدره في الخارج بصورته، ويسمى هذا التقدير الذي في النفس خلقاً، ومنه قول الشاعر:

ولأنْتَ تَفْري مَا خَلَقْتَ وَبَعـ ... ـض النـاس يخلـق ثم لا يفـري

---

(١) فالإيمان عندهم جزء الإسلام.

(٢) يعني كانوا لا يتثبتون من حقيقة أقوالهم.

(٣) ويقال إن هذا قول قدمائهم قبل ظهور الفلسفة.

(٤) هذا القول إنما حدث بعدما عرفت الفلسفة فإن وجود المجردات إنما أخذ منها.

(٥) وهذا قول قدمائهم أيضاً.

(٦) ولا شك أن هؤلاء كفار.

الكلام على القدر

يقول: إذا قدرت أمراً أمضيته وأنفذته بخلاف غيرك، فإنه عاجز عن إمضاء ما يقدره، قال تعالى: ﴿إنَّا كلَّ شيءٍ خلقناهُ بقدرٍ﴾[1] وهو سبحانه يعلم قبل أن يخلق الأشياء كل ما سيكون، وهو يخلق بمشيئته، فهو يعلمه ويريده، وعلمه وإرادته قائم بنفسه، وقد يتكلم به ويخبر به كما في قوله: ﴿لأملأنَّ جهنَّم منكَ وممن تبعكَ منهم أجمعين﴾[2] وقال: ﴿ولولا كلمةٌ سَبَقتْ مِنْ ربكَ لكان لزاماً وأجل مسمىً﴾[3] وقال تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتُنا لعبادِنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإنَّ جندنا لهم الغالبُون﴾[4] وقال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ فاختُلِفَ فيهِ ولولا كلمة سبقت من ربك لَقُضيَ بينهم وانهم لفي شكٍ منه مريب﴾[5] وهو سبحانه كتب ما يقدره فيما يكتبه فيه، كما قال: ﴿ألم تعلم أنَّ اللهَ يعلمُ ما في السَّموات والأرض إنَّ ذلكَ في كتاب[6] إن ذلكَ على اللهِ يسير﴾[7] قال ابن عباس: إن الله خلق الخلق وعلم ما هم عاملون، ثم قال لعلمه: كن كتاباً، فكان كتاباً[8]، ثم أنزل تصديق ذلك في قوله: ﴿ألم تعلم أنَّ اللهَ يعلمُ ما في السماء والأرض إنَّ ذلكَ في كتابٍ إنَّ ذلكَ على الله يسير﴾[9] وقال تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها[10] إنَّ ذلكَ على اللهِ يسير﴾ وقال: ﴿ولقد كتبنا في الزبورِ مِنْ بعدِ الذكرِ أنَّ الأرضَ يرثها عبادي الصالحون﴾[11] وقال: ﴿يمحو اللهُ ما يشاء ويثبتُ وعندهُ أم الكتاب﴾[12] وقال للملائكة: ﴿إني جاعلٌ في الأرض خليفة، قالوا: أتجعلُ فيها من يُفْسِدُ

---

(١) سورة القمر الآية ٤٩. (٢) سورة طه الآية ١٢٩. (٣) سورة طه الآية ١٢٩.

(٤) سورة الصافات الآيات (١٧١ - ١٧٣). (٥) سورة هود الآية ١١٠.

(٦) أي اللوح المحفوظ. (٧) سورة الحج الآية ٧٠.

(٨) أي خلق القمر وامره أن يكتب. (٩) سورة الحج الآية ٧٠.

(١٠) أي نخلقها. والبرء: الخلق. (١١) الزبور: كتاب داود. والذكر: التوراة.

(١٢) سورة الرعد الآية ٣٩. والمعنىٰ أصله الذي لا تغيير فيه ولا تبديل.

فيها ويسفكُ الدماءَ ونحنُ نُسبّحُ بحمدكَ ونقدّسُ لكَ؟ قالَ إني أعلمُ ما لا تعلمونَ﴾ (١) فالملائكة قد علمت ما يفعل بنو آدم من الفساد وسفك الدماء، فكيف لا يعلمه الله، سواء علموه بإعلام الله ـ فيكون هو أعلم بما علمهم إياه، كما قاله أكثر المفسرين ـ أو قالوه بالقياس على من كان قبلهم، كما قاله: طائفة منهم، أو بغير ذلك والله أعلم بما سيكون من مخلوقاته من الذين لا علم لهم إلا ما علمهم، وما أوحاه إلى أنبيائه وغيرهم مما سيكون بما هو أعلم به منهم، فإنهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء.

وأيضاً فإنه قال للملائكة: ﴿إني جاعل﴾ قبل أن يأمرهم بالسجود لآدم، وقبل أن يمتنع إبليس، وقبل أن ينهى آدم عن أكله من الشجرة، وقبل أن يأكل منها، ويكون أكله سبب إهباطه إلى الأرض، فقد علم الله سبحانه أنه سيستخلفه مع أمره له ولابليس بما يعلم أنهما يخالفانه فيه، ويكون الخلاف سبب أمره لهما بالاهباط والاستخلاف في الأرض.

وهذا يبين أنه علم ما سيكون منهما من مخالفة الأمر، فإن إبليس امتنع من السجود لآدم وأبغضه فصار عدوه، فوسوس له حتى يأكل من الشجرة فيذنب آدم أيضاً، فإنه قد تألى (٢) انه ليغوينهم أجمعين، وقد سأل الانظار (٣) إلى يوم يبعثون، فهو حريص على إغواء آدم وذريته بكل ما أمكنه، لكن آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه واجتباه ربه وهداه بنبوته، فصار لبني آدم سبيل إلى نجاتهم وسعادتهم مما يوقعهم الشيطان فيه بالاغواء، وهو التوبة، قال تعالى: ﴿ليعذب اللهُ المنافقينَ والمنافقاتِ والمشركينَ والمشركاتِ ويتوبَ اللهُ على المؤمنينَ والمؤمناتِ﴾ (٤) وقدر الله قد أحاط بهذا كله قبل أن يكون، وإبليس أصر على الذنب، واحتج بالقدر، وسأل الانظار ليهلك غيره، وآدم تاب وأناب، وقال

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠.

(٢) أي أقسم.

(٣) الإمهال والتأخير.

(٤) سورة الاحزاب الآية ٧٣.

هو وزوجته: ﴿ربَّنا ظلمنا أنفسنا وإنْ لم تغفْر لنا وترحمنا لنكونَنَّ من الخاسرينَ﴾[1] فتاب الله عليه فاجتباه وهداه، وأنزله إلى الأرض ليعمل فيها بطاعته، فيرفع الله بذلك درجته، ويكون دخوله الجنة بعد هذا أكمل مما كان، فمن أذنب من أولاد آدم، فاقتدى بأبيه آدم في التوبة كان سعيداً، وإذا تاب وآمن وعمل صالحاً بدل الله سيئاته حسنات، وكان بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة، كسائر أولياء الله المتقين، ومن اتبع منهم إبليس فأصر على الذنب، واحتج بالقدر، وأراد أن يغوي غيره كان من الذين قال فيهم: ﴿لأملأنَّ جهنَّم منكَ وممن تبعكَ منهم أجمعينَ﴾[2].

والمقصود هنا ذكر القدر، وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء» وفي «صحيح البخاري» عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض» وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ من غير وجه أنه أخبر أن الله قد علم أهل الجنة من أهل النار، وما يعمله العباد قبل أن يعملوه.

وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود: ان الله يبعث ملكاً بعد خلق الجسد، وقبل نفخ الروح فيه، فيكتب أجله ورزقه وعمله، وشقي أو سعيد[3]. وهذه الأحاديث تأتي إن شاء الله في مواضعها، فهذا القدر هو الذي أنكره القدرية الذين كانوا في أواخر زمن الصحابة، وقد روي: أن أول من ابتدعه بالعراق رجل من أهل البصرة يقال له: سيسويه من أبناء المجوس[4]، وتلقاه عنه

---

(١) سورة الاعراف الآية ٢٣.

(٢) سورة ص الآية ٨٥.

(٣) الحديث يدل على أن الكتابة بعد النفخ.

(٤) وهكذا كان المجوس واليهود، كانوا يكيدون للإسلام بإحداث البدع من القدر والتصوف والتشيع ونحوَ ذلك.

معبد الجهني. ويقال: أول ما حدث في الحجاز لما احترقت الكعبة، فقال رجل: احترقت بقدر الله تعالى: فقال آخر: لم يقدر الله هذا، ولم يكن على عهد الخلفاء الراشدين أحد ينكر القدر، فلما ابتدع هؤلاء التكذيب بالقدر رده عليهم من بقي من الصحابة، كعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وواثلة بن الاسقع وكان أكثره بالبصرة والشام، وقليل منه بالحجاز، فأكثر كلام السلف في ذم هؤلاء القدرية، ولهذا قال وكيع بن الجراح: القدرية يقولون: الأمر مستقبل، وإن الله لم يقدر الكتابة والأعمال، والمرجئة يقولون: القول يجزىء من العمل، والجهمية يقولون: المعرفة تجزىءُ من القول والعمل قال وكيع: وهو كله كفر ورواه ابن[1] .

ولكن لما اشتهر الكلام في القدر، ودخل فيه كثير من أهل النظر والعباد، صار جمهور القدرية يقرون بتقدم العلم، وإنما ينكرون عموم المشيئة والخلق وعن عمرو بن عبيد في إنكار الكتاب المتقدم روايتان. وقول أولئك كفّرهم عليه مالك، والشافعي، وأحمد وغيرهم، وأما هؤلاء فهم مبتدعون ضالون، لكنهم ليسوا بمنزلة أولئك، وفي هؤلاء خلق كثير من العلماء والعباد كتب عنهم العلم، وأخرج البخاري ومسلم لجماعة منهم، لكن من كان داعية إليه لم يخرّجوا له، وهذا مذهب فقهاء أهل الحديث كأحمد وغيره: أن من كان داعية إلى بدعة، فإنه يستحق العقوبة لدفع ضرره عن الناس، وإن كان في الباطن مجتهداً، وأقل عقوبته أن يهجر، فلا يكون له مرتبة في الدين، لا يؤخذ عنه العلم ولا يستقضى[2] ولا تقبل شهادته[3] ونحو ذلك. ومذهب مالك قريب من هذا، ولهذا لم يخرّج أهل الصحيح لمن كان داعية، ولكن رووا، هم وسائر أهل العلم عن كثير ممن كان يرى في الباطن رأي القدرية، والمرجئة، والخوارج، والشيعة.

---

(١) هكذا بياض بالأصل.
(٢) أي يصح توليه القضاء.
(٣) لأنه يعتبر فاسقاً ببدعته والفاسق لا تقبل شهادته.

وقال أحمد: لو تركنا الرواية عن القدرية لتركنا أكثر أهل البصرة، وهذا لأن مسألة خلق أفعال العباد وإرادة الكائنات مشكلة[1]، وكما أن القدرية من المعتزلة وغيرهم أخطأوا فيها، فقد أخطأ فيها كثير ممن رد عليهم أو أكثرهم[2]؛ فإنهم سلكوا في الرد عليهم مسلك جهم بن صفوان، وأتباعه، فنفوا حكمة الله في خلقه وأمره[3]، ونفوا رحمته بعباده، ونفوا ما جعله من الأسباب خلقاً وأمراً، وجحدوا من الحقائق الموجودة في مخلوقاته وشرائعه ما صار ذلك سبباً لنفور أكثر العقلاء الذين فهموا قولهم عما يظنونه السنة، إذ كانوا يزعمون أن قول أهل السنة في القدر هو القول الذي ابتدعه جهم، وهذا لبسطه موضع آخر.

وإنما المقصود هنا أن السلف في ردهم على المرجئة والجهمية والقدرية وغيرهم، يردون من أقوالهم ما يبلغهم عنهم وما سمعوه من بعضهم، وقد يكون ذلك قول طائفة منهم، وقد يكون نقلاً مغيراً، فلهذا ردوا على المرجئة الذين يجعلون الدين والإيمان واحداً، ويقولون: هو القول، وأيضاً فلم يكن حدث في زمنهم من المرجئة من يقول: الإيمان هو مجرد القول بلا تصديق ولا معرفة في القلب، فإن هذا إنما أحدثه ابن كرام، وهذا هو الذي انفرد به ابن كرام، وأما سائر ما قاله، فأقوال قيلت قبله، ولهذا لم يذكر الأشعري ولا غيره ممن يحكي مقالات الناس عنه قولاً انفرد به إلا هذا.

وأما سائر أقواله، فيحكونها عن ناس قبله ولا يذكرونه، ولم يكن ابن كرام في زمن أحمد بن حنبل، وغيره من الأئمة، فلهذا يحكون إجماع الناس على خلاف هذا القول، كما ذكر ذلك أبو عبد الله أحمد بن حنبل وأبو ثور وغيرهما، وكان قول المرجئة قبله: إن الإيمان قول باللسان وتصديق بالقلب[4]؛ وقول جهم: إنه تصديق

---

(١) يعني أن التوفيق بين ما هو ثابت بالنص من عموم خلق الله للأشياء وبين صدور أفعال العباد عن إرادتهم واختيارهم أمر مشكل.

(٢) وذلك مثل الأشعرية.

(٣) زاعمين أن أفعال الله لا تعلل.

(٤) فلم يخرجوا من الإيمان إلا العمل.

القلب[1]، فلما قال ابن كرام: إنه مجرد قول اللسان، صارت أقوال المرجئة ثلاثة، لكن أحمد كان أعلم بمقالات الناس من غيره، فكان يعرف قول الجهمية في الإيمان، وأما أبو ثور، فلم يكن يعرفه، ولا يعرف إلا مرجئة الفقهاء، فلهذا حكى الإجماع على خلاف قول الجهمية والكرامية.

قال أبو ثور في رده على المرجئة كما روى ذلك أبو القاسم الطبري اللالكائي وغيره عن إدريس بن عبد الكريم قال: سأل رجل من أهل خراسان أبا ثور عن الإيمان وما هو، أيزيد وينقص؟ وقول هو أو قول وعمل؟ أو تصديق وعمل؟ فأجابه أبو ثور بهذا فقال: سألت رحمك الله وعفا عنا وعنك عن الايمان ما هو، يزيد وينقص؟ وقول هو أو قول وعمل؟ أو تصديق وعمل؟ فأخبرك بقول الطوائف واختلافهم.

اعلم يرحمنا الله وإياك: أن الايمان تصديق بالقلب، وقول باللسان وعمل بالجوارح، وذلك أنه ليس بين أهل العلم خلاف في رجل لو قال: أشهد أن الله عز وجل واحد، وأن ما جاءت به الرسل حق، وأقر بجميع الشرائع، ثم قال: ما عقد قلبي على شيء من هذا، ولا أصدق به، أنه ليس بمسلم[2]، ولو قال: المسيح هو الله، وجحد أمر الإسلام، ثم قال: لم يعقد قلبي على شيء من ذلك، أنه كافر بإظهار ذلك وليس بمؤمن، فلما لم يكن بالإقرار إذا لم يكن معه التصديق مؤمناً، ولا بالتصديق إذا لم يكن معه الإقرار مؤمناً، حتى يكون مصدقاً بقلبه مقراً بلسانه. فإذا كان تصديقاً بالقلب وإقراراً باللسان، كان عندهم مؤمناً، وعند بعضهم لا يكون مؤمنا حتى يكون مع التصديق عمل، فيكون بهذه الأشياء إذا اجتمعت مؤمناً، فلما نفوا أن يكون الايمان بشيء واحد، وقالوا: يكون بشيئين[3]

---

(١) فلا يدخل فيه الاقرار ولا العمل.

(٢) يعني أنه ليس بمسلم الإسلام المعتبر، بل يكون إسلامه كإسلام المنافقين

(٣) يعني التصديق والإقرار.

في قول بعضهم، وثلاثة أشياء في قول غيرهم، لم يكن مؤمناً إلا بما أجمعوا عليه من هذه الثلاثة الأشياء في قول غيرهم، لم يكن مؤمناً إلا بما أجمعوا عليه من هذه الثلاثة الأشياء، وذلك أنه إذا جاء بهذه الثلاثة الأشياء، فكلهم يشهد أنه مؤمن، فقلنا بما أجمعوا عليه من التصديق بالقلب، والاقرار باللسان، والعمل بالجوارح(١).

فأما الطائفة التي ذهبت إلى أن العمل ليس من الإيمان، فيقال لهم: ماذا أراد الله من العباد إذ قال لهم: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، الإقرار بذلك أو الإقرار والعمل؟ فإن قالت: إن الله أراد الاقرار ولم يرد العمل، فقد كفرت. وعند أهل العلم من قال: إن الله لم يرد من العباد أن يصلوا ولا يؤتوا الزكاة ـ وإن قالت: أراد منهم الإقرار والعمل ـ قيل: فإذا كان أراد منهم الأمرين جميعاً، لم زعمتم أنه يكون مؤمناً بأحدهما دون الآخر، وقد أرادهما جميعاً؟ أرأيتم لو أن رجلاً قال: أعمل جميع ما أمر به الله ولا أقِرّ به، أيكون مؤمناً؟ فإن قالوا: لا، قيل لهم: فإن قال: أقر بجميع ما أمر الله به، ولا أعمل به، أيكون مؤمناً؟ فإن قالوا: نعم، قيل ما الفرق(٢)؟ فقد زعمتم أن الله أراد الأمرين جميعاً، فإن جاز أن يكون بأحدهما مؤمناً إذا ترك الآخر، جاز أن يكون بالآخر إذا عمل به ولم يقر، مؤمناً، لا فرق بين ذلك، فإن احتج فقال: لو أن رجلاً أسلم فأقر بجميع ما جاء به النبي ﷺ أيكون مؤمناً بهذا الإقرار قبل أن يجيء وقت عمل؟ قيل له: إنما يطلق له الاسم بتصديقه أن العمل عليه بقوله: أن يعمله في وقته إذا جاء، وليس عليه في هذا الوقت إلا الإقرار بجميع ما يكون به مؤمناً، ولو قال: أقر ولا أعمل لم يطلق عليه اسم الايمان(٣).

---

(١) لم يجمعوا على العمل بل على التصديق والإقرار.

(٢) لا شك أن هناك فرقاً بين الإقرار والعمل وإن كان كل منهما مأموراً به، فترك الإقرار كفر مخرج عن الملة بالإجماع، وأما العمل فمختلف فيه.

(٣) أي الإيمان المطلق ولكن معه مطلق الإيمان.

قلت: يعني الإمام أبو ثور ـ رحمه الله ـ أنه لا يكون مؤمناً إلا إذا التزم بالعمل مع الاقرار، وإلا فلو أقر ولم يلتزم العمل لم يكن مؤمناً، وهذا الاحتجاج الذي ذكره أبو ثور هو دليل على وجوب الأمرين: الإقرار والعمل، وهو يدل على أن كلاً منهما من الدين، وأنه لا يكون مطيعاً لله، ولا مستحقاً للثواب، ولا ممدوحاً عند الله ورسوله إلا بالأمرين جميعاً، وهو حجة على من يجعل الأعمال خارجة عن الدين والإيمان جميعاً. وأما من يقول: إنها من الدين، ويقول: إن الفاسق مؤمن حيث أخذ ببعض الدين وهو الإيمان عندهم، وترك بعضه، فهذا يحتج عليه بشيء آخر، لكن أبو ثور وغيره من علماء السنة عامة احتجاجهم مع هذا الصنف، وأحمد كان أوسع علماً بالأقوال والحجج من أبي ثور[1]، ولهذا إنما حكى الإجماع على خلاف قول الكرامية، ثم إنه تورع في النطق على عادته، ولم يجزم بنفي الخلاف، لكن قال: لا أحسب أحداً يقول هذا، وهذا في رسالته إلى أبي عبد الرحيم الجوزجاني، ذكرها الخلال في كتاب «السنة» وهو أجمع كتاب يذكر فيه أقوال أحمد في مسائل الأصول الدينية، وإن كان له أقوال زائدة على ما فيه، كما أن كتابه في العلم أجمع كتاب يذكر فيه أقوال أحمد في الأصول الفقهية.

صورة كتاب أحمد بن حنبل من خراسان إلى أبي عبد الله

قال المروزي: رأيت أبا عبد الرحيم الجوزجاني عند أبي عبد الله، وقد كان ذكره أبو عبد الله فقال: كان أبوه مرجئاً، أو قال: صاحب رأي، وأما أبو عبد الرحيم فأثنى عليه، وقد كان كتب إلى أبي عبد الله من خراسان يسأله عن الإيمان وذكر الرسالة من طريقين عن أبي عبد الرحيم، وجواب أحمد:

بسم الله الرحمن الرحيم: أحسن الله إلينا وإليك في الأمور كلها، وسلمنا وإياك من كل شر برحمته، أتاني كتابك تذكر ما تذكر من احتجاج من احتج

---

(١) فضل أحمد رحمه الله على أبي ثور وأمثاله أمر لا ينكر.

من المرجئة، واعلم رحمك الله أن الخصومة في الدين ليست من طريق أهل السنة[١] وأن تأويل من تأول القرآن بلا سنة تدل على معنى ما أراد الله منه، أو أثر عن أصحاب رسول الله ﷺ، ويعرف ذلك بما جاء عن النبي ﷺ، أو عن أصحابه، فهم شاهدوا النبي ﷺ، وشهدوا تنزيله، وما قصه الله له في القرآن، وما عنى به، وما أراد به أخاص هو أم عام؟ فأما من تأوله على ظاهره بلا دلالة من رسول الله ﷺ ولا أحد من الصحابة، فهذا تأويل أهل البدع؛ لأن الآية قد تكون خاصة ويكون حكمها حكماً عاماً، ويكون ظاهرها على العموم، وإنما قصدت لشيء بعينه، ورسول الله ﷺ هو المعبر عن كتاب الله وما أراد، وأصحابه أعلم بذلك منا، لمشاهدتهم الأمر وما أريد بذلك، فقد تكون الآية خاصة، أي: معناها مثل قوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾[٢] وظاهرها على العموم، أي من وقع عليه اسم ولد، فله ما فرض الله، فجاءت سنة رسول الله ﷺ ألا يرث مسلم كافراً.

وروي عن النبي ﷺ - وليس بالثبت - إلا أنه عن أصحابه أنهم لم يورثوا قاتلاً، فكان رسول الله ﷺ هو المعبر عن الكتاب أن الآية إنما قصدت للمسلم لا للكافر، ومن حملها على ظاهرها لزمه أن يورث من وقع عليه اسم الولد كافراً كان أو قاتلاً، وكذلك أحكام الوارث من الأبوين وغير ذلك مع آي كثير يطول بها الكتاب، وإنما استعلمت الأمة من النبي ﷺ ومن أصحابه، إلا من دفع ذلك من أهل البدع والخوارج، وما يشبههم، فقد رأيت إلى ما خرجوا[٣].

قلت: لفظ المجمل والمطلق والعام كان في اصطلاح الأئمة، كالشافعي، وأحمد، وأبي عبيد، وإسحاق، وغيرهم سواء،[٤] لا يريدون بالمجمل ما لا يفهم

(١) إنما تأتي الخصومة من أقوال المخالفين أهل البدع والضلال فيضطر أهل السنة إلى الرد عليهم.

(٢) سورة النساء الآية ١١.

(٣) يعني خرجوا إلى بدعة وضلال.

(٤) لكن المعروف أن المجمل يقابله المقيد، والعام يقابله الخاص وهي أمور مختلفة.

منه معنى، كما فسره به بعض المتأخرين[1] وأخطأ في ذلك، بل المجمل ما لا يكفي وحده في العمل به وإن كان ظاهره حقاً، كما في قوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ فهذه الآية ظاهرها ومعناها مفهوم، ليست مما لا يفهم المراد به، بل نفس ما دلت عليه لا يكفي وحده في العمل، فإن المأمور به صدقة تكون مطهرة مزكية لهم، وهذا إنما يعرف ببيان الرسول ﷺ، ولهذا قال أحمد يحذر المتكلم في الفقه هذين الأصلين: المجمل، والقياس، وقال: أكثر ما يخطىء الناس من جهة التأويل والقياس، يريد بذلك أن لا يحكم بما يدل عليه العام والمطلق قبل النظر فيما يخصه ويقيده، ولا يعمل بالقياس قبل النظر في دلالة النصوص هل تدفعه، فإن أكثر خطأ الناس تمسكهم بما يظنونه من دلالة اللفظ والقياس، فالأمور الظنية لا يعمل بها حتى يبحث عن المعارض بحثاً يطمئن القلب إليه، وإلا أخطأ من لم يفعل ذلك، وهذا هو الواقع في المتمسكين بالظواهر والأقيسة، ولهذا جعل الاحتجاج بالظواهر مع الإعراض عن تفسير النبي ﷺ وأصحابه طريق أهل البدع، وله في ذلك مصنف كبير.

وكذلك التمسك بالأقيسة مع الإعراض عن النصوص والآثار، طريق أهل البدع، ولهذا كان كل قول ابتدعه هؤلاء قولاً فاسداً، وإنما الصواب من أقوالهم ما وافقوا فيه السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان[2]، وقوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ سماه عاماً وهو مطلق في الأحوال، يعمها على طريق البدل كما يعم قوله: ﴿فتحرير رقبة﴾ جميع الرقاب، لا يعمها كما يعم لفظ الولد للأولاد. ومن أخذا بهذا لم يأخذ بما دل عليه ظاهر لفظ القرآن، بل أخذ بما ظهر له مما سكت عنه القرآن، فكان الظهور لسكوت القرآن عنه، لا لدلالة القرآن على أنه ظاهر. فكانوا متمسكين بظاهر من القول لا بظاهر النقل. زعمهم عدم العلم بالنصوص التي فيها علم بما قيد، وإلا فكل ما بينه

---

(١) لعلهم لا يريدون أنه لا يفهم منه معنى أصلاً بل يريدون أنه يحتاج إلى بيان.

(٢) وهذا أمر لا شك فيه.

القرآن وأظهره فهو حق، بخلاف ما يظهر للإنسان لمعنى آخر غير نفس القرآن يسمى ظاهر القرآن، كاستدلالات أهل البدع من المرجئة الجهمية والخوارج والشيعة .

الإرجاء من بدع الأقوال

قال أحمد : وأما من زعم أن الإيمان الإقرار، فما يقول في المعرفة؟ هل يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار؟ وهل يحتاج أن يكون مصدقاً بما عرف؟ فإن زعم أنه يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار، فقد زعم أنه من شيئين، وإن زعم أنه يحتاج أن يكون مقراً ومصدقاً بما عرف، فهو من ثلاثة أشياء، وإن جحد وقال: لا يحتاج إلى المعرفة والتصديق، فقد قال قولاً عظيماً،[1] ولا أحسب أحداً يدفع المعرفة والتصديق، وكذلك العمل مع هذه الأشياء[2] .

قلت: أحمد وأبو ثور وغيرهما من الأئمة كانوا قد عرفوا أصل قول المرجئة، وهو أن الإيمان لا يذهب بعضه ويبقى بعضه، فلا يكون إلا شيئاً واحداً، فلا يكون ذا عدد اثنين أو ثلاثة، فإنه إذا كان له عدد، أمكن ذهاب بعضه وبقاء بعضه، بل لا يكون إلا شيئاً واحداً، ولهذا قالت الجهمية، إنه شيء واحد في القلب، وقالت الكرامية: إنه شيء واحد على اللسان، كل ذلك فراراً من تبعض الإيمان وتعدده، فلهذا صاروا يناظرونهم بما يدل على أنه ليس شيئاً واحداً، كما قلتم، فأبو ثور احتج بما اجتمع عليه الفقهاء المرجئة من أنه تصديق وعمل،[3] ولم يكن بلغه قول متكلميهم وجهميتهم، أو لم يعد خلافهم خلافاً، وأحمد ذكر أنه لا بد من المعرفة والتصديق مع الإقرار، وقال: إن من جحد المعرفة والتصديق، فقد قال قولاً عظيماً، فإن فساد هذا القول معلوم من دين

---

(١) لأن ذلك هو شأن المنافقين.

(٢) يعني يستبعد أحمد رحمه الله وجود أحد من المسلمين يقول إنه لا يشترط مع الإقرار معرفة وتصديق .

(٣) ولماذا سموا إذاً المرجئة؟ .

الإسلام! ولهذا لم يذهب إليه أحد قبل الكرامية[1] مع أن الكرامية لا تنكر وجوب المعرفة والتصديق، ولكن تقول: لا يدخل في اسم الإيمان حذراً من تبعضه وتعدده، لأنهم رأوا أنه لا يمكن أن يذهب بعضه ويبقى بعضه، بل ذلك يقتضي أن يجتمع في القلب إيمان وكفر، واعتقدوا الإجماع على نفي ذلك، كما ذكر هذا الإجماع الأشعري وغيره.

وهذه الشبهة التي أوقعتهم مع علم كثير منهم وعبادته وحسن إسلامه وإيمانه[2]، ولهذا دخل في إرجاء الفقهاء جماعة هم عند الأمة أهل علم ودين. ولهذا لم يكفر أحد من السلف أحداً من مرجئة الفقهاء، بل جعلوا هذا من بدع الأقوال والأفعال، لا من بدع العقائد، فإن كثيراً من النزاع فيها لفظي، لكن اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب، فليس لأحد أن يقول بخلاف قول الله ورسوله، لا سيما وقد صار ذلك ذريعة إلى بدع أهل الكلام من أهل الارجاء وغيرهم وإلى ظهور الفسق، فصار ذلك الخطأ اليسير في اللفظ سبباً لخطأ عظيم في العقائد والأعمال، فلهذا عظم القول في ذم الإرجاء، حتى قال إبراهيم النخعي: لفتنتهم - يعني المرجئة - أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة[3]. وقال الزهري: ما ابتدعت في الإسلام بدعة أضر على أهله من الإرجاء، وقال الأوزاعي: كان يحيى بن أبي كثير، وقتادة يقولان: ليس شيء من الأهواء أخوف عندهم من الإرجاء، وقال شريك القاضي وذكر المرجئة فقال: هم أخبث قوم، حسبك بالرافضة خبثاً، ولكن المرجئة يكذبون على الله. وقال سفيان الثوري: تركت المرجئة الإسلام أرق من ثوب سابري. وقال قتادة: إنما حدث الإرجاء بعد فتنة فرقة ابن الأشعث.

وسئل ميمون بن مهران عن كلام المرجئة فقال: أنا أكبر من ذلك، وقال

---

(١) ويلزم على مذهبهم أن المنافق مؤمن كامل الإيمان.

(٢) وأي حسن في إسلامه وإيمانه مع هذا القول الشنيع؟.

(٣) هم فرقة من الخوارج.

سعيد بن جبير لذر الهمذاني: ألا تستحي من رأي أنت أكبر منه؟! وقال أيوب السختياني: أنا أكبر من دين المرجئة، إن أول من تكلم في الإرجاء رجل من أهل المدينة من بني هاشم يقال له: الحسن. وقال زاذان: أتينا الحسن بن محمد فقلنا: ما هذا الكتاب الذي وضعت؟ وكان هو الذي أخرج كتاب المرجئة فقال لي: يا أبا عمر لوددت أني كنت مت قبل أن أخرج هذا الكتاب، أو أضع هذا الكتاب، فإن الخطأ في اسم الإيمان ليس كالخطأ في اسم المحدث، ولا كالخطأ في غيره من الأسماء، إذ كانت أحكام الدنيا والآخرة متعلقة باسم الإيمان والإسلام والكفر والنفاق.

وأحمد رضي الله عنه فرق بين المعرفة التي في القلب وبين التصديق الذي في القلب[1]، فإن تصديق اللسان هو الإقرار، وقد ذكر ثلاثة أشياء، وهذا يحتمل شيئين، يحتمل أن يفرق بين تصديق القلب ومعرفته، وهذا قول ابن كلاب، والقلانسي، والأشعري وأصحابه يفرقون بين معرفة القلب وبين تصديق القلب، فإن تصديق القلب قوله، وقول القلب عندهم ليس هو العلم، بل نوعاً آخر، ولهذا قال أحمد: هل يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار؟ وهل يحتاج إلى أن يكون مصدقاً بما عرف؟ فإن زعم أنه يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار فقد زعم أنه من شيئين، وإن زعم أنه يحتاج أن يكون مقراً ومصدقاً بما عرف، فهو من ثلاثة أشياء فإن جحد وقال: لا يحتاج إلى المعرفة والتصديق، فقد أتى عظيماً ولا أحسب امرءاً يدفع المعرفة والتصديق.

والذين قالوا: الإيمان هو الإقرار، فالإقرار باللسان يتضمن التصديق باللسان[2]، والمرجئة لم تختلف أن الإقرار باللسان فيه التصديق، فعلم أنه أراد تصديق القلب ومعرفته مع الإقرار باللسان، إلا أن يقال: أراد تصديق القلب

---

(١) لا شك أن المعرفة لا تستلزم التصديق إذ التصديق لا بد فيه من رضى وإذعان.

(٢) وما الفرق بين الاقرار باللسان والتصديق به؟.

واللسان جميعاً مع المعرفة والإقرار، ومراده بالإقرار الالتزام لا التصديق كما قال تعالى: ﴿وإذا أخذَ اللهُ ميثاقَ النبيين لما آتيْتُكُمْ من كتابٍ وحكمةٍ ثُمّ جاءكم رسولٌ مصدقٌ لِمَا معكم لَتؤْمِنُنَّ به ولتنصرنَّه، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري؟ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ فالميثاق المأخوذ على أنهم يؤمنون به وينصرونه، وقد أمروا بهذا، وليس هذا الإقرار تصديقاً، فإن الله تعالى لم يخبرهم بخبر، بل أوجب عليهم إذا جاءهم ذلك الرسول أن يؤمنوا به وينصروه، فصدقوا بهذا الإقرار والتزموه، فهذا هو إقرارهم، والإنسان قد يقر للرسول بمعنى أنه يلتزم ما يأمر به مع غير معرفة، ومن غير تصديق له بأنه رسول الله،

لكن لم يقل أحد من المرجئة: إن هذا الإقرار يكون إيماناً، بل لا بد عندهم من الإقرار الخبري وهو أنه يقر له بأنه رسول الله كما يقر المقر بما يقر به من الحقوق، ولفظ الإقرار يتناول الالتزام والتصديق، ولا بد منهما، وقد يراد بالاقرار مجرد التصديق بدون التزام الطاعة، والمرجئة تارة يجعلون هذا هو الإيمان، وتارة يجعلون الايمان التصديق والالتزام معاً، هذا هو الإقرار الذي يقوله فقهاء المرجئة: إنه إيمان[1]، وإلا لو قال: أنا أطيعه ولا أصدق أنه رسول الله، أو أصدقه ولا التزم طاعته، لم يكن مسلماً ولا مؤمناً عندهم.

وأحمد قال: لا بد مع هذا الاقرار أن يكون مصدقاً، وأن يكون عارفاً، وأن يكون مصدقاً بما عرف، وفي رواية أخرى: مصدقاً بما أقر، وهذا يقتضي أنه لا بد من تصديق باطن. ويحتمل أن يكون لفظ التصديق عنده يتضمن القول والعمل جميعاً، كما قد ذكرنا شواهده أنه يقال: صدق بالقول والعمل، فيكون تصديق القلب عنده يتضمن أنه مع معرفة قلبه أنه رسول الله قد خضع له وانقاد، فصدقه بقول قلبه وعمل قلبه محبة وتعظيماً، وإلا مجرد معرفة قلبه أن رسول الله مع الاعراض عن الانقياد له ولما جاء به، إما حسداً، وإما كبراً،

---

(١) وهذا قول مقبول في الجملة ليس فيه كثير شناعة.

وإما لمحبة دينه الذي يخالفه وإما لغير ذلك، فلا يكون إيماناً.[1] ولا بد في الايمان من علم القلب وعمله، فأراد أحمد بالتصديق أنه مع المعرفة به صار القلب مصدقاً له، تابعاً له، محباً له معظماً له، فإن هذا لا بد منه، ومن دفع هذا عن أن يكون من الإيمان، فهو من جنس من دفع المعرفة من أن تكون من الإيمان، وهذا أشبه بأن يحمل عليه كلام أحمد، لأن وجوب انقياد القلب مع معرفته ظاهر ثابت بدلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة، بل ذلك معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، ومن نازع من الجهمية في أن انقياد القلب من الايمان،[2] فهو كمن نازع من الكرامية في أن معرفة القلب من الايمان[3]. فكان حمل كلام أحمد على هذا هو المناسب لكلامه في هذا المقام.

وأيضاً فإن الفرق بين معرفة القلب وبين مجرد تصديق القلب الخالي عن الانقياد الذي يجعل قول القلب، أمر دقيق، وأكثر العقلاء ينكرونه، وبتقدير صحته لا يجب على كل أحد أن يوجب شيئين لا يتصور الفرق بينهما، وأكثر الناس لا يتصورون الفرق بين معرفة القلب وتصديقه،[4] ويقولون: إن ما قاله ابن كلاب، والأشعري من الفرق، كلام باطل لا حقيقة له، وكثير من أصحابه اعترف بعدم الفرق، وعمدتهم من الحجة إنما هو خبر الكاذب، قالوا: ففي قلبه خبر بخلاف علمه، فدل على الفرق. فقال لهم الناس: ذاك بتقدير خبر وعلم ليس هو علماً حقيقياً ولا خبراً حقيقياً، وما أثبتوه من قول القلب المخالف للعلم والإرادة، إنما يعود إلى تقدير علوم وإرادات لا إلى جنس آخر يخالفها.

ولهذا قالوا: إن الإنسان لا يمكنه أن يقوم بقلبه خبر بخلاف علمه، وإنما يمكنه أن يقول ذلك بلسانه،[5] وأما أن يقوم بقلبه خبر بخلاف ما يعلمه، فهذا

---

(١) فإن اليهود معهم هذه المعرفة ولكنهم لم يذعنوا لها ولم يعملوا بمقتضاها بغياً وحسداً.

(٢) ولا يكفي فيه مجرد التصديق. (٣) ولا يكفي فيه مجرد الإقرار.

(٤) إن القرآن قال عن اليهود (يعرفونه) ولم يقل يصدقون به.

(٥) على جهة الكذب.

غير ممكن[1]، وهذا مما استدلوا به على أن الرب تعالى لا يتصور قيام الكذب بذاته، لأنه بكل شيء عليم، ويمتنع قيام معنى يضاد العلم بذات العالم، والخبر النفساني الكاذب يضاد العلم.

فيقال لهم: الخبر النفساني لو كان خلافاً للعلم لجاز وجود العلم مع ضده كما يقولون مثل ذلك في مواضع كثيرة، وهي من أقوى الحجج التي يحتج بها القاضي أبو بكر[2] وموافقوه في مسألة العقل وغيرها، كالقاضي أبي يعلى، وأبي محمد بن اللبان، وأبي علي بن شاذان، وأبي الطيب، وأبي الوليد الباجي، وأبي الخطاب، وابن عقيل وغيرهم، فيقولون: العقل نوع من العلم، فإنه ليس بضد له، فإن لم يكن نوعاً منه كان خلافاً له، ولو كان خلافاً لجاز وجوده مع ضد العقل، وهذه الحجة وإن كانت ضعيفة كما ضعفها الجمهور وأبو المعالي الجويني ممن ضعفها، فإن ما كان مستلزماً لغيره لم يكن ضداً له، إذ قد اجتمعا، وليس هو من نوعه، بل هو خلاف له على هذا الاصطلاح الذي يقسمون فيه كل اثنين إلى أن يكونا مثلين، أو خلافين أو ضدين، فالملزوم كالارادة مع العلم، أو كالعلم مع الحياة،[3] ونحو ذلك ليس ضداً ولا مثلاً، بل هو خلاف، ومع هذا فلا يجوز وجوده مع ضد اللازم، فإن ضد اللازم ينافيه، ووجود الملزوم بدون اللازم محال، كوجود الارادة بدون العلم والعلم بدون الحياة، فهذان خلافان عندهم، ولا يجوز وجود أحدهما مع ضد الآخر.

كذلك العلم هو مستلزم للعقل، فكل عالم عاقل، والعقل شرط في العلم فليس مثلاً له ولا ضداً ولا نوعاً منه، ومع هذا لا يجوز وجوده مع ضد العقل، لكن هذه الحجة تقال لهم في العلم مع كلام النفس الذي هو الخبر فإنه ليس ضداً ولا

---

(١) لأن هذا اجتماع ضدين في محل واحد.

(٢) هو أبو بكر الباقلاني من كبار الأشعرية.

(٣) يعني أن الإرادة ملزوم والعلم لازم لها، وكذلك العلم ملزوم والحياة لازمة له.

مثلاً، بل خلافاً، فيجوز وجود العلم مع ضد الخبر الصادق وهو الكاذب، فبطل تلك الحجة على امتناع الكذب النفساني في العالم، وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا أن الإنسان إذا رجع إلى نفسه عسر عليه التفريق بين علمه بأن الرسول صادق وبين تصديق قلبه تصديقاً مجرداً[1] عن انقياد وغيره من أعمال القلب بأنه صادق.

ثم احتج الامام أحمد على أن الأعمال من الايمان بحجج كثيرة فقال وقد سأل وفد عبد القيس رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا خمساً من المغنم» فجعل ذلك كله من الإيمان، قال: وقال النبي ﷺ «الحياء شعبة من الايمان» وقال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» . وقال: «إن البذاذة من الإيمان» . وقال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، وأرفعها قول لا إله إلا الله» مع أشياء كثيرة، منها: «أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان» وما روي عن النبي ﷺ في صفة المنافق: «ثلاث من كن فيه فهو منافق» مع حجج كثيرة، وما روي عن النبي ﷺ في تارك الصلاة وعن أصحابه من بعده، ثم ما وصف الله تعالى في كتابه من زيادة الإيمان في غير موضع مثل قوله: ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾ وقال: ﴿ليستيقنَ الَّذينَ أوتوا الكتابَ ويزدادَ الَّذينَ آمنوا إيماناً﴾[2] وقال: ﴿وإذا تُلِيَت عليهم آياتُهُ زادتهم إيماناً﴾ وقال تعالى: ﴿فمنكم من يقولُ أيكم زادتهُ هذهِ إيماناً، فأما الَّذينَ آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾[3] وقال: ﴿إنَّما المؤمنون الَّذينَ آمنوا باللهِ ورسولهِ ثُمَّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيلِ اللهِ أولئكَ هم الصادقون﴾[4] وقال تعالى: ﴿فإنْ تابوا وأقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ فخلوا

---

(١) لا يكون التصديق مجرداً عن الانقياد ونحوه فإنه متضمن لذلك بخلاف العلم.

(٢) سورة المدثر الآية ٣١. (٣) سورة التوبة الآية ١٢٤. (٤) سورة الحجرات الآية ١٥.

سبيلهم﴾ وقال تعالى: ﴿فإنْ تابوا وأقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ فإخوانكم في الدين﴾[1] وقال: ﴿وما أُمِرُوا إلا ليعبدوا الله مخلصينَ لهُ الّدينَ حنفاء[2] ويقيموا الصلاةَ ويؤتوا الزكاةَ وذلكَ دينُ القيِّمة﴾[3].

قال أحمد: ويلزمه أن يقول هو مؤمن بإقراره، وإن أقر بالزكاة في الجملة ولم يجد في كل مائتي درهم خمسة، أنه مؤمن، فيلزمه أن يقول: إذا أقر، ثم شد الزنار في وسطه، وصلى للصليب، وأتى الكنائس والبيع[4] وعمل الكبائر كلها إلا أنه في ذلك مقر بالله، فيلزمه أن يكون عنده مؤمناً، وهذه الأشياء من أشنع ما يلزمهم.

قلت: هذا الذي ذكره الإمام أحمد من أحسن ما احتج الناس به عليهم. جمع في ذلك جملاً يقول غيره بعضها، وهذا الإلزام لا محيد لهم عنه، ولهذا لما عرف متكلمهم مثل جهم ومن وافقه أنه لازم التزموه، وقالوا: لو فعل من الأفعال الظاهرة لم يكن بذلك كافراً في الباطن، لكن يكون دليلاً على الكفر في أحكام الدنيا، فإذا احتج عليهم بنصوص تقتضي أنه يكون كافراً في الآخرة، قالوا: فهذه النصوص تدل على أنه في الباطن ليس معه من معرفة الله شيء، فإنها عندهم شيء واحد، فخالفوا صريح المعقول وصريح الشرع.

وهذا القول مع فساده عقلاً وشرعاً، ومع كونه عند التحقيق لا يثبت إيماناً، فإنهم جعلوا الإيمان شيئاً واحداً لا حقيقة له[5]، كما قالت الجهمية ومن وافقهم مثل ذلك في وحدة الرب أنه ذات بلا صفات[6]، وقالوا: بأن القرآن مخلوق، وأن الله لا يرى في الآخرة، وما يقوله من وحدة الكلام وغيره من الصفات.

---

(١) سورة التوبة الآية ١١ .   (٢) حنفاء: جمع حنيف وهو الموحد المجانب للوثنية .

(٣) سورة البينة الآية ٥ .

(٤) جمع بيعة وهي مكان العبادة .

(٥) فإنه لا يعقل أن يكون الإيمان شيئاً واحداً مع تعدد الأشياء التي يجب الإيمان بها .

(٦) فإنه لا يعقل أيضاً وجود ذات في الخارج مجردة عن الصفات .

فقولهم في الرب وصفاته وكلامه والإيمان به يرجع إلى تعطيل محض[1]، وهذا قد وقع فيه طوائف كثيرة من المتأخرين المنتسبين إلى السنة والفقه والحديث المتبعين للأئمة الأربعة، المتعصبة للجهمية والمعتزلة، بل وللمرجئة أيضاً، لكن لعدم معرفتهم بالحقائق التي نشأت منها البدع يجمعون بين الضدين، ولكن من رحمة الله بعباده المسلمين أن الأئمة الذين لهم في الأمة لسان صدق، مثل الأئمة الأربعة وغيرهم كمالك، والثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد، وكالشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبي عبيد، وأبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد كانوا ينكرون على أهل الكلام من الجهمية قولهم في القرآن والإيمان وصفات الرب. وكانوا متفقين على ما كان عليه السلف من أن الله يرى في الآخرة، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الايمان لا بد فيه من تصديق القلب واللسان، فلو شتم الله ورسوله كان كافراً باطناً وظاهراً عندهم كلهم، ومن كان موافقاً لقول جهم في الايمان بسبب انتصار أبي الحسن لقوله في الايمان، يبقى تارة يقول بقول السلف والأئمة، وتارة يقول بقول المتكلمين الموافقين لجهم، حتى في مسألة سب الله ورسوله رأيت طائفة من الحنبليين، والشافعيين، والمالكيين، إذا تكلموا بكلام الأئمة قالوا: إن هذا كفر باطناً وظاهراً. وإذا تكلموا بكلام أولئك قالوا: هـذا كفر في الظاهر، وهو في الباطن يجوز أن يكون مؤمناً تـام الإيمان، فـإن الإيمان عندهم لا يتبعض، ولهذا لما عرف القاضي عياض هذا من قول بعض أصحابـه، أنكره ونصر قول مالك، وأهل السنة، وأحسن في ذلك.

وقد ذكرت بعض ما يتعلق بهذا في كتاب «الصارم المسلول على شاتم الرسول»[2] وكذلك تجدهم في مسائل الايمان يذكرون أقوال الأئمة، والسلف، ويبحثون بحثاً يناسب قول الجهمية، لأن البحث أخذوه من كتب أهل الكلام

---

(١) يعني يؤول إلى أنهم لا يثبتون شيئاً.

(٢) وهو من أحسن ما كتب شيخ الإسلام رحمه الله.

الذين نصروا قول جهم في مسائل الإيمان[1].

والرازي لما صنف «مناقب الشافعي»، ذكر قوله في الايمان ـ وقول الشافعي قول الصحابة والتابعين ـ وقد ذكر الشافعي أنه إجماع من الصحابة والتابعين ومن لقيه استشكل قول الشافعي جداً، لأنه كان قد انعقد في نفسه شبهة أهل البدع في الايمان من الخوارج، والمعتزلة، والجهمية والكرامية، وسائر المرجئة وهو أن الشيء المركب إذا زال بعض أجزائه لزم زواله كله، لكن هو لم يذكر إلا ظاهر شبهتهم، والجواب عما ذكروه هو سهل، فإنه يسلم له أن الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت، لكن لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الأجزاء[2].

والشافعي مع الصحابة، والتابعين، وسائر السلف، يقولون: إن الذنب يقدح في كمال الإيمان، ولهذا نفى الشارع الإيمان عن هؤلاء، فذلك المجموع الذي هو الايمان لم يبق مجموعاً مع الذنوب، لكن يقولون: بقي بعضه، إما أصله، وإما أكثره، وإما غير ذلك، فيعود الكلام إلى أنه يذهب بعضه ويبقى بعضه.

ولهذا كانت المرجئة تنفر من لفظ النقص أعظم من نفورها من لفظ الزيادة، لأنه إذا نقص لزم ذهابه كله عندهم إن كان متبعضاً متعدداً عند من يقول بذلك، وهم الخوارج والمعتزلة، وأما الجهمية، فهو واحد عندهم لا يقبل التعدد، فيثبتون واحداً لا حقيقة له، كما قالوا مثل ذلك في وحدانية الرب ووحدانية صفاته عند من أثبتها منهم.

ومن العجب أن الأصل الذي أوقعهم في هذا، اعتقادهم أنه لا يجتمع في الإنسان بعض الإيمان وبعض الكفر، أو ما هو إيمان وما هو كفر، واعتقدوا أن هذا متفق عليه بين المسلمين، كما ذكر ذلك أبو الحسن وغيره، فلأجل اعتقادهم هذا الإجماع وقعوا فيما هو مخالف للإجماع الحقيقي، إجماع السلف الذي ذكره

---

(١) وكم أضر الكلام بأهله وأضلهم.

(٢) ولكن هناك أجزاء أصلية للإيمان يلزم من زوالها زوال الإيمان كله.

غير واحد من الأئمة، بل وصرح غير واحد منهم بكفر من قال بقول جهم في الايمان.

ولهذا نظائر متعددة، يقول الإنسان قولاً مخالفاً للنص والاجماع القديم حقيقة، ويكون معتقداً أنه متمسك بالنص والاجماع، وهذا إذا كان مبلغ علمه واجتهاده، فالله يثيبه على ما أطاع الله فيه من اجتهاده، ويغفر له ما عجز عن معرفته من الصواب الباطن، وهم لما توهموا أن الإيمان الواجب على جميع الناس نوع واحد، صار بعضهم يظن أن ذلك النوع من حيث هو[1] لا يقبل التفاضل، فقال لي مرة بعضهم: الايمان من حيث هو ايمان لا يقبل التفاضل. فقال لي مرة بعضهم: الايمان من حيث هو إيمان لا يقبل الزيادة والنقصان. فقلت له: قولك من حيث هو، كمن يقول: الإنسان من حيث هو إنسان، والحيوان من حيث هو حيوان، والوجود من حيث هو وجود، والسواد من حيث هو سواد، وأمثال ذلك لا يقبل الزيادة والنقصان، فيثبت لهذه المسميات وجوداً مطلقاً مجرداً عن جميع القيود والصفات[2]، وهذا لا حقيقة له في الخارج، وإنما هو شيء يقدره الإنسان في ذهنه، كما يقدر موجوداً لا قديماً ولا حادثاً، ولا قائماً بنفسه ولا بغيره، ويقدر إنساناً لا موجوداً ولا معدوماً، ويقول: الماهية من حيث هي لا توصف بوجود ولا عدم، والماهية من حيث هي شيء يقدره الذهن، وذلك موجود في الذهن لا في الخارج. وأما تقدير شيء لا يكون في الذهن، ولا في الخارج، ممتنع، وهذا التقدير لا يكون إلا في الذهن كسائر تقدير الأمور الممتنعة، مثل تقدير صدور العالم عن صانعين، ونحو ذلك، فإن هذه المقدرات في الذهن.

فهكذا تقدير إيمان لا يتصف به مؤمن، بل هو مجرد عن كل قيد[3]. وتقدير

---

(١) هذا تعبير فلسفي يعنون به من حيث ذاته أو حقيقته التي د بها.

(٢) وهو الذي يسمونه بالمعنى الكلي أو الماهية.

(٣) يعني أن تقدير إيمان هو حقيقة قائمة بذاتها مجردة عن ا مخصصات هو أمر تقديري صرف لا وجود له في الخارج.

إنسان لا يكون موجوداً ولا معدوماً، بل ما ثَمَّ[1] إيمان إلا مع المؤمنين، ولا ثم إنسانية إلا ما اتصف بها الإنسان، فكل إنسان له إنسانية تخصه، وكل مؤمن له إيمان يخصه، فإنسانية زيد تشبه إنسانية عمرو، ليست هي هي، وإذا اشتركوا في نوع الإنسانية فمعنى ذلك أنهما يشتبهان فيما يوجد في الخارج، ويشتركان في أمر كلي مطلق يكون في الذهن.

وكذلك إذا قيل: إيمان زيد مثل إيمان عمرو، فإيمان كل واحد يخصه. فلو قدر أن الايمان يتماثل، لكان لكل مؤمن إيمان يخصه، وذلك الإيمان مختص معين، ليس هو الإيمان من حيث هو هو،[2] بل هو إيمان معين، وذلك الايمان يقبل الزيادة،[3] والذين ينفون التفاضل في هذه الأمور يتصورون في أنفسهم إيماناً مطلقاً، أو إنساناً مطلقاً، أو وجوداً مطلقاً مجرداً، عن جميع الصفات المعينة له، ثم يظنون أن هذا هو الإيمان الموجود في الناس، وذلك لا يقبل التفاضل، ولا يقبل في نفسه التعدد، إذ هو تصور معين قائم في نفس متصوره ولهذا يظن كثير من هؤلاء أن الأمور المشتركة في شيء واحد هي واحدة بالشخص والعين، حتى انتهى الأمر بطائفة من علمائهم علماً وعبادة إلى أن جعلوا الوجود كذلك، فتصوروا أن الموجودات مشتركة في مسمى الوجود، وتصوروا هذا في أنفسهم، فظنوه في الخارج كما هو في أنفسهم، ثم ظنوا أنه الله، فجعلوا الرب هو هذا الوجود الذي لا يوجد قط إلا في نفس متصوره، ولا يكون في الخارج،[4] وهكذا كثير من الفلاسفة تصوروا أعداداً مجردة وحقائق مجردة، ويسمونها المثل الأفلاطونية، وزماناً مجرداً عن الحركة والمتحرك، وبعداً مجرداً عن الأجسام

---

(١) أي ليس هناك.

(٢) لأن الإيمان من حيث هو هو لا يمكن أن يقع وصفاً للشخص في الخارج.

(٣) ككل الأشياء في الخارج.

(٤) لعله يعني بهم ابن سينا وأشياعه الذين يجعلون وجود الرب وجوداً مطلقاً من القيود والصفات أو أصحاب مذهب وحدة الوجود كابن عربي وأضرابه.

وصفاتها، ثم ظنوا وجود ذلك في الخارج، وهؤلاء كلهم اشتبه عليهم ما في الأذهان بما في الأعيان[1] وهؤلاء قد يجعلون الواحد اثنين، والاثنين واحداً، فتارة يجيئون إلى الأمور المتعددة المتفاضلة في الخارج فيجعلونها واحدة أو متماثلة، وتارة يجيئون إلى ما في الخارج من الحيوان والمكان والزمان فيجعلون الواحد اثنين، والمتفلسفة والجهمية وقعوا في هذا وهذا، فجاؤوا إلى صفات الرب التي هي أنه عالم وقادر، فجعلوا هذه الصفة هي عين الأخرى، وجعلوا الصفة هي الموصوفة.

وهكذا القائلون بأن الإيمان شيء واحد وأنه متماثل في بني آدم، غلطوا في كونه واحداً، وفي كونه متماثلاً، كما غلطوا في أمثال ذلك من مسائل التوحيد والصفات والقرآن ونحو ذلك، فكان غلط جهم وأتباعه في الإيمان كغلطهم في الرب الذي يؤمن به المؤمنون، وفي كلامه وصفاته، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وكذلك السواد والبياض يقبل الاشتداد والضعف، بل عامة الصفات التي يتصف بها الموصوف تقبل التفاضل، ولهذا كان العقل يقبل التفاضل، والايجاب والتحريم يقبل التفاضل، فيكون إيجاب أقوى من إيجاب، وتحريم أقوى من تحريم. وكذلك المعرفة التي في القلوب تقبل التفاضل على الصحيح عند أهل السنة[2] وفي هذا كله نزاع، فطائفة من المنتسبين إلى السنة تنكر التفاضل في هذا كله كما يختار ذلك القاضي أبو بكر، وابن عقيل، وغيرهما.

وقد حكي عن أحمد في التفاضل في المعرفة روايتان، وإنكار التفاضل في هذه الصفات هو من جنس أصل قول المرجئة، ولكن يقوله من يخالف المرجئة، وهؤلاء يقولون: التفاضل إنما هو في الأعمال، وأما الإيمان الذي هو في القلوب

---

(١) هذا كلام نفيس جداً فإن هذا الاشتباه هو مصدر كثير من الضلال.

(٢) فإن المعرفة قد تقوى بزيادة التفصيل وكثرة الأدلة ونحو ذلك.

فلا يتفاضل، وليس الأمر كما قالوه، بل جميع ذلك يتفاضل[1]، وقد يقولون: إن أعمال القلوب تتفاضل، بخلاف معارف القلب، وليس الأمر كذلك، بل إيمان القلوب يتفاضل من جهة ما وجب على هذا، ومن جهة ما وجب على هذا، فلا يستوون في الوجوب، وأمة محمد وإن وجب عليهم جميعهم الإيمان بعد استقرار الشرع فوجوب الإيمان بالشيء المعين موقوف على أن يبلغ العبد إن كان خبراً، وعلى أن يحتاج إلى العمل به إن كان أمراً، وعلى العلم به إن كان علماً، وإلا فلا يجب على كل مسلم أن يعرف كل خبر وكل أمر في الكتاب والسنة، ويعرف معناه ويعلمه، فإن هذا لا يقدر عليه أحد، فالوجوب مما يتنوع الناس فيه، ثم قدرهم في أداء الواجب متفاوتة، ثم نفس المعرفة تختلف بالاجمال والتفصيل، والقوة والضعف، ودوام الحضور، ومع الغفلة، فليست المفصلة المستحضرة الثابتة التي يثبت الله صاحبها بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة، كالجملة التي غفل عنها، وإذا حصل له ما يريبه فيها، ذكرها في قلبه ثم رغب إلى الله في كشف الريب. ثم أحوال القلوب وأعمالها مثل محبة الله ورسوله، وخشية الله، والتوكل عليه، والصبر على حكمه والشكر له والإنابة إليه، وإخلاص العمل له مما يتفاضل الناس فيها تفاضلاً لا يعرف قدره إلا الله عز وجل، ومن أنكر تفاضلهم في هذا، فهو إما جاهل لم يتصوره، وإما معاند[2].

قال الإمام أحمد: فإن زعموا أنهم لا يقبلون زيادة الإيمان من أجل أنهم لا يدرون ما زيادته، وأنها غير محدودة، فما يقولون في أنبياء الله وكتبه ورسله؟ هل يقرون بهم في الجملة؟ ويزعمون أنه من الإيمان، فإذا قالوا: نعم، قيل لهم: هل تجدونهم وتعرفون عددهم؟ أليس إنما يصيرون في ذلك إلى الإقرار بهم في الجملة ثم يكفون عن عددهم؟ فكذلك زيادة الإيمان، وبين أحد أن كونهم لم يعرفوا

---

(١) فالإيمان الذي هو التصديق قابل أيضاً للزيادة بكثرة الأدلة ووضوحها كما قال إبراهيم عليه السلام (ولكن ليطمئن قلبي).

(٢) كلام جد نفيس.

منتهى زيادته، لا يمنعهم من الإقرار بها في الجملة، كما أنهم يؤمنون بالأنبياء والكتب وهم لا يعرفون عدد الكتب والرسل.

وهذا الذي ذكره أحمد، وذكره محمد بن نصر، وغيرهما، يبين أنهم لم يعلموا عدد الكتب والرسل، وأن حديث أبي ذر في ذلك لم يثبت عندهم.

وأما قول من سوّى بين الإسلام والإيمان[1] وقال: إن الله سمى الايمان بما سمى به الاسلام، وسمى الاسلام بما سمى به الإيمان، فليس كذلك، فإن الله ورسوله قد فسر الإيمان بأنه الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبين أيضاً أن العمل بما أمر به يدخل في الإيمان، ولم يسم الله الايمان بملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت إسلاماً، بل إنما سمى الاسلام الاستسلام له بقلبه وقصده وإخلاص الدين والعمل بما أمر به، كالصلاة والزكاة خالصاً لوجهه، فهذا هو الذي سماه الله إسلاماً وجعله ديناً وقال: ﴿ومن يبتغ غيرَ الاسلام ديناً فلن يُقبلَ منه﴾[2] ولم يدخل فيما خص به الايمان، وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، بل ولا أعمال القلوب، مثل حب الله ورسوله ونحو ذلك، فإن هذه جعلها من الإيمان، والمسلم المؤمن يتصف بها وليس إذا اتصف بها المسلم المؤمن يلزم أن تكون من الاسلام، بل هي من الإيمان، والاسلام فرض، والإيمان فرض، والاسلام داخل فيه[3]، فمن أتى بالايمان الذي أمر به، فلا بد أن يكون قد أتى بالاسلام المتناول لجميع الأعمال الواجبة[4]، ومن أتى بما سمي إسلاماً لم يلزم أن يكون قد أتى بالإيمان[5] إلا بدليل منفصل، كما علم أن من أثنى الله عليه بالاسلام من الأنبياء وأتباعهم إلى الحواريين كلهم كانوا مؤمنين كما كانوا مسلمين، كما قال الحواريون: ﴿آمنا بالله وأشهد بأنّا مسلمونَ﴾[6] وقال: ﴿وإذْ

---

(١) وهو قول محمد بن نصر المروزي وأصحابه.

(٢) سورة آل عمران الآية ٨٥.

(٣) لا بد للمؤمن أن يكون مسلماً.

(٤) لانها أجزاء داخلة فيه فلا يتم إلا بها.

(٥) قد يكون مسلماً غير مؤمن.

(٦) سورة آل عمران الآية ٥٢.

أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهدْ بأننا مسلمون﴾[1] ولهذا أمرنا الله بهذا وبهذا في خطاب واحد، كما قال: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزلَ إلينا وما أُنزل إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباط وما أوتيَ موسى وعيسى وما أوتيَ النبيونَ من ربِّهم لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ منهم ونحنُ له مسلمونَ فإن آمنوا بمثل ما آمنتُم بهِ فقد اهتَدَوْا وإنْ تَولَّوا فإنما هم في شقاقٍ فسيكفيكهم اللهُ وهوَ السميعُ العليمُ﴾[2] وقال في الآية الأخرى: ﴿ومن يبتغِ غيرَ الاسلام ديناً فلنْ يُقبلَ منهُ وهوَ في الآخرةِ مِنَ الخاسرينَ﴾[3].

وهذا يقتضي أن كل من دان بغير دين الاسلام فعمله مردود، وهو خاسر في الآخرة، فيقتضي وجوب دين الاسلام وبطلان ما سواه، لا يقتضي أن مسمى الدين هو مسمى الايمان، بل أمرنا أن نقول: ﴿آمنا بالله﴾، وأمرنا أن نقول: ﴿ونحن له مسلمون﴾، فأمرنا باثنين، فكيف نجعلها واحداً؟!

وإذا جعلوا الإسلام والايمان شيئاً واحداً، فإما أن يقولوا: اللفظ مترادف، فيكون هذا تكريراً محضاً، ثم مدلول هذا اللفظ غير مدلول هذا اللفظ، وإما أن يقولوا بل أحد اللفظين يدل على صفة غير الصفة الأخرى، كما في أسماء الله وأسماء كتابه، لكن هذا لا يقتضي الأمر بهما جميعاً، ولكن يقتضي أن يذكر تارة بهذا الوصف، وتارة بهذا الوصف، فلا يقول قائل: قد فرض الله عليك الصلوات الخمس، والصلاة المكتوبة، وهذا هو هذا، والعطف بالصفات يكون إذا قصد بيان الصفات لما فيها من المدح أو الذم، كقوله: ﴿سبح اسم ربك الأعلىٰ الَّذي خلقَ فسَوَّىٰ. والذي قَدَّرَ فهدىٰ﴾[4] لا يقال صل لربك الأعلى، وربك الذي خلق فسوى.

وقال محمد بن نصر المروزي رحمه الله: فقد بين الله في كتابه وسنة رسوله أن

---

(1) سورة المائدة الآية ١١١.
(2) سورة البقرة الآيات (١٣٦ - ١٣٧).
(3) سورة آل عمران الآية ٨٥.
(4) سورة الاعلى الآيات (١ - ٣).

الاسلام والايمان لا يفترقان، فمن صدق بالله فقد آمن به، ومن آمن بالله فقد خضع له، وقد أسلم له، ومن صام وصلى وقام بفرائض الله وانتهى عما نهى الله عنه، فقد استكمل الايمان والاسلام المفترض عليه، ومن ترك من ذلك شيئاً فلن يزول عنه اسم الإيمان ولا الاسلام، إلا أنه أنقص من غيره في الاسلام والايمان من غير نقصان من الاقرار بأن الله حق، وما قال حق لا باطل، وصدق لا كذب، ولكن ينقص من الإيمان الذي هو تعظيم لله وخضوع للهيبة والجلال والطاعة للمصدق به وهو الله، فمن ذلك يكون النقصان لا من إقرارهم بأن الله حق، وما قال صدق.

فيقال: ما ذكره يدل على أن من أتى بالايمان الواجب، فقد أتى بالاسلام[1]، ولكن حق هذا، ليس فيه ما يدل على أن من أتى بالاسلام الواجب، فقد أتى بالايمان، فقوله: من آمن بالله فقد خضع له وقد استسلم له، حق، لكن أي شيء في هذا يدل على أن من أسلم لله وخضع له، فقد آمن به وبملائكته وبكتبه ورسله والبعث بعد الموت؟ وقوله: إن الله ورسوله قد بين أن الاسلام والايمان لا يفترقان، إن أراد أن الله أوجبهما جميعاً ونهى عن التفريق بينهما، فهذا حق، وان أراد أن الله جعل مسمى هذا مسمى هذا، فنصوص الكتاب والسنة تخالف ذلك[2]، وما ذكر قط نصاً واحداً يدل على اتفاق المسميين.

وكذلك قوله: من فعل ما أمر به وانتهى عما نهي عنه، فقد استكمل الايمان والإسلام، فهذا صحيح إذا فعل ما أمر به باطناً وظاهراً، ويكون قد استكمل الإيمان والإسلام الواجب عليه[3]، ولا يلزم أن يكون إيمانه وإسلامه مساوياً للإيمان والإسلام الذي فعله أولو العزم من الرسل، كالخليل إبراهيم، ومحمد خاتم

---

(١) وهذا حق لأن الاسلام داخل فيه.

(٢) كقوله تعالى (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) وكحديث جبريل في السؤال عن الاسلام والايمان.

(٣) يعني اللائق بحاله.

النبيين، عليهما الصلاة والسلام، بل كان معه من الإيمان والاسلام ما لا يقدر عليه غيره ممن ليس كذلك، ولم يؤمر به.

وقوله: من ترك من ذلك شيئاً، فلن يزول عنه اسم الاسلام والإيمان إلا أنه أنقص من غيره في ذلك، فيقال: إن أريد بذلك أنه بقي معه شيء من الإسلام والإيمان، فهذا حق كما دلت عليه النصوص، خلافاً للخوارج والمعتزلة، وإن أراد أنه يطلق عليه بلا تقييد مؤمن ومسلم في سياق الثناء والوعد بالجنة، فهذا خلاف الكتاب والسنة، ولو كان كذلك لدخلوا في قوله: ﴿وَعَدَ اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تجري من تحتها الانهار﴾[1] وأمثال ذلك مما وعدوا فيه بالجنة بلا عذاب:

وأيضاً: فصاحب الشرع قد نفى عنهم الاسم في غير موضع، بل قال: «قتال المؤمن كفر»، وقال: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض». وإذا احتج بقوله: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾[2] ونحو ذلك، قيل: هؤلاء إنما سموا به مع التقييد بأنهم فعلوا هذه الأمور ليذكر ما يؤمرون به هم وما يؤمر به غيرهم.

وكذلك قوله: لا يكون النقصان من إقرارهم بأن الله حق وما قاله صدق، فيقال: بل النقصان يكون في الإيمان الذي في القلوب من معرفتهم ومن عملهم، فلا تكون معرفتهم وتصديقهم بالله وأسمائه وصفاته وما قاله من أمر ونهي، ووعد ووعيد، كمعرفة غيرهم وتصديقه، لا من جهة الإجمال والتفصيل، ولا من جهة القوة والضعف، ولا من جهة الذكر والغفلة، وهذه الأمور كلها داخلة في الإيمان بالله وبما أرسل به رسوله، وكيف يكون الإيمان بالله وأسمائه وصفاته متماثلاً في القلوب؟! أم كيف يكون الإيمان بأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه غفور رحيم، عزيز حكيم، شديد العقاب، ليس هو من الإيمان به؟!

---

(١) سورة التوبة الآية ٧٢. (٢) سورة الحجرات الآية ٩.

فلا يمكن مسلماً أن يقول: إن الإيمان بذلك ليس من الإيمان به، ولا يدعي تماثل الناس فيه.

وأما ما ذكره من أن الإسلام ينقص كما ينقص الإيمان، فهذا أيضاً حق كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، فإن من نقص من الصلاة والزكاة أو الصوم أو الحج شيئاً، فقد نقص من إسلامه بحسب ذلك[1]. ومن قال: إن الإسلام هو الكلمة فقط، وأراد بذلك أنه لا يزيد ولا ينقص، فقوله خطأ. ورد الذين جعلوا الإسلام والإيمان سواء، إنما يتوجه على هؤلاء، فإن قولهم في الإسلام يشبه قول المرجئة في الإيمان.

الناس في الإسلام على ثلاثة أقوال

ولهذا صار الناس في الإيمان والإسلام على ثلاثة أقوال: فالمرجئة يقولون: الاسلام أفضل، فإنه يدخل فيه الايمان[2]، وآخرون يقولون: الإيمان والإسلام سواء[3]، وهم المعتزلة والخوارج، وطائفة من أهل الحديث والسنة، وحكاه محمد بن نصر عن جمهورهم، وليس كذلك. والقول الثالث أن الايمان أكمل وأفضل، وهذا هو الذي دل عليه الكتاب والسنة في غير موضع، وهو المأثور عن الصحابة، والتابعين لهم بإحسان.

ثم هؤلاء منهم من يقول: الإسلام مجرد القول[4]، والأعمال ليست من الاسلام. والصحيح أن الاسلام هو الأعمال الظاهرة كلها، وأحمد إنما منع الاستثناء فيه على قول الزهري: هو الكلمة[5]، هكذا نقل الأثرم، والميموني، وغيرهما، عنه، وأما على جوابه الآخر الذي لم يختر فيه قول من قال: الاسلام الكلمة، فيستثنى

(١) وهو نقص من الايمان أيضاً. (٢) وهذا خطأ صريح فإن العكس هو الصحيح.

(٣) وهذا أيضاً خطأ فإن النصوص فرقت بينهما وإن كان كل منهما لا يعتبر بدون الآخر.

(٤) يعني الاقرار، وهذا غلط.

(٥) والعجب من الامام أحمد رحمه الله كيف قلد الزهري في هذا القول الفاسد.

في الإيمان، فـإن الإنســان لا يجزم بــأنــه قــد فعــل كــل مــا أمــر به من الاسلام[1] وإذا قال النبي ﷺ : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» و «بني الاسلام على خمس» فجزمه بأنه فعل الخمس بلا نقص كما أمر كجزمه بايمانه، فقد قال تعالى: ﴿ادخلوا في السِّلم كافة﴾ أي : الإسلام كافة، أي: في جميع شرائع الاسلام.

وتعليل أحمد وغيره من السلف ما ذكروه في اسم الإيمان يجيء في اسم الاسلام، فإذا أريد بالاسلام الكلمة فلا استثناء فيه، كما نص عليه أحمد وغيره، وإذا أريد به فعل الواجبات الظاهرة كلها، فالاستثناء فيه كالاستثناء في الإيمان، ولما كان كل من أتى بالشهادتين صار مسلماً متميزاً عن اليهود والنصارى تجري عليه أحكام الاسلام التي تجري على المسلمين، كان هذا مما يجزم به بلا استثناء فيه، فلهذا قال الزهري: الاسلام الكلمة. وعلى ذلك وافقه أحمد وغيره، وحين وافقه لم يرد أن الاسلام الواجب هو الكلمة وحدها، فإن الزهري أجل من أن يخفى عليه ذلك، ولهذا أحمد لم يجب بهذا في جوابه الثاني، خوفاً من أن يظن أن الاسلام ليس هو إلا الكلمة، ولهذا لما قال الأثرم لأحمد: فإذا قال: أنا مسلم فلا يستثنى؟ قال نعم: لا يستثنى إذا قال: أنا مسلم، فقلت له أقول: هذا مسلم وقد قال النبي ﷺ : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» وأنا أعلم أنه لا يسلم الناس منه، فذكر حديث معمر عن الزهري قال: فنرى أن الاسلام الكلمة، والإيمان العمل.

فبين أحمد أن الاسلام إذا كان الكلمة فلا استثناء فيها، فحيث كان هو المفهوم من لفظ الاسلام فلا استثناء فيه، ولو أريد بالإيمان هذا، كما يراد ذلك في مثل قوله: ﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾ فإنما أريد من أظهر الاسلام، فإن الإيمان الذي علقت به أحكام الدنيا، هو الإيمان الظاهر وهو الاسلام، فالمسمى واحد في الأحكام الظاهرة، ولهذا لما ذكر الأثرم لأحمد احتجاج المرجئة بقول

---

(١) الاستثناء في اسلام غير معروف.

النبي ﷺ: «اعتقها فإنها مؤمنة» أجابه بأن المراد حكمها في الدنيا حكم المؤمنة، لم يرد أنها مؤمنة عند الله تستحق دخول الجنة بلا نار إذا لقيته بمجرد هذا الاقرار، وهذا هو المؤمن المطلق في كتاب الله، وهو الموعود بالجنة بلا نار إذا مات على إيمانه، ولهذا كان ابن مسعود وغيره من السلف يلزمون من شهد لنفسه بالإيمان أن يشهد لها بالجنة، يعنون إذا مات على ذلك، فإنه قد عرف أن الجنة لا يدخلها إلا من مات مؤمناً.

فإذا قال الانسان: أنا مؤمن قطعاً، وأنا مؤمن عند الله. قيل له: فاقطع بأنك تدخل الجنة بلا عذاب إذا مت على هذا الحال، فإن الله أخبر أن المؤمنين في الجنة. وأنكر أحمد بن حنبل حديث ابن عميرة أن عبد الله رجع عن الاستثناء، فإن ابن مسعود لما قيل له: إن قوماً يقولون: إنا مؤمنون، فقال: أفلا سألتموهم أفي الجنة هم؟ وفي رواية: أفلا قالوا: نحن أهل الجنة، وفي رواية قيل له: إن هذا يزعم أنه مؤمن، قال: فاسألوه أفي الجنة هو أو في النار؟ فسألوه فقال: الله أعلم، فقال له عبد الله: فهلا وكلت الأولى كما وكلت الثانية؟[1] من قال: أنا مؤمن فهو كافر، ومن قال: أنا عالم فهو لجاهل، ومن قال: هو في الجنة فهو في النار[2]، يروى عن عمر بن الخطاب من وجوه مرسلاً من حديث قتادة ونعيم بن أبي هند وغيرهما.

والسؤال الذي تورده المرجئة عن ابن مسعود ويقولون: إن يزيد بن عميرة أورده عليه حتى رجع، جعل هذا أن الانسان يعلم حاله الآن، وما يدري ماذا يموت عليه، ولهذا السؤال صار طائفة كثيرة يقولون: المؤمن هو من سبق في علم الله أنه يختم له بالايمان، والكافر من سبق في علم الله أنه كافر، وأنه لا اعتبار بما كان قبل ذلك، وعلى هذا يجعلون الاستثناء، وهذا أحد قولي الناس من أصحاب أحمد وغيرهم، وهو قول أبي الحسن[3] وأصحابه.

---

(١) يعني هلا فوّضت الأمر إلى الله في زعم الإيمان كما فوضت إليه في دخول الجنة؟.

(٢) لأنه مزك نفسه ومخبر عما لا علم له به.

(٣) يعني الأشعري.

ولكن أحمد وغيره من السلف لم يكن هذا مقصودهم، وإنما مقصودهم أن الإيمان المطلق يتضمن فعل المأمورات. فقوله: أنا مؤمن، كقوله: أنا ولي الله، وأنا مؤمن تقي، وأنا من الأبرار، ونحو ذلك، وابن مسعود رضي الله عنه لم يكن يخفى عليه أن الجنة لا تكون إلا لمن مات مؤمناً، وأن الانسان لا يعلم على ماذا يموت، فإن ابن مسعود أجل قدراً من هذا، وإنما أراد: سلوه هل هو في الجنة إن مات على هذه الحال؟ كأنه قال: سلوه أيكون من أهل الجنة على هذه الحال؟[١] فلما قال: الله ورسوله أعلم، قال: أفلا وكلت الأولى كما وكلت الثانية؟ يقول: هذا التوقف يدل على أنك تشهد لنفسك بفعل الواجبات وترك المحرمات، فإنه من شهد لنفسه بذلك شهد أنه من أهل الجنة إن مات على ذلك، ولهذا صار الذين لا يرون الاستثناء لأجل الحال الحاضر، بل للموافاة، لا يقطعون بأن الله يقبل توبة تائب، كما لا يقطعون بأن الله تعالى يعاقب مذنباً، فإنهم لو قطعوا بقبول توبته، لزمهم أن يقطعوا له بالجنة، وهم لا يقطعون لأحد من أهل القبلة لا بجنة ولا نار، إلا من قطع له النص[٢].

وإذا قيل: الجنة هي لمن أتى بالتوبة النصوح من جميع السيئات. قالوا: ولو مات على هذه التوبة لم يقطع له بالجنة، وهم لا يستثنون في الأحوال، بل يجزمون بأن المؤمن مؤمن تام الإيمان، ولكن عندهم الإيمان عند الله هو ما يوافي به[٣]، فمن قطعوا له بأنه مات مؤمناً لا ذنب له قطعوا له بالجنة، فلهذا لا يقطعون بقبول التوبة لئلا يلزمهم أن يقطعوا بالجنة، وأما أئمة السلف، فإنما لم يقطعوا بالجنة، لأنهم لا يقطعون بأنه فَعل المأمور وترك المحظور، ولا أنه أتى بالتوبة النصوح، وإلا فهم يقطعون بأن من تاب توبة نصوحاً، قبل الله توبته[٤].

---

(١) وهذا بلا شك هو مقصود ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) وهذا هو الصحيح المتعين.

(٣) يعني ما يلقى الله عز وجل عليه.

(٤) وكلام أئمة السلف هو الصحيح، فإن الله قد وعد بقبول توبة التائب ولكن لا يدري هل تاب توبة نصوحاً فتقبل أم لا.

وأجماع الأئمة أن الاسم الواحد ينفى ويثبت بحسب الأحكام المتعلقة به، فلا يجب إذا أثبت أو نفي في حكم أن يكون كذلك في سائر الأحكام، وهذا في كلام العرب وسائر الأمم، لأن المعنى مفهوم، مثال ذلك المنافقون قد يجعلون من المؤمنين في موضع، وفي موضع آخر يقال: ما هم منهم، قال الله تعالى: ﴿قد يَعْلَمُ الله المُعَوِّقِينَ منكم والقائلينَ لإخوانهم هلُمّ إلينا ولاَ يأتونَ البأسَ إلا قليلاً. أشحةً عليكم فإذا جاء الخوفُ رأيتهم ينظرونَ إليكَ تدورُ أعينهم كالذي يَغشىٰ عليهِ منَ الموتِ، فإذا ذهبَ الخوف سلقوكم بألسنةٍ حدادٍ أشحةً على الخيرِ أولئكَ لم يؤمنوا فأحبط اللهُ أعمالهم وكان ذلك على اللهِ يسيراً﴾[1] فهنالك جعل هؤلاء المنافقين الخائفين من العدو، الناكلين عن الجهاد، الناهين لغيرهم، الذامين للمؤمنين: منهم. وقال في آية أخرى: ﴿ويحلفونَ باللهِ إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنَّهم قومٌ يَفْرقونَ، لو يجدونَ ملجأ أو مغارات أو مُدخلاً لولوا إليهِ وهم يجمحونَ﴾[2] وهؤلاء ذنبهم أخف، فإنهم لم يؤذوا المؤمنين لا بنهي ولا سلق بألسنة حداد، ولكن حلفوا بالله إنهم من المؤمنين في الباطن بقلوبهم، وإلا فقد علم المؤمنون أنهم منهم في الظاهر، فكذبهم الله وقال: ﴿وما هم منكم﴾ وهناك قال: ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم﴾ فالخطاب لمن كان في الظاهر مسلماً مؤمناً، وليس مؤمناً بأن منكم من هو بهذه الصفة، وليس مؤمناً، بل أحبط الله عمله، فهو منكم في الظاهر لا الباطن.

ولهذا لما استؤذن النبي ﷺ في قتل بعض المنافقين قال: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» فإنهم من أصحابه في الظاهر عند من لا يعرف حقائق الأمور، وأصحابه الذين هم أصحابه ليس فيهم نفاق، كالذين علّموا سنته الناس وبلّغوها إليهم، وقاتلوا المرتدين بعد موته، والذين بايعوه تحت الشجرة وأهل بدر وغيرهم، بل الذين كانوا منافقين، غمار الناس.

---

(١) سورة الاحزاب الآيات (١٨ ـ ١٩). (٢) سورة التوبة الآية (٥٦ ـ ٥٧).

وكذلك الأنساب مثل كون الانسان أباً لآخر أو أخاه، يثبت في بعض الأحكام دون بعض، فإنه قد ثبت في «الصحيحين» أنه لما اختصم إلى النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص، وعبد بن زمعة بن الأسود في ابن وليدة زمعة، وكان عتبة بن أبي وقاص قد فجر بها في الجاهلية وولدت منه ولداً. فقال عتبة لأخيه سعد: إذا قدمت مكة فانظر ابن وليدة زمعة فإنه ابني، فاختصم فيه هو وعبد بن زمعة إلى النبي ﷺ، فقال سعد: يا رسول الله! ابن أخي عتبة، عهد إليَّ أخي عتبة فيه، إذا قدمت مكة أنظر إلى ابن وليدة زمعة، فإنه ابني، ألا ترى يا رسول الله شبهه بعتبة؟ فقال عبد: يا رسول الله أخي وابن وليدة أبي، ولد على فراش أبي، فرأى النبي ﷺ شبهاً بيِّناً بعتبة فقال: «هو لك يا عبد بن زمعة، الولد للفراش وللعاهر الحجر، واحتجبي منه يا سودة» لما رأى من شبهه البين بعتبة، فقد جعله النبي ﷺ ابن زمعة لأنه ولد على فراشه، وجعله أخاً لولده بقوله: «فهو لك يا عبد بن زمعة» وقد صارت سودة أخته يرثها وترثه، لأنه ابن أبيها زمعة، ولد على فراشه. ومع هذا فأمرها النبي ﷺ أن تحتجب منه، لما رأى من شبهه البين بعتبة، فإنه قام فيه دليلان متعارضان: الفراش والشبه، والنسب في الظاهر لصاحب الفراش أقوى، ولأنه أمر ظاهر مباح، والفجور أمر باطن لا يعلم، ويجب ستره لا إظهاره كما قال: «للعاهر الحجر»، كما يقال: بفيك الكثكث ، وبفيك الأثلب، أي: عليك أن تسكت عن إظهار الفجور، فإن الله يبغض ذلك، ولما كان احتجابها منه ممكناً من غير ضرر، أمرها بالاحتجاب لما ظهر من الدلالة على أنه ليس أخاها في الباطن.

فتبين أن الاسم الواحد ينفي في حكم ويثبت في حكم، فهو أخ في الميراث وليس بأخ في المحرمية، وكذلك ولد الزنا عند بعض العلماء، وابن الملاعنة عند الجميع إلا من شذ، ليس بولد في الميراث ونحوه، وهو ولد في تحريم النكاح والمحرمية.

ولفظ النكاح وغيره في الأمر، يتناول الكامل، وهو العقد والوطء، كما في

قوله: ﴿فانكحوا ما طابَ لكم من النساءِ﴾[1] وقوله: ﴿حتى تنكح زوجاً غيرهُ﴾[2] وفي النهي يعم الناقص والكامل، فينهى عن العقد مفرداً، وإن لم يكن وطء، كقوله: ﴿ولا تنكحوا ما نكحَ آباؤكم مِنَ النساءِ﴾[3]، وهذا لأن الآمر مقصوده تحصيل المصلحة. وتحصيل المصلحة إنما يكون بالدخول كما لو قال: اشترِ لي طعاماً، فالمقصود ما يحصل إلا بالشراء والقبض، والناهي مقصوده دفع المفسدة، فيدخل كل جزء منه، لأن وجوده مفسدة، وكذلك النسب والميراث معلق بالكامل منه، والتحريم معلق بأدنى سبب حتى الرضاع.

وكذلك كل ما يكون له مبتدأ وكمال، ينفي تارة باعتبار انتفاء كماله، ويثبت تارة باعتبار ثبوت مبدئه، فلفظ الرجال يعم الذكور وإن كانوا صغاراً في مثل قوله: ﴿وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثلُ حظِ الأنثيين﴾[4] ولا يعم الصغار في مثل قوله: ﴿والمستضعفين من الرجال والنساءِ والولدان الّذينَ يقولونَ ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾[5] فإن باب الهجرة والجهاد عمل يعمله القادرون عليه، فلو اقتصر على ذكر المستضعفين من الرجال لظن أن الولدان غير داخلين، لأنهم ليسوا من أهله، وهم ضعفاء، فذكرهم بالاسم الخاص، ليبين عذرهم في ترك الهجرة، ووجوب الجهاد. وكذلك الإيمان له مبدأ، وكمال، وظاهر، وباطن، فإذا علقت به الأحكام الدنيوية من الحقوق والحدود، كحقن الدم، والمال، والمواريث، والعقوبات الدنيوية، علقت بظاهره، لا يمكن غير ذلك، إذ تعليق ذلك بالباطن متعذر، وإن قدر أحياناً، فهو متعسر علماً وقدرة، فلا يعلم ذلك علماً يثبت به في الظاهر، ولا يمكن عقوبة من يعلم ذلك منه في الباطن[6].

---

(١) سورة النساء الآية ٣.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٠.
(٣) سورة النساء الآية ٢٢.
(٤) سورة النساء ١٧٦.
(٥) سورة النساء ٧٥.
(٦) وهذا مبحث أصولي نفيس.

وبهذين المثلين كان النبي ﷺ يمتنع من عقوبة المنافقين، فإن فيهم من لم يكن يعرفهم، كما أخبر الله بذلك،[1] والذين كان يعرفهم، لو عاقب بعضهم لغضب له قومه، ولقال الناس: إن محمداً يقتل أصحابه، فكان يحصل بسبب ذلك نفور عن الاسلام، إذ لم يكن الذنب ظاهراً، يشترك الناس في معرفته. ولما هم بعقوبة من يتخلف عن الصلاة، منعه من في البيوت من النساء والذرية، وأما مبدؤه فيتعلق به خطاب الأمر والنهي، فإذا قال الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة﴾ ونحو ذلك، فهو أمر في الظاهر لكل من أظهره،[2] وهو خطاب في الباطن لكل من عرف من نفسه أنه مصدق للرسول، وإن كان عاصياً، وإن كان لم يقم بالواجبات الباطنة والظاهرة، وذلك أنه إن كان لفظ: ﴿الذين آمنوا﴾ يتناولهم فلا كلام،[3] وإن كان لم يتناولهم فذاك لذنوبهم، فلا تكون ذنوبهم مانعة من أمرهم بالحسنات التي إن فعلوها كانت سبب رحمتهم، وإن تركوها كان أمرهم بها، وعقوبتهم عليها عقوبة على ترك الإيمان، والكافر يجب عليه أيضاً،[4] لكن لا يصح منه حتى يؤمن،[5] وكذلك المنافق المحض لا يصح منه في الباطن حتى يؤمن.

وأما من كان معه أول الايمان، فهذا يصح منه، لأن معه إقراره في الباطن بوجوب ما أوجبه الرسول، وتحريم ما حرمه، وهذا سبب الصحة، وأما كماله فيتعلق به خطاب الوعد بالجنة والنصرة والسلامة من النار، فإن هذا الوعد إنما هو لمن فعل المأمور وترك المحظور، ومن فعل بعضاً وترك بعضاً، فيثاب على ما فعله، ويعاقب على ما تركه، فلا يدخل هذا في اسم المؤمن المستحق للحمد والثناء، دون الذم والعقاب. ومن نفى عنه الرسول الايمان، فنفي الايمان في هذا الحكم، لأنه ذكر ذلك على سبيل الوعيد والوعيد إنما يكون بنفي ما يقتضي

---

(١) قال تعالى: (لا تعلمهم نحن نعلمهم).

(٢) أي أظهر الانقياد للأمر.

(٣) ولا كلام أنه يتناولهم.

(٤) يعني أنه مخاطب بفروع الشريعة.

(٥) فإن الإيمان شرط لصحة الأعمال كلها.

الثواب، ويدفع العقاب، ولهذا ما في الكتاب والسنة من نفي الايمان عن أصحاب الذنوب، فإنما هو في خطاب الوعيد والذم، لا في خطاب الأمر والنهي، ولا في أحكام الدنيا[1].

واسم الاسلام والايمان والاحسان هي أسماء ممدوحة مرغوب فيها لحسن العاقبة لأهلها، فبين النبي ﷺ أن العاقبة الحسنة لمن اتصف بها على الوجه الذي بينه، ولهذا كان من نفى عنهم الايمان، أو الايمان والاسلام جميعاً، ولم يجعلهم كفاراً، إنما نفى عنهم ذلك في أحكام الآخرة، وهو الثواب، ولم ينفه في أحكام الدنيا[2] لكن المعتزلة ظنت أنه إذا انتفى الاسم انتفت جميع أجزائه، فلم يجعلوا معهم شيئاً من الايمان والاسلام، فجعلوهم مخلدين في النار[3]، وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف، ولو لم يكن معهم شيء من الايمان والاسلام، لم يثبت في حقهم شيء من أحكام المؤمنين والمسلمين، لكن كانوا كالمنافقين. وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع التفريق بين المنافق الذي يكذب الرسول في الباطن، وبين المؤمن المذنب، فالمعتزلة سوّوا بين أهل الذنوب وبين المنافقين في أحكام الدنيا والآخرة، في نفي الاسلام والايمان عنهم، بل قد يثبتونه للمنافق ظاهراً، وينفونه عن المذنب باطناً وظاهراً[4].

فإن قيل: فإذا كان كل مؤمن مسلماً، وليس كل مسلم مؤمناً الإيمان الكامل كما دل عليه حديث جبريل وغيره من الأحاديث مع القرآن، وكما ذكر ذلك عمن ذكر عنه من السلف، لأن الاسلام الطاعات الظاهرة، وهو الاستسلام والانقياد، لأن الاسلام في الأصل هو الاستسلام والانقياد، وهذا هو الانقياد والطاعة، والايمان فيه معنى التصديق والطمأنينة، وهذا قدر زائد، فما تقولون.

---

(١) يعني أنهم مؤمنون بالنسبة للخطاب بالأمر والنهي وأحكام الدنيا، وأما بالنسبة للوعد والوعيد فغير مؤمنين.

(٢) وهذا هو الصحيح.

(٣) بل معهم من الإيمان ما يمنع من الخلود في النار.

(٤) وهذا خطأ شنيع وقعت فيه الخوارج والمعتزلة بسبب انحرافهم عن النصوص.

فيمن فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه مخلصاً لله تعالى ظاهراً وباطناً؟ أليس هذا مسلماً باطناً وظاهراً، وهو من أهل الجنة، وإذا كان كذلك فالجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة، فهذا يجب أن يكون مؤمناً.

قلنا: قد ذكرنا غيرمرة[1] أنه لا بد أن يكون معه الايمان الذي وجب عليه، إذ لو لم يؤد الواجب، لكان معرضاً للوعيد، لكن قد يكون من الايمان ما لا يجب عليه إما لكونه لم يخاطب به، أو لكونه كان عاجزاً عنه، وهذا أولى، لأن الإيمان الموصوف في حديث جبريل، والاسلام، لم يكونا واجبين في أول الاسلام، بل ولا واجباً على من تقدم قبلنا من الأمم أتباع الأنبياء أهل الجنة، مع أنهم مؤمنون مسلمون،[2] ومع أن الاسلام دين الله الذي لا يقبل ديناً غيره، وهو دين الله في الأولين والآخرين، لأن الاسلام عبادة الله وحده لا شريك له بما أمر، فقد تتنوع أوامره في الشريعة الواحدة، فضلاً عن الشرائع، فيصير في الاسلام بعض الايمان بما يخرج عنه في وقت آخر، كالصلاة إلى الصخرة، كان من الاسلام حين كان الله أمر به، ثم خرج من الاسلام لما نهى الله عنه.

ومعلوم أن الخمس المذكورة في حديث جبريل، لم تجب في أول الأمر، بل الصيام والحج وفرائض الزكاة، إنما وجبت بالمدينة، والصلاة الخمس إنما وجبت ليلة المعراج، وكثير من الأحاديث ليس فيها ذكر الحج لتأخر وجوبه إلى سنة تسع أو عشر على أصح القولين، ولما بعث الله محمداً ﷺ، كان من اتبعه وآمن بما جاء به، مؤمناً مسلماً، وإذا مات كان من أهل الجنة، ثم إنه بعد هذا زاد الايمان والاسلام، حتى قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ وكذلك الايمان، فإن هذا الايمان المفصل الذي ذكره في حديث جبريل، لم يكن مأموراً به في أول الأمر لما أنزل الله سورة العلق والمدثر، بل إنما جاء هذا في السور المدنية، كالبقرة، والنساء، وإذا كان كذلك لم يلزم أن يكون هذا الايمان

---

(١) لقد أحس شيخ الاسلام رحمه الله أنه كرر هذا الموضوع كثيراً.

(٢) لكن هناك قدر مشترك من الإيمان جاءت به الرسل جميعاً فلا بد منه.

المفصل واجباً على من تقدم قبلنا، وإذا كان كذلك، فقد يكون الرجل مسلماً يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً، ومعه الايمان الذي فرض عليه، وهو من أهل الجنة وليس معه هذا الايمان المذكور في حديث جبريل، لكن هذا يقال: معه ما أمر به من الايمان والاسلام، وقد يكون مسلماً يعبد الله كما أمره ولا يعبد غيره ويخافه ويرجوه، ولكن لم يخلص إلى قلبه أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما[1]، ولا أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب إليه من جميع أهله وماله، وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وأن يخاف الله لا يخاف غيره، وألا يتوكل إلا على الله، وهذه كلها من الايمان الواجب، وليست من لوازم الاسلام[2]؛ فإن الاسلام هو الاستسلام وهو يتضمن الخضوع لله وحده، والانقياد له، والعبودية لله وحده، وهذا قد يتضمن خوفه ورجاءه. وأما طمأنينة القلب بمحبته وحده، وأن يكون أحب إليه مما سواهما، وبالتوكل عليه وحده، وبأن يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه، فهذه من حقائق الايمان التي تختص به، فمن لم يتصف بها، لم يكن من المؤمنين حقاً وإن كان مسلماً، وكذلك وجل قلبه إذا ذكر الله، وكذلك زيادة الايمان إذا تليت عليه آياته.

فإن قيل: ففوات هذا الايمان من الذنوب أم لا؟ قيل: إذا لم يبلغ الانسان الخطاب الموجب لذلك، لا يكون تركه من الذنوب إذا كان قادراً على ذلك، وكثير من الناس أو أكثرهم ليس عندهم هذه التفاصيل التي تدخل في الايمان، مع أنهم قائمون بالطاعة الواجبة في الاسلام، وإذا وقعت منهم ذنوب تابوا واستغفروا منها، وحقائق الايمان التي في القلوب لا يعرفون وجوبها، بل ولا أنها من الايمان، بل كثير ممن يعرفها منهم يظن أنها من النوافل المستحبة إن صدق بوجودها[3].

---

(١) كيف يستقيم لموحد يعبد الله كما أمر ويخافه ويرجوه، ثم لا يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما؟.

(٢) المقصود بيان أن الإيمان أكثر قيوداً من الإسلام.

(٣) ولا شك أن هذا حال أكثر الناس دائماً.

فالاسلام يتناول من أظهر الاسلام وليس معه شيء من الايمان، وهو المنافق المحض، ويتناول من أظهر الاسلام مع التصديق المجمل في الباطن ولكن لم يفعل الواجب كله لا من هذا ولا هذا، وهم الفساق يكون في أحدهم شعبة نفاق، ويتناول من أتى بالاسلام الواجب وما يلزمه من الايمان، ولم يأت بتمام الايمان الواجب. وهؤلاء ليسوا فساقاً تاركون فريضة ظاهرة، ولا مرتكبون محرماً ظاهراً، لكن تركوا من حقائق الايمان الواجبة علماً، وعملاً بالقلب يتبعه بعض الجوارح ما كانوا به مذمومين، وهذا هو النفاق الذي كان يخافه السلف على نفوسهم، فإن صاحبه قد يكون في شعبة نفاق. وبعد هذا ما ميز الله به المقربين على الأبرار أصحاب اليمين من إيمان وتوابعه، وذلك قد يكون من باب المستحبات، وقد يكون أيضاً مما فضل الله به المؤمن إيماناً وإسلاماً مما وجب عليه ولم يجب على غيره، ولهذا قال النبي ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان»، وفي الحديث الآخر: «ليس وراء ذلك من الايمان مثقال حبة خردل» فإن مراده أنه لم يبق بعد هذا الانكار ما يدخل في الايمان حتى يفعله المؤمن، بل الانكار بالقلب آخر حدود الايمان، ليس مراده أن من لم ينكر ذلك، لم يكن معه من الايمان حبة خردل، ولهذا قال: «ليس وراء ذلك»، فجعل المؤمنين ثلاث طبقات، وكل منهم فعل الايمان الذي يجب عليه، لكن الأول لما كان أقدرهم، كان الذي يجب عليه أكمل مما يجب على الثاني، وكان ما يجب على الثاني أكمل مما يجب على الآخر، وعلم بذلك أن الناس يتفاضلون في الايمان الواجب عليهم بحسب استطاعتهم مع بلوغ الخطاب إليهم كلهم[1].

(١) معلوم أن هناك فروض كفايات مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد، وهذه إنما تجب على القادر عليها، ومن قام بها فهو أفضل من غيره، لكن من تركها لعجز ونحوه لا يأثم.

الاستثناء في الإيمان

وأما الاستثناء في الإيمان بقول الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله، فالناس فيه على ثلاثة أقوال: منهم من يوجبه، ومنهم من يحرمه، ومنهم من يجوز الأمرين باعتبارين، وهذا أصح الأقوال، فالذين يحرمونه هم المرجئة والجهمية ونحوهم، ممن يجعل الإيمان شيئاً واحداً يعلمه الإنسان من نفسه، كالتصديق بالرب ونحو ذلك مما في قلبه، فيقول أحدهم: أنا أعلم أني مؤمن، كما أعلم أني تكلمت بالشهادتين، وكما أعلم أني قرأت الفاتحة، وكما أعلم أني أحب رسول الله، وأني أبغض اليهود والنصارى. فقولي: أنا مؤمن، كقولي: أنا مسلم، وكقولي: تكلمت بالشهادتين، وقرأت الفاتحة، وكقولي: أنا أبغض اليهود والنصارى، ونحو ذلك من الأمور الحاضرة التي أنا أعلمها وأقطع بها، وكما أنه لا يجوز أن يقال: أنا قرأت الفاتحة إن شاء الله، كذلك لا يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، لكن إذا كان يشك في ذلك فيقول: فعلته إن شاء الله، قالوا: فمن استثنى في إيمانه فهو شاك فيه وسموهم الشكاكة[1].

والذين أوجبوا الاستثناء لهم مأخذان:

(أحدهما): أن الإيمان هو ما مات عليه الإنسان، والإنسان إنما يكون عند الله مؤمناً وكافراً، باعتبار الموافاة وما سبق في علم الله أنه يكون عليه، وما قبل ذلك لا عبرة به. قالوا: والإيمان الذي يعقبه الكفر، فيموت صاحبه كافراً، ليس بإيمان، كالصلاة التي يفسدها صاحبها قبل الكمال، وكالصيام الذي يفطر صاحبه قبل الغروب، وصاحب هذا هو عند الله كافر لعلمه بما يموت عليه، وكذلك قالوا في الكفر، وهذا المأخذ مأخذ كثير من المتأخرين من الكلابية وغيرهم ممن يريد أن ينصر ما اشتهر عن أهل السنة والحديث، من قولهم: أنا مؤمن إن شاء الله، ويريد مع ذلك أن الإيمان لا يتفاضل، ولا يشك الإنسان في

(١) وهؤلاء نظروا إلى الإيمان على أنه التصديق فقط.

الموجود منه، وإنما يشك في المستقبل، وانضم إلى ذلك أنهم يقولون: محبة الله ورضاه وسخطه وبغضه قديم[1]، ثم هل ذلك هو الإرادة أم صفات أخر[2]؟ لهم في ذلك قولان، وأكثر قدمائهم يقولون: إن الرضى والسخط والغضب ونحو ذلك صفات ليست هي الإرادة، كما أن السمع والبصر ليس هو العلم، وكذلك الولاية والعداوة، هذه كلها صفات قديمة أزلية عند أبي محمد عبد الله بن سعيد ابن كلاب ومن اتبعه من المتكلمين، ومن أتباع المذاهب من الحنبلية والشافعية والمالكية وغيرهم.

قالوا: والله يحب في أزله من كان كافراً إذا علم أنه يموت مؤمناً. فالصحابة ما زالوا محبوبين لله وإن كانوا قد عبدوا الأصنام مدة من الدهر وإبليس ما زال الله يبغضه وإن كان لم يكفر بعد، وهذا على أحد القولين لهم، فالرضا والسخط يرجع إلى الإرادة، والإرادة تطابق العلم. فالمعنى: ما زال الله يريد أن يثيب هؤلاء بعد إيمانهم، ويعاقب إبليس بعد كفره، وهذا معنى صحيح، فإن الله يريد أن يخلق كل ما علم أن سيخلفه. وعلى قول من يثبتها صفات أخر، يقول هو أيضاً: حبه تابع لمن يريد أن يثيبه، فكل من أراد إثابته، فهو يحبه وكل من أراد عقوبته، فإنه يبغضه، وهذا تابع للعلم، وهؤلاء عندهم لا يرضى عن أحد بعد أن كان ساخطاً عليه، ولا يفرح بتوبة عبد بعد أن تاب عليه، بل ما زال يفرح بتوبته، والفرح عندهم إما الارادة وإما الرضا، والمعنى: ما زال يريد إثابته وكذلك لا يغضب عندهم يوم القيامة دون ما قبله، بل غضبه قديم إما بمعنى الإرادة، وإما بمعنى آخر.

فهؤلاء يقولون: إذا علم أن الانسان يموت كافراً، لم يزل مريداً لعقوبته، فذاك الإيمان الذي كان معه، باطل لا فائدة فيه، بل وجوده كعدمه، فليس

---

(١) يعنون بذلك أن الله لم يزل محباً لمن علم أنه يموت مؤمناً، ولم يزل ساخطاً على من علم أنه يموت كافراً.

(٢) المشهور عندهم أنها تعلقات للإرادة وليست صفات مستقلة.

هذا بمؤمن أصلاً ، وإذا علم أنه يموت مؤمناً ، لم يزل مريداً لإثابته ، وذاك الكفر الذي فعله وجوده كعدمه . فلم يكن هذا كافراً عندهم أصلاً ، فهؤلاء يستثنون في الايمان بناء على هذا المأخذ ، وكذلك بعض محققيهم يستثنون في الكفر ، مثل أبي منصور الماتريدي ، فإن ما ذكروه مطرد فيهما ، ولكن جماهير الأئمة على أنه لا يستثنى في الكفر ، والاستثناء فيه بدعة لم يعرف عن أحد من السلف ، ولكن هو لازم لهم .

والذين فرقوا من هؤلاء قالوا : نستثني في الايمان رغبة إلى الله في أن يثبتنا عليه إلى الموت ، والكفر لا يرغب فيه أحد ، لكن يقال : إذا كان قولك : مؤمن ، كقولك : في الجنة ، فأنت تقول عن الكافر : هو كافر ، ولا تقول : هو في النار إلا معلقاً بموته على الكفر ، فدل على أنه كافر في الحال قطعاً ، وإن جاز أن يصير مؤمناً ، كذلك المؤمن . وسواء أخبر عن نفسه أو عن غيره . فلو قيل عن يهودي أو نصراني : هذا كافر ، قال : إن شاء الله ، إذا لم يعلم أنه يموت كافراً ، وعند هؤلاء لا يعلم أحد أحداً مؤمناً إلا إذا علم أنه يموت عليه ، وهذا القول قاله كثير من أهل الكلام أصحاب ابن كلاب ، ووافقهم على ذلك كثير من أتباع الأئمة ، لكن ليس هذا قول أحد من السلف ، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ، ولا كان أحد من السلف الذين يستثنون في الايمان يعللون بهذا ، لا أحمد ولا من قبله[1] .

ومأخذ هذا القول طرده طائفة ممن كانوا في الأصل يستثنون في الايمان اتباعاً للسلف ، وكانوا قد أخذوا الاستثناء عن السلف ، وكان أهل الشام شديدين على المرجئة ، وكان محمد بن يوسف الفريابي صاحب الثوري مرابطاً بعسقلان لما كانت معمورة ، وكانت من خيار ثغور المسلمين ، ولهذا كان فيها فضائل لفضيلة الرباط في سبيل الله ، وكانوا يستثنون في الايمان اتباعاً للسلف ،

---

(١) بل كان تفويضهم للمشيئة راجعاً إلى أنه لا يعلم إن كان معه الإيمان المرضي عند الله أم لا ، بالنظر إلى الحال لا إلى المستقبل .

واستثنوا أيضاً في الأعمال الصالحة، كقول الرجل: صليت إن شاء الله ونحو ذلك، بمعنى القبول، لما في ذلك من الآثار عن السلف.[1] ثم صار كثير من هؤلاء بآخرة يستثنون في كل شيء، فيقول: هذا ثوبي إن شاء الله، وهذا حبل إن شاء الله.[2] فإذا قيل لأحدهم: هذا لا شك فيه، قال: نعم لا شك فيه، لكن إذا شاء الله أن يغيره غيره، فيريدون بقولهم: إن شاء الله جواز تغييره في المستقبل، وإن كان في الحال لا شك فيه، كأنّ الحقيقة عندهم التي لا يستثنى فيها ما لم تتبدل، كما يقوله أولئك في الايمان: إن الايمان ما علم الله أنه لا يتبدل حتى يموت صاحبه عليه.

لكن هذا القول قاله قوم من أهل العلم والدين باجتهاد ونظر، وهؤلاء الذين يستثنون في كل شيء تلقوا ذلك عن بعض أتباع شيخهم، وشيخهم الذي ينتسبون إليه يقال له: أبو عمرو عثمان بن مرزوق، لم يكن ممن يرى هذا الاستثناء، بل كان في الاستثناء على طريقة من كان قبله، ولكن أحدث ذلك بعض أصحابه بعده، وكان شيخهم منتسباً إلى الامام أحمد، وهو من أتباع عبد الوهاب بن الشيخ أبي الفرج المقدسي، وأبو الفرج من تلامذة القاضي أبي يعلى، وهؤلاء كلهم وإن كانوا منتسبين إلى الإمام أحمد، فهم يوافقون ابن كلاب على أصله[3] الذي كان أحمد ينكره على الكلابية، وأمر بهجر الحارث المحاسبي من أجله، كما وافقه على أصله طائفة من أصحاب مالك، والشافعي، وأبي حنيفة، كأبي المعالي الجويني، وأبي الوليد الباجي، وأبي منصور الماتريدي، وغيرهم، وقول هؤلاء في مسائل متعددة من مسائل الصفات، وما يتعلق بها، كمسألة القرآن، هل هو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته؟ أم القرآن لازم لذاته؟ وقولهم في الاستثناء مبني على ذلك الأصل.

---

(١) لأنه لا يدري إن كان أتى بالصلاة على وجهها أم لا.

(٢) أصابتهم هيستريا الاستثناء.

(٣) لعله يعني نفي الصفات الاختيارية التابعة لمشيئته تعالى وحكمته اعتقاداً منه أن ما تحله الحوادث يكون حادثاً.

وكذلك بناء الأشعري وأتباعه عليه، لأن هؤلاء كلهم كلابية، يقولون: إن الله لم يتكلم بمشيئته وقدرته، ولا يرضى ولا يغضب على أحد بعد إيمانه وكفره، ولا يفرح بتوبة التائب بعد توبته، ولهذا وافقوا السلف على أن القرآن كلام الله غير مخلوق. ثم قالوا: إنه قديم لم يتكلم به بمشيئته وقدرته،[1] ثم اختلفوا بعد هذا في القديم، أهو معنى واحد؟[2] أم حروف قديمة مع تعاقبها؟[3] كما بسطت أقوالهم وأقوال غيرهم في مواضع أخر.

وهذه الطائفة المتأخرة تنكر أن يقال: قطعاً في شيء من الأشياء، مع غلوهم في الاستثناء، حتى صار هذا اللفظ منكراً عندهم، وإن قطعوا بالمعنى فيجزمون بأن محمداً رسول الله، وأن الله ربهم، ولا يقولون: قطعاً، وقد اجتمع بي طائفة منهم، فأنكرت عليهم ذلك، وامتنعت من فعل مطلوبهم حتى يقولوا: قطعاً، وأحضروا لي كتاباً فيه أحاديث عن النبي ﷺ، أنه نهى أن يقول الرجل: قطعاً، وهي أحاديث موضوعة مختلقة، قد افتراها بعض المتأخرين.

والمقصود هنا أن الاستثناء في الإيمان لما علل مثل تلك العلة؛ طرد أقوام تلك العلة في الأشياء التي لا يجوز الاستثناء فيها بإجماع المسلمين، بناء على أن الأشياء الموجودة الآن، إذا كانت في علم الله تتبدل أحوالها، فيستثنى في صفاتها الموجودة في الحال، ويقال: هذا صغير إن شاء الله، لأن الله قد يجعله كبيراً، ويقال: هذا مجنون إن شاء الله، لأن الله قد يجعله عاقلاً، ويقال للمرتد: هذا كافر إن شاء الله لإمكان أن يتوب. وهؤلاء الذين استثنوا في الإيمان بناء على هذا المأخذ، ظنوا هذا قول السلف، وهؤلاء وأمثالهم من أهل الكلام ينصرون ما ظهر من دين الإسلام، كما ينصر ذلك المعتزلة والجهمية وغيرهم من المتكلمين، فينصرون إثبات الصانع، والنبوة والمعاد، ونحو ذلك، وينصرون مع

---

(١) وهو قول في غاية الشناعة.

(٢) المشهور عند الأشعرية أنه معنى واحد في الأزل ثم يتنوع بالتعلقات وقال بعضهم إنه خمسة أقسام في الأزل.

(٣) قاله ابن الزاغوني.

ذلك ما ظهر من مذاهب أهل السنة والجماعة، كما ينصر ذلك الكلابية، والكرامية، والأشعرية، ونحوهم، فينصرون أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله يرى في الآخرة، وأن أهل القبلة لا يكفرون بالذنب، ولا يخلدون في النار، وأن النبي ﷺ له شفاعة في أهل الكبائر، وأن فتنة القبر حق، وعذاب القبر حق وحوض نبينا ﷺ في الآخرة حق، وأمثال ذلك من الأقوال التي شاع أنها من أصول أهل السنة والجماعة، كما ينصرون خلافة الخلفاء الأربعة، وفضيلة أبي بكر وعمر ونحو ذلك[1].

وكثير من أهل الكلام في كثير مما ينصره لا يكون عارفاً بحقيقة دين الإسلام في ذلك، ولا ما جاءت به السنة، ولا ما كان عليه السلف. فينصر ما ظهر من قولهم بغير المآخذ التي كانت مآخذهم في الحقيقة، بل بمآخذ أخر قد تلقوها عن غيرهم من أهل البدع، فيقع في كلام هؤلاء من التناقض والاضطراب والخطأ ما ذم به السلف، مثل هذا الكلام وأهله، فإن كلامهم في ذم مثل هذا الكلام كثير، والكلام المذموم هو المخالف للكتاب والسنة، وكل ما خالف الكتاب والسنة، فهو باطل، وكذب، فهو مخالف للشرع والعقل، ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾[2]. فهؤلاء لما اشتهر عندهم عن أهل السنة أنهم يستثنون في الإيمان، ورأوا أن هذا لا يمكن إلا إذا جعل الإيمان هو ما يموت العبد عليه، وهو ما يوافي به العبد ربه، ظنوا أن الإيمان عند السلف هو هذا، فصاروا يحكون هذا عن السلف، وهذا القول لم يقل به أحد من السلف، ولكن هؤلاء حكوه عنهم، بحسب ظنهم لما رأوا أن قولهم لا يتوجه إلا على هذا الأصل، وهم يدعون أن ما نصروه من أصل جهم في الإيمان،[3] هو قول المحققين

---

(١) لا شك أن الكلابية والأشعرية والكرامية أقرب الطوائف الإسلامية إلى مذهب أهل السنة والجماعة.

(٢) هذا كلام جد نفيس.

(٣) وهو أنه التصديق فقط وأنه غير قابل للزيادة والنقص.

والنظار من أصحاب الحديث، ومثل هذا يوجد كثيراً في مذاهب السلف التي خالفها بعض النظار، وأظهر حجته في ذلك ولم يعرف حقيقة قول السلف، فيقول من عرف حجة هؤلاء دون السلف، أو من يعظمهم، لما يراه تميزهم عليه: هذا قول المحققين، وقال المحققون، ويكون ذلك من الأقوال الباطلة، المخالفة للعقل مع الشرع، وهذا كثيراً ما يوجد في كلام بعض المبتدعين، وبعض الملحدين، ومن آتاه الله علماً وإيماناً، علم أنه لا يكون عند المتأخرين من التحقيق، إلا ما هو دون تحقيق السلف، لا في العلم ولا في العمل، ومن كان له خبرة بالنظريات والعقليات، وبالعمليات، علم أن مذهب الصحابة دائماً أرجح من قول من بعدهم[1]، وأنه لا يبتدع أحد قولاً في الإسلام، إلا كان خطأ، وكان الصواب قد سبق إليه من قبله.

قال أبو القاسم الأنصاري فيما حكاه عن أبي إسحاق الإسفرائيني، لما ذكر قول أبي الحسن وأصحابه في الإيمان، وصحح أنه تصديق القلب قال: ومن أصحابنا من قال بالموافاة، وشرط في الإيمان الحقيقي أن يوافي ربه به، ويختم عليه، ومنهم من لم يجعل ذلك شرطاً فيه في الحال.

قال الأنصاري: لما ذكر أن معظم أئمة السلف، كانوا يقولون: الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح، قال الأكثرون من هؤلاء على القول بالموافاة، ومن قال بالموافاة، فإنما يقوله فيمن لم يرد الخبر بأنه من أهل الجنة، وأما من ورد الخبر بأنه من أهل الجنة، فإنه يقطع على إيمانه، كالعشرة من الصحابة. ثم قال: والذي اختاره المحققون. أن الإيمان هو التصديق، وقد ذكرنا اختلاف أقوالهم في الموافاة، وأن ذلك هل هو شرط في صحة الإيمان وحقيقته في الحال، وكونه معتداً عند الله به وفي حكمه، فمن قال: إن ذلك شرط فيه

---

(١) فهم ولا شك أكمل الأمة علماً وعملاً وإيماناً وأبرها قلوباً وأقلها تكلفاً وأكثرها صواباً وأقلها خطأ، وإن اجتمعوا لا يكون اجتماعهم إلا صواباً، وإن اختلفوا فالحق لا يخرج عنهم

يستثنون في الإطلاق في الحال، لا أنهم يشكون في حقيقة التوحيد والمعرفة، لكنهم يقولون: لا يدري أي الإيمان الذي نحن موصوفون به في الحال، هل هو معتد به عند الله؟ على معنى أنا ننتفع به في العاقبة، ونجتني من ثماره.

فإذا قيل لهم: أمؤمنون أنتم حقاً؟ أو تقولون: إن شاء الله؟ أو تقولون نرجو؟ فيقولون: نحن مؤمنون إن شاء الله، يعنون بهذا الاستثناء تفويض الأمر في العاقبة إلى الله سبحانه وتعالى، وإنما يكون الإيمان إيماناً معتداً به في حكم الله إذا كان ذلك علم الفوز وآية النجاة، وإذا كان صاحبه ـ والعياذ بالله ـ في حكم الله من الأشقياء، يكون إيمانه الذي تحلى به في الحال عارية. قال: ولا فرق عند الصائرين إلى هذا المذهب بين أن يقول: أنا مؤمن من أهل الجنة قطعاً، وبين أن يقول: أنا مؤمن حقاً.

قلت: هذا إنما يجيء على قول من يجعل الإيمان متناولاً لأداء الواجبات وترك المحرمات، فمن مات على هذا كان من أهل الجنة، وأما على قول الجهمية والمرجئة ـ وهو القول الذي نصره هؤلاء، الذين نصروا قول جهم ـ فإنه يموت على الإيمان قطعاً، ويكون كامل الإيمان عندهم، وهو مع هذا عندهم من أهل الكبائر الذين يدخلون النار، فلا يلزم إذا وافى بالإيمان، أن يكون من أهل الجنة، وهذا اللازم لقولهم يدل على فساده، لأن الله وعد المؤمنين بالجنة، وكذلك قالوا: لا سيما والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات﴾ الآية. قال: فهؤلاء ـ يعني القائلين بالموافاة جعلوا الثبات على هذا التصديق ـ والإيمان الذي وصفناه إلى العاقبة والوفاء به في المآل شرطاً في الإيمان شرعاً، لا لغة، ولا عقلاً. قال: وهذا مذهب سلف أصحاب الحديث والأكثرين، قال: وهو اختيار الإمام أبي بكر بن فورك، وكان الإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة يغلو فيه، وكان يقول: من قال: أنا مؤمن حقاً، فهو مبتدع.

وأما مذهب سلف أصحاب الحديث، كابن مسعود، وأصحابه، والثوري

وابن عيينة، وأكثر علماء الكوفة، ويحيى بن سعيد القطان فيما يرويه عن علماء أهل البصرة، وأحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة، فكانوا يستثنون في الإيمان، وهذا متواتر عنهم، لكن ليس في هؤلاء من قال: أنا أستثنى لأجل الموافاة، وان الإيمان إنما هو اسم لما يوافي به العبد ربه، بل صرح أئمة هؤلاء بأن الاستثناء إنما هو لأن الإيمان يتضمن فعل الواجبات، فلا يشهدون لأنفسهم بذلك، كما لا يشهدون لها بالبر والتقوى، فإن ذلك مما لا يعلمونه وهو تزكية لأنفسهم بلا علم، كما سنذكر أقوالهم إن شاء الله في ذلك[1].

وأما الموافاة، فما علمت أحداً من السلف علل بها الاستثناء، ولكن كثير من المتأخرين يعلل بها من أصحاب الحديث من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وغيرهم[2]، كما يعلل بها نظارهم كأبي الحسن الأشعري، وأكثر أصحابه، لكن ليس هذا قول سلف أصحاب الحديث، ثم قال:

فإن قال قائل: إذا قلتم: إن الإيمان المأمور به في الشريعة، هو ما وصفتموه بشرائط، وليس ذلك متلقى من اللغة، فكيف يستقيم قولكم: إن الإيمان لغوي؟

قلنا: الإيمان هو التصديق لغة وشرعاً، غير أن الشرع ضم إلى التصديق أوصافاً وشرائط، مجموعها يصير مجزئاً مقبولاً كما قلنا في الصلاة والصوم والحج ونحوها، والصلاة في اللغة: هي الدعاء غير أن الشرح ضم إليها شرائط.

فيقال: هذا يناقض ما ذكروه في مسمى الإيمان، فإنهم لما زعموا أنه في اللغة: التصديق، والشرع لم يغيره، أوردوا على أنفسهم.

فإن قيل: أليس الصلاة والحج والزكاة معدولة عن اللغة، مستعملة في غير مذهب أهلها؟!

قلنا: قد اختلف العلماء في ذلك، والصحيح أنها مقررة على استعمال أهل

---

(١) وهذا هو التعليل الصحيح لوجوب الاستثناء في الايمان كما قدمنا.

(٢) لأن هؤلاء المتأخرين من المحدثين تأثروا بمذاهب علم الكلام المحدث وخالفوا الحديث.

اللغة، ومبقاة على مقتضياتها، وليست منقولة، إلا أنها زيد فيها أمور[1]، فلو سلمنا للخصم كون هذه الألفاظ منقولة، أو محمولة على وجه من المجاز بدليل مقطوع به، فعليه إقامة الدليل على وجود ذلك في الإيمان، فإنه لا يجب إزالة ظواهر القرآن بسبب إزالة ظاهر منها.

فيقال: أنتم في الإيمان جعلتم الشرع زاد فيه، وجعلتموه كالصلاة والزكاة، مع أنه لا يمكن أحداً أن يذكر شيئاً من الشرع دليلاً على أن الإيمان لا يسمى به إلا الموافاة به، وبتقدير ذلك، فمعلوم أن دلالة الشرع على ضم الأعمال إليه أكثر وأشهر، فكيف لم تدخل الأعمال في مسماه شرعاً؟ وقوله: لا بد من دليل مقطوع به عنه جوابان: (أحدهما): النقض بالموافاة، فإنه لا يقطع فيه: (الثاني): لا نسلم، بل نحن نقطع بأن حب الله ورسوله وخشية الله ونحو ذلك، داخل في مسمى الإيمان في كلام الله ورسوله أعظم مما نقطع ببعض أفعال الصلاة والصوم والحج، كمسائل النزاع[2]، ثم أبو الحسن، وابن فورك، وغيرهما من القائلين بالموافاة، هم لا يجعلون الشرع ضم اليه شيئاً، بل عندهم كل من سلبه الشرع اسم الإيمان، فقد فُقِدَ من قبله التصديق، قال: ومن أصحابنا من لم يجعل الموافاة على الإيمان شرطاً في كونه إيماناً حقيقياً في الحال، وإن جعل ذلك شرطاً في استحقاق الثواب عليه، وهذا مذهب المعتزلة والكرامية، وهو اختيار أبي اسحاق الاسفرائيني، وكلام القاضي يدل عليه، قال: وهو اختيار شيخنا أبي المعالي، فإنه قال: الإيمان ثابت في الحال قطعاً لا شك فيه، ولكن الإيمان الذي هو علم الفوز وآية النجاة، إيمان الموافاة، فاعتنى السلف به وقرنوه بالاستثناء، ولم يقصدوا الشك في الإيمان الناجز[3]، قال: ومن صار إلى هذا يقول: الإيمان

(١) الحق أنها نقلت للدلالة على مفاهيم جديدة بينها وبين معانيها اللغوية مناسبة صححت استعمالها في هذه المفاهيم.

(٢) يعني التي اختلفت فيها الأئمة بين الوجوب وعدمه.

(٣) هذا معنى لم يخطر ببال السلف أصلاً وإنما استثنوا لعدم تيقنهم من كمال الإيمان في الحال.

صفة يشتق منها اسم المؤمن، وهو المعرفة والتصديق، كما أن العالم يشتق من العلم، فإذا عرفت ذلك من نفسي، قطعت به كما قطعت بأني عالم وعارف ومصدق، فإن ورد في المستقبل ما يزيله، خرج إذ ذاك عن استحقاق هذا الوصف، ولا يقال: تبينا أنه لم يكن إيماناً مأموراً به، بل كان إيماناً مجزياً، فتغير وبطل، وليس كذلك قوله: أنا من أهل الجنة، فإن ذلك مغيب عنه، وهو مرجو[1] قال: ومن صار إلى القول الأول يتمسك بأشياء، منها أن يقال: الإيمان عبادة العمر، وهو كطاعة واحدة، فيتوقف صحة أولها على سلامة آخره، كما تقول في الصلاة والصيام والحج، قالوا: ولا شك أنه لا يسمى في الحال ولياً، ولا سعيداً، ولا مرضياً عند الله، وكذلك الكافر لا يسمى في الحال عدواً لله، ولا شقياً إلا على معنى أنه تجري عليه أحكام الأعداء في الحال، لإظهاره من نفسه علامتهم[2].

قلت: هذا الذي قالوه إنه لا شك فيه، هو قول ابن كلاب والأشعري وأصحابه، ومن وافقهم من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وغيرهم، وأما أكثر الناس، فيقولون: بل هو إذا كان كافراً، فهو عدو لله، ثم اذا آمن واتقى، صار ولياً لله، قال تعالى: ﴿يا أيها الَّذينَ آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياءَ تلقونَ اليهم﴾ إلى قوله: ﴿عسى اللهُ أن يجعلَ بينكم وبينَ الَّذينَ عاديتم منهم مودَّةً واللهُ قديرٌ واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾، وكذلك كان، فإن هؤلاء أهل مكة الذين كانوا يعادون الله ورسوله قبل الفتح، آمن أكثرهم، وصاروا من أولياء الله ورسوله، وابن كلاب وأتباعه، بنوا ذلك على أن الولاية صفة قديمة لذات الله، وهي الإرادة والمحبة والرضا ونحو ذلك، فمعناها ارادة ثابتة بعد الموت، وهذا المعنى تابع لعلم الله، فمن علم أنه يموت مؤمناً، لم يزل ولياً لله، لأنه لم يزل الله مريداً لإدخاله الجنة، وكذلك العداوة.

(١) هما واحد، فقوله أنا مؤمن كقوله أنا من أهل الجنة، لأنه لا يستحقها إلا مؤمن.

(٢) وهذا كلام فاسد، بل المؤمن في حال إيمانه ولي مرضى، فإذا كفر انقلب إلى عدو شقي. وهكذا الكافر.

وأما الجمهور، فيقولون: الولاية والعداوة وإن تضمنت محبة الله ورضاه وبغضه وسخطه، فهو سبحانه يرضى عن الإنسان ويحبه بعد أن يؤمن ويعمل صالحاً، وإنما يسخط عليه ويغضب بعد أن يكفر، كما قال تعالى: ﴿ذلكَ بأنَّهم اتبعوا ما أسخطَ اللهَ وكرهوا رضوانَه﴾[1]، فأخبر أن الأعمال أسخطته، وكذلك قال: ﴿فلما آسفونَا انتقمنَا منهم﴾[2]، قال المفسرون: أغضبونا. وكذلك قال الله تعالى: ﴿وان تشكروا يَرْضَهُ لكم﴾[3]. وفي الحديث الصحيح الذي في البخاري، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى من عادى لي ولياً، فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصربه، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه».

فأخبر أنه: لا يزال يتقرب اليه بالنوافل حتى يحبه، ثم قال: فإذا أحببته، كنت كذا، كنت كذا، وهذا يبين أن حبه لعبده إنما يكون بعد أن يأتي بمحابه، والقرآن قد دل على مثل ذلك، قال تعالى: ﴿قل إنْ كنتم تحبونَ اللهَ فاتبعوني يحببكم الله﴾[4]، فقوله: ﴿يحببكم﴾، جواب الأمر في قوله: فاتبعوني، وهو بمنزلة الجزاء مع الشرط، ولهذا جزم، وهذا ثواب عملهم، وهو اتباع الرسول، فأثابهم على ذلك بأن أحبهم، وجزاء الشرط، وثواب العمل، ومسبب السبب، لا يكون إلا بعده، لا قبله، وهذا كقوله تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾[5]

---

(١) سورة محمد الآية ٢٨.

(٢) سورة الزخرف الآية ٥٥.　　(٣) سورة الزمر الآية ٧.

(٤) فجعل اتباع الرسول ﷺ سبباً لمحبته، فلا تحصل المحبة إلا بعد الاتباع. سورة آل عمران الآية ٣١.

(٥) وكذلك الإجابة لا تكون إلا بعد الدعاء.

وقوله تعالى: ﴿يا قومنا أجيبوا داعي اللهِ وآمنوا بهِ يغفر لكم من ذنوبكم ويجرْكُم من عذاب أليم﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿اتقوا اللهَ وقولوا قولاً سديداً يصلحْ لكم أعمالكم ويغفرْ لكم ذنوبكم﴾[2] ومثل هذا كثير، وكذلك قوله: ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾[3]، وقوله: ﴿لِمَ تقولونَ ما لا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون، إنالله يحبُّ الّذيـنَ يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيانٌ مرصوص﴾[4]، وكانوا قد سألوه: لو علمنا أي العمل أحب إلى الله لعملناه، وقوله: ﴿إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعونَ إلى الإيمان فتكفرون﴾[5]، فهذا يدل على أن حبه ومقته جزاء لعملهم، وأنه يحبهم إذا اتقوا وقاتلوا، ولهذا رغبهم في العمل بذلك، كما يرغبهم بسائر ما يعدهم به، وجزاء العمل بعد العمل، وكذلك قوله: ﴿إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرونَ﴾، فإنه سبحانه يمقتهم اذْ يدعون إلى الإيمان فيكفرون، ومثل هذا قوله: ﴿لقد رَضِيَ اللهُ عن المؤمنينَ إذ يبايعونكَ تحتَ الشجرةِ، فعلَم ما في قلوبهم فأنزلَ السكينةَ عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾[6]، فقوله: ﴿لقد رضيَ اللهُ عن المؤمنينَ إذْ يبايعونكَ﴾ بين أنه رضي عنهم هذا الوقت، فإن حرف «إذ» ظرف لما مضى من الزمان، فعلم أنه ذاك الوقت رضي عنهم بسبب ذلك العمل، وأثابهم عليه والمسبب لا يكون قبل سببه، والموقت بوقت لا يكون قبل وقته، وإذا كان راضياً عنهم من جهة، فهذا الرضى الخاص الحاصل بالبيعة لم يكن إلا حينئذ، كما ثبت في الصحيح أنه يقول لأهل الجنة: هـل رضيتم؟ فيقـولـون: يـا ربنـا ومـا لنـا لا نـرضى وقـد أعطيتنـا مـا لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم ما هو أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربنا وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط

---

(١) سورة الاحقاف الآية ٣١.

(٢) سورة الاحزاب الآيات (٧٠ ـ ٧١).

(٣) أي الذي يتقون الله باتمام العهود فلا ينقصونها.

(٤) سورة الصف الآيات (٢ ـ ٤).

(٥) سورة غافر الآية ١٠.

(٦) سورة الفتح الآية ١٨.

عليكم بعده أبداً » وهذا يدل على أنه في ذلك الوقت حصل لهم هذا الرضوان الذي لا يتعقبه سخط أبداً، ودل على أن غيره من الرضوان قد يتعقبه سخط.

وفي « الصحيحين » في حديث الشفاعة « يقول كل من الرسل: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله » وفي « الصحاح »: عن النبي ﷺ، من غير وجه أنه قال: « لله أشد فرحاً بتوبة عبده، من رجل أضل راحلته بأرض دوية مهلكة، عليها طعامه وشرابه، يطلبها فلم يجدها، فاضطجع ينتظر الموت فلما استيقظ، إذا دابته عليها طعامه وشرابه » وفي رواية: « كيف تجدون فرحه بها »؟ قالوا: عظماً يا رسول الله، قال: « لله أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا براحلته » وكذلك ضحكه إلى رجلين، يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخل الجنة، وضحكه إلى الذي يدخل الجنة آخر الناس، ويقول: « أتسخر بي وأنت رب العالمين؟ فيقول: لا ولكني على ما أشاء قادر » وكل هذا في « الصحيح ».

وفي دعاء القنوت : « تولني فيمن توليت »، والقديم لا يتصور طلبه، وقد قال تعالى: ﴿إنَّ وليي اللهُ الذي نَزَّلَ الكتابَ وهو يتولى الصَّالحين﴾[1]، وقال: ﴿والله ولي المتقين﴾ ، فهذا التولي لهم جزاء صلاحهم وتقواهم ومسبب عنه، فلا يكون متقدماً عليه، وإن كان إنما صاروا صالحين ومتقين بمشيئته وقدرته وفضله وإحسانه، لكن تعلق بكونهم متقين وصالحين، فدل على أن هذا التولي هو بعد ذلك مثل كونه مع المتقين والصالحين بنصره وتأييده، ليس ذلك قبل كونهم متقين وصالحين، وهكذا الرحمة، قال ﷺ: « الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »، قال الترمذي: حديث صحيح، وكذلك قوله: ﴿إنْ تشكروا يرضَه لكم﴾، علق الرضا به تعليق الجزاء بالشرط والمسبب بالسبب، والجزاء إنما يكون بعد الشرط، وكذلك قوله:

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٩٦.

﴿لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرَام إن شاء الله آمنين﴾[1] يدل على أنه يشاء ذلك فيما بعد، وكذلك قوله: ﴿إنما امرهُ إذا أراد شيئاً أن يقولَ لهُ كنْ فيكون﴾[2]، «فإذا» ظرف لما يستقبل من الزمان، فدل على أنه إذا أراد كونه، قال له: كن، فيكون،[3] وكذلك قوله: ﴿وقل اعملوا فسيرىٰ اللهُ عملكم﴾ فبين فيه أنه سيرى ذلك في المستقبل إذا عملوه.

والمأخذ الثاني في الاستثناء، أن الإيمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله، وترك المحرمات كلها، فإذا قال الرجل: أنا مؤمن بهذا الاعتبار، فقد شهد لنفسه بأنه من الأبرار المتقين القائمين بفعل جميع ما أمروا به، وترك كل ما نهوا عنه، فيكون من أولياء الله، وهذا من تزكية الإنسان لنفسه، وشهادته لنفسه بما لا يعلم، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة، لكان ينبغي له أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال، ولا أحد يشهد لنفسه بالجنة، فشهادته لنفسه بالإيمان كشهادته لنفسه بالجنة، إذا مات على هذه الحال، وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون، وإن جوزوا ترك الاستثناء بمعنى آخر، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

قال الخلال في كتاب السنة: حدثنا سليمان بن الأشعث، يعني أبا داود السجستاني، قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل، قال له رجل: قيل لي: أمؤمن أنت؟ قلت: نعم، هل علي في ذلك شيء؟ هل الناس إلا مؤمن وكافر؟ فغضب أحمد، وقال: هذا كلام الإرجاء، قال الله تعالى: ﴿وآخرون مرجون لأمر الله﴾ من هؤلاء، ثم قال أحمد: أليس الإيمان قولاً وعملاً؟ قال له الرجل: بلى، قال: فجئنا بالقول؟ قال: نعم، قال: فجئنا بالعمل؟ قال: لا، قال: فكيف تعيب أن يقول: إن شاء الله ويستثني؟![4].

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٧. (٢) سورة يس الآية ٨٢.

(٣) ولكن جهلة المتكلمين يقولون أراد كل شيء في الأزل فليس هناك إرادات متجددة.

(٤) يعني أنه يستثني لأنه لا يضمن القيام بجميع أعمال الإيمان.

قال أبو داود: أخبرني أحمد بن أبي شريح، أن أحمد بن حنبل، كتب إليه في هذه المسألة: إن الإيمان قول وعمل، فجئنا بالقول ولم نجيء بالعمل، فنحن نستثني في العمل[1] وذكر الخلال هذا الجواب، من رواية الفضل بن زياد، وقال: زاد الفضل سمعت أبا عبد الله يقول: كان سليمان بن حرب يحمل هذا على التقبل، يقول: نحن نعمل ولا ندري يتقبل منا أم لا؟

قلت: والقبول متعلق بفعله كما أمر، فكل من اتقى الله في عمله، ففعله كما أمر، فقد تقبل منه[2]، لكن هو لا يجزم بالقبول، لعدم جزمه بكمال الفعل، كما قال تعالى: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ ، قالت عائشة: يا رسول الله أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف؟ فقال: «لا يا بنت الصديق، بل هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه» .

وروى الخلال، عن أبي طالب قال: سمعت أبا عبد الله يقول: لا نجد بداً من الاستثناء، لأنهم إذا قالوا: مؤمن، فقد جاء بالقول، فإنما الاستثناء بالعمل لا بالقول. وعن إسحاق بن إبراهيم قال: سمعت أبا عبد الله يقول: أذهب إلى حديث ابن مسعود في الاستثناء في الإيمان، لأن الإيمان قول وعمل، والعمل والفعل، فقد جئنا بالقول، ونخشى أن نكون فرطنا في العمل، فيعجبني أن يستثني في الإيمان يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، قال: وسمعت أبا عبد الله وسئل عن قول النبي ﷺ: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»، الاستثناء ههنا على أي شيء يقع؟ قال: على البقاع، لا يدري أيدفن في الموضع الذي سلم عليه أم في غيره.[3]

وعن الميموني أنه سأل أبا عبد الله عن قوله ورأيه في: مؤمن إن شاء الله؟ قال: أقول: مؤمن إن شاء الله، ومؤمن أرجو، لأنه لا يدري كيف البراءة

---

(١) لأن القول حاصل فلا معنى للاستثناء فيه.

(٢) لأن الله وعد بتقبل كل عمل صالح خلا من موانع القبول.

(٣) بل الظاهر أن المقصود منه مجرد التفويض.

للأعمال على ما افترض عليه أم لا. ومثل هذا كثير في كلام أحمد وأمثاله، وهذا مطابق لما تقدم من أن المؤمن المطلق هو القائم بالواجبات، المستحق للجنة إذا مات على ذلك، وأن المفرط بترك المأمور، أو فعل المحظور لا يطلق عليه أنه مؤمن، وأن المؤمن المطلق هو البر التقي ولي الله، فإذا قال: أنا مؤمن قطعاً، كان كقوله: أنا بر تقي ولي الله قطعاً[1].

وقد كان أحمد وغيره من السلف مع هذا يكرهون سؤال الرجل لغيره: أمؤمن أنت؟ ويكرهون الجواب، لأن هذه بدعة أحدثها المرجئة ليحتجوا بها لقولهم[2]؛ فإن الرجل يعلم من نفسه أنه ليس بكافر، بل يجد قلبه مصدقاً بما جاء به الرسل، فيقول: أنا مؤمن، فيثبت أن الإيمان هو التصديق، لأنك تجزم بأنك مؤمن، ولا تجزم بأنك فعلت كل ما أمرت به، فلما علم السلف مقصدهم، صاروا يكرهون الجواب، أو يفصلون في الجواب، وهذا لأن لفظ الإيمان فيه إطلاق وتقييد، فكانوا يجيبون بالإيمان المقيد الذي لايستلزم أنه شاهد فيه لنفسه بالكمال، ولهذا كان الصحيح أنه يجوز أن يقال: أنا مؤمن بلا استثناء إذا أراد ذلك[3]، لكن ينبغي أن يقرن كلامه بما يبين أنه لم يرد الإيمان المطلق الكامل، ولهذا كان أحمد يكره أن يجيب على المطلق بلا استثناء يقدمه.

وقال المروزي: قيل لأبي عبد الله: نقول: نحن المؤمنون؟ فقال: نقول نحن المسلمون[4]، وقال أيضاً: قلت لأبي عبدالله: نقول إنا مؤمنون؟ قال: ولكن نقول إنا مسلمون، ومع هذا فلم ينكر على من ترك الاستثناء إذا لم يكن قصد المرجئة أن الإيمان مجرد القول، بل تركه لما يعلم أن في قلبه إيماناً، وإن كان لا يجزم بكمال إيمانه قال الخلال: أخبرني أحمد بن أصرم المزني، أن أبا عبد

---

(١) فيكون مزكياً لنفسه.

(٢) في أن الإيمان هو التصديق فقط وأن الأعمال ليست داخلة فيه.

(٣) أي التصديق بما جاء به الرسول.

(٤) فالإسلام لا يحتاج إلى استثناء كالإيمان.

الله قيل له: إذا سألني الرجل فقال أمؤمن أنت؟ قال: سؤالك إياي بدعة، لا يشك في ايمانه، أو قال: لا نشك في إيماننا، قال المزني: وحفظي أن باعبدالله قال: أقول كما قال طاوس: آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وقال الخلال: أخبرني حرب بن إسماعيل، وأبو داود قال أبو داود سمعت أحمد قال: سمعت سفيان يعني ابن عيينة يقول: إذا سئل أمؤمن أنت؟ لم يجبه، ويقول: سؤالك إياي بدعة، ولا أشك في إيماني، وقال: إن قال: إن شاء الله، ليس يكره، ولا يداخل الشك، فقد أخبر عن أحمد قال: لا نشك في إيماننا، وأن السائل لا يشك في إيمان المسؤول، وهذا أبلغ، وهو إنما يجزم بأنه مقر، مصدق بما جاء به الرسول، لا يجزم بأنه قائم بالواجبات.

فعلم أن أحمد وغيره من السلف كانوا يجزمون ولا يشكون في وجود ما في القلب من الإيمان في هذه الحال، ويجعلون الاستثناء عائداً إلى الإيمان المطلق المتضمن فعل المأمور، ويحتجون أيضاً بجواز الاستثناء فيما لا يشك فيه، وهذا مأخذ ثان، وإن كنا لا نشك فيما في قلوبنا من الإيمان، فالاستثناء فيما يعلم وجوده قد جاءت به السنة، لما فيه من الحكمة.

وعن محمد بن الحسن بن هارون قال: سألت أبا عبدالله عن الاستثناء في الإيمان فقال: نعم، الاستثناء على غير معنى شك، مخافة واحتياطاً للعمل، وقد استثنى ابن مسعود وغيره، وهو مذهب الثوري، قال الله تعالى: ﴿لتدخلنَّ المسجدَ الحرام إنْ شاءَ الله﴾[1]. وقال النبي ﷺ لأصحابه: «إني لأرجو أن أكون أتقاكم لله»[2]. وقال في الميت: «وعليه يبعث ان شاء الله» فقد بين أحمد أنه يستثني مخافة واحتياطاً للعمل، فإنه يخاف أن لا يكون قد كمل المأمور به، فيحتاط بالاستثناء وقال على غير معنى شك، يعني من غير شك مما يعلمه الإنسان

(١) فقد استثنى في دخولهم مع أنه أمر مقطوع به.

(٢) مع أنه يعلم يقيناً أنه أتقاهم لله.

من نفسه،[1] وإلا فهو يشك في تكميل العمل الذي خاف أن لا يكون كمله، فيخاف من نقصه، ولا يشك في أصله.

قال الخلال: وأخبرني محمد بن هارون أن حبيش بن سندي، حدثهم في هذه المسألة، قال أبو عبدالله: قول النبي ﷺ حين وقف على المقابر فقال: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» وقد نعيت اليه نفسه،[2] وعلم أنه صائر الى الموت، وفي قصة صاحب القبر «عليه حييت، وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء الله» وفي قول النبي ﷺ «إني اختبأت دعوتي، وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً»[3] وفي مسألة الرجل الذي للنبي ﷺ: أحدنا يصبح جنباً يصوم؟ قال: «إني أفعل ذلك ثم أصوم» فقال: إنك لست مثلنا أنت قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله» وهذا كثير، وأشباهه على اليقين.

قال: ودخل عليه شيخ فسأله عن الإيمان، فقال له: قول وعمل، يزيد وينقص. فقال له: أقول: أمؤمن إن شاء الله؟ قال: نعم. فقال له: إنهم يقولون لي إنك شاك؟ قال: بئس ماقالوا، ثم خرج فقال: ردوه، فقال: أليس يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص؟ قال: نعم، قال: هؤلاء يستثنون؟ قال له: كيف ياأبا عبد الله؟ قال: قل لهم: زعمتم أن الإيمان قول وعمل، فالقول قد أتيتم به، والعمل لم تأتوا به، فهذا الاستثناء لهذا العمل، قيل له: تستثني في الإيمان؟ قال: نعم، أقول: أنا مؤمن إن شاء الله، استثني لا على الشك، ثم قال. قال الله: ﴿لتدخلنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ الله آمنينَ﴾ فقد أخبر الله تعالى أنهم داخلون المسجد الحرام.

فقد بين أحمد في كلامه أنه يستثنى مع تيقنه بما هو الآن موجود فيه، يقوله

---

(١) يعني من التصديق الجازم.

(٢) أخبر بدنو أجله. (٣) فقد استثنى مع تيقنه بذلك.

بلسانه وقلبه، لا يشك في ذلك، ويستثني لكون العمل من الإيمان، وهو لا يتيقن أنه أكمله، بل يشك في ذلك، فنفى الشك وأثبت اليقين فيما يتيقنه من نفسه، وأثبت الشك فيما لا يعلم وجوده، وبين أن الاستثناء مستحب لهذا الثاني الذي لا يعلم هل أتى به أم لا، وهو جائز أيضاً لما يتيقنه، فلو استثنى لنفس الموجود في قلبه جاز، كقول النبي ﷺ: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله» وهذا أمر موجود في الحال ليس بمستقبل، وهو كونه أخشانا، فإنه لا يرجو أن يصير أخشانا لله بل هو يرجو أن يكون حين هذا القول أخشانا لله، كما يرجو المؤمن إذا عمل عملاً أن يكون الله تقبله منه، ويخاف ألا يكون تقبله منه، كما قال تعالى: ﴿والَّذينَ يُؤتونَ ما آتَوا وقلوبُهم وَجِلَةٌ أنَّهم إلى ربِّهم راجعونَ﴾(١) وقال النبي ﷺ «وهو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ألاّ يقبل منه» والقبول هو أمر حاضر أو ماض وهو يرجوه ويخافه، وذلك أن مآله عاقبة مستقبله محمودة أو مذمومة، والإنسان يجوز وجوده وعدمه، يقال: إنه يرجوه وإنه يخافه، فتعلق الرجاء والخوف بالحاضر والماضي، لأن عاقبته المطلوبة والمكروهة مستقبلة، فهو يرجو أن يكون الله يقبل عمله فيثيبه عليه، فيرحمه في المستقبل، ويخاف ألا يكون تقبله فيحرم ثوابه، كما يخاف ان يكون الله قد سخط عليه في معصيته فيعاقبه عليها

وإذا كان الإنسان يسعى فيما يطلبه كتاجر أو بريد أرسله في حاجته يقضيها في بعض الأوقات، فإذا مضى ذلك الوقت يقول: أرجو أن يكون فلان قد قضى ذلك الأمر، وقضاؤه ماض، لكن ما يحصل لهذا من الفرح والسرور، وغير ذلك من مقاصده مستقبل، ويقول الإنسان في الوقت الذي جرت عادة الحاج بدخولهم إلى مكة: أرجو أن يكونوا دخلوا، ويقول في سرية بعثت إلى الكفار: نرجو أن يكون الله قد نصر المؤمنين وغنمهم، ويقال في نيل مصر عند وقت ارتفاعه: نرجو أن يكون قد صعد النيل، كما يقول الحاضر في مصر

(١) سورة المؤمنون الآية ٦٠.

مثل هذا الوقت: نرجو أن يكون النيل هذا العام نيلاً مرتفعاً، ويقال لمن له أرض يحب أن تمطر: إذا مطرت بعض النواحي أرجو أن يكون المطر عاماً، وأرجو أن يكون قد مطرت الأرض الفلانية، وذلك لأن المرجو هو مايفرح بوجوده ويسره.

وهذا يتعلق بالعلم، والعلم بذلك مستقبل، فإذا علم أن المسلمين انتصروا، والحاج قد دخلوا، أو المطر قد نزل، فرح بذلك، وحصل به مقاصد أخر له، وإذا كان الأمر بخلاف ذلك، لم يحصل ذلك المحبوب المطلوب، فيقول: أرجو وأخاف، لأن المحبوب والمكروه متعلق بالعلم بذلك وهو مستقبل، وكذلك المطلوب بالإيمان من السعادة والنجاة، هو أمر مستقبل فيستثنى في الحاضر بذلك، لأن المطلوب به مستقبل، ثم كل مطلوب مستقبل، تعلق بمشيئة الله وإن جزم بوجوده، لأنه لا يكون مستقبل إلا بمشيئة الله.

فقولنا: يكون هذا إن شاء الله حق، فإنه لا يكون إلا إن شاء الله، والشك واللفظ ليس فيه إلا التعليق، وليس من ضرورة التعليق الشك، بل هذا بحسب علم المتكلم، فتارة يكون شاكاً، وتارة لا يكون شاكاً، فلما كان الشك يصحبه كثيراً لعدم علم الإنسان بالعواقب، ظن الظان أن الشك داخل في معناها، وليس كذلك، فقوله: ﴿لتدخلنَّ المسجدَ الحرَامَ إنْ شاءَ اللهُ﴾. لا يتصور فيه شك من الله، بل ولا من رسوله المخاطب والمؤمنين، ولهذا قال ثعلب: هذا استثناء من الله وقد علمه، والخلق يستثنون فيما لا يعلمون. وقال أبو عبيدة وابن قتيبة: «إن بمعنى «إذ»، أي إذ شاء الله، ومقصودهم بهذا تحقيق الفعل بـ «إن» كما يتحقق مع «إذ»، وإلا فـ «إذ»، ظرف توقيت، و «إن» حرف تعليق.

فإن قيل: فالعرب تقول: إذا احمر البسر فأتني، ولا تقول: إن احمر البسر.

قيل: لأن المقصود هنا توقيت الإتيان بحين احمراره، فأتوا بالظرف المحقق، ولفظ: «إن» لايدل على توقيت، بل هي تعليق محض تقتضي ارتباط الفعل الثاني بالأول، ونظير ما نحن فيه أن يقولوا: البسر يحمر ويطيب إن شاء الله، وهذا حق، فهذا نظير ذلك.

فإن قيل: فطائفة من الناس فروا من هذا المعنى وجعلوا الاستثناء لأمر مشكوك فيه، فقال الزجاج: ﴿لتدخلنَّ المسجد الحرام﴾ أي: أمركم الله به،[1] وقيل: الاستثناء يعود إلى الأمن والخوف، أي: لتدخلنه آمنين، فأما الدخول فلا شك فيه،[2] وقيل: لتدخلن جميعكم أو بعضكم، لأنه علم أن بعضهم يموت، فالاستثناء لأنهم لم يدخلوا جميعهم.

قيل: كل هذه الأقوال وقع أصحابها فيما فروا منه، مع خروجهم عن مدلول القرآن، فحرفوه تحريفاً لم ينتفعوا به، فإن قول من قال: أي: أمركم الله به، هو سبحانه قد علم، هل يأمرهم أو لا يأمرهم، فعلمه بأنه سيأمرهم بدخوله كعلمه بأن سيدخلوا، فعلقوا الاستثناء بما لم يدل عليه اللفظ، وعلم الله متعلق بالمظهر والمضمر جميعاً، وكذلك أمنهم وخوفهم، هو يعلم أنهم يدخلون آمنين أو خائفين، وقد أخبر أنهم يدخلون آمنين مع علمه بأنهم يدخلون آمنين، فكلاهما لم يكن فيه شك عند الله، بل ولا عند رسوله. وقول من قال: جميعهم أو بعضهم، يقال: المعلق بالمشيئة دخول من أريد باللفظ، فإن كان أراد الجميع، فالجميع لا بد أن يدخلوه، وإن أريد الأكثر، كان دخولهم هو المعلق بالمشيئة، وما لم يرد لا يجوز أن يعلق ب «إن» وإنما علق ب«إن» ما سيكون، وكان هذا وعداً مجزوماً به، ولهذا لما قال عمر للنبي ﷺ عام الحديبية: ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف

---

(١) كأنه جعل الجملة طلبية لا إخبارية وهو خطأ شنيع إذ ما معنى قوله بعد ذلك: آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون.

(٢) وكذلك الأمن الذي قيد به الدخول لا شك فيه.

به؟ قال: «بلى، أقلت لك: إنك تأتيه هذا العام؟» قال: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به»[1].

فإن قيل: لم لم يعلق غير هذا من مواعيد القرآن؟

قيل: لأن هذه الآية نزلت بعد مرجع النبي ﷺ من الحديبية، وكانوا قد اعتمروا ذلك العام، واجتهدوا في الدخول، فصدهم المشركون فرجعوا وبهم من الألم ما لا يعلمه إلا الله، فكانوا منتظرين لتحقيق هذا الوعد ذلك العام، إذ كان النبي ﷺ وعدهم وعداً مطلقاً، وقد روي أنه رأى في المنام قائلاً يقول: ﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله﴾ فأصبح فحدث الناس برؤياه، وأمرهم بالخروج إلى العمرة فلم تحصل لهم العمرة ذلك العام، فنزلت هذه الآية واعدة لهم بما وعدهم به الرسول من الأمر الذي كانوا يظنون حصوله ذلك العام، وكان قول: ﴿إن شاء الله﴾ هنا تحقيقاً لدخوله، وأن الله يحقق ذلك لكم، كما يقول الرجل فيما عزم على أن يفعله لا محالة: والله لأفعلن كذا إن شاء الله، لا يقولها لشك في إرادته وعزمه، بل تحقيقاً لعزمه وإرادته، فإنه يخاف إذا لم يقل: إن شاء الله، أن ينقض عزمه، ولا يحصل ما طلبه، كما في «الصحيحين» أن سليمان عليه السلام قال: والله لأطوفن الليلة على مائة امرأة، كل منهن تأتي بفارس يقاتل في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل: إن شاء الله، فلم يقل، فلم تحمل منهن إلا امرأة جاءت بشق رجل، قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل فرساناً أجمعون» فهو إذا قال: إن شاء الله لم يكن في طلبه وإرادته بل لتحقيق الله ذلك له، إذ الأمور لا تحصل إلا بمشيئة الله، فإذا تألى العبد عليه من غير تعليق بمشيئته، لم يحصل مراده، فإنه من تألى على الله يكذبه، ولهذا يروى: لا أتممت لمقدر أمراً[2]،

---

(١) وهذا الحديث دال على سقوط هذه الأقوال جميعاً وأن الآية صريحة في أن ذلك وعد من الله للمؤمنين.

(٢) وقد أبدع شيخ الإسلام في موضوع الاستثناء، فرحمه الله وجزاه عنا خير الجزاء.

وقيل لبعضهم: بماذا عرفت ربك؟ قال: بفسخ العزائم ونقض الهمم، وقد قال تعالى: ﴿ولا تقولنَّ لشيءٍ إني فاعلٌ ذلكَ غداً إلاَّ أن يشاءَ الله﴾ . فإن قوله: لأفعلن فيه معنى الطلب والخبر، وطلبه جازم، وأما كون مطلوبه يقع، فهذا يكون إن شاءه، وطلبه للفعل يجب أن يكون من الله بحوله وقوته، ففي الطلب عليه أن يطلب من الله، وفي الخبر لا يخبر إلا بما علمه الله، فإذا جزم بلا تعليق، كان كالمتألي على الله، فيكذبه الله، فالمسلم في الأمر الذي هو عازم عليه ومريد له وطالب له طلباً لا تردد فيه يقول: إن شاء الله، لتحقيق مطلوبه، وحصول ما أقسم عليه لكونه لا يكون إلا بمشيئة الله، لا لتردد في إرادته، والرب تعالى مريد لإنجاز ما وعدهم به إرادة جازمة لا مثنوية فيها[1]، وما شاء فعل، فإنه سبحانه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ليس كالعبد الذي يريد ما لا يكون، ويكون ما لا يريد.

فقوله سبحانه: ﴿إن شاء الله﴾ تحقيق أن ما وعدتكم به يكون لا محالة بمشيئتي وإرادتي، فإن ما شئت كان وما لم أشأ لم يكن، فكان هذا الاستثناء هنا لقصد التحقيق، لكونهم لم يحصل لهم مطلوبهم الذي وعدوا به ذلك العام، وأما سائر ما وعدوا به، فلم يكن كذلك.

ولهذا تنازع الفقهاء فيمن أراد باستثنائه في اليمين هذا المعنى، وهو التحقيق في استثنائه لا التعليق: هل يكون مستثنياً به، أم تلزمه الكفارة إذا حنث؟ بخلاف من ترددت إرادته فإنه يكون مستثنياً بلا نزاع، والصحيح أنه يكون في الجميع مستثنياً، لعموم المشيئة، ولأن الرجل وإن كانت إرادته للمحلوف به جازمة، فقد علقه بمشيئة الله، فهو يجزم بإرادته له، لا يجزم بحصول مراده، ولا هو أيضاً مريد له بتقدير أن لا يكون، فإن هذا تمييز لا إرادة فهو إنما التزمه إذا شاء الله، فإذا لم يشأه لم يلتزمه بيمينه، ولا حلف أنه يكون وإن كانت إرادته له جازمة، فليس كل ما أريد التزم باليمين فلا كفارة عليه.

---

(١) أي لا تردد.

وقد تبين بما ذكرناه أن قول القائل: إن شاء الله، يكون كمال إرادته في حصول المطلوب[1]، وهو يقولها لتحقيق المطلوب لاستعانته بالله في ذلك، لا لشك في الإرادة، هذا فيما يحلف ويريده، كقوله تعالى: ﴿لتدخلنّ المسجدَ الحرَام﴾ فإنه خبر عما أراد الله كونه وهو عالم بأن سيكون، وقد علقه بقوله: ﴿ان شاء الله﴾ فكذلك ما يخبر به الإنسان عن مستقبل أمره مما هو جازم بإرادته وجازم بوقوعه فيقول فيه: إن شاء الله، لتحقيق وقوعه، لا للشك لا في ارادته ولا في العلم بوقوعه.

ولهذا يذكر الاستثناء عند كمال الرغبة في المعلق، وقوة إرادة الإنسان له، فتبقى خواطر الخوف تعارض الرجاء، فيقول: إن شاء الله، لتحقيق رجائه مع علمه بأن سيكون، كما يسأل الله ويدعوه في الأمر الذي قد علم أنه يكون، كما كان النبي ﷺ يوم بدر قد أخبرهم بمصارع المشركين، ثم هو بعد هذا يدخل إلى العريش يستغيث ربه ويقول: «اللهم أنجز لي ما وعدتني». لأن العلم بما يقدره لا ينافي أن يكون قدره بأسباب، والدعاء من أعظم أسبابه، كذلك رجاء رحمة الله وخوف عذابه من أعظم الأسباب في النجاة من عذابه وحصول رحمته.

والاستثناء بالمشيئة يحصل في الخبر المحض[2]، وفي الخبر الذي معه طلب، فالأول اذا حلف على جملة خبرية لا يقصد به حضاً ولا منعاً، بل تصديقاً أو تكذيباً، كقوله: والله ليكونن كذا إن شاء الله، أو لا يكون كذا، والمستثني قد يكون عالماً بأن هذا يكون، أو لا يكون كما في قوله: ﴿لتدخلن﴾ فإن هذا جواب غير محذوف.

والثاني: ما فيه معنى الطلب، كقوله: والله لأفعلن كذا، أو لا أفعله إن شاء الله، فالصيغة صيغة خبر ضمنها الطلب، ولم يقل: والله اني لمريد هذا ولا عازم

---

(١) يعني أن الاستثناء لا يدل على نقص في الإرادة بل على الشك في حصول المطلوب بها.
(٢) أي الخالي من معنى الطلب.

عليه[1]، بل قال: والله ليكونن، فإن لم يكن فقد حنث لوقوع الأمر بخلاف ما حلف عليه فحنث، فإذا قال: ان شاء الله فإنما حلف عليه بتقدير: أن يشاء الله، لا مطلقاً.

ولهذا ذهب كثير من الفقهاء إلى أنه متى لم يوجد المحلوف عليه، حنث أو متى وجد المحلوف عليه أنه لا يفعله، حنث، سواء كان ناسياً أو مخطئاً أو جاهلاً، فإنهم لحظوا أن هذا في معنى الخبر، فإذا وجد بخلاف مخبره فقد حنث، وقال الآخرون: بل هذا مقصوده الحض والمنع كالأمر والنهي، ومتى نهي الإنسان عن شيء، ففعله ناسياً أو مخطئاً لم يكن مخالفاً، فكذلك هذا.

قال الأولون: فقد يكون في معنى التصديق والتكذيب، كقوله: والله ليقعن المطر، أو لا يقع، وهذا خبر محض، ليس فيه حض ولا منع، ولو حلف على اعتقاده، فكان الأمر بخلاف ما حلف عليه، حنث، وبهذا يظهر الفرق بين الحلف على الماضي، والحلف على المستقبل، فان اليمين على الماضي عير منعقدة، فاذا أخطأ فيها لم يلزمه كفارة، كالغموس، بخلاف المستقبل، وليس عليه أن يستثني في المستقبل إذا كان فعله، قال تعالى: ﴿زعم الَّذينَ كفروا أنْ لنْ يبعثوا. قل بلى وربي لتبعثنَّ ثم لتنبؤنَّ بما عملتم وذلك على الله يسير﴾[2] فأمره أن يقسم على ما سيكون، وكذلك قوله: ﴿وقال الَّذينَ كفروا لا تأتينا الساعة قلْ بلى وربي لتأتينكم﴾[3] كما أمره أن يقسم على الحاضر في قوله: ﴿ويستنبئونك أحق هو؟ قل إي وربي إنه لحق﴾[4] وقد قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً»، وقال: «والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيما

---

(١) لأنه لا يقصد الإخبار عن عزمه وإرادته.

(٢) سورة التغابن الآية ٧. (٣) سورة سبأ الآية ٣.

(٤) سورة يونس الآية ٥٣.

قتل ولا المقتول فيما قتل» وقال: «إذا هلك كسرى أو ليهلكن كسرى، ثم لا يكون كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله» وكلاهما في «الصحيح».

فأقسم صلوات الله وسلامه عليه على المستقبل في مواضع كثيرة بلا استثناء، والله سبحانه وتعالى أعلم.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرست

الموضوع	الصفحة